

دعوة إلى
المرجمين والكتاب والباحثين

ترحب هيئة تحرير مجلة «جسور ثقافية» بإسهامات المترجمين والكتاب والباحثين في مسائل الترجمة وميادين المعرفة الإنسانية وتامل أن يراعوا الشروط الآتية في موادهم:

- أن تكون الإسهامات الإبداعية مترجمة من لغاتها الأصلية إلا في حالة اللغات التي يتعذر نقلها مباشرة مثل الصينية واليابانية والكورية والهندية وأمثالها.

- أن تكون إسهاماتهم موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب الآتي:

اسم المؤلف - عنوان الكتاب - دار النشر والتاريخ - رقم الصفحة - اسم المترجم.

- تأمل هيئة تحرير المجلة من الكتاب أن يرفقوا إسهاماتهم بتعريف موجز لهم.

- وتأمل أيضاً أن تردها الإسهامات منضدة على الحاسوب ومراجعة من كاتبها، وألا تكون منشورة ورقياً أو إلكترونياً سابقاً.

- تلتزم هيئة التحرير بإعلام الكتاب عن قبول إسهاماتهم خلال شهر من تاريخ تسلمها، ولا تعاد إلى أصحابها في حال عدم قبولها.

يرجى توجيه المراسلات إلى المجلة على العنوان الآتي:

الجمهورية العربية السورية، دمشق، الروضة، الهيئة العامة السورية للكتاب

رئيس تحرير مجلة جسور ثقافية

أو على البريد الإلكتروني
jousssour@gmail.com

المواد المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة والهيئة العامة السورية للكتاب، وترتيبها يخضع لاعتبارات فنية.

رئيس مجلس الإدارة

وزيرة الثقافة
الدكتورة ليان مشوح

المدير المسؤول

المدير العام للهيئة العامة السورية للكتاب
د. نايف الياسين

رئيس التحرير

حسام الدين خضور

مديرة التحرير

ابقلين محمود

أمانة التحرير

ليليان الورعة

هيئة التحرير

د. ثائر زين الدين

د. بامل المسألة

د. حسين سديق

عبد الكريم ناصيف

عباد عيد

د. معين رومية

د. هنادي الياضي

الإخراج الفني

عبد العزيز محمد

التدقيق اللغوي

ندير جعفر

الإشراف الطباعي

أسن الحسن

المحتوى :

5	مُفتَّح الجسور : آثارنا تدلّ علينا... الدكتورة لبانة مشوح، وزيرة الثقافة
7	أول الجسور : الترجمة والبيئة ، حسام الدين خضور، رئيس التحرير
9	بطاقة فنان : ماندي مارتين Mandy Martin
13	بطاقة العدد : من أجمل ما كتب الشاعر التشيلي بابلو نيرودا، إعداد وتقديم : فاطمة داود
جسور الفكر : دراسات الترجمة	
17	سمكة في أذنك: التاريخ القصير للترجمة الفورية، تأليف: ديفيد بيلوس، ترجمة: د. نايف الياسين
27	المترجم وحماية حقوق الترجمة، تأليف: عماد موعد
35	مترجم الحرب: احتياجات الترجمة وتحدياتها في مناطق النزاع، تأليف: يولاندا مورينو بيلو، ترجمة: د. باسل المسالمة
43	تراث الترجمة الألماني، تأليف: هارالد كيتل و أندرياس بولترمان، ترجمة: عدنان حسن
59	عبد الكريم ناصيف: «أمل أن تُقدّم أعمالنا إلى القارئ العالمي بلغاته الأم...»، حوار: سلوى صالح
شخصية العدد	
73	نادين غورديمر Nadine Gordimer
77	مقابلة مع الكاتبة نادين غورديمر، حوار: سيمون ستانفورد، ترجمة: حسام الدين خضور
87	كان ياماكان، تأليف: نادين غورديمر، ترجمة: د. مدى الصالح
93	الفنان الأبيض ممثلاً في رواية رياضة الطبيعة، تأليف: باربرا تامبل ثورستون، ترجمة: د. عدنان عزوز
101	مقارنة بين أوجه عدم المساواة لدى نظام الفصل العنصري، تأليف: علي إيريتوني، ترجمة: وطفة العسافين
119	وطنية بقلب من ذهب، تأليف: داريل أكون ومونجاني، ترجمة: لين المهائني
جسور الثقافة (الملف البيئي) : إعداد د. معين رومية	
125	ما علم البيئة السياسي؟، تأليف: ت.أ. بنجامنسن وهان سفارستاد، ترجمة: د. محمد عرب صاصيلا
137	الإيكولوجيا العميقة، تأليف: بيل دوفال وجورج سيشنز، ترجمة: د. معين رومية
143	تاريخ الأخلاقيات البيئية، تأليف: جيسن كاوال، ترجمة د. وفاء دقماق

155	مسرد مصطلحات في الفلسفة البيئية، تأليف: ديفيد لانديس بارنهيل ، ترجمة : رزان يوسف سلمان
163	هل يمكن للأيكولوجيا أن تكون شعبية؟، تأليف: آن لوسترا، ترجمة: فرح تلجة
169	الطبيعة والآخر، ترجمة: علي عيسى داود
179	مسرح البيئة المحيطة، تأليف: د. ميسون علي
جسور الإبداع	
القصة:	
187	بولزونكوف، تأليف: فيودور دوستويفسكي، ترجمة: د. ثائرزين الدين
199	ساكن النجوم، تأليف: فيتالي مالكوف، ترجمة: عياد عيد
219	العودة، تأليف: نديم غورسيل، ترجمة: أحمد سليمان الإبراهيم
223	توت بري، تأليف: هالينا دوراج، ترجمة: تانيا حريب
الشعر:	
233	مختارات شعرية، تأليف: ريمي دو جورمون، ترجمة: سهيل أبو فخر
239	مختارات شعرية، تأليف: ماري أوليفر، ترجمة: ثراء الرومي
جسور الألفة	
249	قراءة في كتاب نظرية السكان لتوماس مالتوس، ناظم مهنا
257	قراءة في كتاب الربيع الصامت، لبيبة صالح
267	آني إرنو: راوية السيرة الذاتية النسوية والطبقية، د. وائل بركات
277	إصدارات عالمية في دراسات الترجمة، إعداد وتقديم: مدير التحرير
279	آخر الجسور: قانون البيئة السوري



martin-mandy-pink-break-1984-aware-women-artists-artistes-femmes



الدكتورة لبانة مشوح
وزيرة الثقافة

آثارنا تدكّ علينا

الترجمة نشاط إنساني مميز يحتل مكان الصدارة في المجتمعات الإنسانية على اختلاف تقدمها الحضاري والعلمي والتقني، وهي تقع من عملية التواصل الاجتماعي موقعا لا يمكن إغفال أهميته ولا التقليل من شأنه.

للترجمة التحريرية تاريخ طويل يكاد يواكب تاريخ تحوّل اللغة من المنطوق إلى المكتوب. نشأت الترجمة منذ اللحظة التي أقامت فيها الأمم الناطقة بألسن مختلفة علاقات فرضتها حركة الحياة وأملاها تطور المجتمعات الإنسانية، فكان لا بد لها من إيجاد سبل تسهّل تواصلها فيما بينها، فكانت الترجمة... وكان المترجمون.

يرى مؤرخو الترجمة أنّ آثارها ظهرت على شكل نصوص ثنائية اللغة مدوّنة بالكتابة المسمارية على قبور الفراعنة وتعود إلى الألف الثالث ق.م، وتحديدًا بين 2700 - 2200 ق.م. ولعلّ من أشهر النصوص المترجمة نص يمجّد بطولات بطليموس الخامس، ثلاثي اللغة منقوش على نصب من الحجر البازلتي اكتُشف في القرن الثامن عشر ويعود إلى العام 196 ق.م. كُتب عليه باللغات الهيروغليفية واليونانية والديموطيّة المتطورة عن المصرية المتأخّرة.

ومن جهة أخرى، تؤكد المكتشفات الأثرية أن الترجمة كانت مزدهرة في مملكة إيبلا السورية التي تعود إلى منتصف الألف الثالث ق.م. وتبعد عن حلب نحو 55 كم.

ازدهار الترجمة فيها واكب دون شك ازدهار التجارة التي تجاوزت بكثير مناطق حكم المملكة، فعدت مركز تلاقٍ حضاري في العالم القديم، وكان لا بد لأهلها من التواصل والتفاهم مع الشعوب والأقوام الأخرى.

من بين نحو سبعة عشر ألف رقيم مكتشف في مملكة إيبلا، وقع علماء الآثار واللغات القديمة على معاجم ثنائية اللغة سومرية - إيبلاوية تحتوي على ما يزيد عن 114 مفردة، إضافة إلى 1000 مفردة مترجمة تبين أنها من وضع مترجمين نسخوا الألواح السومرية.

الترجمة واكبت الحضارات البشرية وتطوّرت بتطورها، ولا تزال تبهرنا بإنجازاتها وما تبنّيه من جسور معرفية وجمالية بين الشعوب. □



حسام الدين خضور
رئيس التحرير

الترجمة والبيئة

ربما لولا الترجمة لما عرفنا أن ثمة مشكلات بيئية، على المستوى الوطني، وأن هذه المشكلات تفاقمت إلى درجة أنها تهدد حياة البشر واستقرارهم محلياً وإقليمياً وعالمياً. والدليل أننا أنشأنا مشاريع حيوية ذات طابع اقتصادي وخدمي لم نُعِرْ اهتماماً إلى العامل البيئي عند إنشائها، وهي حديثة العهد وتشكل مشكلة بيئية للمدن التي بنيت فيها - مصفاة حمص قديمة، لكن مصفاة بانياس ومعمل اسمنت طرطوس ومرقأ اللاذقية حديثة عهد نسبياً.

ليس هذا موضوع الكلمة التي تحاول أن تقول إن الترجمة فتحت الباب على أن ثمة ما يسمى بيئة وأن هذه البيئة تعاني مشكلات من فعل البشر، وأن الوعي البيئي مطلوب للعمل عليها لضمان حياة أفضل لنا.

البيئة في لغتنا العربية الجميلة تعني البيت، وهذا دليل أيضاً على عبقرية لغتنا التي تدعونا بالمعاني التي تقدمها كلماتها إلى التعامل مع ما يحيط بنا كأنه بيتنا؛ لكن معظمنا ما إن يخرج من منزله حتى ينسى أن العالم خارج منزله الشخصي امتداد له، وعليه أن يهتم به كأنه بيته. ربما الفارق بين البيت الشخصي وهذا البيت أن ملكية البيت البيئي مشتركة.. ولأسباب كثيرة، ليست موضوع هذه الكلمة أيضاً، لا يهتم معظمنا بالملكية المشتركة، وربما تعامل معها بطريقة عدائية والشواهد على ذلك كثيرة.

ربما بسبب تفاقم مشكلات البيئة في العالم الصناعي ارتفعت الأصوات ونشأت حركات وأحزاب وعقدت مؤتمرات دولية في البرازيل وطوكيو وباريس وشرم الشيخ لمعالجة تلك المشكلات بجهد دولي

منسق ومكتف؛ لكن العالم الصناعي غير المخلص إلا لاستمرار هيمنته تناسى المسألة البيئية عند أول امتحان - حرب أوكرانيا التي تهدد العالم بكارثة نووية.

البيئة، بمعنى المكان، جزء أساس من أي عمل أدبي. وهو جزء فاعل في النص، وغالباً ما يكون مصدر متعة جمالية (يستوي هنا الحسن والقبح). لم يعانِ المكان في الأدب حتى عقود ليست كثيرة من أزمة، ولم يشك من مشكلات تشكل خطراً على ساكنيه. أما الآن فالأمر مختلف.

طبيعي أن يكون الأدب في العالم الصناعي سباقاً إلى طرح مشكلات البيئة لأنها، ببساطة، نشأت في بلدانه. فثمة الآن أدب بيئي ونقد بيئي وأبحاث مكرّسة لهذا الهم العام في الغرب والشرق الصناعيين. ونشأ أيضاً تخصص فرعي، يُعنى بترجمة ما يصدر بخصوص البيئة أدباً ودراسات ووثائق، أخذ تسمية الترجمة البيئية، التي تتطلب من المترجم مخزوناً من الوعي البيئي، والخبرة في الكتابة عن قضايا البيئة المعقدة بلغة الشخص العادي.

وينعكس تنوع مشكلات البيئة وتعدد مستوياتها على الترجمة البيئية، فبعضها يقتضي معرفة لغة الشركات وطبيعة عملها، وبعضها يستلزم معرفة متقدمة بمفردات العلوم الطبيعية لا سيما الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا بلغتي المصدر والهدف؛ لكنها جميعاً تتطلب معرفة شاملة بالجمهور المستهدف.

لقد عملت وزارة الثقافة عبر الهيئة العامة السورية للكتاب على فتح الباب إلى هذه المشكلة العالمية بترجمة مجموعة من الكتب التي تسلط الضوء على مشكلات البيئة، نذكر منها: الربيع الصامت. وعدد جسور ثقافية هذا مساهمة نوعية في هذا المضمار.

لا بد أن تجد الحرب الراهنة نهاية لها، وتعود مشكلات البيئة لتأخذ مكانها في المحافل الدولية، وتزداد أهمية الترجمة البيئية لأن مخاطر البيئة أشد خطراً على الناس من الحروب إلا النووية التي إذا نشبت فقد تضع نهاية لنا، ونلقى مصير الديناصورات التي هيمنت على الأرض رداً من الزمن أيضاً. □



فنان العدد ماندي هارت



Windswept Paintings Mandy Martin SAACHI Art

بطاقة الفنان:

ماندي مارتن Mandy Martin

(18 تشرين الثاني 1952 – 10 تموز 2021)

ماندي مارتن رسّامة أسترالية تخرّجت من مدرسة جنوب أستراليا للفنون عام 1975، حيث درّست أيضاً؛ وهي رسامة تشخيصية (figurative painter) متأثرة بجذورها الأسترالية واحترام الطبيعة. مارست النقش في البداية وأبدعت ملصقات تتناول موضوعات سياسية تصور إحداهن نساء فيتكونغ (Vietcong) وهنّ يتظاهرن أمام زجاجة كوكا كولا عملاقة، وقد نُشرت في مجلة هيريسيس *Heresies* النسوية في نيويورك عام 1977.

اكتسبت شهرة كبيرة في أواخر السبعينيات من القرن الماضي من خلال المساهمة في الأفكار المتداولة المرتبطة بالحركة الفنية التقدمية وحركة الفن النسائي. عاودت مارتن بعد انتقالها إلى كانبيرا عام 1978 الرسم بمشاهد حضرية وصناعية مستوحاة من ضواحي كانبيرا وسيدني، ومثلت المباني المعزولة بالنسبة لها العزلة الفردية، لا سيما عزلة النساء المهاجرات. عُرضت هذه اللوحات القاسية كبيرة الحجم ذات اللمسة التعبيرية للمرة الأولى في ملبورن عام 1981، وهي تسلط الضوء على القوة الساحقة لعالم الآلات والتباين بين الطبيعة والحضارة، كما يظهر في سلسلة لوحات (Powerhouses) عام 1983. درست مارتن في الفترة نفسها المناظر الطبيعية الإنكليزية الرومانسية في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر.

في التسعينيات، تخلت مارتن عن المشاهد الصناعية من أجل رسم الصحراء الأسترالية بمشاهد بانورامية. سافرت إلى جنوب غرب كوينزلاند في أستراليا عام 1997، ثم إلى إيطاليا، حيث اتبعت خطا الرسّام سالفاتور روزا (Salvatore Rosa).

اتخذ البعد الاجتماعي والسياسي للوحاتها منعطفاً أسطورياً وبيئياً في لوحات كبيرة الحجم. حيث استخدمت الفن الذي ابتكرته كجزء من النقاش المستمر حول تغير المناخ، ونظمت ورش عمل فنية بيئية في المناطق النائية بالتعاون مع السكان الأصليين الأستراليين. أعمالها حاضرة في مجموعات فنية مختلفة. □



Briquette-Factory-Site-scaled



من أجمل ما كتب الشاعر التشيلي بابلو نيرودا

إعداد وتقديم:
فاطمة داود

حاز جائزة نوبل للآداب عام 1971، تختصر هذه الكلمات تجربة حياته الزاخرة ووجوده الإنساني...

يموت بيطء
من لا يسافر...
من لا يقرأ...
من لا يسمع الموسيقى...
من لا يجيد الاهتداء بعينيه...
يموت بيطء
من يصير عبداً للعادة...
من يستعمل كل يوم نفس الطريق...

من لا يغير أبدأً عاداته...
من لا يُجازف بتغيير لون ملبسه...
أو من لا يتحدث إلى مجهول...
يموت ببطء...
من يتجنب الهوى...
وزوبعة المشاعر...
تلك التي تعيد البريق للعيون...
يموت ببطء...
من لا يغير وجهته حين يحس الفتور في العمل أو الحب...
من لا يركب المخاطر ليحقق الأحلام...
من لم يحاول مرّة في حياته التمرد على النصائح...
عش حياتك الآن...
جازف اليوم...
تصرّف بسرعة...
تقاد الموت البطيء...
لا تحرم نفسك من السعادة... ■



جسور الفكر



Climate and Culture in Australia – Centre for Environmental History



ديفيد بيلوس

- ترجمة: د. نايف الياسين

سمكة في أذنك: (1)

التاريخ القصير للترجمة الفورية

ديفيد بيلوس (David Bellos): ولد عام 1945 في المملكة المتحدة. كان مديراً لبرنامج

برينستون للترجمة والتواصل بين الثقافات من عام 2007 حتى 2019.

الكلام يسبق الكتابة بعصور، والترجمة الشفوية أقدم بكثير كثير من الترجمة الكتابية. لكن لأن الكلام شيء زائل، إذ إنه يتبدد حرفياً في نفخة من الهواء الدافئ، الذي يكون ماهيته بالمعنى المادي للكلمة، ليس هناك الكثير مما تمكن معرفته مباشرة حول ترجمة الكلام المنطوق على مدى تاريخ الترجمة برمته تقريباً. لكن ثمة أمرين أحدثا تغييراً هائلاً في القرن العشرين، وهما اختراع الهاتف من ألكساندر غريهام بل في عام 1876، وظهور حاجة سياسية ذات طبيعة ملحة.

شكلت محاكمات نورمبرغ لمجرمي الحرب النازيين في عام 1945 واحدة من أهم المحاكمات في التاريخ الحديث، ومثلت في الوقت نفسه حدثاً غير مسبوق في تاريخ الترجمة. فقد كانت هيئة القضاة وفُرق الأدعاء العام من أربع من قوى الحلفاء – الولايات المتحدة، وبريطانيا العظمى، وفرنسا، والاتحاد السوفييتي – تتحدث ثلاث لغات مختلفة، وكان المدعى عليهم يتحدثون لغة رابعة هي الألمانية. لم يكن

- مترجم وأستاذ الأدب الإنجليزي في جامعة دمشق.

(1) هذا العنوان الغريب (هو عنوان الكتاب الذي يشكل هذا النص أحد فصوله: *Is That a Fish in Your Ear: Translation and the Meaning of Everything by David Bellos*)، الفصل 24، ص. 143-137، مأخوذ من فكرة المترجم الشامل في رواية دوغلاس آدمز دليل المسافر إلى المجرة: «ضع سمكة بابل في أذنك وستتمكن من التواصل الفوري بأي لغة.» (المترجم)

شيء كهذا قد حدث على الإطلاق. ففي المحاكم الواقعة ضمن التوحيص الوطني، يقرأ المترجمون عادة بالتتابع، ويكرّرون بلغة المحكمة ما يقوله المدعى عليه الأجنبي، ومن ثم يكرّرون ما تقوله المحكمة للمدعى عليه (عندما لا تتم مخاطبة المدعى عليه مباشرة، يمكن القيام بذلك بصوت منخفض، أو ما يسمى «الترجمة همساً»). من الواضح أن هذه الطريقة الاعتيادية في الترجمة الشفوية تُبطئ مجريات المحاكمة. أما في حالة الترجمة إلى أربع لغات، وفي اثني عشر اتجاهًا فإن استخدام الترجمة التتابعية كان سيّطيل النظر في القضية في المحكمة العسكرية الدولية بحيث يفقد الجميع القدرة على فهم ما يجري. وبالتالي كان لا بد من القيام بشيء جديد لتلبية احتياجات محاكمات نورمبيرغ.

كانت التكنولوجيا المصمّمة لتسريع التفاعل متعدد اللغات موجودة أصلاً. إذ كان قد تم تجريب المترجم الشفوي فيلين - فينليه (Filene-Finlay) بضع مرات في عشرينيات القرن العشرين من منظمة العمل الدولية في جنيف. كان لدى مستخدمي النظام جهاز هاتف أمهم، وعندما لا يستطيع أحد أعضاء الوفود فهم ما يقال كان يرفع السماع، ويدير القرص للاتصال بالمقسم، ويسمع ما يقال بلغة مختلفة (وكانت لغتان فقط هما الفرنسية والإنكليزية تستخدمان حينذاك). وكان المترجمون يجلسون في الخلف يصغون إلى ما يقال وينطقون بترجمتهم في كيبنة مصنّعة من مواد عازلة ترتبط مباشرة بمقسم الهاتف. كما استخدم المترجم اللفظي في الأصل في عام 1934 لترجمة خطاب أدولف هتلر في تجمع للحزب النازي في نورمبيرغ ليُبيّن مباشرة على الإذاعة الفرنسية.⁽²⁾

صُمم المترجم اللفظي وروّج له ليس لتحقيق تفاعل سريع باتجاهين وبلغات متعددة بل لخطابات تُقرأ بصوت عالٍ من نص مكتوب مُعدّ سلفاً - ما يسميه الألمان «لغة الكلام المحكي» (gesprochene Sprechsprache)، وهو النوع المعياري للسياسيين والشخصيات العامة في سائر أنحاء العالم. حصلت شركة أي. بي. إم (IBM) على جهاز فيلين - فينليه في ثلاثينيات القرن العشرين، وقدمت الشركة مجموعة كاملة من المعدات المستعملة جزئياً لكن التي تمّ تعزيزها بشكل كبير مجاناً من أجل تقديمها إلى المحكمة العسكرية الدولية في نورمبيرغ. وتبيّن أن هذا الفعل الكريم قد شكّل حدثاً دسّ حقبلة جديدة في الطريقة التي نفهم فيها الآن إمكانية التواصل الدولي.

زوّد أفراد المحكمة، بما في ذلك المدعى عليهم، بسماعات ومايكروفونات، امتدت منها الأسلاك على أرض غرفة المحكمة إلى مقسم الهاتف. كما امتدت الأسلاك من المقسم إلى أربع فرق ترجمة منفصلة في كبائن مختلفة. وتطلّب ذلك تمديدات أسلاك معقدة، لكن السحر الحقيقي كان ما يحدث في كبائن المترجمين. كان أمام أفراد المحكمة أزرار تحويل لاختيار قناة اللغة التي يرغبون بالاستماع إليها. وكانت المخرجات اللفظية تُتّج من أربع فرق يتكون كل منها من ثلاثة مترجمين. وكان لدى الفريق الإنكليزي مترجم ألماني، ومترجم روسي، ومترجم فرنسي يجلسون جنباً إلى جنب، ويستمعون عبر السماعات، ويكرّرون بالإنكليزية ما كان يقال بلغات أخرى. وكان الترتيب هو نفسه في الكبائن الثلاث الأخرى. تم اختيار ستة

2) Martine Behr and Maïke Corpataux, Die Nürnberger Prozesse: Zur Bedeutung der Dolmetscher für die Prozesse and der Prozesse für die Dolmetscher (Munich: Meidenbauer, 2006), 25-30.

وثلاثين مترجماً من بين 300 لغوي محترف استقدمتهم المحكمة وفرق الادعاء والدفاع للعمل في هذه المهمة الجديدة تماماً التي لم يكن من الواضح أن بالإمكان إدارتها، والمتمثلة في الترجمة الشفوية الفورية. كان كل فريق يتكون من 12 عضواً يعمل لمدة 85 دقيقة على مدى يومين من أصل ثلاثة، وكان من المتوقع أن يستريحوا فيما بين تلك الفترات. ومنذ بداية هذه المهنة الجديدة، ساد إقرار بأن الترجمة الفورية واحدة من أكثر المهن المستنزفة التي يمكن للدماغ البشري القيام بها.

ولا تتمثل الصعوبة في نقل اللغة بسرعة كبيرة فحسب. فثمة صعوبة تتمثل في أن سماع صوتك يقلص قدرتك على سماع ما يقوله الشخص الآخر. ولهذا السبب فإننا، في الأحوال العادية، نتحدث كلاً بدوره ولا نتحدث في الوقت الذي يتحدث فيه الشخص الآخر إلا عندما لا نرغب فعلياً في سماع ما يقوله. ولذلك، ينبغي على المترجم الفوري أن يتعلم التغلب على الميل الطبيعي إلى عدم الإصغاء عند التكلم، وعدم التكلم عن الإصغاء. وبالتالي فإن الترجمة الفورية موجودة فقط بسبب وجود بعض الأشخاص الذين يتمتعون بمهارة رفيعة جداً ويستطيعون تدريب أنفسهم للقيام بهذا الفعل غير الطبيعي. حاول القيام بذلك بنفسك: استمع إلى أخبار التلفزيون وكرّر بالصوت الذي تتحدث به عادة تماماً ما يقوله المذيع. إذا تمكنت من فعل ذلك دون أن تفقد جملة واحدة لمدة عشر دقائق أو أكثر، يمكنك أن تكون مترجماً فورياً – شريطة أن تعرف لغتين أخريين بشكل جيد جداً. ثمة ملايين الأشخاص الذين يعرفون ثلاث لغات بدرجة كافية ليكونوا مترجمين فوريين، لكن عدداً قليلاً منهم فقط يستطيع القيام بهذه الحيلة المستنزفة للقوى والمتمثلة في تقسيم الانتباه بين ما يقوله وما يسمعه – دون أن يفقد كلمة واحدة.

ويتمثل الجزء الأكثر صعوبة في عملية النقل السريع للغة في أن السياسيين والدبلوماسيين لا يستخدمون عادة جملًا بسيطة دون عبارات اعتراضية، ولا يتركون فجوات طويلة بينها. بل إنهم ينزعون إلى التحدث دون انقطاع وفي حلقات التفاضية مراوغة مثل: «طلب إليّ سفيرى أن أبلغ هذا المجلس المقرر بأنه وعلى عكس الشائعات التي نقلتها إحدى المنابر الصحفية الرأسمالية، لم يقم أي وكيل مخوّل من الدولة، وهو يعلم ذلك، بتصدير أي مواد تخضع للاتفاقية الدولية بشأن... إلى أي دولة أخرى.» للأسف، ليس هناك اتفاقية تتعلق بمنع تصدير الجمل الطويلة الملتفة، وبالتالي يترتب على المترجمين الشروع في إعادة صياغة جمل من هذا النوع دون أن يعرفوا على وجه الدقة إلى أين ستمضي، وما الهدف الحقيقي منها، أو ماهية التعديل على بداية الجملة الذي سترتبه نهايتها. وبالتالي، ثمة حاجة لمهارات عقلية بالغة التعقيد من أجل «الإسك» بسمات المعنى في صياغات دائمة التغيير إلى أن يتم إخراج الموضوع الحقيقي للجملة من جراب المتحدث الساحر أخيراً، فالمترجم الذي يترتب عليه إصلاح جملة بعد أن يكون قد بدأها (كما نفع جميعاً في الحديث الطبيعي) يخسر وقتاً ثميناً. أما القدرة على وضع الصياغة المناسبة خلال جزء من الثانية والإبقاء على الجملة بحالة مفتوحة بما يكفي للتكيف مع ما قد يطرأ لاحقاً فيتم اكتسابها بالخبرة والممارسة – بالإضافة إلى قدرة متطورة على نحو غير عادي في العثور على مقابلات فورية بين تراكيب جمل متباعدة قواعدياً وأسلوبياً.

معظم الأشخاص الذين شاركوا في التحضيرات لمحاكمات نورمبيرغ كانوا يشكّون في أن هذا الترتيب الجديد سينجح. إذ كان أحد أهم المتشككين بين هؤلاء، ريتشارد سوننفيلدت (Richard Sonnenfeldt)،

رئيس قسم الترجمة لدى فريق الادعاء الأميركي، قد تم استخدامه من مرآب للسيارات في سانزبورغ من الجنرال «بل المتوحش» (Wild Bill) دونوفان ليعمل مترجماً في التحقيقات الطويلة مع المدعى عليهم قبل المحاكمات. وكان قد حقق مع كبار الضباط النازيين نيابة عن كبار الجنرالات الأميركيين وطلب منه أن يتولى إدارة فريق الترجمة الفورية خلال المحاكمات. لكن سوننفيلدت اعتذر عن عدم قبول الوظيفة لأنه لم يكن يثق بقدرته على تلبية متطلبات السرعة، وأيضاً بسبب افتقاره إلى معرفة المصطلحات القانونية. لكن السبب الحقيقي وراء إحجامه عن إدارة أول خدمة ترجمة فورية في العالم تمثلت في رأيه المهني في أن الانهيار سيكون المصير المحتوم إما للأشخاص العاملين أو لنظام العمل، أو لكليهما معاً.⁽³⁾

وكان محقاً بشأن التعقيدات التقنية؛ إذ تعطلت المايكروفونات والسماعات؛ وتحدث المحامون والشهود (بمن فيهم المدعى العام الأميركي، روبرت هـ. جاكسون) بسرعة أكبر مما ينبغي؛ وفي أكثر من مناسبة انفجر المترجم بالبكاء عند سماع إفادة رودولف هاس (Rudolf Höss)، القائد ذو الدم البارد إلى حد التجمد لمعسكر أوشفيتز. لكن، وعلى الرغم من العقبات، نجح النظام في العمل. ويقال إن هيرمان غورينغ⁽⁴⁾ قال لستيفان هيرن، أحد مترجمي المحكمة: «نظامكم كفؤ جداً، لكنه سيجعل حياتي أقصر!»⁽⁵⁾ أطلق نظام الترجمة الفورية الذي دُشن في محاكمات نورمبيرغ حقبة جديدة في الاتصالات الدولية. ولم تسهم إنجازات المترجمين في خلق مهارة جديدة ومهنة جديدة وحسب بل كان لها أثر فوري وبعيد المدى على الشؤون العالمية. أولاً، أرادت كل وكالة دولية جديدة الحصول على نظام ترجمة فورية في الحال واعتقدت أنه يمكن شراؤه مباشرة من المحال التجارية. في شباط/فبراير 1946، عندما كان نظام الترجمة الشفوية في نورمبيرغ بالكاد يستعمل لأول مرة، تبنت أول جمعية عامة لمنظمة الأمم المتحدة حديثة الولادة في قرارها الثاني ما يلي: «تترجم الخطب التي تلقى بأي من اللغات الست في مجلس الأمن فوراً إلى اللغات الخمس الأخرى.»⁽⁶⁾ ومباشرة بعد ذلك حصلت جميع الوكالات التابعة للأمم المتحدة - من منظمة العمل الدولية ومنظمة الأغذية والزراعة إلى اليونسكو، وكذلك البنك الدولي - على المعدات، وسعت لتوظيف المختصين لتحقيق الوهم السحري بأنه يمكن لكل موفد أن يفهم دائماً ما يقوله أي موفد آخر في لحظة تفوهه بما يقول.

دفع هذا غير العاملين في هذه المهنة إلى أن يسلموا بأن تنوع اللغات لم يعد عائقاً أمام العمل الدولي الجماعي وتحقيق الانسجام العالمي. أما العاملون في تلك المنظمات، من دبلوماسيين ومفاوضين في المنظمات الجديدة جميعها التي أنشأتها الأمم المتحدة، فلم يساورهم مثل ذلك الوهم. فكما يشير أحد طلاب القانون الدولي، قد تكون النصوص والخطط المقدمة بشكل متعدد اللغات وبسرعة كبيرة صحيحة قواعدياً، لكنها ليست متماسكة تماماً. كما أن الانحرافات الصغيرة التي تحدث، والتي تتجادل حولها

3) Richard W. Sonnenfeldt, *Witness to Nuremberg* (New York: Arcade, 2006), 51.

4) كان هيرمان فيلهلم غورينغ سياسياً وقائداً عسكرياً وأحد أقوى شخصيات الحزب النازي الألماني، وأدين كعجرب حرب. (المترجم)

5) Francesca Gaiba, *The Origins of Simultaneous Interpretation: The Nuremberg Trial* (Ottawa: University of Ottawa Press, 1998), 110.

6) القواعد المؤقتة لإجراءات مجلس الأمن (1946)، القاعدة 42.

الوفود لساعات وساعات، «تكتف الوعي الجمعي بأهمية الترجمة.»⁽⁷⁾ لكن السنوات الأولى في مهنة الترجمة الفورية كانت أيضاً سنوات يسودها أمل كبير بنشوء نظام عالمي جديد محكوم «بالحوار» بدلاً من العقود السابقة الحافلة «بالحروب.»⁽⁸⁾ وفي تلك الظروف، نسي الجمهور العام الإنجاز الغامض والهش الذي حققته مجموعة صغيرة جداً من البهلوانات اللغوية في الكبائن الزجاجية القابعة في الجزء الخلفي من قاعات الاجتماعات.

أما لماذا تُعدُّ الخاصية الفورية في الترجمة وهماً فلا يكاد يحتاج إلى شرح. إذ إنك لا تستطيع أن تترجم أي شيء قبل أن تستمع إليه؛ فالترجمة تكون دائماً «التحدث بعد.» أما انطباع الفورية فتحدثه جملة من الحيل اللغوية البارعة. أولاً، تتم قراءة الكثير من الخطب من نص معد مسبقاً. وفي بعض الأحيان يعطي الدبلوماسيون النص لفرق الترجمة مقدماً قبل الاجتماع – في كثير من الأحيان قبل الاجتماع مباشرة، لكن مجرد منح المترجمين بضع دقائق في البداية يزيل كثيراً من الإجهاد النفسي. ثانياً، تهيمن على الاجتماعات الدولية خطب من نوع يمكن التنبؤ به بشكل كبير. فحالما يصبح لديك الخبرة بنوع العمل الذي سيتم القيام به وبالصيغات اللغوية المستخدمة، تستطيع أن تستبق ما يقال فعلياً وتعطي نفسك مساحة ذهنية للإصغاء للتنوعات المهمة جداً التي يمكن أن يتفوه بها المتحدث. كما أن آليات التلخيص وتغيير اتجاه الحديث تستخدم أيضاً في ترجمة الاستطرادات التي لا تخضع لصياغة محددة، مثل: «لقد روى الوفد السوفييتي نكتة للتو» يمكن أن تحل محل رواية حكاية روسية طويلة مملة. لكن على الرغم من ذلك، فإن مهارة «مترجم المؤتمرات» (وهو المصطلح الذي حل محل المترجم اللفظي، والمترجم الفوري، والمترجم الشفوي) تتطلب مستويات عليا من التركيز والمرونة الذهنية. وهناك عدد قليل جداً من الناس الذين يستطيعون فعل ذلك على الإطلاق، وعدد أقل فعلياً ممن يرغبون بفعل ذلك بشكل يومي.

إن ستين عاماً من الخبرة والتجربة لم تجعل التنبؤ بما إذا كان شخص ما يمكن أن يتحول إلى مترجم مؤتمرات أسهل من قبل أو لا. حتى الآن، يفشل نصف إلى ثلاثة أرباع الطلاب جميعهم الذين يُقبَلون في مسابقات تدريب المترجمين الفوريين في دخول عالم المهنة.⁽⁹⁾ في البداية، وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية، كان التاريخ الكارثي للقرن العشرين قد أنتج عدة آلاف من الأشخاص الذين يتمتعون بمهارات لغوية متميزة في عدد من اللغات الدولية الرسمية الست (الإسبانية، والإنكليزية، والفرنسية، والصينية، والروسية، والعربية) – أبناء اللاجئين من الثورة الروسية الذين نشأوا في شنغهاي وتعلموا في المدارس الفرنسية، حيث تعلموا الإنكليزية أيضاً، واللاجئين الشباب من فرنسا التي احتلها الألمان الذين قضا

7) Annelise Riles, «Models and Documents: Artefacts of International Legal Knowledge,» The International and Comparative Law Quarterly 48:4 (October 1999): 819.

8) «To Jaw-Jaw is better than to War-War», مقولة تسبب إلى السياسي البريطاني ونستون تشرشل.

9) عبر دينيس بيرون (Denis Peiron, «La France à court d'interprètes,» Le Monde, March 8, 2010) عن رعيه وإحباطه من نقص المرشحين للوظائف اللغوية في الاتحاد الأوروبي. وتذكر بريجيت بيروكا أن مجرد 30 بالمئة من المرشحين لوظائف المترجمين في المنظمات الدولية يتجاوزون اختبارات المرحلة الأولى. (Brigitte Perucca, in «Un monde sans interprètes,» Le Monde, March 19, 2010)

شهوراً أو سنوات في كوبا أو المكسيك بانتظار الحصول على تأشيرة دخول أمريكية قبل الانضمام إلى كلية في نيويورك، وهلمَّ جرّاً. وتكوّن الجيل الأول من نخبة محترفي الترجمة غالباً من شباب من خلفيات من ذلك النوع، ممن ظلوا في وظائفهم لثلاثين عاماً وأكثر. هؤلاء الآباء والأمهات المؤسسون لمجتمع مترجمي المؤتمرات تقاعدوا الآن، وتبيّن أنه من الصعوبة بمكان استبدالهم. وثمة افتقار حاد على نحو خاص للموظفين في اللغتين اللتين تحتاجهما الشؤون الدولية أكثر من أي لغة أخرى اليوم، وهما العربية والصينية. بل إن حتى كبائن ترجمة اللغتين الروسية والفرنسية إلى اللغة الإنكليزية بات يصعب ملؤها أكثر فأكثر. لم تعد هيكلية ترجمة المؤتمرات في الأمم المتحدة والوكالات التابعة لها ومعظم التجمعات الدولية التي تستطيع تحمل كلفتها كما كانت في محاكمات نورمبيرغ. فالقواعد التي وضعت لتلك الترجمة الأولى كانت تقضي بأنه ينبغي على المترجمين جميعهم أن يترجموا إلى لغتهم «الأم» (الآن تسمى اللغة A، وهو الحرف الأول من كلمة «Active» (نشط)، وأن كل الترجمة ينبغي أن تكون من اللغة «الأصلية»). ومع وجود ست لغات عمل في الأمم المتحدة الآن، فإن ذلك يتطلب ست فرق يتكون كل منها من خمسة مترجمين، أو ما مجمله ثلاثين شخصاً، للعمل في اجتماع واحد. ويُنظر إلى العمل الآن على أنه في تعقيد عمل منظمي حركة الطائرات فوق المطارات. وقد تم استبدال فترات العمل ومدتها 80 دقيقة في نورمبيرغ بفترات عمل مدتها 30 دقيقة (ويتم تغيير المترجمين في الكبائن الصينية والعربية كل 20 دقيقة) خلال يوم عمل عادي (قصير) - بحيث تحتاج 60 شخصاً، وليس 30، لخدمة اجتماع دولي إذا طبقت القواعد الأصلية. لكن لا يمكن إيجاد 60 شخصاً يتمتعون بتلك المهارات العليا المتنوعة وجمعهم في أي وقت في مكان واحد في العالم، ولا حتى في مدينة نيويورك. الخطة التالية تسمح بتحقيق وهم نقل اللغة دون انقطاع وبفريق مكوّن من 14 عضواً فقط:

في الكبينة الفرنسية: مترجمان، أحدهما يستمع باللغتين الإسبانية والإنكليزية، والثاني يستمع باللغتين الروسية والإنكليزية، ويتحدثان بالفرنسية.

في الكبينة الإنكليزية: مترجمان، واحد يستمع بالفرنسية والروسية، والثاني يستمع بالإسبانية والفرنسية، ويتحدثان بالإنكليزية.

في الكبينة الإسبانية: مترجمان، كلاهما يستمعان بالإنكليزية والفرنسية، ويتحدثان بالإسبانية.

في الكبينة الروسية: مترجمان، كلاهما يستمعان إما بالإسبانية أو الفرنسية وأيضاً بالإنكليزية، ويتحدثان بالروسية.

في الكبينة الصينية: ثلاثة مترجمين يعملون بالتناوب، يستمعون بالإنكليزية والصينية ويتحدثون بالصينية والإنكليزية.

في الكبينة العربية: ثلاثة مترجمين يعملون بالتناوب، يستمعون إلى الفرنسية أو الإنكليزية والعربية ويتحدثون بالعربية والإنكليزية والفرنسية.

بعبارة أخرى، تُنقل الصينية إلى الإسبانية، والفرنسية، والروسية بالتحويل (relay) من القناة الإنكليزية، والعربية إلى الإسبانية والروسية بالتحويل إما من الإنكليزية أو، في معظم الأحيان، من

الفرنسية؛ والإسبانية والروسية إلى الصينية بالتحويل من القناة الإنكليزية، وإلى العربية بالتحويل من الفرنسية. إذا ذهب المترجم الروسي في الكبينة الإنكليزية إلى الحمّام، تتحول القناة الروسية أيضاً إلى الإنكليزية بالتحويل من الكبينة الفرنسية؛ وعلى نحو مماثل، إذا تعرّض المترجم الإسباني في الكبينة الفرنسية للرعاف، تنقل الإسبانية إلى الفرنسية بالتحويل من الإنكليزية.

التحويل، أو الترجمة المزدوجة، فكرة سيئة من حيث المبدأ، بالنظر إلى احتمال زيادة الخطأ، كما أن الفترة الزمنية المنقضية بين حديث الموفد وحديث المترجم في سَماعة المستمعين تصبح أطول. كما أن حقيقة أن المترجمين الصينيين والعرب يترجمون إلى لغتهم الأم ومنها إلى الإنكليزية ليست فكرة جيدة - فالعمل في الاتجاهين يعني التعرض إلى أكثر من ضعف الإجهاد العقلي المعتاد. إلا أن أجهزة التحويل (الترجمة المزدوجة) والترجمة في اتجاهين تعد نعمة لمسؤولي الأمم المتحدة المكلفين بضمان حسن سير الاجتماعات. فدون عمليتي التحويل والترجمة المزدوجة يمكن للنظام برمته أن يكون أكثر كلفة - وهو ليس رخيصاً في وضعه الحالي أصلاً.

في الاتحاد الأوروبي، تستخدم تعديلات إضافية لضمان القدرة على إدارة اجتماعات لهيئة تستخدم فيها 24 لغة رسمية. إن تنظيم عملية ترجمة متناسقة بموجب قواعد نورمبيرغ - أي أن يقدم كل اتجاه في الترجمة مترجماً واحداً مخصّصاً لذلك - سيتطلب فريقاً مكوناً من 552 مترجماً، وهو عدد يفوق بكثير عدد أعضاء الوفود المشاركة في أي اجتماع، ومن الواضح أن هذا لا يمكن تحقيقه. ولذلك فإن النظام يعمل على النحو الآتي:

عندما يكون جميع المشاركين في اجتماع يفهمون إحدى لغات العمل في الاتحاد الأوروبي على الأقل (الإنكليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية) - وهذا هو الحال دائماً تقريباً - يستخدم نظام لغوي غير متناظر. و«عدم التناظر» يعني أن المشاركين يمكن أن يتحدثوا في أي من اللغات الرسمية (طالما يكونون قد أبلغوا خدمة الترجمة بأي لغة سيتحدثون مقدماً)، لكن يمكن أن يستمعوا بلغة واحدة فقط من لغات العمل الأربع. ويمكن القول إن مثل هذا الاجتماع يطبق فيه نظام لغوي «24:4». إذا تم تخديم كل اتجاه في الترجمة بشخص واحد مخصص لهذا الاتجاه، فإن ذلك سيتطلب 80 مترجماً في كل جلسة، وهذا العدد ما يزال أكبر مما ينبغي.

ويتم تقليص العدد أكثر بوجود مترجمين لديهما لغتين A ويستطيعون الترجمة إلى كلتا اللغتين، وهو نظام يسمى (Cheval)، لكن الأكثر أهمية هو أنهم يستطيعون العمل بالعكس، حيث يستطيعون الترجمة إلى اللغة B أيضاً. أما التوفير الأكبر فيحدث من خلال نظام التحويل. عندما يتحدث موفد ليتواني مثلاً، فإن مترجماً لغته الليتوانية B يقدم ترجمة فورية إلى الألمانية، ينقلها المترجمون من الألمانية إلى الإنكليزية، ومن الألمانية إلى الفرنسية، ومن الألمانية إلى الإيطالية مستخدمين ترتيبهم من لغات العمل التي يتقنونها (وفي نظام 24:4، ليس هناك حاجة لأي نظام آخر). في هذا المثال، تكون اللغة المحورية هي الألمانية؛ وبالنسبة للغات الأخرى في الاجتماع المفترض نفسه، يمكن أن تكون اللغة المحورية الإنكليزية، أو الفرنسية أو الإيطالية، ما يجعل العدد الإجمالي الفعلي من المترجمين اللازمين لخدمة هذا الاجتماع

بموجب نظام 24:4، 28 مترجماً في الحد الأقصى، وأقل بكثير إذا كان المترجم من البرتغالية إلى الفرنسية، على سبيل المثال، يترجم من الإسبانية عندما تكون الفرنسية هي اللغة المحورية، أو المترجم من السويدية إلى الألمانية يستطيع الترجمة إلى الدانمركية عندما تكون الألمانية هي اللغة المحورية. ولأن جميع مترجمي الاتحاد الأوروبي ينبغي أن يتقنوا لغتين بمستوى B، فإن استخدام الأنظمة غير المتماثلة مع أنظمة شيفال وريتور، وريليه تكفي لتوفير ترجمة فورية يمكن تحمّل كلفتها في بروكسل ولوكسمبورغ، وفي البرلمان الأوروبي في ستراسبورغ.

في الأمم المتحدة، يكون النظام في معظم الأحيان غير مرئي بالنسبة للمستخدمين؛ حيث يوضع المترجمون في خلفية قاعة الاجتماعات أو إلى جانبها خلف شاشات زجاجية داكنة وعازلة للصوت. ويمكنك أن تحضر عشرة اجتماعات دون أن تدرك أن المترجمين موجودون جسدياً – وبالتالي من الطبيعي ألا ينتبه إليهم أحد. الأمر الأسوأ من غياب المترجمين الكامل بصرياً هو الانطباع بأن كل شيء تقوله يمكن أن يترجم فوراً إلى اللغات جميعها. في الواقع إن ترجمة المؤتمرات، رغم بريقها، تخفي الصعوبات الحقيقية – والمصلحة الحقيقية – بنقل اللغات عبر حيل معقدة وبهلوانية تقريباً في استخدام اللغات. إنها تجعل الناس يعتقدون أن المسألة مسألة وقت قبل أن نتمكن جميعاً من الحصول على جهاز نضعه على آذاننا – «سمكة بابل» في كتاب **دليل المسافر إلى المجرة** – لتزويدنا باتصال فوري مع الناس جميعهم على وجه الأرض.

على عكس معظم المترجمين الكتابيين ونسبة كبيرة من المترجمين التتابعيين، فإن مترجمي المؤتمرات نادراً ما يكونون متخصصين في أي مجال بعينه وهم أقرب ما يكونون إلى احترافيين لغويين. ثمة عدد قليل من المنظمات المختصة والكبيرة بما يكفي لتسويغ توظيف مترجمين خاصين بها تعطيتهم رواتب شهرية: 67 منظمة فقط في العالم توظف أعضاء في المنظمة الدولية للمترجمين الفوريين (وهي المنظمة المهنية التي تجمع المترجمين) كموظفين بدوام كامل، وأربع منها فقط (الأمم المتحدة في جنيف ونيويورك، ومحكمتان جنائيتان دوليتان في لاهاي) توظف أكثر من عشرة مترجمين. ونتيجة لذلك، فإن معظم الأعضاء الـ 3.000 في المنظمة الدولية للمترجمين الفوريين (الأيبيك)، (وعددًا مساوياً تقريباً من غير الأعضاء) يعملون كمترجمين مستقلين ويسافرون من مؤتمر إلى مؤتمر، ويتصدون لكل أنواع الموضوعات. وينبغي أن يكون المترجمون الذين يتحدثون بسرعة بينما يصغون بعناية أيضاً متبهرجين ومسترخين في الآن ذاته، وقادرين على تحمّل خطابات مضجرة للغاية، لكنهم سريعون في التقاط جوهر ما يتم الحديث عنه عندما يطرأ شيء جديد تماماً على جدول الأعمال. إنهم ينتمون إلى سلالة نادرة.

وقد يصبحون أكثر ندرة، لأن ثمة عدداً من التهديدات التي يتعرض لها نوعهم. أولاً، هناك التراجع السريع في تعليم اللغات الأجنبية في العالم الناطق بالإنكليزية على مدى الخمسين عاماً الماضية، الأمر الذي يعني أن عدد الداخلين إلى المهنة ممن تكون لغتهم A هي الإنكليزية يصبح أقل فأقل. فإذا منعت الفتيان من امتلاك الدراجات الهوائية، فإن مسابقة جولة فرنسا (تور دو فرانس) ستصبح احتفالاً بلياقة كبار السن خلال عقد أو اثنين، ومن ثم تتوقف. وإذا لم يتعلم الناطقون بالإنكليزية لغتين من بين

الإسبانية، والروسية، والصينية، والعربية، والفرنسية بشكل مكثف وحتى مستويات رفيعة وهم شباب، لن يكون هناك مرشحون للتدريب كترجمين خلال عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً. هناك بالطبع عدد كبير ممن يجيدون اللغتين الإنكليزية والإسبانية، لكن عدداً قليلاً منهم يتقن لغة أخرى من لغات العمل في الأمم المتحدة وبالدرجة المطلوبة من الطلاقة. إذا تم تخفيض المتطلبات من لغتين إلى لغة واحدة بالنسبة للناطقين بالإنكليزية، يمكن إدارة النظام على التحويل والإعادة (retour)، وتكون مشكلة الحصول على موظفين أقل حدة. لكن وبالنظر إلى أن كل عشرة متقدمين إلى كليات الترجمة ينتجون لا أكثر من خمسة مترجمين يدخلون سوق العمل، ولأن ثلث الخريجين سيكونون جيدين بما يكفي لدخول المهنة، فإن ثمة حاجة لاستثمارات كبيرة في تعليم اللغات في سائر أنحاء العالم الناطق بالإنكليزية. دون ذلك، فإن الجيل الجديد من السياسيين والدبلوماسيين، ورجال الأعمال والاستشاريين، والذين يقومون بعمليات حقوق الإنسان، والمحامين الدوليين، وخبراء السياسات سيتربط عليهم حشو الأسماك في أذانهم.

ثمة تهديد آخر تواجهه الممارسات اللغوية الراهنة في المنظمات الدولية يتمثل في أن بعض الدول قد يصبح غير مستعداً لتمويل الترجمة الفورية إلى لغات لم تعد لغات عالمية - إلا أن استبدال اللغة الروسية (على سبيل المثال) قد يكون مستحيلاً سياسياً لعقود عدة، وليس لدى أحد فكرة واضحة عما يمكن أن يحل محل اللغة الفرنسية.

إلا أن التهديد الأكبر الذي يلوح في الأفق هو أمر يحدث الآن في مختبرات الأبحاث في نيوجيرسي وأماكن أخرى. إن استخدام تكنولوجيا التعرف على الأصوات التي تسمح لمعالجات الكلمات المتوفرة بتوليد نصوص من الكلام، إضافة إلى أنظمة تركيب الكلام المستخدمة حالياً في آلات الرد الآلي، وهدف (ترجمة عالية الجودة آلية بالكامل) الذي تشجعه السياسة العلمية الأميركية الراهنة قد يصبح مؤتمتاً بالكامل وينتج ترجمة شفوية عالية الجودة. وقد باتت الأنظمة التجريبية ليست بعيدة جداً عن الاستعمال التجاري وباتت تنتج نصوصاً إنكليزية من كلام شفوي إسباني. قد لا أعيش لأرى أو أسمع ذلك، لكن الكثيرين منكم سيتمكنون ربما من فعل ذلك: ترجمة آلية للمنتج الشفوي الثانوي للنشر الدبلوماسي الدولي الذي يمكن التنبؤ به، وللاستعلامات السياحية في مكاتب الاستقبال في الفنادق، وربما في استخدامات أخرى أيضاً.

عندها ستدخلون حقبة الشفوية الثالثة (tertiary orality). وسيكون ذلك عالماً آخر. ■



Sunshine Everyday, 2021



المرجم وحماية حقوق الترجمة

عماد موعد

لا تخفى على أحد أهمية الترجمة، وما تقدمه لنماء المجتمع وتطور أفرادهم واطلاعهم على عوالم واتجاهات جديدة، تحمل دفعا لنمائهم المادي والروحي. على الرغم من هذه الأهمية، غالباً ما يُترك المترجم وحيداً يواجه عقبات مختلفة، منها المادي ومنها القانوني. ومن أهم المشكلات التي يواجهها المترجم قانونياً التعديات المتعلقة بالتعدي على نتاجه مادياً ومعنوياً، فضلاً عن المشكلات المتعلقة بمنعه قانوناً من ممارسته مهنته من دون الحصول على إذن أو ترخيص للترجمة، مما قد يعرضه لمساءلة قانونية ويحد من نطاق عمله وانتشاره. ولا تُخفى الصعوبات التي قد تعترض مثل هذا الإذن أو الترخيص، في واقع لا يحصل المترجم فيه إلا على مردود مادي ضئيل من عمله.

ما سأل أول تقديمه مجرد محاولة استعراض للجانب القانوني من عمل المترجم، والإطار القانوني الذي يحكم عمله، متناولاً في ذلك أحكام المرسوم التشريعي رقم 62 لعام 2013 المتضمن قانون حماية حقوق المؤلف والحقوق المجاورة في سورية.

• مترجم سوريا .

1-1 مفهوم الحق والترجمة وحقوق الترجمة :

يشير مفهوم الحق إلى قدرة أو إرادة يحميها القانون للاستئثار بشيء ما أو بميزة ما أو للتصرف وفق طريقة معينة. في هذا المعنى، يمثل الحق مصلحة سواء كانت مادية أم معنوية يحميها القانون.⁽¹⁾ فيما يتعلق بتعريف الترجمة قانونياً، يتم غالباً تعريفها في إطار مجال حقوق المؤلف (تعريف المنظمة العالمية للملكية الفكرية) بأنها تعبير عن أي مصنف أدبي أو علمي أو تقني بلغة غير لغة النص الأصلي سواء كان المصنف مكتوباً أم شفويًا، وسواء أكان ذلك بقصد نشره أم لاتخاذ موضوعاً لعرض مسرحي أو سينمائي أو إذاعي أو تلفزيوني أو لأي أغراض أخرى.⁽²⁾

فيما يتعلق بمفهوم حقوق الترجمة، فإن لهذه الحقوق جانبين، جانبٌ مادي يشير إلى أحقية واستئثار المؤلف (أو مالك المصنف أو الذي نُقل إليه الحق سواء بإذن أم ترخيص) بمصنّفه وباستثماره أو استغلاله مادياً. وجانبٌ معنوي يعبر عن الصلة بين المترجم وعمله، وهو الحق الذي يعبر فيه المترجم عن شخصيته ومهاراته حاضراً ومستقبلاً، وهو حق أبدي لا يزول ولا يمكن أن ينقل للغير سواء قبل الوفاة أم بعدها ولا يمكن إجراء تصرف عليه. وقد ذهب بعضهم إلى عدّ الحق المعنوي السلطة التي يتمتع بها المؤلف بعد التنازل الكامل عن الحق المالي في الدفاع عن مصنّفه من أي اعتداء قد يصيبه سواء في التشويه أم التحريف من فعل الناشر أو غيره.⁽³⁾

1-2 الترجمة والمصنّفات المشتقة :

تمثّل المصنّفات المشتقة مصنّفاتٍ مقتبسة من عملٍ أصلي تم إنشاؤه مسبقاً، أو إبداعٍ تعبيرية يتضمن استخدام أعمال أو عناصر رئيسة محمية بحقوق النشر، ويصبح العمل المشتق عملاً ثانياً منفصلاً ومستقلاً في الشكل عن الأول وله حقوق مستقلة. ولكي يتم وصف أي مصنّف بأنه مشتق، يجب أن يتم تحويل المصنّف أو تعديله جوهرياً على نحو يحمل شخصية مبتكرة ويبرز فيه مجهود بشري على نحو يكفي ليكون عملاً جديداً. يقوم كثيرٌ من الأعمال المشتقة على استخدام جزء بسيط من العمل الأصلي بالحدّ المسموح قانوناً مع ضرورة الإشارة للمنتج، ولكن في كثير من الأحيان يتطلب من مبتكر العمل المشتق أن يحصل أولاً على إذن من منتج العمل الأصلي أو ترخيص للسماح له بالاشتقاق أو إعادة الاستخدام أو التعديل عليه. وتعد الأعمال المترجمة مثالاً على المصنّفات المشتقة.⁽⁴⁾

وقد أشار قانون حماية حقوق التأليف والحقوق المجاورة السوري إلى مفهوم المصنّفات المشتقة، بما فيها مصنّفات الترجمة، وحمايتها بالحماية نفسها التي تتمتع بها المصنّفات الأصلية. حيث نصّ هذا القانون في مادته الثالثة صراحة على هذه الحماية، دون الإخلال بالحماية التي يتمتع بها أصحاب المصنّفات الأصلية.

1) <https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AD%D9%82>

2) معجم مصطلحات حق المؤلف والحقوق المشابهة، منشورات المنظمة العالمية للملكية الفكرية باللغة العربية، عام ١٩٨٢.

3) محمد رضا علي البوسراية: الحماية المدنية للحقوق المعنوية للمؤلف في التشريعين الأردني والعراقي، رسالة ماجستير من جامعة الشرق الأوسط - الأردن، 2018. ص 12.

4) https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D9%85%D9%84_%D9%85%D8%B4%D8%AA%D9%82

3-1 المصنّفات المستثناة من حقوق الترجمة:

عمدت التشريعات والاتفاقيات الدولية المتعلقة بحماية حقوق المؤلف والحقوق المجاورة إلى استثناء بعض المصنّفات من الحماية القانونية وإباحة استغلالها واستثمارها (بما في ذلك ترجمتها) دون إذن من أصحابها. ويعود عدم شمول هذه المصنّفات بالحماية القانونية لأسباب ترجع إلى انقضاء مدة الحماية أو إلى طبيعة المصنّف نفسه، ومن هذه المصنّفات، المصنّفات التي آلت إلى الملك العام، والمصنّفات المستثناة بحسب طبيعتها مثل القوانين والأنظمة والقرارات، والمصنّفات التي تترجم للاستعمال الشخصي، والافتباسات المرجعية في الأبحاث والرسائل العلمية، والأخبار وما ينشر في الإعلام.

لم يخرج القانون السوري عن هذا الإطار، حيث نصّت المادة 4 منه على أن الحماية لا تشمل الكتب السماوية والقوانين واللوائح والأحكام القضائية وأحكام هيئات التحكيم والاتفاقيات الدولية والقرارات الإدارية وسائر الوثائق الرسمية والترجمات الرسمية لها، كذلك الأنباء وغيرها من الأحداث المختلفة التي تتصف بكونها مجرد معلومات صحفية. كما أجازت المواد 33 و35 و36 و38 دون إذن المؤلف ودون أداء تعويض:

- عمل نسخة وحيدة من مصنف منشور بصفة مشروعة بقصد الاستعمال الشخصي المحض.
- نسخ جزء قصير من مصنف منشور للاستشهاد به في مصنف آخر، شرط ذكر المصدر واسم المؤلف.
- استعمال مصنف منشور للاستشهاد به في النشرات والتسجيلات السمعية أو البصرية ومواد محطات البث.

- نسخ مقال أو مقاطع من مصنف أو لمصنف قصير وذلك لأغراض التعليم داخل المؤسسات التعليمية.
- عمل نسخة وحيدة من المصنّف من جهة دار لحفظ الوثائق أو المكتبات التي لا تستهدف الربح.
- النسخ في صحيفة أو دورية أو في محطة بث لمقال أو نقل هذا المقال أو المادة إلى الجمهور.
- النسخ في صحيفة أو دورية أو النقل إلى الجمهور للخطب والمحاضرات والندوات والأحاديث العلنية.

4-1 حقوق الترجمة

كما تمّت الإشارة أعلاه، يتم التمييز عادةً بين نوعين من حقوق التأليف، ومن ضمنها حقوق الترجمة:

1 - الحقوق المعنوية: وتشمل هذه الحقوق:

- حق طرح المصنّف المترجم إلى الجمهور: يُمكن هذا الحق المترجم من طرح ما أنتجه أمام الجمهور، ويسمح له بتجسيد جهده وأسلوبه وتمييزه بشكل مادي محسوس. كما يسمح له هذا الحق في تقدير جاهزية المصنّف لطرحه أمام الجمهور، وتحديد الوقت المناسب لطرح المصنّف وطريقة طرحه. كما أن هذا الحق يعطيه إمكانية اتخاذ القرار في إعادة نشر مصنّفه، ويمنح هذا الحق أيضاً المترجم في اتخاذ القرار بنقل حق استعمال أو استثمار مصنّفه للغير سواء لمدة زمنية معينة أم غير معينة. مع ذلك، تمنع النصوص القانونية المترجم من التعسف في استخدام هذا الحق عند توقيع عقد أو اتفاق مع ناشرٍ ما، حيث ينبغي حينها الالتزام بما ورد في هذه العقود.⁽⁵⁾

(5) زياد طارق جاسم - بيان الراوي: حقوق المترجم الأدبية أثناء حياته، <https://almerja.com/reading.php?idm=49111>

• حق دفاع المترجم عن مصنفه: ويقصد به حقّه في الوقوف بوجه أيّ تعدٍ على عمله، والمطالبة بوقفه. ومن أشكال التعدي التي يواجهها المترجم الاتهامي (وليس النقد - نقد الترجمة) على أسلوبه وطريقه ترجمته وصياغته ونقله لأفكار الكاتب الأصلي واتهامه بالتلاعب في المصنّف المترجم. وقد يتجه التعدي إلى اسم المترجم من خلال حذفه من مصنفه أو استعماله وإضافته إلى مصنف لا علاقة له به. (6)

• حق نسبة الترجمة إلى المترجم: ويتجسد هذا الحق عبر ذكر اسمه صراحة على المصنّف المترجم أو بذكر اسم مستعار أو نشر المصنّف مفضلاً (إن أراد المترجم ذلك). لكن هذا الحق يظل مشروطاً باقتران اسم مترجم المصنّف باسم مؤلفه الأصلي، كون المصنّف المترجم مصنفّاً مشتقاً من مصنّف آخر. حيث إن إغفال اسم المؤلف الأصلي تعدّ على حقوق هذا المؤلف. (7)

• حق المترجم في إجراء الحذف والتعديل: تعتمد الترجمة على قدرة المترجم في الصياغة واختيار المعاني والألفاظ التي تتلاءم مع الفكرة التي يتم ترجمتها. بمعنى آخر، تتطلب الترجمة منح المترجم هامشاً من الحرية لتعديل المصنّف بالحذف أو التغيير في سبيل إخراج ترجمته بأدق صورة، وبالمقابل ينبغي أن يكون للمترجم قدرة على تحديد مدى الحذف والتعديل الذي يحتاجه للتعبير عن الأفكار المراد ترجمتها دون الإساءة إلى مضمون المصنّف الأصلي وتشويه أفكاره، ودون الإساءة إلى سمعة المؤلف الأصلي. دون هذا الحق أو الهامش، سيكون المصنّف المشتق مفتقداً للتماسك. باعتبار النقل الحر في فيه إساءة إلى المصنّف الأصلي ومضمونه وأفكاره، وإساءة إلى المؤلف الأصلي. إلا أن هذا الحق يظل مقيداً بما تطلبه الترجمة من دقة وأمانة علمية وبحق المؤلف الأصلي في إيصال أفكاره بشكل متماسك والحفاظ على جمالية نصّه. (8)

وقد أكد التشريع السوري على الحقوق المعنوية في مادته الخامسة حيث أشارت إلى تمتع المؤلف بحقوق نشر مصنفه لأول مرة وفي تعيين طريقة النشر وموعده، ونسبة المصنّف إلى نفسه بالطريقة المألوفة، وعدم الإفصاح عن هويته أو أن يستعمل اسماً مستعاراً، وأن يمنع أي تحريف أو تشويه أو أي تعديل لمصنّفه، وأن يمنع أي مساس بمصنّفه يكون من شأنه الإضرار بشرفه أو بسمعته، وحظر طرح مصنّفه للتداول أو سحبه من التداول. وقد عدت هذه المادة الحقوق المعنوية للمؤلف أندية غير قابلة للتقادم أو التصرف بها ويقع باطلا التصرف في أي من هذه الحقوق سواء أكان بعوض أم بغير عوض وإذا تنازل المؤلف عن حقوقه المالية أو أي جزء منها فإن ذلك لا علاقة له بحقوقه المعنوية.

2- الحقوق المالية:

إضافة إلى حقوقه المعنوية، يسعى كل مؤلف أو مترجم لعمل فكري إلى استغلال عوائد نتاجه الذهني والانتفاع بها بغية الحصول على أجر مادي نتيجة استغلال أو استثمار مصنّفه والتصرف فيه من خلال تقديمه للجمهور وإتاحة فرصة اطلاع الناس عليه، سواء قام بذلك بنفسه أم عهد به إلى الغير مقابل

(6) المرجع نفسه.

(7) المرجع نفسه.

(8) المرجع نفسه.

مردود مادي. يعني ذلك أن الحقوق المالية للمترجم تتمثل في إمكانية استعمال مصنفه واستغلاله والانتفاع به بنفسه أو التنازل عنه للغير مقابل حصوله على مردود مادي مقابل هذا الاستغلال أو الاستثمار. وقد منحت معظم التشريعات، ومنها التشريع السوري في مادته السادسة، والاتفاقيات الدولية حقوقاً مادية للمؤلف. وقد تم تحديد هذه الحقوق بنسخ المصنف بأي وسيلة بما فيه الطباعة والتصوير والتسجيل، وترجمة المصنف إلى لغة أخرى أو الاقتباس منه أو إجراء أي تعديل آخر عليه، وتوزيع المصنف أو نسخه المادية على الجمهور عن طريق البيع أو عن طريق أي تصرف آخر ناقل للملكية، والأداء العلني للمصنف مثل التمثيل أو الإلقاء أو السرد، والإتاحة إلى الجمهور عن طريق الأجهزة الحاسوبية أو الإنترنت أو شبكات المعلومات أو شبكات الاتصالات أو غيرها من الوسائل. وقد سمحت المادة التاسعة من التشريع السوري للمؤلف أو خلفه الاتفاق على تقاضي المقابل النقدي أو العيني نظير نقله أو ترخيصه باستثمار أي من حقوقه المالية على المصنف إلى الغير على أساس مشاركة نسبية في الإيراد أو على أساس مبلغ مقطوع أو الجمع بين الأساسين.

ثانياً: الحماية القانونية لحقوق الترجمة:

يعدُّ حق الترجمة حقاً استثنائياً للمؤلف يتمتع به ويصرح بموجبه للآخرين بترجمة مصنّفاته. كذلك فإن الترجمة ترتب للمترجم حقاً نتيجة ما بذله هذا المترجم من جهد في نقل المصنف من لغته الأصلية إلى لغة أخرى، مما يكسبه حقاً معنوياً ومالياً. يرتب ذلك ضرورة في حماية حق المترجم، ومثل هذه الحماية يمكن اشتقاقها من حماية حق التأليف بوصفه الأصل، وحق الترجمة مشتق من هذا الحق.

1-2 شروط الحماية: ينبغي توافر عدد من الشروط حتى تتم حماية المترجم والمصنف المترجم:

أ- أن ينطوي المصنف على قدر من الابتكار والأصالة، يمثل الابتكار والأصالة البصمة الشخصية التي يضعها المؤلف أو المترجم على مصنّفه. وبما أن الترجمة تتطلب جهداً وموهبة ومعرفة كما يتطلبها التأليف، يترك المترجم على المصنف، بجهد وموهبه ومعرفة، بصمته وأصالته من خلال أسلوبه الشخصي المتبع والتميّز في نقل فكرة معينة من لغة إلى أخرى عبر اختياره للعبارات والمعاني التي تسجّم مع هذه الفكرة. على نحو ما، يكمن جوهر الحماية في هذه الأصالة وهذا الابتكار.⁽⁹⁾

ب- أن يكون المصنف موجوداً بشكل محسوس، وليس مجرد أفكار في ذهن صاحبه لاتزال قيد النظر والتنقيح والتغيير والتعديل. بتعبير آخر لا بدّ من تجسيد الفكرة بشكل مادي ملموس يمكن للقراء والجمهور الاطلاع عليه.⁽¹⁰⁾ وقد أشارت المادة الرابعة من قانون حماية حقوق المؤلف والحقوق المجاورة على أن الحماية لا تشمل مجرد الأفكار.

ت- ألا يكون المصنف مخالفاً للنظام العام والآداب، وفقاً للقواعد العامة لحماية الحقوق التي تستلزم شرعية الحق لحمايته، فإن المصنف المخالف للنظام العام والآداب، والذي يسعى إلى تحقيق مصالح غير

(9) زياد طارق جاسم - بيان الراوي: حقوق المترجم المالية <https://almerja.com/reading.php?idm=49109>.

- د. سيد عبد الله محمد خليل: الحماية القانونية والشرعية لحق الترجمة دراسة مقارنة في القانون المصري والنظام السعودي، مجلة كلية القانون والشريعة بطنطا - جامعة الأزهر المجلد 33 العدد الرابع 2018، الصفحة 1878-1925، ص 1893.

(10) المرجع السابق، ص 1897.

مشروعة لا يمكن تشميله بالحماية.⁽¹¹⁾ وقد نصّت المادة 100 من قانون حماية حقوق المؤلف والحقوق المجاورة أن حماية حقوق المؤلف والحقوق المجاورة لا تتنافى وحق الدولة في حظر تداول أي مصنف يشكل تداوله مساً بالنظام العام أو الآداب العامة.

ث- يعدّ بعض الفقهاء القانونيين أن الإيداع القانوني للمصنّفات بما فيها المترجمة من أهم إجراءات حماية الحقوق على المصنّفات، وهذه العملية ينبغي لها أن تتزامن مع عملية نشر المصنّف وتداوله. ويراد بالإيداع القانوني للمصنّفات، إلزام أصحاب الحق على المصنّف، سواء أكان مؤلفاً أم ناشراً أم موزعاً أم طابعاً بتسليم نسخة أو أكثر من المصنّف المنشور إلى إحدى الجهات الرسمية. في سورية، أجازت المادة 67 من قانون حماية حقوق المؤلف والحقوق المجاورة (لكن دون إلزام) لمالكي حق المؤلف والحقوق المجاورة ولوكلائهم التقدم إلى مديرية حماية حقوق المؤلف والحقوق المجاورة بطلب إيداع المصنّفات.

ج- حصول المترجم على إذن مسبق من المؤلف الأصلي،⁽¹²⁾ يتطلب القيام بعملية الترجمة، التي هي من حقوق المؤلف، إذنا من المؤلف أو ترخيصاً بذلك. في هذا الإطار عدّت المادة 6 من قانون حماية حقوق المؤلف والحقوق المجاورة السوري ترجمة مصنّف المؤلف إلى لغة أخرى من حقوقه المالية الاستثنائية، وبالتالي فإن هذه الترجمة تتطلب منه الإذن أو التصريح. وقد بيّنت المادة الثانية من الاتفاقية العربية لحماية حقوق المؤلف أنه من قام بترجمة المصنّف إلى لغة أخرى بإذن من المؤلف يتمتع بالحماية.

يعني الإذن في سياق الترجمة سماح المؤلف للمترجم القيام باستخدام المصنّف من خلال ترجمته وفق شروط معينة (مادية أو غيرها). يحتم هذا الإذن ضرورتين:

1) ضرورة مادية تتعلق في أن القيام بالترجمة من دون إذن المؤلف ضياع لكسب عن طريق التصرف بالمصنّف عبر الترجمة من دون مقابل.

2) ضرورة معنوية تتمثل في ضرورة وقوف المؤلف على قدرة المترجم ومهارته وأمانته ودقته في إنجازه لترجمة المصنّف، لأن اقتناء المترجم لذلك يعني إساءة إلى المؤلف وسمعته.⁽¹³⁾

أما الترخيص القانوني فيعني إعطاء الحق للمواطنين بالطلب من السلطات المختصة منحهم ترخيصاً للترجمة لأغراض تعليمية بعد انقضاء مدة معينة. والتراخيص من الأنظمة التي جاءت بها اتفاقية برن فسمحت من خلالها للدول النامية (الأعضاء فيها) بترجمة المصنّفات المكتوبة في الدول المتقدمة بعد القيام بإجراءات معينة.⁽¹⁴⁾

فيما يتعلق بالإذن، تضمنت بعض التشريعات العربية جوازاً لقيام المترجم بترجمة المصنّفات الأجنبية الأصلية بعد مضي عدد من السنوات من تاريخ نشر المصنّف الأصلي إذا لم يُقْم المؤلف الأصلي بممارسة هذا الحق بنفسه أو بوساطة غيره. في مصر نصّت المادة 148 من القانون 82 لعام 2003 على إنهاء حماية

(11) المرجع السابق، ص 1896.

(12) المرجع السابق، ص 1897.

(13) زياد طارق جاسم - بنیان الراوي: وجود إذن أو ترخيص قانوني للترجمة، <https://almerja.net/reading.php?idm=49108>.

(14) المرجع نفسه.

حق المؤلف وحق من ترجم مصنفه إلى لغة أجنبية أخرى في ترجمة ذلك المصنف إلى اللغة العربية إذا لم يباشر المؤلف أو المترجم هذا الحق بنفسه أو بوساطة غيره على مدى ثلاث سنوات من تاريخ أول نشر للمصنف الأصلي أو المترجم. بالمقابل، لم يقدم المشرع السوري نصاً مماثلاً يستثني فيه الترجمة من حقوق المؤلف بعد مضي سنوات محددة، مما قد يسهم في حماية المترجم والناشر السوري قانونياً.

فيما يتعلق بالترخيص، تضمنت الفقرة أ من المادة 48 من قانون حماية حقوق المؤلف والحقوق المجاورة حق المواطن السوري في الحصول على رخصة غير حصرية وغير قابلة للتنازل إلى الغير لترجمة أي مصنف أجنبي منشور إلى اللغة العربية ونشر هذه الترجمة إذا مرت سنة من تاريخ أول نشر لهذا المصنف ولم يتم نشر أي ترجمة له في الجمهورية العربية السورية باللغة العربية من مالك الحق في الترجمة أو بموافقة أو في حال نفاذ الطباعات المترجمة. على أن تمنح هذه الرخص فقط لغايات التعليم المدرسي أو الجامعي أو البحوث. وعند منح رخص للترجمة أو النسخ فإن مؤلف المصنف الأصلي الذي تمت ترجمته أو نسخه يستحق تعويضاً عادلاً يتناسب مع معايير حقوق المؤلف المالية المتعارف عليها في عقود الرخص الاختيارية بين أشخاص سوريين وبين أشخاص في دولة المؤلف.

2 - 2 مدة الحماية: لا تنقضي الحقوق المعنوية ذات الصفة الأبدية بمضي مدة معينة. غير أن الحقوق المالية تنقضي بمدة محددة. فيما يتعلق بذلك، بين القانون السوري في مادته 19 أن الحقوق المالية للمؤلف محمية طوال حياته ولمدة خمسين سنة تلي نهاية سنة وفاته. وبذلك يتماشى القانون السوري مع اتفاقية برن التي نصت على أن مدة الحماية التي تمنحها هذه الاتفاقية تشمل مدة حياة المؤلف وخمسين سنة بعد وفاته.

3-2 أنواع الحماية القانونية:

الحماية المدنية: تتبع الحماية المدنية من المسؤولية المدنية التي تعني أن يكون المرء مسؤولاً عن الأفعال والممارسات التي يمكن أن تضر بالآخرين، وتتضمن المسؤولية المدنية مسؤولية الدفع لطرف متضرر، بسبب انتهاك القانون أو الضرر أو خرق العقد.⁽¹⁵⁾ في هذا الإطار، نصت المادة 77 من التشريع السوري على التزام كل من اعتدى على حق من حقوق المؤلف أو الحقوق المجاورة المحمية بأداء تعويض عادل للمتضرر تقدّره المحكمة بالاستناد إلى قيمة العمل التجارية وما فات صاحب الحق من ربح وما لحقه من خسارة وما جناه المعتدي من كسب وذلك لجبر الضرر المادي والمعنوي الذي لحق بصاحب الحق وللمحكمة أن تأمر بمصادرة الأدوات والأجهزة جميعها التي استعملت بصورة رئيسة في التعدي.

الحماية الجنائية: تتمثل الحماية الجنائية في عقوبات القضاء ضد الأشخاص المعتدين على حقوق المؤلفين والمترجمين الأدبية والمالية بنشر مصنفاتهم أو ترجماتهم دون إذن مسبق. وتصل هذه العقوبات إلى الحبس والغرامة. في القانون السوري تضمنت المواد من 82 إلى 86 العقوبات الجنائية التي يمكن أن تُفرض على الأشخاص المعتدين على حقوق المؤلفين أو المترجمين، وعلى سبيل المثال عاقبت المادة 82 بالحبس من ثلاثة أشهر إلى سنتين وبالغرامة من مئة ألف إلى مليون ليرة سورية أو بإحدى هاتين

(15) <https://www.almsal.com/post/923398>

العقوبتين كل من وضع بقصد الغش اسما يعود للغير أو كلّف غيره بوضعه على مصنّف أدبي أو فني أو علمي. وعاقبت بالحبس من شهر إلى سنة وبالغرامة من خمسين ألفاً إلى ثلاثمئة ألف ليرة سورية أو بإحدى هاتين العقوبتين، كل من اقتبس بوجه غير مشروع أو نسب لنفسه جزءاً من مصنّف أو تسجيل سمعي أو بصري متجاوزاً الحدود المألوفة. أما المادة 83 فقد عاقبت بالحبس من ثلاثة أشهر إلى سنتين وبالغرامة من مئة ألف إلى مليون ليرة سورية أو بإحدى هاتين العقوبتين كل من أقدم عن معرفة وبهدف الربح على التعدي أو محاولة التعدي لأي حق من حقوق المؤلف والحقوق المجاورة المنصوص عليها في القانون، ومن بينها حق الترجمة. إلا أنّ القانون نصّ في مادته 87 على عدم ملاحقة الجرائم الواردة فيه إلاّ بناء على شكوى الفريق المتضرر.

في الختام:

رغم توافق المرسوم التشريعي رقم 62 لعام 2013 مع الاتفاقيات الدولية والحماية التي يقدمها لحقوق المؤلف بشكل عام ولحقوق المترجم، بشكل خاص، فإن هذه الحماية تبقى قاصرة، حيث إن المؤسسات المسؤولة عن تطبيقه تحتاج إلى وقت ومزيد من الجهد لامتلاك أدوات تطبيقه. كما أنه لا يراعي الظرف السوري الخاص المحيط بالمترجم وأثره عليه. ومن المسائل التي لم يراعها القانون منح استثناءات تتعلق بالحصول على إذن الترجمة ودفع المقابل المادي لهذا الإذن. حيث إن هذا القانون لم ينح باتجاه ما نحت إليه بعض التشريعات العربية ولا سيّما التشريع المصري في إنهاء حماية حق المؤلف المتعلق بترجمة مصنفه بعد ثلاث سنوات من تاريخ نشر هذا المصنف. وعندما أعطى الحق للمواطن السوري بالحصول على ترخيص للترجمة حدد استخدام المصنّف المترجم في استعماله بالمجال التعليمي والبحثي، وليس استعماله من قبل الجمهور الواسع. قد يفتح هذا الأمر يوماً ما الباب أمام القضايا القانونية ضد المترجمين وناشريهم دون حسابان للأجر أو المردود الذي يحصلون عليه، ودون حسابان لعدد النسخ التي يتم توزيعها. ولا يخفى أن معظم الترجمات المنشورة في سورية لم تحصل على حقوق الترجمة، لأسباب مادية تتعلق بالمردود المادي للترجمة، أو حتى لأسباب يمكن ردها لأسباب سياسية تتعلق بالعقوبات المفروضة على سورية تحت أسماء مختلفة منذ عقود من الزمن. وعليه أرى من اللازم أن يتجه المشرّع السوري إلى إنهاء حماية حق المؤلف المتعلق بترجمة مصنفه بعد فترة من تاريخ النشر يتم تقديرها وبشروط معينة من بينها الحفاظ على الحقوق المعنوية للمؤلف الأصلي، ولا سيّما تلك المتعلقة بمنع تحريف أو تشويه أو أي تعديل لمصنّفه أو أي مساس آخر بمصنّفه يكون من شأنه الإضرار بشرفه أو بسمعته. ويمكن لمثل هذا الإنهاء أن يكون لفترة زمنية يقدرها المشرع إلى حين زوال الأسباب التي ترضه.

وإذا انتقلنا إلى جانب التطبيق، ولا سيّما فيما يتعلق بالحقوق المادية للمترجم، نرى أن التطبيق ما زال قاصراً ولا سيّما فيما يتعلق بأسعار الترجمة التي تفرض على المترجمين، والتي تتعارض مع الجهد والوقت الذي يبذله المترجم، والواقع المعيشي الذي يعمل ويعيش فيه. دفع هذا القصور وسيدفع كثيراً من المترجمين إلى التوجّه إلى نشاطات أخرى ذات مردودية أعلى وحماية أكبر، في ظل الضائقة التي يجدون أنفسهم فيها. ■



مترجم الحرب: احتياجات الترجمة وتحدياتها في مناطق النزاع

بقلم: يولاندا مورينو بيلو

- ترجمة: د. باسك المسالمة

يولاندا مورينو بيلو (Yolanda Moreno Bello): تخرّجت في جامعة ألكالا (إسبانيا) وجامعة نورثمبريا (المملكة المتحدة) وجامعة أورليان (فرنسا) للدراسات الإنكليزية واللغات الحديثة. كما حصلت على درجة الماجستير في التواصل بين الثقافات والترجمة التحريرية والشفوية، وتحمل شهادة دكتوراه دولية في علم اللغة الاجتماعي حول الترجمة في مناطق النزاع.

نقلًا عن «الرابطة الدولية لمتترجمي المؤتمرات» (AIIC)، غالباً ما يكون المترجمون التحريريون والمترجمون الفوريون المتعاقدون للعمل في مناطق النزاع أشخاصاً لغويين غير محترفين، على الرغم من أنهم يؤدّون دوراً رئيساً في التواصل. وعلاوةً على ذلك، يجب النظر في الترجمة الفورية في مناطق النزاع بطريقة معيّنة، لأن السياق يخلق جوّاً يختلف عن أنواع الترجمة الفورية الأخرى. لقد جُمعت البيانات الخاصة بالبحوث التجريبية أولاً من خلال دراسة المشاريع السابقة، مثل «إن زون» (InZone) أو «ريد تي» (Red T)⁽¹⁾، التي استكشفت جوانب مختلفة للترجمة في مناطق النزاع، وثانياً عن طريق إجراء مقابلات واستطلاعات مع الجنود والمترجمين الفوريين الذين عانوا عواقب الحرب. سيسمح لنا تحليل

• مترجم سوريا، وأستاذ الأدب الإنكليزي في جامعة دمشق .

(1) ريد تي (Red T): منظمة غير ربحية تأسست في نيويورك تهدف إلى حماية المترجمين التحريريين والمترجمين الفوريين في مناطق النزاع وغيرها من الأماكن ذات الخطورة العالية. (المترجم).

هذه البيانات أن نتعرف خصوصيات المواقف ونقاط القوة والضعف لبعض المبادئ الأساسية لقواعد السلوك المهني (كالدقة والنزاهة والسرية) في حالات النزاع. يمكن أن تساعد النتائج في تطوير قواعد السلوك المهني التي تحمي المترجمين الفوريين وتساعدهم على تقديم خدمة عالية الجودة.

كلمات مفتاحية: قواعد السلوك المهني، ترجمة فورية، مناطق النزاع.

1. مقدمة:

لقد أدت الترجمة الفورية في مناطق النزاع دوراً رئيسياً في تاريخ الحروب. ففي أثناء الانتشار العسكري في منطقة من مناطق النزاع، يُعدُّ مترجم الحرب الرابط المباشر الوحيد بين الجنود والشعوب وثقافتهم هناك. ومع ذلك، لم تحظ المعايير المهنية ودور المترجم الفوري بالإطار أو التحديد المناسبين، فالترجمون الذين يعملون في بيئات خطيرة جداً معرضون جداً للأذى ويتطلبون حماية خاصة، ليس بسبب مخاطر النزاع نفسها فحسب، بل بسبب الموقف الغامض أيضاً الذي يعيشونه في هذه البيئة المنقسمة بين الطرفين. لذا، يجب على المؤسسات المعنية بتقديم خدمات الترجمة التحريرية والترجمة الفورية أن تدرك مسؤولياتها تجاه المترجمين التحريريين والفوريين والحاجة إلى حمايتهم باستمرار. لكن في الوقت نفسه يجب أن يعرف المترجمون التحريريون والمترجمون الفوريون حقوقهم، وأن يحافظوا على معايير المهنة اللغوية وأخلاقياتها لتعزيز سلامتهم ومكانتهم.

إنَّ الفرضية المطروحة هنا هي أننا يجب أن ننظر في مسألة الترجمة الفورية في مناطق النزاع بطريقة معينة، لأنَّ السياق يخلق جواً متميزاً عن الأنواع الأخرى من الترجمة. وبسبب القيود التي يفرضها الزمان والمكان، فإنَّ الهدف من هذا البحث هو التحقق مما إذا كان هذا السياق المحدد يحتاج أيضاً إلى قواعد محددة في السلوك المهني. ولهذا الغرض، ستقدم المقدمة وصفاً موجزاً لمترجم الحرب ودوره أو دورها. جُمعت أولاً بيانات البحوث التجريبية من خلال دراسة المشاريع السابقة مثل «إن زون» (InZone) أو «ريد تي» (Red T)⁽²⁾ و«التواصل بين الثقافات»، التي استكشفت جوانب مختلفة من الترجمة الفورية في مناطق النزاع. ثانياً: أجريت استطلاعات ومقابلات مع الجنود والمترجمين الفوريين الذين عانوا عواقب الحرب. وسيتيح لنا تحليل هذه البيانات معرفة خصوصيات المواقف ونقاط الضعف والقوة لبعض المبادئ الرئيسية لقواعد السلوك المهني (كالدقة والنزاهة والسرية) في مواقف النزاع. ويمكن أن تساعد هذه النتائج في تطوير قواعد السلوك المهني، التي تحمي المترجمين الفوريين وتساعدهم على تقديم خدمة أفضل.

من المهم أن نضع في الحسبان الملف الشخصي لمترجم الحرب ودوره والمخاطر التي يتعرض لها في مناطق النزاع. وسيساعد هذا الأمر في تحليل نتائج البحث التجريبي. أولاً: كان الملف الشخصي لمترجمي الحرب متنوعاً تماماً، فقد كان المترجمون الفوريون عادةً من السكان المحليين، أي كانوا مدنيين عادةً ولم يكن لديهم المؤهلات الكافية، بل كانوا فقط يتحدثون اللغتين الضروريتين لتسهيل التواصل بين الجنود

(2) هذه الوثيقة متوفرة في: «دليل مجال منطقة النزاع من أجل المترجمين المدنيين أو المترجمين الفوريين ومستخدمي خدماتها»، النسخة 2012 /3 - ريد تي: <http://red-t.org/documents/T-I-Field-Guide-2012.pdf>

وسكان المنطقة. في الحرب اليوغوسلافية، «كان الموظفون عادةً مدرّسين أو طلاباً يدرسون اللغات الأجنبية. وكان بعضهم يمتلكون مهنة في مجالات أخرى، كالأطباء الذين عملوا مترجمين فوريين، وكان عددٌ كبير منهم من طلاب الهندسة أو من أبناء المهندسين» (انظر بايكر، 2010: 158). ولما كان المترجمون المحليون الجسر الوحيد لتحقيق التواصل الثقافى واللغوي مع السكان، «فقد وُظفوا في كل مكتب من مكاتب قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة (UNOPROFOR)، ولدى كل فريق من المراقبين العسكريين، وأيضاً لدى قواعد الكثير من الكتائب التي شكّلت جزءاً من قوات الأمم المتحدة» (المرجع نفسه). وعلى الرغم من أنّ المترجمين الفوريين ضروريون لتنفيذ المهمة، لم يكن وضعهم مستقرّاً أو ثابتاً. «تلقّى المرشّحون الناجحون دفعات مالية بالعملة الصعبة، وقد حصل هذا بينما كانت القوات متمركزة في مواقعها، والحصول على الحاجات الضرورية محدوداً كالإمدادات والمأوى والحماية والغذاء» (المرجع نفسه).

علاوةً على ذلك، كانت الحماية التي تلقوها مقيدة جداً، إذ بمجرد عودة الجنود إلى بلادهم، ترك المترجمون الفوريون دون اهتمام. وفي أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصفه، «لم تكمن مأساتهم في عدم كفاءتهم، بل في المكانة المتدنية التي وصلت إليها هذه المهنة في المجتمع الصيني وثقافته، فكان يُنظر إليهم تقريباً على أنهم خونة أو أشرارٌ حكماً؛ فأى شخص كان على صلة بالأجانب يجب أن يُدان مثل هانجيان هان⁽³⁾ (انظر وانغ-شي ونغ 2007: 54). خلال الحرب في يوغوسلافيا، على سبيل المثال، «كان كثيرٌ من المترجمين الفوريين من النساء، ولكن ليس كلهم، وهكذا قلبَ دورهن بوصفهن معيلات للأسرة مسألة النوع الاجتماعي (أو الجندر)، وكذلك العلاقات العمرية داخل الأسرة» (انظر بايكر 2010: 162). هذا التأثير في المجتمع والوضع المعقد المتمثل في كونهن مشتبهات بهن من كلا طرفي النزاع، كان ينطوي على مخاطر إضافية لبيئة خطيرة مسبقاً. كما أنّ هذا الوضع لم يكن خاصاً في حرب الأفيون⁽⁴⁾ أو حروب البلقان،⁽⁵⁾ بل نمطاً ثابتاً في مناطق النزاع كلّها.

لم نجد حلاً في الوقت الحاضر لهذا الوضع على الإطلاق. بين مارس/آذار 2003 وآخر أكتوبر/تشرين الأول 2004، قُتل 13 مترجماً فورياً وسائقان ومرافقان في العراق، واختُطفَ نحو 20 شخصاً (انظر لجنة حماية الصحفيين 2004 في بالمر 2007: 25). بل وأكثر من ذلك، يمكن أن يكون قتل المترجمين الفوريين أو المترجمين التحريريين في هذه الحالة مرتبطاً فقط بمظهرهم المبالغ فيه، «إذ كانوا يشبهون الغرب». كتب بروكغرين عن موقف قُتل فيه مترجمة لمجرد أنها «لم ترتد حجاباً أمام الناس، ولأنها قادت سيارة» (بالمر 2007: 25). أما الشأن الثاني فهو عدم ثقة قوات الجيش في المترجمين التحريريين والفوريين، فقد «تعرّض بعض المترجمين العرب في خليج غوانتانامو للاتهام بتخريب المقابلات مع السجناء عن طريق

(3) في الثقافة الصينية، هانجيان (أو هان شين) مصطلح ازدراثي ومنتقص لشخص عرقي خائن بالنسبة إلى أمة أو دولة الهان الصينية، وبدرجة أقل من عرق الهان. تختلف كلمة هانجيان عن الكلمة العامة لكلمة خائن، التي يمكن استخدامها لأي عرق أو بلد.

(4) شُنّت حرب الأفيون بين سلالة تشينغ والقوى الغربية في منتصف القرن التاسع عشر، وهي حرب نشبت في عام 1839-1842 بين الصين والمملكة المتحدة، بسبب حملة الأسرة الحاكمة ضد التجار البريطانيين الذين باعوا الأفيون في الصين. (المترجم).

(5) تألفت حروب البلقان من نزاعين حدثا في شبه جزيرة البلقان في عامي 1912 و1913. هزمت أربع دول من البلقان الإمبراطورية العثمانية في حرب البلقان الأولى. أما في حرب البلقان الثانية، فتألفت بلغاريا الدول الأربع التي كانت في الحرب الأولى. (المترجم).

الترجمة الخاطئة» (انظر بولييه 2003 في بالمر 2007: 25). وسواء عن قصد أم عن غير قصد، فإن موثوقيتهم تغدو موضع تساؤل، والعواقب المذكورة أعلاه كارثية وغير أخلاقية كلياً.

وعلى الرغم من المخاطر، كان عملهم يذهب دائماً إلى أبعد مما نفهمه بكلمة «ترجمة فورية» إلى درجة أنه «عادةً ودون توصيف وظيفي واضح، يمكن للأشخاص الذين يعملون في مجال اللغة أن يكونوا مترجمين فوريين وتحريريين في يوم العمل نفسه، على الرغم من أن مصطلح «المترجمين الفوريين» شائع الاستخدام في المجال العسكري للإشارة إلى موظفي اللغة المدنيين المحليين» (انظر بايكر 2010: 157). وبين هذه المجموعة الواسعة من الوظائف كانت هناك «محددات لتسهيل الأمر في أثناء الاجتماعات أو الدوريات أو الاستجوابات التي قدمت المشورة لموظفيها العسكريين من زملاء الجنود حول تاريخ المجتمع وثقافته في تلك المنطقة، الذين يؤدون أدواراً تصفهم بأنهم مرافقون ومسؤولون عن التواصل» (بايكر 2010: 171)، وهؤلاء، في الوقت الحاضر، مسؤولون حتى عن التقييمات الأمنية، بسبب مستوى الخطر الناجم عن تدهور الوضع الأمني، والتفاوض الضروري مع الخاطفين، والتجسس على الصحفيين الآخرين» (بالمر 2007: 19). تتطوي كل هذه الوظائف على مخاطر عالية بوجه عام حين لا تُحدد حدود أدوارهم، وليس لدى المترجمين الفوريين أي دليل أو معايير لأفضل الممارسات التي يجب اتباعها.

من خلال الدراسات التي تناولت وضع المترجمين الفوريين في أثناء الحرب في البوسنة والهرسك، يمكننا التحدث عن الحد الأدنى من «القواعد» أو «المعايير»، التي كان المترجمون قادرين على تطويرها مع الجنود لإجراء التواصل بطلاقة. وعادة ما تأخذ الترجمة العسكرية الميدانية شكل الترجمة الفورية وجهاً لوجه دون مساعدة التكنولوجيا، فالجنود - الذين يتحدثون من خلال مترجمين فوريين - مدربون على التحدث بصيغة المتكلم كما لو أنهم يخاطبون المحاور الأجنبي مباشرة» (انظر بايكر 2012: 7). وقد جرى هذا التدريب قبل المقابلات الفعلية، باستخدام لعبة الأدوار لضمان التنفيذ الصحيح لآليات التواصل الأساسية. كانت هذه الآليات غير مبالية بسياق معين، ولا تستخدم أي خصوصية سوى القواعد المشتركة في أي نوع من الترجمة الفورية. تشرح كاترين بايكر الآتي: «يتحدث المترجم الفوري بصيغة المتكلم إلى محاوره كما لو كان صوت جندي. إذن، يجب على المترجمين الفوريين نقل الجزء الآخر من الحديث إلى الجندي، دون أي متحدث يستخدم الكلام المنقول («أخبره أو أخبرها أن...»، أو «إنها تقول إن...»)» (2012: 7).

على أي حال، لا توفر هذه الممارسات الأدوات اللازمة لمواجهة كل الجوانب المتأصلة في الترجمة في مناطق النزاع، مثل السياق السياسي أو الثقافي، أو حتى العواقب النفسية للحرب. ولا يقتصر دور مترجمي الحرب على الاختلافات اللغوية فقط بين المشاركين في المحادثة، لكنهم يشاركون أيضاً في وضع عنيف تصبح فيه الفروق السياسية للكلمات الزناد الرئيس للنزاع. وفي حال وجود نزاع ديني أو عرقي، فإن استخدام القاسم المشترك الصحيح لمجموعة معينة لا يقل أهمية عن مصطلح طبي في مجال الطب. ولما كانت اللغة عنصراً رئيساً في هوية المجتمع» (انظر دراغوفيتش-دروفيت 2007: 38)، فإن هذه الفروق الدقيقة يمكن أن تصبح الفاصل بين الحياة والموت في سياق الحرب. وفي حالة مترجم الحرب، إذن، يجب عليهم أن يتجاوزوا صورة المترجم الفوري الذي يتحدث لغتين، أو حتى الشخص الذي لديه تدريب

في الترجمة التحريرية والفورية، لكنه شخص قادر على «أن يؤثر في العلاقات الشخصية من أجل قضية أكبر، مثل تحقيق السلام في نزاع ما، أو إعادة الإعمار بعد الحرب، أو تعزيز التفاهم بين الشعوب، أو حتى إصلاح سوء الفهم الأجنبي [لمجموعة عرقية معينة و/ أو قوات عسكرية أجنبية]» (بايكر 2012: 20). وباختصار، إنه شخص قادر على تفكيك أي نوع من التحيزات و/ أو الصور النمطية والعوائق الثقافية و/ أو اللغوية بهدف محاربة عدم المساواة وتعزيز السلام من خلال الحوار.

إن تطوير قواعد محددة للسلوك المهني في هذا المجال بالذات يمكن أن يكون مهمة صعبة، ويمكن أن يتأثر أيضاً بخصوصيات كل نزاع مختلف. غير أن هذا لا يعني، كما تجادل ميلا دراغوفيتش، أن «التجارب التي نعيشها في أثناء النزاع لا تقدم دروساً قابلة للتطبيق من متخصصين يجب عليهم العمل في مناطق النزاع في المستقبل» (2007: 38). «يمكن للتلاعب السياسي باللغة أن يخلق حقل ألغام للمترجمين الفوريين والمترجمين عموماً، ولا سيما حين تكون المعاني في حالة من التغير، إذ تكون على هذا النحو حين تُستخدم اللغة سلاحاً» (المرجع نفسه). وعلاوة على ذلك، كشفت الدراسات الميدانية أن «مترجمي [الحرب] المعيّنين محلياً قد طوّروا قواعد سلوكهم المهنية الخاصة بهم، دون الرجوع إلى أي هوية مهنية أوسع كان من الممكن أن يدمجوا فيها اجتماعياً من خلال التعليم» (بايكر 2012: 21). إن عدم وجود قاعدة للسلوك المهني تتعلق بمهنة اللغة أو لا تتعلق بها بوجه عام هو ما أجبرهم على تطوير قواعد سلوك مهنية خاصة بهم قائمة على أساس احترام المهنة العسكرية بالكامل بسبب وضعهم كونهم مدنيين وهيئات غير مُدربة ومواطنين غير تابعين للقوى العاملة» (بايكر 2012: 21).

وفي مقالة ميلا دراغوفيتش-دروفيت نجد بيتر نيومارك يقول إن المترجمين التحريريين والمترجمين الفوريين «لديهم السلطة للتوسط بين الطرفين، ولديهم مسؤوليتهم الخاصة بهم تجاه الحقيقة الأخلاقية والواقعية» (نيومارك 1989: 25-24). ومن ناحية أخرى كتبت: «[...] هذا بعيد كل البعد عن كونه سهلاً، حين يُفرض التفاهم بين الشعوب والأمم إلى حالة نزاع غالباً ما تقع فيها الحقيقة الأخلاقية والواقعية فريسةً لأجندة الدعاية الحربية» (دراغوفيتش-دروفيت 2007: 29). غير أن كلا هذين البيانيين ليسا متعارضين كما يبدو، إذ يمكن تأطير الغموض الأخلاقي في قاعدة السلوك المهني التي تدافع عن المساواة والعدالة، وتحقيق اتفاقية السلام بوجه عام من خلال الحوار. وفضلاً عن النتائج التاريخية لعدم وجود ميثاق أخلاقي محدد عُرض في هذا البحث، فإن الأسباب أدناه تؤكد ضرورة إنشاء ميثاق يشمل حقوق مترجمي الحرب وواجباتهم.

تكشف بعض تقارير وسائل الإعلام أن المترجمين التحريريين أو المترجمين الفوريين متواطئون في بعض الأحيان في العنف الحاصل في الحرب» (انظر شارليت في بايكر 2013). «إن معظم المشاريع عموماً المصممة لحماية المترجمين الفوريين ودعمهم في مناطق الحرب (مثل «ريد تي» (Red T) و«الرابطة الدولية لمترجمي المؤتمرات» (AIIC) و«اللغات وقت الحرب»)، ومشاريع مثل «الاتحاد الدولي للمترجمين» (FIT) و«إن زون» (InZone) وغيرها) تفترض أن الغالبية العظمى على الأقل من المترجمين الفوريين

والمترجمين عموماً، الذين يعملون في مناطق النزاع، بريئون، ومن ثمَّ يستحقون تضامناً بغض النظر عن الطرف الذي يعملون لصالحه» (انظر بايكر 2013). وقد تعاملت بعض المنظمات أيضاً مع جوانب مختلفة لما يجب أن تتضمنه قواعد السلوك المهني لتحقيق جودة الترجمة أو على الأقل لتحسينها في مناطق النزاع، فأنشأت أوكسكالا: «الشبكة الدولية للمترجمين من أجل التنوع اللغوي»، و«كتائب المترجمين»، التي أطلقت على أنها فرعٌ من [M 15] و[حركات احتلوا]،⁽⁶⁾ مساحةً بديلة للعمل السياسي، إذ يعتمد نشاطها على حماية المترجم الفوري وتحسين أدواته اللغوية، ولا سيما في مناطق النزاع، كما نجد في مؤسسة (ECOS)، (المترجمون التحريريون والمترجمون الفوريون من أجل التضامن)، و(بابل) (الشبكة الدولية للمترجمين الفوريين والمترجمين المتطوعين)، التي تعمل مباشرة داخل المجتمع، وتشارك في المنتدى الاجتماعي العالمي. ترتبط أنشطة هذه المنظمات بشكل أساسي بالتدخلات الشفوية في أحداث معينة، لكن مجال عملها أوسع من ذلك بكثير. وفي هذه الحالات كلها، خلافاً لنشطاء آخرين يترجمون المواد بهدف سياسي نحو التغيير الاجتماعي، أعلنت هذه المنظمات نفسها صراحةً أنها تخوض في المجال الأكاديمي والمهني للترجمة (بايكر، 2009: 26).

قمنا بتطوير مقترح قواعد السلوك المهني الجديد والمحدد مع الأخذ في الحسبان البيانات التي جمعت من خلال الاستطلاعات والمقابلات مع الجنود ومترجمي الحرب والمترجمين الفوريين، الذين عملوا مع اللاجئين واضطروا إلى الفرار من مناطق النزاع. أدى هذا البحث التجريبي دوراً في فحص الوضع الخطير لمترجم الحرب فضلاً عن الصعوبات التي تواجهها مهنته اللغوية نفسها. كانت الأسئلة الرئيسية تستهدف تحديد سوء الفهم الفعلي والمفاهيم الخاطئة التي أدلى بها المترجمون في مناطق النزاع، والإستراتيجيات التي يستخدمونها لمواجهة بعض المشكلات اللغوية والثقافية والسياسية في هذه البيئة. وكانت الأسئلة متعلقة بتحديد أوجه عدم الاتساق، والمخططات المفاهيمية في سياق الحرب وتصوّر العنف، والسلطة الأخلاقية المفروضة، والتلاعب باللغة، والأدوار المبنية اجتماعياً وعلاقات القوة لتعيين مزايا تأطير الغموض والمساحة والإطار عن طريق تسمية المشاركين وإعادة نشرهم من أجل الترجمة الفورية (وهي مصطلحات طوّرتها منى بايكر في مجال الترجمة وعلاقتها بالنزاع).

ونظراً لطول البحث المحدود لإظهار عملية التحليل برمتها، التي أجريت في دراسة أوسع، فإن نتائج هذا التحليل تنعكس مباشرة على قواعد السلوك المهني للمترجمين الفوريين في مناطق النزاع. وتهدف قواعد السلوك المهني الجديدة إلى تغطية الحاجة إلى مترجمي الحرب، ليتمكنوا من اتباع إرشادات لمواجهة الصعوبات اللغوية ومعرفة حقوقهم ومسؤولياتهم. وعلاوة على ذلك، فإن الهدف من قواعد السلوك المهني هذه هو أيضاً تسهيل اختيار المترجم الفوري في مجموعة المعضلات في هذا البحث: الاختيار بين تأدية دور نشط في التواصل (الوساطة)، أو أن يكون مخلصاً لموضوع الرسالة (الحيادية). وفي قواعد

(6) «حركة احتلوا» (Occupy Movement): هي حركة اجتماعية سياسية شعبية يسارية دولية عبّرت عن معارضتها لعدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية ونقص الديمقراطية الحقيقية» في جميع أنحاء العالم. وكانت تهدف في المقام الأول إلى النهوض بالعدالة الاجتماعية والاقتصادية وأشكال جديدة من الديمقراطية. (المترجم).

السلوك المهني الآتية، حافظنا على قسم «الحقوق» كما هو تقريباً في قواعد السلوك المهني التي اقترحتها مؤسسة «ريد تي» (Red T). ومع ذلك، فقد أنشئ «دور المترجم الفوري» بالكامل من خلال النتائج التي حصلنا عليها في هذا البحث. يركّز هذا القسم على تقديم دليل لمجال الترجمة الفورية في مناطق النزاع. وأخيراً، قمنا بتعديل وتحسين أقسام «الحيادية مقابل الوساطة» و«السرية» و«الدقة» فيما يتعلّق بما توصلنا إليه من استنتاجات في هذا البحث.

2. قواعد السلوك المهني في مناطق النزاع

الحقوق (1)

- الحماية:

لديك الحق في الحصول على الحماية في أثناء التعيين وبعده. وإذا لزم الأمر، فإنّ الحماية يجب أن تشمل أسرتك أيضاً. ويجب أن تُزوّد بملابس واقية ومعدات، لكنك لن تحصل على سلاح. وبصفتك مدنياً، لست مُلزماً بارتداء زي رسمي إلا إذا وافقتَ على ذلك. كما يجب توفير المساعدة الطبية والنفسية لك، ويجب أن تتلقى تدريباً على الأمان والطوارئ قبل الانتشار في منطقة النزاع.

- الدعم:

لديك الحق في الحصول على الدعم في أثناء مهمتك، على سبيل المثال، والحصول على وسائل الراحة المناسبة والمرافق في الميدان أو في القاعدة.

- الحدود:

يجب أن تكون حدود دورك واضحة تماماً. ولديك الحق في رفض المهمة التي من شأنها أن تعرّض المعايير والأخلاق المهنية أو الشخصية الخاصة بك للخطر، و/ أو تعرّض سلامتك للخطر دون مسوّغ.

- التوجيهات

يجب أن تحصل على توجيهات حول السياق العام والخاص لمهمتك.

- الشروط

لديك الحق في الحصول على المال وفق الأحكام التعاقدية الأخرى التي تعكس الظروف الخطرة. ويجب أن تكون ساعات العمل معقولة تتخللها أوقات للراحة.

دور المترجم الفوري

- الحيادية مقابل الوساطة

1. بغض النظر عن الجهة التي تشركك في العمل، يجب عليك أن تخدم الأطراف جميعها بالتساوي دون التعبير عن آرائك أو تعاطفك. لا يمكنك أن تكون مؤيداً لأي قضية، ويجب أن تعلن عن أي تضارب في المصالح. كما يجب عليك أن تكون مخلصاً للرسالة.

2. يجب تعديل القاعدة السابقة مع مراعاة الجوانب الآتية:

أ. ثمة حالة من سوء الفهم أو الإساءة من أيّ مشارك من المشاركين.

ب. قد ينتج عدم الترابط الزمني بسبب عوامل ثقافية أو نفسية.

- ج. قد يفسح سياق الحرب مجالاً للغة يسهم في إضفاء شرعية للعنف، أو تشويه الواقع، أو الانتهاكات الهرمية.
- د. يجب أن تضع في الحسبان دلالات المفردات والحجج واللغة التي يستخدمها المشاركون.
- هـ. قد تتدخل الأهداف الشخصية بصورة مباشرة في التلميح إلى بعض التدخلات أو حذفها.
- و. يمكن أن تُفترض القيم والعلاقات والأدوار داخل المجتمع على أنها مبادئ عامة لرفض أو قمع أو التقليل من شأن حجج الآخرين أو أفعالهم.

نصائح للترجمة الفورية

- حدّد الغموض: يجب نقل غموض الكلمات بالطريقة نفسها التي وصلت إليك، ويمكنك التدخل لطلب التوضيح.
- حدّد المجال: يجب على المترجم الفوري أن يتجنّب فكرة أنّ الأدوار والتسلسلات الهرمية التي أُنشئت في مناطق النزاع تسبب عدم المساواة أو سوء معاملة بين المشاركين.
- حدّد المصطلحات باستخدام التسمية: يجب على المترجم الفوري تحليل استخدام العبارات الملطّفة والسيئة من أجل تحقيق التواصل بطلاقة.
- إعادة انتشار المشاركين وتموضعهم: يمكن اتباع الأسلوب الرسمي في الكلام من أجل إجراء تواصل أسهل بين المشاركين.

المسؤوليات

السرية

- يجب الحفاظ على الطبيعة السريّة لأيّ معلومات تحصل عليها من أيّ طرف في أثناء تأدية عملك. لا تفصح عنها لأي شخص أو تستخدمها لتحقيق مكاسب شخصية.

الدقة

- انقل بأمانة قدر الإمكان الرسائل للأطراف جميعها. ولفضل ذلك يجب عليك أن ...
- تتعلّم المهارات الأساسية للترجمة الفورية، أي الاستماع بعناية لما يُقال، وتقديمه بوضوح باللغة الأخرى، وأن تكون حسّاساً للفروق الثقافية واللغة غير اللفظية⁽⁷⁾ أيضاً.
 - تستعد للمهام من خلال تعلّم المفردات الخاصة والمختصرات والمصطلحات، وما إلى ذلك، وأن تتعرّف اللهجات والإيماءات والعادات وما إلى ذلك.
 - تدوّن ملاحظات إذا كان ذلك يساعد ذاكرتك.
 - لا تقم بمراقبة أو تعديل المعلومات التي ينقلها المتحدثون.
 - إذا لزم الأمر، اطلب التوضيح، واطلب من المتحدث أن يبيّن، أو أرسل إشارة إلى المتحدث إذا واجهت صعوبة في فهمه أو فهمها. ■

المصدر:

<https://www.researchgate.net/publication/323255251>

(7) يُقصد باللغة غير اللفظية تلك التي لا تستخدم الكلام. (المترجم).



تراث الترجمة الألماني

تأليف: هارالد كيتك وأندرياس بولترمان

- ترجمة: عدنان حسن

هارالد كيتك (HARALD KITTEL) : كاتب ومحرر ألماني.

أندرياس بولترمان (ANDREAS POLTERMANN) : ولد في فيسبادن عام 1951، يعمل

الآن كإعلامي في برلين. درس الفلسفة، والدراسات الألمانية والعلوم السياسية والتاريخ. عام 1983 التحق بجامعة غوتنغن وكانت أطروحته حول الفلسفة الاجتماعية لإيمانويك كانط.

إن مصطلح دويتش (deutsch) (ألماني) غير مألوف في السياق الأوروبي بالنظر إلى كونه غير مشتق من اسم أقدم لبلد أو لقبيلة. في البداية، كان يدل على لغة عامية مشتركة، وحتى في يومنا هذا فإن الدلالات اللغوية والثقافية لمصطلح (deutsch) هي أوسع مما توحي به الحقائق السياسية والجغرافية في الوقت الحاضر. في القرن الثامن كان مصطلح تيوديسك (theudisk) والمصطلح الملتن [المنحوت من اللاتينية] تيوديسكوس (theodiscus) يشير إلى اللهجات التي تتكلم بها القبائل الجرمانية ضمن مملكة شارلمان: الألمانية Alemannic والفرانكونية Franconian والسكسونية Saxon والتورينغية Thuringian والبافاروية Bavarian. إن التنوعات الإقليمية للغة العامية قد وفّرت الرحم اللغوي لأجل

• مترجم سوري .

النشوء التدريجي للألمانية كلغة أدبية، وفي نهاية المطاف لنشوء الألمانية العالية (Hochdeutsch) الحديثة. وإن الحدود السياسية-الخارجية كما الداخلية-للدول الناطقة بالألمانية كانت بالكاد تتقاطع مع الحدود اللغوية: فحتى اليوم نجد اللهجة نفسها محكية على جانبي الحدود الألمانية-الهولندية، في لوكسمبورغ كما في إيفل، في لورين الفرنسية كما في بلاد الراين الجنوبية، في ألزاس الفرنسية كما عبر الراين، في سويسرا الشمالية كما في بادن الجنوبية، في تيرول النمساوية وسالزبورغ والنمسا العليا كما في بافاريا. وفي حين أن الألمانية العالية هي اللغة الأدبية التي يستعملها النمساويون والألمان والسويسريون (الألمان)، فإن الأدب الألماني يعكس على نحو مفارق كلاً من إرثهم الثقافي المشترك بالإضافة إلى تعدديتهم الثقافية.

حقبه الألمانية العالية القديمة (القرن الثامن إلى العاشر):

إن سيرورة تحول اللهجات الألمانية المتجذرة في التراث الشفهي ما قبل المسيحية إلى لغة حرفية مكتوبة قد بدأت في القرن الثامن. على الرغم من أنه كان ثمة نصوص أصلية عدة، فإن مجمل الكتابات بالألمانية العالية القديمة كان ترجمات من اللاتينية. من وجهة نظر وصفية، يمكننا أن نميز أربعة أنواع أساسية من النصوص:

1) طبعات بين السطور تكون على نحو افتراضي غير قابلة للفهم من دون النصوص المصدرية اللاتينية.

2) نصوص تشبه النصوص بين السطور، مثل ترجمة كتاب الانسجام الإنجيلي (Evangelical Harmony) لتاتيان (Tatian)

3) الترجمات الحرة أو الحرة نسبياً مثل ترجمة ايزودور (Isodor) الألمانية العالية القديمة وأعمال نوتكر (Notker).

4) اقتباسات وتلخيصات مثل كتاب المسيح والسامرية (Christus und die Samariterin) والمزمور 138 (ترجم في فرايزينغ)

عند محاولة تقييم منجزات المترجمين القروسطيين على المرء أن يضع في ذهنه الاحتمالات التاريخية والقيود النمطية الشخصية (typological) والوظيفية التي كانوا يعملون في ظلها. إن تجسير الهوة اللغوية والثقافية التي كانت تفصل المترجمين القروسطيين عن العصور القديمة قد تطلب جهوداً إبداعية ضخمة. لذلك، ستكون مفارقة تاريخية مضللة لو حكم المرء على هذه الترجمات الألمانية العالية القديمة بمعايير ومقاييس اليوم.

في البداية، خدمت العامية الألمانية-التي لم تكن تمتلك تراثاً أدبياً-الأغراض التعليمية على نحو رئيس: كانت مسارد الكلمات، الترجمات كلمة بكلمة، والطبعات بين السطور كالقاعدة البندكتية الألمانية العالية القديمة، تستعمل في الأديرة في تعليم اللاتينية. مع ذلك، كان ثمة بعض الاستثناءات البارزة من هذه النزعة التعليمية الموجهة بالنص المصدرية. هذه النصوص الواقعة في نقاط مختلفة من الطيف التايولوجي والتي تؤدي وظائف متميزة تماماً، نصوص مثل ترجمة ايزيدور (c.800)، وترجمة أوتفريد

فون فايسنبورغ (Otfrid von Weissenburg) لكتاب (c. 863 – 71) (liber evangeliarum) وفيما بعد، تلخيص وليام فون إبرسيرغ (William von Ebersberg) لنشيد الأنشاد (c. 1060) واجهت على نحو بارع التحدي التواصلي الذي فرضته اللغة اللاتينية، والعقيدة المسيحية والثقافة الكلاسيكية. كان نوتكر فون سانت غالن (c. 950 – 1022) (Notker von St. Gallen) فريداً بين المترجمين في الحقبة الألمانية العليا القديمة فيما يتعلق بتشكيكة النصوص التي ترجمها وأسلوب ترجمته. بعيداً عن الأدب اللاهوتي المسيحي، فقد حول اهتمامه إلى النصوص الفلسفية والشعرية، مثل فلسفة السلوان (Philosophiae Consolatio) لبوتيويس (Boethius) و (Bucolica) لفرجيل (Virgil)، على التوالي. اعتماداً على الجهود، اللغوية والفلسفية، للأجيال السابقة من المترجمين والمؤلفين الألمان، نقل على نحو كفو أعقد الأفكار وأدق المفاهيم من اللاتينية إلى الألمانية المتجددة، التي لم تكن مفهومة بعد. في الوقت نفسه، اشغلت ضمن التراث التعليمي للحقبة، إذ كان يترجم من أجل طلابه.

الحقبة الألمانية العالية الوسطى (القرن الحادي عشر إلى الرابع عشر):

من الصعب أن نتخيل تطور الألمانية القروسطية إلى لغة أدبية من دون المساعدة التي قدمتها اللاتينية. إن اللغة الألمانية، الموجودة جنباً إلى جنب مع اللاتينية في أثناء الحقبة الألمانية العالية الوسطى، قد فتحت تدريباً ميادين استعمال جديدة وتخصيصة على نحو متزايد. وإن العدد المتنامي والتشكيكة التايولوجية من الترجمات المنتجة في أثناء هذه الحقبة يعكسان الحاجة المتزايدة إلى التواصل على مستويات عدة، عملية، تأملية وترفيهية: لاهوتية، فلسفية، قانونية، تربية وجمالية. لقد أدت هذه الحاجة، بدورها، إلى مزيد من توسع الألمانية وتمايزها على المستوى المعياري، وتوسع المخزونات المعجمية على وجه الخصوص، والإعراب أيضاً. فبعد 400 عام من التطور اللغوي، المتأثر تأثراً شديداً باللاتينية، بلغت اللغة الألمانية في النهاية تلك المرحلة التي استطاعت فيها أن تتكيف بسهولة مع التحدي الشكلي والفكري الذي طرحته النصوص اللاتينية. على سبيل المثال، في حوالي 1210، لم يقم ألبرشت فون هالبرشتات (Albrecht von Halberstadt) بترجمة التحويلات (Metamorphoses) لأوفيد إلى الألمانية فقط، بل نقلها أيضاً إلى العالم المعاصر للقياسة البلاطية الذي كان يُعدّ المثل الأعلى. إن الترجمات الألمانية العالية الوسطى لكتابات توما الأكويني والمعلم ايكهارت (Meister Eckhardt) تثبت على نحو فعلي أن العامية الألمانية كانت قادرة آنذاك على التعبير عن دقائق الخطابات اللاهوتية والفلسفية. في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كانت الألمانية الأدبية قد تطورت إلى منظومة تواصلية شاملة تغطي مجالات النشاط والاهتمام الإنسانيين كافة. في هذه السيرورة فإن الترجمات والأشكال المتصلة بها من النقل بين اللغات وبين الثقافات للنصوص المصدرية اللاتينية والفرنسية على نحو رئيس، وللنماذج والمواد، قد لعبت دوراً مهماً. وبقدر ما يتعلق الأمر بالإنتاج والتلقي، فقد كانت الثنائية اللغوية اللاتينية-الألمانية هي القاعدة. كان رجال الدين كما الناس، العاديون المتعلمون يكتبون باللاتينية، أو بالألمانية، أو بكتليهما. فالمعلم ايكهارت وهاينريش سيوزه (Heinrich Seuse)، على سبيل المثال، استعملتا اللاتينية والألمانية بالتناوب، وذلك تبعاً لجمهور قرائهما؛ وكان يوهان غايلر فون كايزرسبرغ (Johann Geiler von

(Kaysersberg)، الواعظ الأكثر شعبية في القرن الخامس عشر، يُسوّد معظم عظاته الألمانية باللاتينية. عندما تحررت الألمانية تدريجياً من التراث الأدبي اللاتيني، فإن الترجمات، والنصوص الموازية، والتجميعات، والاقتراسات والتلخيصات، ولا سيما للأدب لأغراض خاصة، قد أمّنت استمرار الاحتكاكات بين الثقافتين. في نهاية المطاف، فإن النصوص الألمانية الأصلية في القرن الخامس عشر، التي تغطّي مجالات محدّدة من المعرفة، قد تمت ترجمتها إلى لغات أوروبية أخرى، بما فيها اللاتينية.

بدأ التأثير الفرنسي على الألمانية العالية الوسطى يصبح ملموساً في القرن الحادي عشر؛ وقد ازداد في أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر، واستمر خلال القرن الرابع عشر وضعف في القرن الخامس عشر. ولقد تجلّى هذا التأثير في مفردات مستعارة عدة، وفي تركيب الكلمات والعبارات، لكنه نادراً ما تجلّى في تركيب الجمل [الإعراب] syntax الألماني العالي الأوسط. ففي حين كانت الملاحم البلاطية (courtly epics) الألمانية العالية الوسطى والشعر الغنائي، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، مستلهمة من النماذج الفرنسية، لم يقطع هذا التيار الأدبي مع التراث اللاتيني. بالأحرى، لقد سار بالتوازي مع التيار السائد للأدب الديني والديوي باللاتينية القروسطية والألمانية العالية الوسطى. وعلى الرغم من التأثيرات الظاهرة للأدب الفرنسي على الأدب الألماني العالي الأوسط، فإن الاستعارات المباشرة تبدو أنها كانت نادرة نسبياً. في كثير من الأحيان، يكون من الصعب التحقق من المكانة الدقيقة للنصوص الألمانية في مقابل المصادر الفرنسية المفترضة. على سبيل المثال، ليس الباحثون متأكدين مما إذا كانت تحريفات إيريك (Erec) لهارتمان فون أويه (Hartmann von Aue) عن إيريك وإنيد (Erec et Enide) لكريتيان دي تروي (Chretien de Troyes) تعزى إلى ممارسة هارتمان لحرية تصرف شعرية جديدة بالملاحظة، أو ما إذا اعتمد على نص مصدر فرنسي مجهول، أو حتى على طبعة هولندية وسيطة. في تناولهم للمادة الفرنسية كان الشعراء الألمان يميلون إلى ممارسة الحرية الملحوظة، والتكييف والاختصار أو التوسيع والزخرفة لمادتهم، وفي بعض الأحيان يضيفون تعليقات. لأسباب تاريخية ومنهجية، سيكون من المضلل ومن غير المناسب أن نحكم على العلاقات بين النصوص الألمانية العالية الوسطى ومصادرها الفرنسية المعروفة أو المفترضة، بمقاييس اختزالية، موجهة بنص المصدر.

الحقبة الألمانية العالية الحديثة المبكرة

في القرنين الخامس عشر والسادس عشر تعزّزت سيرورة تطور الألمانية إلى لغة أدبية. إن ترجمات القرن الخامس عشر للروايات الفرنسية من إليزابيت فون ناساو-ساربروكن (Elisabeth von Nassau – Saarbrücken) وإليانور فون أويستررايش (Eleanore von Osterreich) وتورينغ فون رينغولتينغ (Thüring von Ringoltingen) تمثل شهادة على هذا التطور. بالإضافة إلى بضعة أشكال مختلفة مكتوبة من الألمانية، فإن لغة أدبية مشتركة قد توطّدت تدريجياً في ميدان اللغة الألمانية. هذه الظاهرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمارتن لوثر: ترجمته للكتاب المقدس وكتابات أخرى ساعدت على تأسيس شكل أدبي من الألمانية كان موجهاً نحو اللغة العامية، وعلى قلبها، بدلاً من اللاتينية. ومع ذلك، لا سيما في العصر الإنساني، استمرت اللاتينية بوصفها اللغة السائدة في الطباعة والكتابة، كما في التدريس. في حين

كان الشعر المكتوب باللاتينية موجهاً إلى نخبة اجتماعية وفكرية، كانت الألمانية لغة الشعب ولغة الشعر الشعبي. أخيراً، في القرن السابع عشر، فإن هذا التوتر بين اللاتينية والألمانية، بين «الرفيع» و«الوضيع»، قد جرى حلّه في شعر مارتن أوبيتز (Martin Opitz). وبقدر ما يتعلق الأمر بتاريخ الترجمة إلى الألمانية، وتاريخ الألمانية كلغة أدبية، فإن شعر أوبيتز يشكّل علامة على الانتقال إلى الحقبة الألمانية العالية الحديثة. في الحقبة الألمانية العالية الحديثة المبكرة، كانت مفاهيم الترجمة ومبادئ الترجمة موضوعاً مركزياً للنقاش حتى قبل أن تصل هذه الخطابات الصريحة إلى ذروتها في كتاب لوثر بعنوان «المدرسة الفيينية» (*Sendbrief vom Dolmetschen*, 1530). على سبيل المثال، ترجمة ما تدعى بـ «المدرسة الفيينية» (Viennese School) للقرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر تقع أساساً في فئتين، مواصلة بذلك التراث القروسطي: من الناحية الأولى، هناك ما كانت تدعى بـ (aigne dewtsch)، وهي ألمانية خاصة بالعلماء موجّهة بالنصّ المصدرية تخضع للمعايير اللاتينية، ومن الناحية الأخرى هناك الترجمات إلى الألمانية بأشكالها المكتوبة الدارجة، المتحررة من القيود اللاتينية (كانت تدعى بـ gemaine Teutsch). كانت الأشكال المميزة والوظائف الموجهة بالقارئ لهذه الترجمات، القائمة على مصادر لاتينية أو فرنسية، تُشرح وتوسّع في المقدمات.

يمكن ملاحظة انقسام مماثل في الترجمات التي قام بها الإنسانيون الألمان الأوائل. على سبيل المثال، نيكلاس فون فيله (Niklas von Wyle, c. 1410 – 78)، الذي كان مقتنعاً بالأسبقية المتأصلة بالإضافة إلى الفوقية اللغوية والأسلوبية لمصادره اللاتينية، قد سعى إلى ترجمتها إلى الألمانية على نحو حريفي قدر الإمكان. ولم يكن مهماً بالنسبة إليه ما إذا كانت نصوصه قابلة للفهم بالنسبة إلى القارئ العادي. وليس مفاجئاً أن طريقة الترجمة الأكثر براغماتية، الموجهة بالهدف، التي مارسها ونشرها الإنسانيان ألبرشت فون ايب (Albrecht von Eyb, 1420 – 75) وهابنريش فون شتاينهوفل (Heinrich von Steinhoewel) قد برهنت أنها أكثر شعبية. وعندما اهتم ألبرشت بمفهومية ترجماته، فقد كيّف لغة وموضوع كوميديات بلاوتوس (Plautus) مع الثقافة الشعبية والبيئة الألمانية، بالإضافة إلى التقاليد المسرحية، في القرن الخامس عشر. ولقد اتبع شتاينهوفل مبادئ ترجمة مشابهة. ففي ترجمته الموسّعة لإيسوب (Aesop) أدخل أمثالا عدة، وأشعاراً مقفاة وتلميحات إلى أحداث موضعية. هذه الطريقة التفسيرية للترجمة التكييفية والتجديدية سوّغها شتاينهوفل بالإحالة إلى التوبوس (topos) عند هوراس (Horace) كما تمت صياغته في كتاب فن الشعر (*De arte poetica*) وإلى مبادئ جيروم Jerome. إن طبعة مورنر (Murner) الألمانية من الإنياذة (1515) لفرجيل هي مثال آخر على طريقة الترجمة «المطبعة» (naturalizing) هذه: إنه لا يبذل أي جهد لمحاكاة تراكيب المفعول (participle) اللاتينية؛ فالعصور القديمة ينقلها إلى ألمانيا القرن السادس عشر، عاكساً تقاليداً وتراثاً وأفكارها. في حين أن مورنر مدرك تماماً للاختلاف النوعي بين الشعر اللاتيني والشعر الألماني المخالف لقواعد النظم والإيقاع الشعري، فإنه مع ذلك يفتخر بأنه كان مفيداً في بعث ملحمة رجيل من الموت اللاتيني إلى الحياة الألمانية.

إن أي وصف لتاريخ ونظرية الترجمة إلى الألمانية سيكون ناقصاً من دون مارتن أوبيتز (1597-1639) ويوستوس غيورغ شوتل (Justus Georg Schottel, 76. 1612). فكلاهما يحتلان موقعين مهمين لا سيما في الحقبة الانتقالية من الألمانية الحديثة المبكرة إلى الألمانية العالية الحديثة. في كتاب *الشعرية الألمانية* (Deutsche Poeterey, 1624) يجادل أوبيتز في أن الترجمة تخدم هدفاً مزدوجاً: الترجمة من الشعراء اليونانيين واللاتينيين تمرين جيد من أجل المترجمين وهي ذات فائدة لأجل الألمانية كلغة أدبية بأن تقوي إمكانيتها الكامنة. إن كلاً من أوبيتز وشوتل قد مضيا أبعد من ممارسات القرنين الخامس عشر والسادس عشر المألوفة في استعمالهما للألمانية وفي طرائقهما للترجمة، لأنهما كانا مقتنعين بأن الألمانية لغة أدبية مكتملة النمو أو يمكنها، بالممارسة، أن تصبح كذلك، وأنها قادرة على أسلوب شعري وخطابي لا مثيل له.

لوثر وترجمة الكتاب المقدس:

إن تاريخ اللغة الألمانية منذ العصور الوسطى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بترجمة الكتاب المقدس. فعلى مدى 1200 عاماً كوَّنت هذه الترجمات جسماً شاملاً من النصوص يمثل، إلى درجة ملحوظة، ثقافة الترجمة الألمانية وتطورها عبر العصور. ولم تؤثر ترجمات الكتاب المقدس فقط في تشكيل المصطلحات المسيحية الكنسية ولغة علم الأخلاق؛ بل إن ترجمة لوثر، على وجه الخصوص، كان لها أثر تكويني ومعيارى على الألمانية العالية الحديثة. إن النجاح الهائل لترجمة لوثر للكتاب المقدس يمكن أن يُعزى إلى استعماله الخلاق للعامة الألمانية وإلى مبادئه في الترجمة، لكنه يُعزى أيضاً إلى الانتشار الجماهيري لكتابه الذي جعل ممكناً عن طريق تقنيات الطباعة الحديثة، وإلى الديناميك [الحراك] التاريخي-الديني، الاجتماعي، السياسي، والاقتصادي-لحقبة الإصلاح [الديني]. لقد اختار لوثر أن يواجه تحدياً مثبطاً: كيف يعبر عن كلمة الله، كما يُرمز لها في الكتاب المقدس، بلغة عامة الناس الذين كانوا عاجزين عن قراءة اللاتينية أو اليونانية أو العبرية. كقاعدة، بالنسبة إلى لوثر، فإن التعبير عن الرسالة التوراتية بالألمانية كان يعني الترجمة «بحرية» [بتصرف]، مانحاً «الحروف حريتها»، إذا جاز القول. ومع ذلك، عندما كانت «الحقائق» اللاهوتية الجوهرية هي المعنية، فإن لوثر سيضحي بمبدأ المفهومية هذا، ويلجأ، لأسباب عقيدية، إلى الترجمة كلمة كلمة.

بقدر ما يتعلق الأمر بترجمة الكتاب المقدس إلى الألمانية، فإن الحقبة الممتدة من أواخر القرن الحادي عشر إلى القرن السادس عشر كانت عصراً من التجريب والتمتين: أنتجت نسخاً خاصة من أجل العامة ومن أجل الفقراء، نسخاً موضحة بالصور ومزخرفة على نحو فاخر باللغة العامية، ومجموعات من النصوص التوراتية لأغراض الطقوس الدينية، إلخ. لقد شكّل الإصلاح [الديني] نقطة تحول في تاريخ ترجمة الكتاب المقدس الألماني، بلجوء لوثر ومصلحين بروتستانت آخرين إلى نصوص مصدر بالعبرية واليونانية من أجل ترجماتهم للعهد القديم والعهد الجديد، على التوالي. حتى ترجمات الكتاب المقدس للإصلاح المضاد الكاثوليكي من هيرونيموس إمزر (Hieronymus Emser, NT, 1527) وآخرين، كانت مصاغة على غرار نص لوثر. بالفعل، منذ الربع الثاني من القرن السادس عشر، طغى تأثير لوثر على التراث الألماني لترجمة الكتاب المقدس بأكمله، بغض النظر عن الانتماءات المناطقية أو الطائفية.

الحقبة الألمانية العالية الحديثة :

إن التيارات المختلفة لنظرية الترجمة الدارجة في القرنين الماضيين، التي تعود أصولها إلى عصر التنوير الألماني، يمكن ردها إلى يوهان كريستوف غوتشد (Johann Christoph, 66. 1700) (Gottsched) وحلقة لايبزيغ، المدافعين المخلصين عن قيم التنوير، وإلى خصميهما السويسريين، يوهان ياكوب بودمر (Johann Jakob Bodmer, 1783. 1698) ويوهان ياكوب برايتنغر (1701-76) (J. J. Breitinger)، على التوالي. إن آراء غوتشد وبرائتنغر المتعارضة حول الترجمة، التي اصطدمت على ترجمة بودمر لكتاب الفردوس المفقود (*Paradise Lost*, 1732) من تأليف ميلتون (Milton) إنما تعكس موقفيهما المتميزين من فن الشعر وعلم الجمال واللغة الأدبية. وكانا كلاهما يشتركان بالرأي العقلاني الذي وفقاً له يوجد تشابه جوهري بين اللغات وهي، لذلك، قابلة للترجمة. على الأقل في المبدأ. واتفقا كلاهما على أن اللغات المختلفة ليست صوراً مرآتية لبعضها بعضاً. كان ثمة اختلاف في الرأي حول ما إذا كان مسموحاً للترجمة أن تحاكي السمات اللغوية والأسلوبية والشكلية للنص المصدر وبذلك تخالف معايير الطرف\ اللغة الهدف. لقد آمن غوتشد بأن الترجمة الجيدة يجب أن تكون متوافقة مع مبادئ فن الشعر المعيارية، المستنيرة. إذا كان النص الأصلي أو المصدر لا يخضع لهذه القواعد، فإن المترجم ملزم بحكم الواجب بأن يحسن أو يوسع أو يختصر. كان على الترجمة أن تكون نصاً ألمانياً، بكل معنى الكلمة. أما برايتنغر، في المقابل، فقد آمن بأنه لا توجد كلمات زائدة في الأعمال الفنية الأدبية. لقد جادل، مستبقاً هردر (Herder) وهومبولت (Humboldt) في أن عقليات الأمم المختلفة تتعكس في خصوصيات لغاتها المقابلة. لذلك يجب على الترجمة ألا تخالف « أفكار» (Gedanken) النص الأصلي أو تحيد عن مصدرها بأي طريقة أخرى. على المستوى النظري، فإن أفكار برايتنغر قد طورها فريدريش غوتليب كلوبشتوك (Friedrich, 1803. 1724) (Gottlieb Klopstock) ويوهان وتفيد هردر (Johann Gottfried Herder, 1803. 1744)، الذي منح «روح» النص الأصلي السلطة المطلقة. هذا المفهوم قد وضعه على المحك العملي يوهان هاينريش فوس (Johann Heinrich Voss, 1826. 1751) في ترجماته لهوميروس (1793). إن ترجمات دانتي وشكسبير من أوغوست فيلهلم شليغل (August Wilhelm, 1845. 1767) (Schlegel)، وترجمة رابليه من غوتليب ريغيز (Gottlieb Regis)، وأريوستو من قبل يوهان غريز (Johann Gries)، وسرفانتس من قبل لودفيغ تيك (Ludwig Tieck, 1853. 1773) لا تنتمي إلى التراث نفسه فحسب، بل إنها تحقق جزءاً من المشروع الرومانتيكي الذي كان يهدف إلى مراعاة الأدب العالمي باللغة الألمانية.

في أوروبا القارية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، لعبت فرنسا دوراً قيادياً في السياسة، والعلوم والفنون. فقد تشارك المثقفون الفرنسيون، بمن فيهم المترجمون، الإيمان بالتفوق المتأصل للغتهم وثقافتهم. بسبب هذه القناعة شعر المترجمون الفرنسيون بأنهم مسؤولون في تكييف النصوص المترجمة بمثل هذه الطرق بحيث يجعلونها تخضع ليس فقط للمعايير والتقاليد النحوية والمعجمية والدلالية للثقافة

الفرنسية، بل أيضاً للنماذج التايولوجية والأجناسية generic والجمالية السائدة في الأدب الفرنسي. إن المعايير الكلاسيكية الصارمة قد حكمت الدراما والشعر (الملحمي)، في حين أن التقاليد الأكثر مرونة للخينانات الجميلة (Les Belles Infideles) قد طبقت على التخيل النثري المترجم. لقد انعكست الهيمنة الثقافية الفرنسية، بدورها، في العدد الكبير من المحاكيات الألمانية للنماذج الأدبية الفرنسية، والترجمات من الفرنسية إلى الألمانية. وعلى الرغم من أن أنواعاً مختلفة كثيرة من النصوص قد تُرجمت أيضاً من اللاتينية واليونانية ولغات أوروبية حديثة أخرى، فقد استعمل المترجمون الألمان في كثير من الأحيان ترجمات فرنسية وسيطة كنصوص مصدرة، حتى لو توفرت نسخة باللغة الأصلية. لقد كان التوسط الفرنسي فعّالاً في تعريف القراء الألمان على الفلسفة والتخيل والدراما البريطانية. فالترجمات الفرنسية لجون لوك وألكساندر بوب وأديسون ودانييل ديفو وجوناثان سويتف وريتشاردسون وفيلدينغ قد خدمت في البداية كنصوص مصدرة لأجل الترجمات إلى الألمانية. إن مناقشات المترجمين والنقاد الفرنسيين للفلسفة البريطانية لخصائص الروايات الإنكليزية وبالأخص الـ «شذوذات» (anomalies) (الظاهرة لمسرحيات شكسبير قد قوبلت باهتمام ملحوظ في ألمانيا. لهذا، على نحو يثير السخرية، كان الفرنسيون أنفسهم أدوات في تقويض موقعهم الحصين ظاهرياً كمشرعين في مسائل الحس السليم والذوق والأسلوب. لأنه عندما أصبح الكتاب الألمان ملمين بالفكر والأدب البريطانيين بدأوا يمتعضون مما بات كثيرون منهم يرون أنها تأثيرات مشوهة سببها التوسط الفرنسي. إن الانتقال التدريجي، في أثناء القرن الثامن عشر، من المقبولية الواسعة إلى الرفض الفعلي للنماذج الفرنسية، بما في ذلك النصوص الفرنسية الوسيطة، من قبل الكتاب الألمان، في النظرية والممارسة، هو ظاهرة أدبية ذات مقتضيات ثقافية بعيدة المدى. هذا الانتقال، الذي يعكس تغييراً لافتاً في المفاهيم الترجمة، وعلى نحو عام أكثر، في المفاهيم الجمالية الأساسية، هو في نهاية المطاف مؤشر على تغير باراديغمي [نموذجي إرشادي] في تاريخ الفكر الألماني: التحرر من الهيمنة الفكرية والثقافية الفرنسية، مصحوب بموت العقلانية، والانتشار النهائي لأدب قومي ألماني مستقل.

بدأ التوسط الفرنسي للأدب الإنكليزي مبكراً في القرن الثامن عشر. فقد بلغ ذروته، في الأجزاء البروتستانتية من ألمانيا وفي سويسرا، في عشرينيات القرن الثامن عشر (1720). ففي حين كانت الترجمة غير المباشرة في زوريخ وهامبورغ وفيما بعد في لايبزيغ (في أربعينيات القرن 18) مرفوضة لصالح الترجمة المباشرة للروايات والمسرحيات الإنكليزية، استمر التوسط الفرنسي في مكان آخر في ألمانيا. وبقدر ما يتعلق الأمر بالروايات، فقد انتهى [التوسط] فعلياً مع «ولادة» الرواية الألمانية الحديثة، رواية فيلاند (Wieland) بعنوان دونسيلفيو فون روزالفا (Don Sylvio von Rosalva, 1764) ومع مقالات بلانكنبورغ (Blankenburg) حول الرواية (Versuch über den Roman, 1774).

فيما يتعلق بالدراما، فقد قدمت فرنسا كثيراً من المادة بالإضافة إلى النماذج المسرحية: إذ استتدت بضع ترجمات ألمانية لمسرحيات إنكليزية على طبعات فرنسية وسيطة. مع ذلك، فإن شكسبير، لكونه الترياق الدرامي المضاد لقواعد وتقاليد الدراما الفرنسية الكلاسيكية، كان يُقرأ إما بالترجمة

الفرنسية (مثل ترجمة فولتير)، أو بلغته الإنكليزية الأصلية (مثل طبعة بوب)، أو كان يترجم مباشرة من الإنكليزية إلى الألمانية. في عام 1741، عندما نشر كاسبار فيلهلم فون بورك (Caspar Wilhelm von Borck) ترجمته لمسرحية يوليوس قيصر، شجب يوهان كريستوف غوتشد على الفور الترجمة إضافة إلى الأصل الإنكليزي البربري. فكلاهما كانا يعاكسان استراتيجيته لإصلاح المسرح الألماني. إذ كان غوتشد يفضل المسرحيات، على نحو رئيس من أصل فرنسي، التي كانت أقرب إلى تحقيق مثاله الأعلى للتنظيم عن طريق التقيد بالقواعد الأرسطوية، وبممارسة الاعتدال فيما يتعلق بالفعل [الدرامي] action وباستعمال اللغة. عندما تُرجم كتاب إدوارد يونغ (Edward Young) تأملات في التأليف الأصلي (Conjectures, on Original composition 1759) مباشرة من الإنكليزية إلى الألمانية بعد نشره على الفور، فإن مفهومي «العبقرية الأصلية» و«التأليف الأصلي» - اللذين سيثوران النظرية الجمالية والممارسة الشعرية في ألمانيا في أثناء النصف الثاني من القرن الثامن عشر. قد طُبِّقا بحماسة على شكسبير وأعماله. وفقاً لذلك، فإن ترجمات فيلاند النثرية حسنة التوقيت لـ 22 مسرحية (1761-66). قد قوبلت باهتمام عام ملحوظ. على الرغم من انتقاد غرستبرغ (Greenberg) الشديد، فإن هذه الترجمة قد أثرت على نحو ملحوظ في الكتاب المسرحيين للحركة الأدبية الثورية المعروفة باسم العاصفة والاندفاع (Sturm und Drang)، أبرزهم يوهان فولفغانغ فون غوته (Goethe) وياكوب ميخائيل راينهولد لنتس (Lenz) وفريدريش شيلر (Schiller). إن ترجمة يوهان يواخيم إشنبورغ (Eschenburg) الأولى لأعمال شكسبير الكاملة (1775-1782/7) تشكل علامة على مرحلة مهمة أخرى اكتسب شكسبير في نهايتها منزلة شاعر ألماني قومي، وبعض أعماله - أبرزها هاملت - احتلت مكانة في مركز الأدب الألماني بالذات.

كان أوغست فيلهلم شليغل (Schlegel)، الذي بدأ في 1795، بترجمة حلم ليلة صيف (*A Midsummer Night's Dream*)، قد نشر 13 مسرحية أخرى من مسرحيات شكسبير في عام 1810. بعد ذلك بعام، أكمل المشروع لودفيغ تك وآخرون. كانت مبادئ شليغل في الترجمة تقوم على تفسير الأعمال الفنية بوصفها متعضيات [كائنات عضوية] (organisms). وإذ كان يشاطر رأي هرذر، فقد كان يعدّ كل عمل فني أدبي كياناً يضم الشكل والمضمون. وخلافاً لهرذر وشعراء العاصفة والاندفاع، الذين جادلوا في أن هذا الكيان متناسب مع «الطبيعة، تبذعه العبقرية على نحو لاواع، عدّ شليغل هذا الكيان «شكلاً فنياً مخلوقاً عضوياً» (organische Kunstform)، ينتج عن جهد خلاق قصدي، واع.. وفقاً لذلك، فقد كانت كل دراما شكسبيرية هي متعضية مبنية بمهارة، كل تفصيل فيها (كل مشهد، شخصية، إلخ.) مرتبط بالكل بالضرورة المتأصلة، ومنه، بدوره، يستمد معناه. ولا يمكن إنصاف الأصل في كليته إلا بتدوين وترجمة كل تفصيل، في حين أن أي تغيير يشوه ويدمر المتعضية الكاملة. ينبغي أن تكون اللغة خفيفة ومبهجة، وينبغي أن يتولّد لدى القارئ الانطباع بأنه يقرأ نصّاً ألمانياً أصلياً، لا ترجمة. بعبارة أخرى، حاول شليغل أن يجمع الجانبين «الموضوعي» و«الذاتي» للترجمة: الأمانة للنص المصدر، من ناحية أولى، والتحويل الإبداعي والطبعية وفقاً لمتطلبات طرف الهدف، من الناحية الأخرى.

إن المفهوم الرومانتيكي للترجمة، الظاهر في نظرية شليغل وممارسة ترجمة شكسبير، قد جرى تحليله على نحو منهجي من قبل فريدريش شلايرماخر (Schleiermacher) في رسالته (über die verschiedenen Methoden des Übersetzens, 1813)، عارض شلايرماخر، بحدّة تركيز غير مسبوق، طريقتي «التغريب» (alienation) و«التطبيع» (naturalization) في الترجمة. إن تأملاته في نظريات اللغة ونظرية الترجمة قد شغلت الألسنيين ودارسي الترجمة إلى يومنا هذا. فقد ميز شلايرماخر نمطين كبيرين من النصوص. في النمط الأول، تضيد اللغة كناقلاً يتوسط «الحقائق» البين لغوية والبين ذاتية. في المبدأ، تكون النصوص المتصلة بالأعمال [البنس] قابلة للترجمة لأن معجم المفردات المستخدم يتميز بالقيود الاصطلاحية. في النمط الثاني، الذي يضم النصوص الشعرية والفلسفية، فإن الأشكال الأحادية اللغة والمضامين المنقولة عن طريقها تندمج على مستوى أعلى. وهذا يسبب مشكلات جسيمة للمترجمين، لأن لغة مثل هذه النصوص، في سياق الزمن، باتت مرتبطة بمفاهيم وتقاليد ومواقف ومشاعر خصوصية مقيدة باللغة. لأن العقد الرابطة (associative complexes) تختلف من لغة إلى أخرى، ومن ثقافة إلى أخرى، فلا يمكن إنجاز النقل إلا بالطريقة «التغريبية» للترجمة: يأخذ المترجم ارتكازه من وحدة الشكل والمضمون للنص المصدر. لقد دافع شلايرماخر عن استعمال لغة خاصة لأجل الترجمة، وهو ما يستتبع على نحو حتمي تغيير اللغة. فبعد كل شيء، فقط بالانحراف عن المعايير المكرسة يمكن تخيل الزيادة الغريبة أو الأجنبية في اللغة الهدف. الأكثر أهمية، مع ذلك، أن شلايرماخر كان مقتنعاً ليس بالقدرات الابتداعية فقط بل بالتجديدية أيضاً للترجمة.

من الناحية العملية كل نظرية ترجمة حديثة ترد، بطريقة أو بأخرى، على فرضيات شلايرماخر. إذ يبدو أنه لم تكن توجد مقاربات جديدة أساساً. فالمترجمون والمنظرون، مثل أولريش فون فيلاموفيتز-مولندورف (Wilamowitz - Moellendorf) في القرن التاسع عشر وإميل شتايفر (Emil Staiger) في القرن العشرين، دافعوا، بتشديدات مختلفة ولأسباب مختلفة، عن المنهج التطبيعي للترجمة. لقد فضل فالتر بنيامين (Walter Benjamin) مبدأ التغريب. ومع ذلك، فقد أجريت محاولات لتجاوز تناقض الترجمة المطبوعة والمغربة، لإيجاد توليفة أو تسوية.

في أثناء القرن التاسع عشر اشتدت نشاطات الترجمة في البلدان الناطقة بالألمانية وتوسعت. وهذا ينطبق ليس على الخيانات الجميلة فقط، بل على العلوم الطبيعية، والطب والهندسة والاقتصاد والمسائل العامة أيضاً. ففي حين استمرت معظم الترجمات في كونها قائمة على اللغات الرومانسية Romance [اللغات المشتقة من اللاتينية - المترجم] وعلى الفرنسية لا سيما، وعلى نحو متزايد على مصادر إنكليزية، فقد بدأت لغات وثقافات أخرى. بما فيها لغات وثقافات غير أوروبية. تثبت حضورها. إن بعض التطورات اللافتة للاهتمام، والتغيرات والتحويلات المميزة تنعكس في أنطولوجيات الأدب في الترجمة، لا سيما فيما تدعى بأنطولوجيات الأدب العالمي، التي نشرت بأعداد كبيرة منذ منتصف القرن التاسع عشر. على سبيل المثال، حتى نهاية القرن الثامن عشر، كان التلقي الألماني للأدب الفرنسي قد تركّز على المادة العلمية والمعرفية أو التثقيفية عموماً، وعلى الدراما والرواية. ولم يحدث حتى القرن

التاسع عشر أن الشعر الفرنسي، الرومانتيكي والمعاصر، جعل متاحاً للقراء الناطقين بالألمانية، على نحو رئيس من خلال الأنطولوجيات. إن الاحتكاكات الاقتصادية والثقافية المتزايدة بين ألمانيا وبريطانيا قد رفعت الوعي بين القراء الألمان للشؤون البريطانية. مع ذلك، فإن مؤلفين من أمثال وليام ووردزورث (Wordsworth) واللورد بايرون (Lord Byron) قد جرى تلقيهم على نحو رئيس كشخصيات فردية أكثر من كونهم ممثلين لبلدهم أو للأدب البريطاني. في المقابل، على مدى زمن طويل كان التوسط الترجمي للأدبين السكندنافيين والهنغاري محكوماً بالأنماط المقولبة الإيمولوجية [المتعلقة بالصور النمطية لثقافة الأمة] (imagological) والتصورات المسبقة المتعلقة بهذين البلدين، أكثر مما كانت محكومة بالوقائع التاريخية في القرن التاسع عشر. في بعض الأحيان، كانت النصوص تُختار، وأحياناً تترجم خصيصاً، وفقاً للأذواق الشخصية للأنطولوجيين، أو وفقاً لأرائهم ومقاصدهم بخصوص الأدب الألماني وأو القضايا السياسية في سياق أممي أوسع. بعد فترة وجيزة، أخذت الروايات الروسية والدراما الإسكندنافية مكانهما إلى جانب ترجمات النثر التخيلي والدراما الفرنسيين والإنكليزيين، على التوالي. ففي حين تمت ترجمة سكوت وديكنز وزولا فجأة، تم تجاهل هنري جيمس لعقود كثيرة. وكان على الشعراء الحداثويين البريطانيين والأمريكيين، أيضاً، أن ينتظروا فرصتهم الملائمة.

في أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية تأثرت نشاطات الترجمة بعوامل عدة، أبرزها عدم توفر النصوص المصدرية والرقابة ذات الدوافع السياسية. وكان ذلك ينطبق بدرجات مختلفة على المناطق المحتلة من ألمانيا في حقبة ما بين الحربين المباشرة، واستمر في الجمهورية الألمانية الديمقراطية حتى عام 1988. ومع ذلك، يظهر كشف الترجمة (Index Translationum) لعام 1986 أن عدد الكتب المترجمة والمنشورة في ألمانيا الشرقية (794) يساوي تقريباً عددها في بريطانيا العظمى (904). وبالمقارنة، فقد ظهر 1687 كتاب مترجم في فرنسا، و8017 في جمهورية ألمانيا الاتحادية [ألمانيا الغربية]. في ألمانيا المقسمة، فإن الأيديولوجيات والأنظمة السياسية والاقتصادية والتحالفات العسكرية المتضادة للدولتين الألمانييتين كان لها تأثير على ماهية النصوص المختارة للترجمة وفي بعض الأحيان حتى على أسلوب الترجمة. إن المقارنات المنهجية بين نشاطات الترجمة في شرق وغرب ألمانيا لا يزال يتعين إجراؤها. من عام 1956 إلى 1986 ازداد عدد الكتب المترجمة في جمهورية ألمانيا الاتحادية بنسبة 400 بالمائة. تزخر المكتبات في ألمانيا بالترجمات في الميادين كافة، الموجهة إلى الأطفال بالإضافة إلى البالغين. مع ذلك، في مجالات البحوث العلمية حيث يكون الزمن هو الجوهر، يتوقع من العلماء أن يعولوا على كفاءتهم اللغوية أكثر مما يعول على الترجمات، لا سيما من الإنكليزية. وبالعكس، في العقود الأخيرة، فإن العلماء الألمان، لا سيما أولئك العاملين في العلوم الطبيعية، في الطب وفي الحقول المتصلة قد أصبحوا معتادين على نشر نتائج أبحاثهم بالإنكليزية بدلاً من انتظار ترجمتها. في السينمات الألمانية وفي التلفزيون، حيث تكون نسبة الأفلام والمسلسلات العائلية وبرامج الأطفال والأفلام الوثائقية عالية جداً، فإن الدبلجة (dubbing) تكون مفضلة عموماً على التحشية [كتابة ترجمة الحوار في أسفل الشريط السينمائي أو التلفزيوني] subtitling .

تنظيم المهنة وتدريب المترجمين:

توجد رابطتان مهنيتان للمترجمين في ألمانيا هما: Bundesverband der Dolmetscher und Übersetzer e. v. (BDÜ) و Verband deutschsprachiger Übersetzer literarischer und wissenschaftlicher Werke e. v. (VDÜ)، وكلتا هاتين جمعيتان عضوتان في الاتحاد الدولي للمترجمين FIT.

تقدم دورات الدبلوم لأجل المترجمين و/أو المترجمين الشفهيين في كثير من الجامعات والمعاهد البوليتكنيكية والأكاديميات المهنية الألمانية: في برلين (هومبولت)، بون (فقط من أجل المترجمين المتخصصين في اللغات الشرقية)، دوسلدورف (المترجمين الأدبيين فقط)، فلنزيورغ، هايدلبرغ، هيلدزهايم، كولن، لايبزيغ، ماينتس، ميونيخ وساربروكن، من بين أماكن أخرى. بالإضافة إلى ذلك، فإن معاهد عدة أخرى، عامة وخاصة، تقدم التدريب لأجل المترجمين والمترجمين الشفهيين. والامتحانات التي تجرى خارج المؤسسات الأكاديمية تشرف عليها غرف التجارة الإقليمية و/أو الحكومات الإقليمية. ولما كانت المناهج الدراسية غير موحدة، فإن جودة التدريب ومهنية الخريجين تختلفان على نحو ملحوظ. في غياب الشروط القانونية، فإن أي شخص يمكنه أن يستخدم تسمية «مترجم شفهي» أو «مترجم» [كتابي].

إن كلية المترجمين الأوروبيين Europäisches Übersetzer – Kollegium في سترالن هي ملاذ على وجه الخصوص لأجل المترجمين. وقد أسسها في عام 1978 إمار توفوفن Elmar Tophoven، وهو، من بين أشياء أخرى، مترجم صموئيل بيكيت إلى الألمانية. هذا المركز يقدم للمترجمين، المكرسين أو الناشئين، التسهيلات المثالية من أجل عملهم: مكتبة متخصصة، تجهيزات إلكترونية محدثة، الاحتكاك مع الزملاء، وبيئة عمل سلمية. إن الأكاديمية الألمانية للغة والشعر Deutsche Akademie für Sprache und Dichtung والصناديق الأدبية الألمانية Deutsche Literaturfonds تقدم الجوائز للمترجمين الأدبيين المتميزين.

الأبحاث والمنشورات

في حين هيمن البحث على مدى أعوام كثيرة في الجوانب العملية، الوظيفية، اللغوية، والتربوية للترجمة، فقد ازداد الاهتمام بالموضوعات التاريخية في الأعوام الأخيرة، لا سيما في نظرية الترجمة وممارستها في العصور الوسطى وفي عصر النهضة، وفي الخطابات النظرية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حول الترجمة. تدريجياً، يتم إيلاء المزيد من الاهتمام إلى الترجمات الفعلية التي تم إنتاجها في أثناء القرون الثلاثة الماضية، وإلى المترجمين والبيئات الثقافية. كذلك، يتم تطبيق طرائق بحث جديدة. بقدر ما يتعلق الأمر بالأدب في الترجمة، فقد مال معظم البحث إلى أن يكون موجهاً بالنص المصدر وإلى حد ما، إرشادياً. مع الانغماس المتنامي للفقهاء الأدبيين، فإن المقاربات التاريخية - الوصفية قد برزت بمفردها في الآونة الأخيرة.

يُجرى البحث في ميادين مختلفة مرتبطة بالترجمة في مؤسسات أكاديمية كثيرة، على نحو رئيس من أفراد. طلاب ما بعد التخرج [الدراسات العليا] والعلماء المكرّسين على حد سواء. إن مركز دراسة الترجمة الأدبية الذي كان برعاية مشتركة من مجلس البحث الألماني وجامعة غوتنغن هو حالة خاصة. فمنذ بداياته في 1985، تعاون بضع عشرات من الباحثين المتخصصين في فيلولوجيات قومية مختلفة في برنامج بحث متداخل الحقول المعرفية. لقد حددوا لأنفسهم مهمة استكشاف مجالات وجوانب مختارة من الترجمة الأدبية إلى الألمانية منذ البداية في القرن الثامن عشر، بهدف وضع مسودة لتاريخ عريض لثقافة الترجمة في البلدان الناطقة بالألمانية في أثناء القرون الثلاثة الماضية.

نشرت المنظمتان المهنيّتان، الـ (BDÜ) و (VDÜ) مجلاتهما الخاصة بهما: (*Lebende Sprache*) التي يحررها فريدريش كرولمان (Friedrich Krollmann) وغونتر هاينش (Günther Haensch) وتنشرها دار لانغشايدت. ومجلة (*Mitteilungsblatt für Dolmetscher und Übersetzer*) لسان الحال الرسمية للـ BDÜ في بون. ومجلة (*Der Übersetzer*) التي يحررها هيلغا بايتش (Helga Paetsch) في هايدلبرغ.

بعيداً عن مجلات المنظمات المهنية، يوجد عدد من المجلات الأخرى، أشهرها (*TEXTconTEXT*). إن مجلة (*Translation Theorie, Didaktik, Praxis*)، التي تحررها يوستا. هولتس مانتاري (Justa Holz – Mänttari) وهانز فرمير وتنشرها دار يوليوس غروز.

كان الباحثون الألمان بين الأكثر نشاطاً في حقل دراسات الترجمة وأنتجوا كماً كبيراً ومؤثراً جداً من الأدبيات حول الموضوع. تتضمن الأسماء الأكثر شهرة كاترينا رايس، هانز فرمير، فولفرام فيلس، ألبرشت نوبيرت، وكريستيانه نورد، من بين آخرين. بعيداً عن المنشورات الفردية من قبل هؤلاء الباحثين، توجد ثلاث سلاسل تستحق الذكر. فهناك (*Göttinger Beiträge zur Internationalen Übersetzungsforschung*) التي تنشرها دار إريش شميدت في برلين ويحررها أعضاء من مركز غوتنغن لدراسة الترجمة الأدبية؛ هذه السلسلة بدأت في 1985 وهي مكرسة للأبحاث الدولية في الترجمة الأدبية. إن سلسلة (*Forum Modernes Theater*)، رغم كونها غير مكرسة للترجمة، التي ينشرها غونتر نار (Gunther Narr) في توبينغن، تتضمن أيضاً بضعة مجلدات حول ترجمة الدراما يحررها أعضاء من مركز غوتنغن؛ هذه المجلدات مكرسة خصيصاً لترجمة الدراما الأوروبية إلى الألمانية منذ القرن الثامن عشر. إن سلسلة (*Transfer*)، التي نشرها غونتر نار، قد أطلقتها في 1989 أعضاء جامعة دوسلدورف بهدف خصوصي هو إبقاء الأعضاء المهتمين من العامة على إطلاع حول تدريب المترجمين الأدبيين في دوسلدورف، ومسائل المناهج الدراسية والأبحاث المتصلة بها.

أعلام الترجمة :

بودمر، يوهان ياكوب (1698 . 1783 Bodmer): شاعر وناقد أدبي ومتر وممارسة جم سويسري قاتل في كثير من كتاباته وممارسة ضد أفكار عصر التنوير التي نشرها غوتشد وأتباعه. لقد دافع

بودمر، مع صديقه برايتنغر، عن أولوية المخيلة (Vom dem Einfluss und Gebrauch der Einbildungskraft, 1747). إن ترجمته لكتاب الفردوس المفقود (1732) لجون ميلتون، وكتابه اللاحق (Krit) وممارسة (ische Abhandlung vom Wunderbaren in der Poesie, 1740) يمثلان شاهداً على إيمانه الدائم بالطبيعة الرؤيائية للفن الحقيقي.

برائتنغر، يوهان ياكوب (Breitinger, 76. 1701): علامة سويسري، مدرس اللغة العبرية واللغة اليونانية في زيوريخ. كافح مع يوهان ياكوب بودمر لإقامة شعرية جديدة، مضادة للعقلانية. فني كتابه (Kritische Dichtkunst, 1740) رفض كثيراً من المزاعم الأكثر تجرؤاً لعصر التنوير، ممهداً الطريق بذلك من أجل تفضيل الأدب الإنكليزي على الأدب الفرنسي ومُثله التي دافع عنها غوتشد في لايبزيغ. خلافاً لخصمه الألماني، أعتقد برايتنغر بأنه لا توجد كلمات زائدة عن الحاجة في الأعمال الفنية الأدبية. فقد جادل، مستبقاً هردر وهومبولت، في أن عقليات الأمم المختلفة تنعكس في خصوصيات لغاتها المقابلة. لذلك، يجب على الترجمة ألا تخالف «أفكار» (Gedancken) النص الأصلي أو تحرف عن مصدرها بأي طريقة أخرى.

غوتشد، يوهان كريستوف (Gottsched, 66. 1700): ولد في بروسيا الشرقية. كان أستاذاً للشعر في لايبزيغ، و كاتباً مسرحياً و مترجماً، دافع عن العقلانية والشعرية الفرنسيتين. Versuch einer kitchens Dichtkunst (1729). يمكن رد أحد التيارين الكبيرين لنظرية الترجمة إلى غوتشد وحلقة لايبزيغ، المدافعين العنيدين عن قيم عصر التنوير. كان خصومه الرئيسيون هما السويسريان يوهان ياكوب بودمر ويوهان ياكوب برايتنغر. إن آراء غوتشد حول الترجمة، التي تم التعبير عنها بقوة بخصوص ترجمة بودمر للفردوس المفقود (1732) من تأليف ميلتون، تعكس موقفه العام حول فن الشعر، وعلم الجمال واللغة الأدبية. لقد آمن غوتشد بأن الترجمة الجيدة ينبغي أن تتوافق مع مبادئ الشعرية المعيارية المستنيرة. إذا كان النص الأصلي أو المصدر لا يمثل لهذه القواعد، يكون المترجم ملزماً بحكم الواجب بأن يحسن أو يوسع أو يختصر. ينبغي أن تكون الترجمة نصاً ألمانياً، أولاً وأخيراً.

لوثر، مارتن (Luther, 1545. 1483) مصلح ديني ومؤسس البروتستانتية. كان لوثر ابن عامل منجم من آيلين (ألمانيا الوسطى). بعد الدراسة في جامعة إرفورت انتسب إلى أخوية أوغسطين في 1505. في 1508 انتقل إلى الجامعة التي جرى تأسيسها حديثاً في فيتنبرغ، حيث عمل مدرساً للاهوت. واذ أُرعبته التأثيرات الروحية والعملية لمنح صكوك الغفران، نشر 95 أطروحة حول هذا الموضوع (1517). وقد أدى ذلك إلى سلسلة من المناظرات المثيرة للجدل مع الممثلين الباباويين، التي نتجت بطرده من الكنيسة (1520) وفي وضعه تحت الخدمة العسكرية للإمبراطورية (1521). وعندما وضع في العهدة الحمائية من قبل راعيه، منتخب سكسونيا، أمضى لوثر عشرة أشهر في فارتبورغ. في أثناء هذه الإقامة المؤقتة ترجم العهد الجديد. وظل حتى وفاته مشغولاً بترجمة الكتاب المقدس بأكمله.

بعيداً عن تأثيره في مجمل التراث اللاحق لترجمة الكتاب المقدس، بغض النظر عن الانتماءات الطائفية أو الإقليمية، فإن ترجمة لوثر للكتاب المقدس كان لها أثر تكويني ومعيارى على تطور اللغة الألمانية العالية الحديثة. في القرن السادس عشر الخطابات الصريحة حول مفاهيم الترجمة ومبادئ الترجمة بلغت ذروتها في كتاب لوثر بعنوان رسالة مفتوحة حول الترجمة (*Sendbrief vom Dolmetschen*, 1530) نوتكر الثالث نوتكر لابيوا أو تيوتونيوكوس (Notker III (Notker Labeo or Teutonocus, 1022.950) راهب ومعلم في دير القديس غالن الببندكتي (سويسرا). كان نوتكر فريداً بين المترجمين في الحقبة الألمانية العالية الحديثة فيما يتعلق بتشكيله النصوص التي ترجمها إلى اللغة العامية وأسلوبه في الترجمة. بعيداً عن النصوص الكتابية (التوراتية) والأدب اللاهوتي المسيحي، فقد حول اهتمامه أيضاً إلى النصوص الفلسفية والشعرية، مثل (*Philosophiae Consolatio*) من تأليف بويتوس وكتاب (*Bucolica*) من تأليف فرجيل، على التوالي. اعتماداً على الجهود، اللغوية والفلسفية، للأجيال السابقة من المترجمين والمؤلفين الألمان، فقد نقل بكفاءة أعقد الأفكار وأدق المفاهيم من اللاتينية إلى الألمانية التجديدية، غير القابلة للفهم بعد. وإذا كان يعمل في التراث التعليمي لتلك الحقبة، فإنه - بحسب تلميذه اللامع إيكهار الرابع - فقد بسط الكتب بالألمانية من أجل طلابه.

أوبيتز، مارتن (Opitz, Martin, 1639. 1597)

ولد وترعرع في سيليزيا، حيث حظي بتربية إنسانية. بعد الدراسة في جامعة هايدلبرغ (1619) وفي لايدن، أمضى بقية حياته في خدمة أسياد مختلفين، كاثوليكين وبروتستانت. توفى متأثراً بمرض الطاعون. بصفته شاعراً (أمير الشعراء، 1627)، ومترجماً ومشرعاً لشعر الباروك الألماني المبكر، فإنه يحتل موقعاً هاماً في المدة الانتقالية من الحقبة الألمانية الحديثة المبكرة إلى الحقبة العالية الحديثة. في كتاب في الشعرية الألمانية (*Buch von der deutsche Poetereie*, 1624) يجادل في أن الترجمة تخدم هدفاً مزدوجاً: الترجمة عن الشعراء الإغريق واللاتين هي تمرين جيد لأجل المترجم، وهي ذات فائدة لأجل الألمانية كلغة أدبية عن طريق تعزيز قدراتها الكامنة.

شليغل، أوغوست فيلهلم (Schlegel, August Wilhelm, 1845. 1767)

ابن وزير وشقيق فريدريش شليغل (1772. 1829). ولد في هانوفر. بدأ سيرته الأدبية في غوتغن، فعين أستاذاً في بينا (1798) وفي بون (1819). في عام 1804 أصبح سكرتيراً لمدام دو ستايل Mme de Stael، التي رافقها في معظم أسفارها عبر أوروبا حتى وفاتها في عام 1817. إن شليغل، كمحرر أدبي وناقد ومحاضر ومترجم، قد مهد الطريق لأجل الرومانتيكية في ألمانيا وفي أمكنة أخرى. على كل، فإن ترجمة شكسبير إلى الألمانية هي إنجاز شليغل الأدبي الأكثر ديمومة.

كان شليغل يعد كل عمل فني أدبي كياناً يضم الشكل والمضمون. في ترجماته، حاول أن يجمع الجانبين «الموضوعي» و«الذاتي» للترجمة: الأمانة للنص المصدر من جهة أولى، والتحويل الإبداعي والتطبيع وفقاً لمتطلبات اللغة الهدف من الناحية الأخرى.

شلايرماخر، فريدريش (Schleiermacher, Friedrich, 1834 . 1768)

لاهوتي، مصلح ديني، واعظ، ومترجم (لأفلاطون). إن المفهوم الرومانتيكي للترجمة، الظاهر في نظرية أ. ف. شليغل وممارسته لترجمة شكسبير قد جرى تحليله على نحو منهجي من قبل فريدريش شلايرماخر. ففي رسالته (1813) über die verschiedenen Methodendes übersetzens قارن شلايرماخر بين طريقتي التغريب والتطبيع في الترجمة. هذا التفريق برهن أنه مؤثر إلى درجة عالية في دراسات الترجمة ويظهر على نحو بارز في البيانات النظرية المعاصرة حول الترجمة. ■

المصدر:

Routledge Encyclopedia of Translation Studies. edited by Mona Baker. London and New York. 1998



Mandy Martin Paintings & Artwork for Sale



• حوار سلوى صالح

عبد الكريم ناصيف: أمل أن تقدم أعمالنا إلى القارئ العالمي بلغاته الأم...

- أنا لا أكتب في الرواية سيرتي الذاتية بل سيرة وطني وما عاناه.
- للترجمة دورها الجلي في جسر الهوة بين الشعوب وفي نهوض الأمة.



رجل دؤوب لا حدّ لطموحه، يحبُّ العمل ويكره الفراغ، لا يهناً له عيش إن لم يكن وراء طاولته يكتب أو يقرأ أو يترجم.. علاقته بالكتاب تعود إلى طفولته الباكرة عندما استمتع بقراءة أول كتاب مذ كان في الصف الثالث الابتدائي فصار يشتري الكتب من مصروفه الخاص ويطالعها، لكنه تعلّق بالشعر فصار ديوان المتنبّي رفيقه الذي لا يفارقه، ما جعله يكتب الشعر وهو في الرابعة عشرة من عمره، لكن الرواية استحوذت على جلّ اهتمامه فيما بعد، كل هذا ساهم في صوغ شخصيته وتحديد توجهه منذ تلك الأيام نحو الشعر والأدب.

• صحافية سورية .

(بنفسي طموح كأنه روح الحياة فما يعتريه هرم) ... هكذا كتب وهو فتى في مقتبل العمر، وهكذا عاش حياته. دأبه السعي نحو الأفضل، دأبه الإنجاز، فأنجز الكثير، وفي رصيده عشرات الكتب في المكتبة العربية، بل حتى في مكتبة الكونغرس الأميركي التي تضم أربعة عشر كتاباً من تأليفه. مسيرته طويلة، غنيّة، حافلة بالإبداع في حقول عديدة من الشعر إلى الرواية والقصة فالمسرح والدراما التلفزيونية والترجمة والدراسات والمقالات. يصل عدد الكتب التي رقد بها المكتبة العربية إلى تسعين كتاباً. عندما يتأملها مصفوفة على رفوف مكتبته بيتسم راضياً عمّا بذله من جهد وسعي دائم لينجز شيئاً للقارئ العربي، شيئاً ينقصه، ويصعب عليه الوصول إليه. لإلقاء الضوء على هذه المسيرة الإبداعية الطويلة تستضيف مجلة جسور ثقافية في هذا العدد الأديب المترجم السوري عبد الكريم ناصيف المولود في قرية المبعوجة بالسلمية وسط سورية عام 1939 لإجراء حوار شامل حول تجربته المتميزة في مجالات الأدب والترجمة:

- بالعودة إلى البدايات، كيف تكوّنت علاقتك مع اللغات الأجنبية؟ وكيف بدأ اهتمامك بالترجمة؟

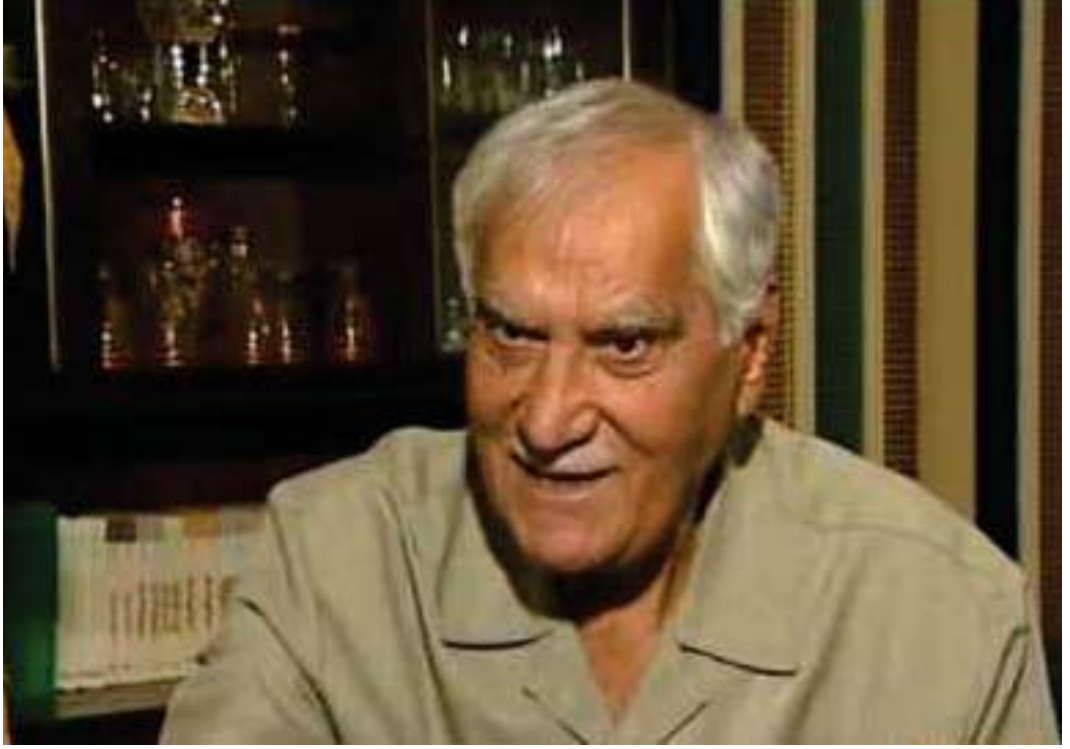
هل تذكر أول نص ترجمته، وأول كتاب؟

- تلقيت تعليمي في حمص وطرطوس وتخرّجت في جامعة دمشق حاملاً إجازة في اللغة الإنكليزية وآدابها... كان لديّ، منذ يفاعتي، حلم كبير أن أدرس اللغة الإنكليزية وأذهب إلى جامعة أوكسفورد لدراسة الدكتوراه، وأكتب وأترجم، لكن الحلم لم يتحقّق كلّهُ، حيث استُديعت إلى الخدمة الاحتياطية عام 1963 ما حال بيني وبين السفر إلى أوكسفورد.

أول نص ترجمته كان بعنوان: الاستراتيجية والتكتيك في فن الحرب. مقال أعجبني في إحدى المجلات الإنكليزية، وكنت ما أزال طالباً في السنة الثالثة في الجامعة، وأذكر أن زميلي ممدوح عدوان قال لي يوماً ذلك إنه من المبكر ترجمة مقالات من هذا النوع، فقلت له: سأجرب! وعندما أنهيت الترجمة أخذت المقال بخط يدي إلى نخلة كلاس رئيس تحرير المجلة العسكرية التي كانت تصدر عن إدارة التوجيه المعنوي في دمشق، فرحّب بي ووافق على النشر وشجّعني على ترجمة المزيد، وكانت تلك بداية علاقتي مع الترجمة التي لم تنقطع حتى الآن.

أما الكتاب الأول الذي ترجمته، فكان في علم النفس التربوي بعنوان: أطفالنا كيف نفهمهم؟ سلوكاً، وتفكيراً، وواقعاً لجان بياجيه (Jean piaget) في إطار احتفال وزارة الثقافة بعيد الطفل عام 1979، وكان لهذا الكتاب صدق واسع وقراء كثير إلى درجة أنه طُبِع ثلاث طبعات، وما يزال بالإمكان طباعته وقراءته حتى اليوم لأهميته الكبيرة في تربية الطفل.

بدأت علاقتي باللغة الفرنسية خلال دراستي الجامعية كلغة ثانية، وبعد تخرّجي ترجمت عدداً من المقالات عن الفرنسية، ثم وقعت بين يدي رواية بنسختها الفرنسية فترجمتها وصدرت عن دار طلاس تحت عنوان: لا شيء خلف الفولاذ ثم أعيدت طباعتها في دار التكوين بعنوان: آلة الحب وهو عنوانها الأساس. ويرأبي نحن بحاجة لإتقان اللغتين مع الفرنسية والإنكليزية لوجود علاقة قوية بينهما.



- إذا كانت الترجمة حاجة ملحة للناس، ونافذة إلى معرفة ثقافات العالم، فكيف تجسّر الهوة بين

الشعوب، وكيف تنهض بالأمة؟

إذا تأمل المرء تاريخ البشرية وتطورها الحضاري يلحظ أنها جسم واحد كل عضويه بحاجة إلى الأعضاء الأخرى وهذه الأعضاء المترابطة تتقدم معا على طريق الحضارة بإيقاع متقارب إلى حد ما بما يشبه عمل الأواني المستطرقة. وهذا التواصل يتحقق بين الأمم من خلال (النقل، والمحاكاة، والترجمة). فحاجة الأمم إلى التواصل سواء في حالة الحرب أو السلم هي التي كانت تجبر هذه الأمم على تعلم لغات بعضها بعضاً للاتفاق على صفقات تجارية أو تفاهم بين وفدين أو كتابة اتفاقية هدنة وسلام، وفي هذا المجال لعبت الحروب دوراً مهماً، كما لعبت التجارة دوراً مماثلاً في ربط الأمم ببعضها بعضاً ونقل ابتكاراتها واختراعاتها، وهو ما أثبت عبر التاريخ أنه ساهم مساهمة عظيمة في جسر الهوة بين الشعوب ودفع بالأمم الأقل حضارة إلى النهوض ومواكبة ركب الحضارة من خلال السياحة والرحلات كذلك، وابن بطوطة خير مثال عن نقل ثقافة أمة إلى أمة أخرى.

وفي تاريخنا العربي نجد المثال واضحاً على دور الترجمة في جسر الهوة بين الشعوب ودورها الجلي في نهوض الأمة، فخلفاء الدولتين الأموية والعباسية لم يجدوا عيباً في النقل عن الأمم الأسبق حضارياً. وخصوصاً في مجال ترجمة الكتب فترجم ابن المقفع عن الفارسية، وترجم سواه عن الهندية والآشورية، ثم بلغت الترجمة ذروتها في عهد المأمون الذي فتح دار الحكمة وملاها بأمهات الكتب وكلف عشرات المترجمين بالترجمة وأجزل لهم العطاء.

- لديك نحو خمسين كتاباً، ليس في الترجمة فحسب، بل تتنوع بين الرواية والقصة والشعر

والدراسات... ما هو المجال الذي يأخذك أكثر من غيره لتجد نفسك فيه؟

- لديّ أكثر من عشرين كتاباً في مجال التأليف (رواية - مسرح - دراسات - شعر) ونشرت العديد من القصص القصيرة التي لم أجمعها حتى الآن في مجموعات. بالإضافة إلى مقالات في الصحف والمجلات، أما في مجال الترجمة فلديّ أكثر من ستين كتاباً مترجماً إذ أنني أترجم عن اللغتين الإنكليزية والفرنسية، وقد تعاملت مع دور نشر عدّة كدار طلاس، دار التكوين، دار الفرقد، بالإضافة إلى الهيئة العامة السورية للكتاب. أما المجال الذي استحوذني أكثر من غيره فهو الرواية إذ صدر لي حتى الآن ثماني عشرة رواية، ولا يزال لديّ في الأدرج ثلاث روايات لم تنشر بعد.

أكتب الرواية السياسية والاجتماعية الناقدة، أولى رواياتي كانت عن نكبة فلسطين بعنوان: الحلقة المفرغة. أما آخر رواية صدرت لي فهي: الغربان عن مؤسسة علاء الدين. وما بينهما ثلاثتان (الدوائر، والطريق إلى الشمس)، إضافة إلى روايات مفردة عديدة (البحث عن نجم القطب - في البدء كانت الحرية - موجع الشتات - قبض الريح... وغيرها).

في الرواية أستمتع كثيراً، أكتب عن الوطن حتى أن أحد النقاد قال عني: «عبد الكريم يكتب سيرة وطن». فأنا لا أكتب في الرواية سيرتي الذاتية بل سيرة وطني وما عاناه هذا الوطن في ظل الاستعمارين العثماني والفرنسي، ثم في عهد الاستقلال، ولا أكتب عن سورية فحسب بل أكتب عن معاناة الوطن العربي، كله انطلاقاً من أن الرواية ميدان فسيح يصل الكاتب فيه ويجول، وهي ميدان يفتح صفحته للناس، وينشر خفاياه ويظهر سلبياته وإيجابياته.

لكنني أجد نفسي في الشعر أيضاً أحكي من خلاله عن ذاتي، عن همومي، عن آلامي وأوجاعي، إنه النبض الذي يصدر عن القلب بكل ما فيه من حمياً وعواطف وانفعالات:

الله يا وطني الجميل أباً التليد الأروع
لا تسألني ما دهاك حرائق في أضلعي
القلب جرح نازف والمؤق نهر الأدمع
والصدر فوقه كل كل والآه صرخة موجع
لم لا وأنت فريسة لذئابها والأضبع؟

ترى هل يستطيع سوى الشعر أن يعبر عما في النفس؟ أو ينفس عما في الصدر؟ لذلك أجد نفسي ألقاً إلى الشعر في المآزق والأزمات، فيحمل لي الكثير من الراحة.

- برأيك هل ارتقت الترجمة في سورية إلى مواكبة الحركة الفكرية والثقافية في العالم؟

في مجال الثقافة عموماً والترجمة خصوصاً لا نستطيع أن نقول: ترجمة سورية أو غير سورية، فأنا عندما أترجم أضع نصب عيني أن القارئ العربي في العراق أو مصر أو الخليج أو المغرب ربما سيقراً كتابي قبل القارئ السوري، ذلك أن الكتاب تأليفاً أو ترجمةً موجّه بشكل عام إلى القارئ العربي، وهنا يبرز دور معارض

الكتب كمنافذ أساسية بالغة الأهمية لانتشار الكتاب خارج حدود البلد الواحد وتعميمه في الوطن العربي كله. أما عن ارتقاء حركة الترجمة العربية إلى مواكبة الحركة الثقافية والفكرية في العالم، فلاسف لا يزال أمامها طريق طويل عليها أن تقطعه لكي يتحقق هذا الارتقاء ولكي تبلغ تلك المواكبة. بعبارة أخرى نحن مازلنا في آخر ركب الحضارة في هذا المجال، فالإحصائيات تدعو للتشاؤم كما أنها مخيبة للآمال، إذ يبلغ عدد المؤلفات المترجمة إلى اللغة العربية نحو خمسة كتب لكل مليون نسمة، بينما يُترجم حالياً إلى اللغة الإسبانية 920 مؤلفاً لكل مليون نسمة. بينما الأرقام على صعيد التأليف مذهلة، إذ تبلغ في المنطقة العربية نحو 6500 مؤلف سنوياً مقابل 102 ألف كتاب في أمريكا الشمالية، فالبون شاسع بيننا وبين الأمم المتقدمة والطريق مازال طويلاً قبل أن نستطيع مواكبة الحركة الثقافية والفكرية في العالم.

- ترجمت كتباً في مجال علم النفس مثل: سيكولوجيا العدوان - الإنسان ورموزه - علم النفس

الاجتماعي، ما سبب اختيارك لها، وهل واجهتك صعوبات في ترجمتها؟

طوال حياتي كانت تستهويني معرفة الإنسان، هذا اللغز المحير، هذا العالم القائم بذاته، كيف نتغلغل إلى أعماقه، كيف نفهم دوافعه وغرائزه وأفكاره وكيف نحيط بالنفس الإنسانية التي ما تزال عصية على عتاة علم النفس وباحثيه، لهذا السبب كنت دائماً أبحث عن كتب علم النفس وعن كل جديد في هذا المجال فترجمت الطبيعة البشرية لديفيد هيوم (David Hume) وهو كتاب بالغ الأهمية لكونه أحد ركائز الأدب الكلاسيكي العالمي. كما ترجمت للكاتب نفسه أبحاث في الأخلاق وعلم النفس السياسي وكتباً أخرى عديدة كنت أنتقيها بعناية لكي أقدمها إلى القارئ العربي الذي قلما تتاح له فرصة الاطلاع على مثل هذه الأبحاث.



وبالنسبة للكتاب الذي ذكرته في سؤالك بعنوان: سيكولوجيا العدوان فهو يبحث في النزعة العدوانية لدى الإنسان إذ يحاول أن يحدّد ما هي النزعة العدوانية؟ كيف تنشأ؟ آلية تطورها؟ وديناميكيته لدى الانسان: فرداً ومجتمعاً ودولة... إلى آخر هذه الأسئلة التي يحاول الباحثون من فرويد إلى تورنر وميلر وسيزر وآخرين الإجابة عنها بأسلوب تحليلي منهجي يعتمد على التجارب الميدانية والخبرات الكبيرة التي مرّوا بها كعلماء نفس كبار ساهموا في هذا الكتاب وأغنوه كل الإغناء.

أما كتاب الإنسان ورموزه، فهو الإسهام الكبير الذي قدّمه كارل يونغ (Carl Gustav Jung) في علم النفس الحديث، ومساهمته كبيرة في فهم السيكلوجيا البشرية انطلاقاً من مفهومه الخاص المتعلق باللاشعور

إذ يعدّه عالماً قائماً بذاته، لغته الرموز ووسيلته هي الأحلام، وهو المرشد الكبير والمستشار الناصح للوعي عند الإنسان.

فيما يتناول كتاب علم النفس الاجتماعي ميداناً مختلفاً حيث توجه علماء النفس في الاتحاد السوفييتي إلى الاهتمام بالكائن الاجتماعي والوعي الاجتماعي والسلوك الاجتماعي بل شطّوا في هذا المجال إلى حد أنهم أغفلوا العوامل الذاتية في التاريخ البشري، ورفضوا ما هو ذاتي لصالح الموضوعي، وهذا ما أوقع المادية التاريخية في مغالطة كبيرة أراد لينين المساهم في هذا الكتاب أن يصلحها. وسبب اختياري لهذه الكتب هو أهميتها القصوى ورغبتني الشديدة في أن يطلع عليها القارئ العربي، ماعداً كتاب الإنسان ورموزه، فقد ترجمته لصالح دار نشر أردنية وهي التي اختارته لكونه كتاباً فريداً من نوعه يبحث في سيكولوجيا العقل الباطن. أما عن الصعوبات التي واجهتها في ترجمة هذه الكتب، فعلى العكس أنا لا أذكر أنني استمتعت بكتاب ترجمته قدر استمتاعي بترجمة هذه الكتب، ذلك أنني أعدُّ مجال علم النفس هو ميداني وشغفي وأطلع على كل جديد فيه، وأتابعه ربما أكثر من المختصين فيه.

- هل تركت الترجمة تأثيرها إيجاباً أم سلباً على لغتنا العربية؟ وكيف تكون الترجمة وسيلة

لإغناء اللغة وتطويرها وعصرنتها؟

اللغة كائن حيّ متجدّد وفي حالة تطور دائم لذلك تكتسب اللغة كلمات وتعابير جديدة وتحذف كلمات وتعابير قديمة، لاسيّما حين تكون هذه اللغة على صلة مباشرة بلغات أخرى لكي تواكب التقدم العلمي والتقني.

لنأخذ لغتنا العربية أيام الحضارة الإسلامية، فقد ظلت طوال ثلاثة قرون أو أربعة لغة الحضارة فأخذت من الحضارات السابقة الكثير من المصطلحات لكن لتعود وتعطي اللغات الأخرى الكثير من التعابير والكلمات والمصطلحات. فكان تأثيرها في بلدان العالم الإسلامي قاطبة أكبر وأبلغ من أي تأثير للغة في التاريخ.

فقد قرأت إحصائية ذات مرة تقول: في اللغة الإنكليزية أكثر من سبعة آلاف كلمة عربية، وفي الفرنسية نحو عشرة آلاف، أما في الإسبانية فالرقم أكبر بكثير.

أما الآن فقد أصبحت لغتنا العربية أخذة بدلاً من أن تكون معطية وصارت متأثرة بدلاً من أن تكون مؤثرة، فلغتنا العربية من أغنى لغات العالم إن لم تكن أغناها على الإطلاق، ذلك أن بعض اللغات الجرمانية واللاتينية لا يتجاوز تعداد كلماتها السبعمئة ألف كلمة حسب بعض الإحصائيات، بينما يصل عدد كلمات اللغة العربية إلى الملايين! وغنى هذه اللغة يجعلها مرنة ومطواعة وقادرة على التطور ومواكبة التقدم الحضاري، فالترجمة توسّع اللغة وتغنيها إغناء لا مثيل له وقد بذلت جامعاتنا ومجمّعاتنا العلمية جهوداً كبيرة في هذا المجال حتى إنها ترجمت كتب الطب إلى العربية بل تدرّس الطب باللغة العربية؛ والتجربة السورية في هذا المجال مهمة للغاية، وبقي أن تعترف الدول العربية الأخرى بقدرة لغتنا على مواكبة التطور العلمي وإدخالها في الجامعات كلفة أساسية.



- بدأت منذ سنوات بمشروعك في إعادة كتابة أعمالك العربية باللغة الإنكليزية، ما هو الهدف من هذا المشروع؟ ماذا حققت منه؟ وأين وصلت فيه؟

هذا بالحقيقة كان مشروعني قبل الأزمة التي حلت بسورية عام 2011 وما تزال... فقامت بإعادة كتابة اعترافات سميراميس وهي رواية تاريخية ولكنها حديثة في الوقت نفسه إذ تتحدث عن سميراميس الملكة الأسطورة وعن سميراميس حديثة بكل ما في عالمها الحديث من مشكلات وهموم.

انطلقت في هذا المشروع من مبدأ استحوذ على تفكيري فترة طويلة انطلاقاً من حاجتنا لإيصال أدبنا إلى الغرب، فتحسن غالباً ما نأخذ ولكننا لا نعطي، نتلقى أدب الغرب لكننا لا نوصل له أدبنا، وهذا مأزق خطير بالنسبة إلى قضايانا

الوطنية وهمومنا الاجتماعية، علينا أن نخرج منه ولا مخرج سوى بنقل شيء من أدبنا إلى لغته الأجنبية تلك لكي يقرأها الأمريكي والأوروبي والأسترالي، فنصح له ما يعتور رؤيته من أخطاء ومغالطات وتشوهات عملت الصهيونية طوال مائة عام وما تزال تعمل على غرسها في ذهن القارئ الغربي، خاصة وأن للأدب لاسيما الرواية تأثيراً في ذلك القارئ أبلغ بكثير من تأثير البحث والدراسة رغم عدم وجود هذه أيضاً للأسف.

فالرواية تخاطب الضمير والعواطف والمشاعر وهو ما يمكن أن يثير تعاطف القارئ الغربي ويجعله يتفهم قضايانا التي نعاني منها أشد المعاناة. وكاد مشروعني أن ينطلق قبل سنوات بترجمة رواية الحلقة المفرغة إلى اللغة الإنكليزية وهي الرواية التي تدور حول القضية الفلسطينية لكي يعرف أبناء بلفور ما فعله وعد بلفور بالشعب الفلسطيني، إلا أن ظروفنا حالت دون ذلك.

هذا الهدف ظل نصب عيني فقامت بترجمة رواية النمس والأفاعي الصادرة عام 2014 وفيها الكثير مما ينبغي إيصاله إلى القارئ الغربي، لكن الأزمة التي تعرضت لها سورية رفعت في وجهي حواجز كثيرة حالت دون نشرها، فقد اتصلت بدور نشر في إنكلترا وفرنسا وافقت كلها على النشر ولكن بشروط تعجيزية ما جعلني أقتنع أن مشروعاً كهذا لا يمكن القيام به عن بعد، بل يجب أن يتابع الكاتب مشروعاً بنفسه ويشرف عليه هناك، وهذا ما لا أستطيع القيام به إلا إذا ذهبت إلى هناك كلاجئ، وهو ما أرفضه رفضاً قاطعاً لأنني متمسك بجذوري ولا أستطيع الانفصال عنها.

لكن مؤخراً جاءني د. رسلان صاحب مؤسسة علاء الدين للنشر والتوزيع عارضاً عليّ أن ينشر الروايتين فوافقت على الفور. ولكن هذا لا يمنع إن تحسنت الظروف واستطعت السفر إلى أوروبا أن أنشرهما هناك وأنشر غيرهما فلدي الكثير من الأعمال التي أصبو إلى نشرها هناك.

- لديك رصيد كبير من الشعر لكن لماذا لا نجد لك دواوين منشورة؟ وهل سترجم أعمالك

الشعرية إلى الانكليزية؟ وما صعوبة ترجمة الشعر بشكل عام؟

— صحيح.. فالبداية كانت مع الشعر، بل مع الحكمة أيضاً، ففي قصيدة كتبتها وأنا في السابعة عشرة من عمري عام 1957:

إذا ما انطلقت بعزم الأبّي هوى كل سدّ إذن وانحطم
ومن يكُ شمساً تشعّ سنّاً به تتحطم دواجي الظلم
بلوت الحياة فعدت بأن عظيم الحياة عظيم الهمم

ولأن الشعر انفعالي عاطفي حاد النبرة لا يستطيع مراوغة ولا زوغاناً فقد كان الشعر دائماً رفيقي، أعبّر به عن ذاتي، أنفث به همومي فأستريح.

نشرت قصائد متفاوتة داخل سورية وخارجها، وعملت على نشر شعري بادئاً بأول ديوان بعنوان صلوات

للحرية لكنه ذهب إلى المطبعة قبل 4 سنوات ولم يخرج حتى الآن، فهل يشجع ذلك على نشر المزيد؟

أما عن ترجمة شعري إلى اللغة الإنكليزية فهذا حلم بالنسبة إليّ، وفيما يتعلق بصعوبات ترجمة الشعر

بشكل عام فرأيي أنها ليست صعبة بتاتاً شريطة أن يتوفر للمترجم الحسّ الشعري المرهف والتجربة

الشعرية الوافرة فيما يصعب ذلك على المترجم العادي، وحده الشاعر يستطيع نقل الشعر من اللغة

المصدر إلى اللغة الهدف، ولقد جرّبت ذلك حين ترجمت الموت عند مصب النهر من الأدب الياباني وفيه الكثير من الأشعار فخرج في النص العربي أشعاراً جميلة ترنّ موسيقاً وتقوح نكهة شعرية عذبة.

- لكل كاتب طريقته في الكتابة، حبذا لو نقدم طقوس

الكتابة لديك بشكل عام. وبالتالي طقوس الترجمة بدءاً

من اختيار النص المراد ترجمته.

— بالتأكيد لكل كاتب طريقته في الكتابة. تتشكل مع

الزمن وحسب الظروف فلا يعود باستطاعته تغييرها. أهم

طقوسي أنني أعمل في النهار وعلى ضوء الشمس فقط، ربما

لأنني ابن بارّ للطبيعة، لهذا غالباً ما كنت ألجأ إلى الطبيعة

حين أريد البدء بكتابة رواية.



في البداية أضع مخطط العمل ثم أجمع الوثائق إن كنت بحاجة إليها، بعد ذلك أصنّف المراجع اللازمة. هذا التحضير هو الذي يستغرق مني الوقت الأطول، فأنا حريص على وضع خطة كاملة مكتملة. خطة تستوفي كامل الشروط وتمهد لي الطريق للبدء بالكتابة براحة ويسر. اعتدت أن أبدأ الكتابة في بيتي الصيفي الريفي الهادئ بعيداً من المزعجات مع أشعة الصباح الأولى.. أجلس وراء طاولتي منعزلاً عن الآخرين. وكذلك الأمر عندما أكتب في منزلي بدمشق أغلق باب مكتبي الذي تفصله عن البيت ثلاثة أبواب، وأنا أعمل أربعة أيام في الأسبوع تفصل بينها أيام راحة أقوم خلالها بزيارة الأصدقاء ومتابعة الحياة الاجتماعية.

الأمر نفسه ينطبق على عملي في الترجمة لكن التحضير هنا هو قراءة الكتاب المراد ترجمته بعد أن أكون اخترته وفق معايير محددة أهمها: جدّة الكتاب، وأهمية الموضوع، وحاجة المكتبة العربية له. فما يهمني دائماً حين أختار النص هو القارئ العربي... ترى هل يهمه مثل هذا الكتاب أم لا؟ ما هي حاجته إليه؟ لذلك ركّزت في اختياراتي على العلوم الإنسانية، على الفكر والرواية إضافة إلى بعض الكتب السياسية والحربية التي غالباً ما كان يرشّحها لي صاحب دار النشر لكونها مطلوبة في سوق الكتاب العربي.

- شاركت في ترجمة الموسوعة العلمية الميسرة، هل وجدت عقبات فيما يخص المصطلحات العلمية؟ وما وجه الاختلاف بين الترجمة الأدبية والترجمة العلمية؟

في البداية شاركت في ترجمة موسوعة البريتانكا لصالح الموسوعة العربية الكبرى وهو المشروع الذي لم يَرَ النور حتى اليوم، كما شاركت في ترجمة الموسوعة العلمية الميسرة التي تتألف من عشرين جزءاً، ورغم أن ذلك كان في البدايات إلا أنني لا أذكر أنني واجهت صعوبات في ترجمة بعض موضوعاتها المكتوبة بلغة علمية صرفة في الطب والفلك والزراعة وغيرها.



وكان لدى وزارة الدفاع في السبعينيات من القرن الماضي مشروع «الموسوعة العربية الكبرى» فشاركت فيها بترجمة نحو مائتين وخمسين صفحة من الموسوعة البريطانية، لأشارك بعد ذلك في مشروع «الموسوعة العلمية الميسرة» الذي اضطلعت به وزارة الثقافة بترجمة عشرات الموضوعات فيه.

إلا أن الأمر لم يقتصر على المشاركة في ترجمة هذه الموسوعة بل صرت المسؤول عن ترجمتها ومراجعة ما يترجمه الآخرون بالتعاون مع زميلي «فؤاد خوري»، كما تابعتها طباعةً وتوزيعاً إلى أن صدر منها عشرة أجزاء تركت صدّي حسناً لدى القارئ العربي.



أما فيما يتعلق بالترجمة والمراجعة للأجزاء التي صدرت من هذه الموسوعة فقد كنا نعتمد على المعاجم المتخصصة (طبية - قانونية - اقتصادية - زراعية - عسكرية وغيرها).

بالمجمل كانت تجربة الموسوعة العلمية الميسرة تجربة رائعة ولكن ما يحزني في نفسي أنني لم أستطع إكمالها حتى الجزء العشرين لكوني انتقلت من مديرية التأليف والترجمة إلى رئاسة تحرير مجلة المعرفة فوقفت عند الجزء العاشر حيث لم يستطع من جاء بعدي العمل على طباعة بقية الأجزاء على الرغم من أنها كانت ويا للأسف مترجمة وجاهزة للطبع.

أما بالنسبة للاختلاف بين الترجمة الأدبية والترجمة العلمية فبالطبع هناك اختلاف نظراً لأن الكتابة العلمية تختلف عن الكتابة الأدبية فالأولى محدّدة جملتها قصيرة (معطيات وحقائق وأرقام)

لذلك ينبغي أن تكون ترجمتها محدّدة دقيقة لا مجال فيها للخيال أو التصرف. أما الترجمة الأدبية فيمكن فيها شيء من (التصرف، التقديم والتأخير) بحيث يحقق المترجم جمالية الترجمة وسلاسة الأسلوب ليخرج نصّه العربي بما يرضي ذوق القارئ العربي ويسحره.

- هناك بعض الكتب التي ترجمها آخرون وقيمت بمراجعتها، ما أهميتها؟

في بدايات عملي بوزارة الثقافة قمت بمراجعة العديد من الكتب، إذ كان يأتينا الكتاب مترجماً فنلقي نظرة عليه ونقيّم الترجمة لنجد أحياناً أن الكتاب مهمّ والموضوع جديد ينبغي توفيره للمكتبة العربية لكن الترجمة متعثرة كأن تعاني من عدم الدقة مثلاً أو من كثرة الأخطاء والانزياحات في المعنى، فتكلّف أحداً بمراجعة هذا الكتاب لتصويب ترجمته وتصحيح انزياحاته، وبذلك لا نخسر الكتاب ولا يضيع جهد المترجم. لكن حين لم أكن أجد مراجعاً كفوّاً للكتاب كنت أقوم بهذه المهمة بنفسني مثلما قمت بمراجعة الموسوعة العلمية الميسرة بكاملها. فراجعت مثلاً كتاب التغيير الاجتماعي: (مصادره، نماذجه، نتائج) ترجمة الراحل محمد حنون وهو من جزأين، كذلك راجعت الماهية والخرافة - دراسات في الميثولوجيا الشعبية ترجمة هيفاء هاشم، لكنني بعد ذلك أقلعت عن المراجعة كلياً ذلك أن هذا العمل يحتاج إلى وقت وجهد كبيرين، فالمراجع يضطر لأن يقرأ النص الأجنبي والنص العربي ربما أكثر من مرة كي يتمكن من تصويب ما يمكن تصويبه، وهذا يستهلك من الوقت ضعف ما تستهلكه الترجمة بالنسبة إليّ كما أن أخطاء المترجم قد تثير الأعصاب أحياناً.

ولا ننكر أن عملية المراجعة مهمة جداً في مجال الترجمة وضرورية جداً في بعض الأحيان خاصة فيما يتعلق ببعض الكتب التي تحتاج ترجمتها للكثير من الدقة والتمحيص.

- بعيداً من الترجمة، أنت روائي وقاص، وإحدى رواياتك الحلقة المفرغة بقيت حبيسة الأدراج أربعة عشر عاماً، فيما جرى حذف صفحات كثيرة من روايتك البحث عن نجم القطب، هل تعدُّ كتاباتك مشاكسة لتعرض للرفض تارة، ولقص الرقيب تارة أخرى؟

هذا صحيح، فرواية الحلقة المفرغة كتبها سنة 1971 لكنها لم ترَ النور حتى سنة 1984، كما أن رواية البحث عن نجم القطب تعرضت لحذف الكثير من الفقرات بل الصفحات أحياناً، وهكذا كل أعمالني تقريباً. فأخر أعمالني وهو بعنوان «الغريبان» تعرض هو الآخر لمقص الرقيب على الرغم من أنه يدور حول فاجعة حقيقية نزلت بمسقط رأسي المبعوجة على يد تنظيم داعش الإرهابي، ورأيت أن أسجلها روائياً كرمز عام للفاجعة التي حلت ببلدنا سورية كلها، فكنت حريصاً أن أسلط في الرواية الضوء على الفظائع التي ارتكبتها الدواعش والأهوال التي سببها لشعبنا الطيب، ومع ذلك تدخل الرقيب في الرواية، لأن أدبي مشاكس بل لأن نظرتنا للأمور مختلفة، فزاوية نظر الرقيب هي زاوية حادة دون الأخذ بالحسبان الأهداف التي يرمي إليها الكاتب، فأنا مثلاً أنطلق من مبدأ أساس يوجه كل كتاباتي يتمثل في أن الكاتب هو ضمير الشعب ولسانه الناطق، وعليه أن يرى الواقع بخيره وشره مسلطاً الضوء على السلبيات والإيجابيات، وأعتقد أن تلك هي رسالة الأديب الخاصة التي ينبغي عليه إيصالها من دون رقابة سوى رقابة الضمير.

- أعلنت مؤخراً أنك بصدد كتابة رواية من وحي الأزمة السورية التي وصفتها بأنها أخطر أزمة إنسانية في العصر الحالي، وبالتالي فإن الكتابة عنها لا بد أن تكون بمستوى فظاعة هذه الأزمة، هل أنجزت هذه الرواية؟

الحقيقة أنني كتبت روايتين عن الأزمة السورية الأولى هي الغريبان أما الثانية فعددتها ملحماً بثلاثية «المد والجزر». هذه الثلاثية التي بدأتها منذ ثمانينيات القرن الماضي وفيها الكثير من النقد والنقد الذاتي لكوني لا أستطيع إلا أن أنقد وأتكلم عن المسكوت عنه. هذه الرواية هي الأضخم والأشمل بوصفها تكمل ثلاثية المد والجزر وتشكل نهاية لها، وهي على وشك الاكتمال رغم أن الكتابة فيها صعبة، وإن كنت لا أدري إن كانت الرقابة ستسمح بنشرها أم لا.

- في روايتك النمس والأفاعي قبل الأزمة قاربت بعضاً من المعاناة التي يعيشها المواطن السوري في غربته، كيف تنظر اليوم إلى هجرة الشباب السوري والأدمغة السورية التي خسرتها وتخسرهما البلاد؟

في رواية النمس والأفاعي يهرب بطل الرواية خشية السجن، في البداية إلى لبنان ثم إلى أوروبا حيث يشعر بالضياع ويتوه في نفق الغربة المظلم، وعلى الرغم من نجاحه على الصعيد المادي وكسبه مالاً كثيراً بطرق ملتوية إلا أن حنينه إلى الوطن يبقى هو الطاغى على كل ما في حياته، ينتقل في دول أوروبا

كلها وله رصيد كبير في المصارف الا أنه كان على استعداد قبل موته متأثراً بمرض عضال لأن يدفع كل ما يملك لقاء عودته إلى الوطن، كل همه أن يعود إلى وطنه إن لم يكن حياً فميتاً ليحضنه تراب الوطن. كل مغترب يعيش في غربته وقلبه في وطنه، تلك هي حال الشباب السوري الذي هاجر أيام الأزمة دون أن يستطيع العودة، خيرة الأدمغة الشابة خسرها الوطن، وكما أتمنى أن تضع الحكومة خطة لإعادة هؤلاء الشباب إلى وطنهم لكي يساهموا في بنائه.

- اشتغلت خلال مسيرتك الثقافية في مفاصل عديدة (رئيس تحرير مجلة المعرفة - مدير التأليف والترجمة - عضو جمعية القصة والرواية في اتحاد الكتاب - عضو هيئة تحرير مجلة جسور) ماذا أضفت لك هذه التجارب، وماذا أضفت بدورك للمشهد الثقافي السوري؟

في عام 1990 كلفني وزيرة الثقافة آنذاك الدكتورة نجاح العطار بإنقاذ مجلة المعرفة بعد أن تردت بسبب مرض رئيس تحريرها الشاعر الراحل محمد عمران، وعند استلامي لرئاسة تحريرها عادت للصدور بشكل دوري وعادت موضوعاتها معرفية شاملة، كما أدخلت عليها تعديلات في الشكل (الغلاف، الورق، الإخراج) أي بما جعلها تقفز قفزة نوعية وتكسب كتاباً على الصعيد العربي وصارت منبراً للقلم العربي الحر، وتمتع بقدر كبير من الاستقلالية إلى درجة أسست معها لإطلاق مسابقة للرواية بجائزة مجزية.

ثم كلفني وزيرة الثقافة نجوى قصاب حسن باستلام مديرية التأليف والترجمة التي كانت تعاني آنذاك من وضع بائس، ولدى استلامي المديرية وجدت فيها أكثر من أربعمئة مخطوط مترجمة منذ سنوات عديدة دون أن تجد من يقرؤها ويبت فيها، مهمة شاقة كانت أمامي ولكني استطعت خلال أقل من عام النهوض بالمديرية وتفعيلها، كما عملت على زيادة التعرف بالنسبة للكتابة والترجمة.

وبعد بلوغي سن التقاعد انتُخبت عضواً في مجلس اتحاد الكتاب العرب وكذلك عضواً في مكتبه التنفيذي واستلمت مديرية الاستثمار، بالإضافة إلى رئاسة تحرير مجلة الآداب الأجنبية، فغيّرت اسمها إلى «الآداب العالمية»، وأدخلت تعديلات على نهجها حيث صارت تستقطب أقلام الكثير من المترجمين.

وبعد خمس سنوات انتقلت إلى رئاسة تحرير مجلة الأدب العربي، التي أنشأناها في ذلك الحين لمهمة جديدة هي ترجمة شئ من الآداب العربية إلى اللغة الإنكليزية.

وحين عادت مجلة جسور ثقافية إلى الصدور طلب إلي رئيس تحريرها الصديق حسام خضور أن أكون عضواً في هيئة تحريرها ومازلت فيها حتى اليوم.

رحلتي الطويلة والغنية مع المجالات أعطتني الكثير وأغنت تجربتي الحياتية والأدبية كل الإغناء وأكسبتني شعبية واسعة بين الكتاب، كما أضفت هذه التجارب إلى تجربتي الكثير: فمجلة المعرفة مدت لي جسوراً مع خيرة الكتاب السوريين والعرب، ومجلة الآداب العالمية فتحت لي أبواب الترجمة على مصاريعها فترجمنا من الأدب الأندونيسي والماليزي والهندي خاصة وأني قادت حملة يومذاك للخروج من أدب الإنكليز والفرنسيين والالتفات إلى الشعوب الأخرى وأدائها تلك التي لا نعرف عنها شيئاً. فيما جعلتني مجلة الأدب العربي أنتقل نقلة نوعية كنت منذ زمن طويل أحلم بها ألا وهي الترجمة من العربية إلى الإنكليزية ونشر أدبنا نحن وتقديمه إلى القارئ الأجنبي... أما ما أضفته أنا إلى المشهد الثقافي فأتركه للآخرين.

- معروف أنك إنسان طموح وطموحك لا يتوقف، ماذا حققت من طموحاتك المهنية، وما الذي لم

يتحقق منها؟

(بنفسي طموح كأنه روح الحياة فما يعتره هرم) ... هكذا كتبت وأنا ابن السابعة عشرة وهكذا ظللت... دأبي السعي نحو الأفضل، دأبي الإنجاز. أنجزت الكثير في مختلف مجالات الأدب وفي رصيدي عشرات الكتب في المكتبة العربية بل حتى في مكتبة الكونغرس الأمريكي التي تضم أربعة عشر كتاباً من تأليفي. ويسعدني أن يسأل زوار معارض الكتب في الخليج والعراق والمغرب وغيرها عن كتبي ومؤلفاتي.

أعمل منذ ثمانينيات القرن الماضي كمحكم في مجال الرواية والبحث والقصة والترجمة في وزارة الثقافة واتحاد الكتاب العرب، كذلك كنت حكماً طوال هذه الفترة في الكثير من المسابقات والجوائز الأدبية. أما ما لم أحققه من طموحاتي المهنية فقد سبق وذكرت معظمه وأهمه الانتقال إلى الأدب العالمي وتقديم بعض أعمالتي للقارئ العالمي بلغته الأم، كذلك هناك بعض الأعمال التي بدأتها ولم أتمكن من إكمالها مثل دراسة بعنوان سياسة الأمر الواقع، نظرية وممارسة في الوطن العربي التي صدر الجزء الأول منها في ثمانينيات القرن الماضي، أما الجزء الثاني فقد وجدت أن من المستحيل أن توافق عليه الرقابة في أي بلد عربي.

- لديك تجربة في الكتابة الدرامية، ما هي أهم الأعمال التي قدّمتها للدراما؟ وهل حوّلت إحدى

رواياتك إلى عمل درامي؟

تجربتي مع الدراما التلفزيونية تعود إلى أواخر سبعينيات القرن الماضي عندما قدمت للمشاهد العربي مسلسل الذئب وهو مسلسل تاريخي من ثلاث عشرة حلقة إخراج علاء الدين كوكش، وإنتاج التلفزيون العربي السوري. ونجح نجاحاً باهراً.

بعد ذلك كتبت أعمالاً عديدة منها ما هو تاريخي ومنها ما هو دراما اجتماعية مثل: (شعاع من أمل - برج العدالة - زهرة الزيزفون - حرائر النساء - محمد بن قاسم الثقفي... وغيرها) إلى أن طلبت مني شركة إنتاج كويتية أن أكتب مسلسلاً عن خالد بن الوليد فكتبت لها المسلسل بجزأين بُثّا عامي 2006 - 2007، لكن تجربتي مع هذه الشركة تبيّنت عزيّمتي وجعلتني أبتعد عن عالم الدراما بسبب تدخلها في النص والتغيير والتبديل فيه وخصوصاً الجزء الثاني ما جعل مستواه هابطاً مقارنة بالجزء الأول الذي أخرجه الصديق محمد عزيزية من الأردن وكان له صدى هائل على صعيد الوطن العربي.

وقبل بضع سنوات خطرت لي فكرة تحويل روايتي النمس والأفاعي إلى مسلسل تلفزيوني وأعتقد أنه سيكون مثيراً ومشوقاً لما فيه من المغامرات والحركة، فكتبته وقدمته إلى إحدى شركات الإنتاج السورية فكان جوابها أن المسلسل مكلف ولا طاقة للشركة بتنفيذه، فزاد ذلك من تشييط عزيّمتي وكففت عن التعامل مع هذا الفن الجميل الذي يفوق أي فن آخر من فنون الكتابة في انتشاره وتأثيره على الرغم من أنه ما يزال لدي عملاقان أو ثلاثة في هذا المجال.

- أي كتبك المترجمة أحبُّ إلى نفسك؟ حدِّثنا عنه بشيء من التفصيل؟

أعمال الكاتب أو المترجم مثل أولاده كلها غالية عليه لأنه يبذل الكثير من الوقت والجهد قبل أن ينجز العمل، لكن هناك كتاب ترجمته وأشعر أن له مكانة خاصة في قلبي، إنه رواية أطفال منتصف الليل للكاتب الباكستاني المثير للجدل والمقيم في إنكلترا سلمان رشدي وتدور حول عالم جديد بالنسبة إلينا عالم الهند بكل ما فيه من أساطير وخرافات وعجائب وغرائب، ترجمتها بطبعة فريدة من نوعها، حوالي خمسة آلاف نسخة، وكتب عنها المقالات النقدية وانتشرت انتشاراً واسعاً في سورية والوطن العربي، حتى إن اثنين من الأساتذة الذين درّسوني في الجامعة جاؤوا لزيارتي آنذاك وهنؤوني على هذه الترجمة.

- تعترض المؤلفين والمترجمين مشكلات مع دور النشر، ماهي المشكلات التي واجهتك في هذا المجال؟

لعل علاقتي مع دور النشر تختلف عن علاقة الكتاب الآخرين، فروايتي الأولى الحلقة المفرغة نشرت في دار الثقافة لصاحبها الراحل مدحت عكاش الذي كان من أعز أصدقائي، كما كانت مطابع وزارة الثقافة واتحاد الكتاب العرب بدمشق مفتوحة لي أنشر فيها ما أشاء، ولكن معظم أعمالني نشرت في دور نشر خاصة (مؤسسة علاء الدين - ودار التكوين - دار الفرقد) والدار الأخيرة تعاملت معها على صعيد الترجمة فقط، فترجمت لها أكثر من خمسة عشر كتاباً من أمهات الكتب الكلاسيكية. فأصحاب هذه الدور كلهم أصدقائي والتعاون بيننا جاء بتحصيل حاصل وبرغبة من كلا الطرفين.

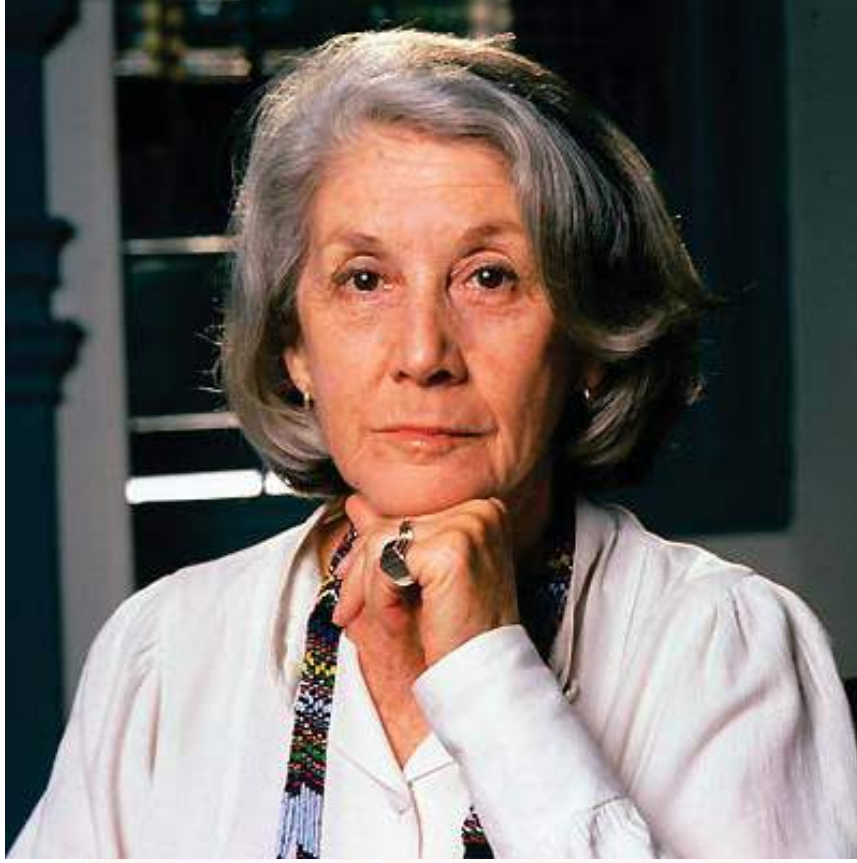
- في زمن التقنيات، والكتب الإلكترونية، وانشغال الناس بوسائل التواصل الاجتماعي، برأيك هل

ما زال للكتاب الورقي مكانته، أم انصرف عنه القراء وتراجع اهتمامهم به؟

لا ننكر أن بضاعة الكتاب في سورية كاسدة أصلاً والقراء قلة، وهذه الحقيقة يعرفها أصحاب دور النشر جيداً كما تعرفها وزارة الثقافة، ربما كان ذلك بسبب المستوى المعيشي للمواطن وانخفاض دخله. ولكن أرى أن التقانة والكتب الإلكترونية وانشغال الناس بوسائل التواصل لن تجعل الكتاب الورقي ينقرض، بل سيظل لهذا مكانته ولتلك مكانتها، ولا يمكن لهذه أن تلغي ذلك، خصوصاً أن للكتاب رصيده الكبير الذي يمتدُّ آلاف السنين فهو منجز مهمٌّ من منجزات الحضارة البشرية ولا يمكن لهذه الحضارة أن تستغني عنه أو تعيش من دونه، ويؤسفني أننا مقصرون جداً على صعيد الكتاب سواء الورقي أو الإلكتروني لهذا علينا أن نسعى جاهدين لأن نتجاوز هذا التقصير علناً نلحق بركب الحضارة والتقدم.

- بعد مسيرتك الطويلة في مجال الأدب، هل من كلمة أخيرة؟

- تعكس كتابتي سيرة وطني، وأنا على يقين أن الأجيال القادمة ستستفيد مما كتبت، فقد كتبت للتاريخ كشاهد عيان على مرحلة مفصلية من تاريخه، شاهد عيان لا يهمه إلا الحقيقة والحق، يبحث عنهما ليسجلهما للمستقبل على أمل أن يصير لدينا القارئ الذي يبحث عن المعرفة، والناقد الموضوعي النزيه. ■



شخصية العدد

نادين غوردنير



نادين غورديمر Nadine Gordimer (20 تشرين الثاني 1923-13 تموز 2014)

الكتابة محاولة لفهم الحياة

ولدت نادين غورديمر في 20 تشرين الثاني عام 1923 في سبرينغز، ترانسفال [غوتغ الآن] في جنوب أفريقيا، وتوفيت في 13 تموز عام 2014 في جوهانسبرغ، وهي روائية وكاتبة قصة قصيرة من سكان جنوب أفريقيا البيض. تناولت موضوعاتها الرئيسية في كتاباتها المنفى والاعتراب وتبعات الفصل العنصري. حازت جائزة نوبل في الآداب عام 1991.

ولدت غورديمر في عائلة من الطبقة الوسطى وبدأت القراءة في سن مبكرة. بدأت الكتابة في سن التاسعة، ونشرت قصتها الأولى في مجلة عندما كانت في سن الخامسة عشرة. أطلعتها قراءتها الواسعة على العالم على الجانب الآخر لسياسة الفصل العنصري - السياسة الرسمية لجنوب أفريقيا للفصل العنصري - وتطور هذا الاكتشاف مع الوقت إلى معارضة سياسية قوية لنظام الفصل العنصري. ألفت محاضرات ودرّست في مدارس مختلفة في الولايات المتحدة خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي.

نشرت أول مجموعة قصصية لها بعنوان: وجهاً لوجه عام 1949، وهو مجموعة من القصص القصيرة. وفي عام 1953 نشرت رواية الأيام الكاذبة. يعرض كلاهما الأسلوب الواضح والمسيطر وغير العاطفي الذي أصبح السمة المميزة لها. تتعلق قصصها بالآثار المدمرة للفصل العنصري على حياة مواطني جنوب أفريقيا - التوتر المستمر بين العزلة الشخصية والالتزام بالعدالة الاجتماعية، والخدر الناجم عن عدم الرغبة في قبول الفصل العنصري، وعدم القدرة على تغييره، ورفض المنفى.

فازت رواية غورديمر الناشط البيئي بجائزة بوكر عام 1974. وتتالت رواياتها اللاحقة: ابنة برغر عام 1979، وشعب تموز عام 1981، ورياضة الطبيعة عام 1987، وقصة ابني عام 1990 وغيرها. تناولت غورديمر القضايا البيئية في قصتها: امتلك حياة عام 2005، التي تتحدث عن عالم بيئة من جنوب إفريقيا يصبح مشعاً بعد تلقي علاج الغدة الدرقية، وبالتالي يشكل خطراً على الآخرين. ونُشرت روايتها الأخيرة، لا زمن مثل الوقت الحاضر عام 2012، وتدور حول مناضلين مخضرمين في مقاومة نظام الفصل العنصري يعالجون القضايا التي تواجه المجتمع الحديث في جنوب أفريقيا.

كتبت غورديمر عدداً من مجموعات القصص القصيرة تتضمن عناق جندي عام 1980، وجرائم الضمير عام 1991، وقصص أخرى كثيرة. بالإضافة إلى الكتابة، ألفت محاضرات ودرّست في جامعات مختلفة في الولايات المتحدة خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. وفي العام 2007 حصلت غورديمر على وسام جوقة الشرف الفرنسي.

«لا أبكي. يبدو لي أنني لا أملك دموعاً كافية. لذلك يظل الأسف ساكناً داخلي.»



حوار مع الكاتبة نادين غورديمر

حوار: سايمون ستانفورد⁽¹⁾

ترجمة: حسام الدين خضور

«لم تكن تتخيل أنها ستقابل أو تعرف أشخاصاً سوداً يشاركونها اهتماماتها!»
نادين غورديمر: لست كاتبة سيرة ذاتية. لكن روايتي الأولى احتوت على الكثير من سيرتي.
 • لأنني أقرأ كثيراً اكتشفت أنه يوجد عنصرية في العالم الذي أعيش فيه وأنا جزء منه.
 • لا أستطيع أن أكتب رواية تاريخية لأنني لا أملك البراعة والقدرة على إجراء البحث الضروري.

تتحدث نادين غورديمر عن طفولتها في جنوب أفريقيا؛ كيف غدت تعي العنصرية حولها؛ روايتها الأولى وتطور كتابتها؛ التغييرات في المجتمع جنوب الأفريقي؛ أنطولوجيا «سرد حكايات»؛ وحصولها على جائزة نوبل.

(1) سايمون ستانفورد، صحفي مستقل وصانع أفلام وثائقية.

• كاتب ومترجم سوري.

- نادين غورديمر أهلا بك في مقابلتنا.

ن.غ.: شكراً لكم.

- من أي أصول جاءت نادين غورديمر لتولد في مدينة تعدين الذهب في جنوب أفريقيا؟

ن.غ.: من الخلفية المعتادة للبيض في جنوب أفريقيا. جاءت والدتي من إنكلترا، وأبي من لاتفيا.

- هل هذا نوع من الطبقة الوسطى البيضاء النموذجية للخلفية الاجتماعية؟

ن.غ.: لا، ما قصدته هو أن كل شخص أبيض تقريباً، ربما لجيل أو جيلين، أو حتى ثلاثة أجيال قبل،

جاء من أجزاء مختلفة من أوروبا. لذا فإن الخلفية الخاصة بي ليست تلك، إنها مجرد رقم.

- ماذا كان شعورك خلال شبابك، خلال طفولتك؛ هل شعرت بأنك جزء من النخبة التي تمتلك

جنوب أفريقيا؟

ن.غ.: كان ذلك طبيعياً، إذا كان بإمكانك تسمية خلفيتي نخبة. كانت مدينة صغيرة لتعدين الذهب،

لكن طبعا، كون المرء أبيض في جنوب أفريقيا، إلى أن حدث التغيير وحصلنا على حريتنا، أن يكون أبيض

يعني أن ينتمي تلقائياً إلى الطبقة الحاكمة، بغض النظر عن مدى تواضع انتمائه الطبقي كأبيض.

- هل شعرت بذلك التواضع في البداية؟

ن.غ.: لا، لم أشعر بذلك على الإطلاق، لأنه طبيعي أن يتقبل الطفل البيئة التي يعيش فيها. ذهبت

إلى مدرسة في أحد الأديرة. طبعا لم تكن مختلطة؛ لذلك ذهبت إلى مدرسة الدير تلك. كنا جميعاً من

العرق الأبيض. كانت الفتيات الأخريات بياضوات. في أيام السبت، عندما نحصل على مصروف الجيب،

كان يمكننا أن نذهب إلى السينما، لم يخطر لي مطلقاً، كطفل، كما أظن، أو لأي من الأخريات كطفلات

صغيرات، أنه لم يوجد أطفال سود هناك؛ لم يذهب الأطفال السود إلى المدرسة والسينما.

كان الشيء الأهم مكتبة البلدية المحلية... كانت أمي تقرأ كثيراً وهي، بعد أن قرأت لنا، أختي وأنا

عندما كنا صغيرتين، عندما كنت في السادسة من عمري، سُجِلت في مكتبة الأطفال، وتلك المكتبة ما زلت

حقاً أعدها مصدر تعليمي أساسي، لأنه من دون تلك المكتبة أعتقد أنه ما كنت لأغدو كاتبة، لأن الطريقة

الوحيدة التي يمكنك من خلالها أن تصير كاتباً، التدريب الوحيد هو أن تقرأ، ولو كنت طفلة سوداء لما

استطعت أن أستخدم تلك المكتبة.

- في أي مرحلة من طفولتك أدركت أنك كنت جزءاً من نخبة مميزة وأنه يوجد اختلال توازن هائل؟

ن.غ.: أعتقد أن الأمر بدأ، كما تعلم، بلغة أقل رسمية، جاء من التجربة. عندما كنت أسير إلى مدرسة

الدير الخاصة عبر سهب أخضر، كان على اليسار أحد المناجم الكبيرة، منجم الينابيع (Springs

mine)، وكان هناك مجمع عاش فيه عمال المناجم السود الذين جاؤوا من أنحاء أفريقيا جميعها. وقد

حُدِّرت دائماً، الآن تعرفين لا تذهبي إلى أي مكان قريب من أولاد المنجم. لذلك غُرست بالخوف من

السواد على الرغم من وجود الخادمة السوداء في الأعمال جميعها، مربية، أيا كان في المنزل، لكنها بالطبع

كانت امرأة. كانت سوداء، لكنها على الأقل لم يبد أنها تمثل التهديد الجنسي الذي كان موجوداً دائماً في

مواقف البيض تجاه السود، وما عدوه تهديداً، كما لو أن كل عامل منجم أسود كان يكمن هناك ليقفز على

تلميذة صغيرة بشعة عمرها 10 سنوات. لكن لكي نكون جادين في ذلك، كانت ثمة متاجر خاصة بالمنجم.

كانت المناجم تبني صفًا من المتاجر الصغيرة تؤجرها كامتياز للسكان المحليين الذين أرادوا أن يشغلوها. كانت الغاية من ذلك منع عمال المناجم من الذهاب إلى المدينة. كنت أمر عبر تلك المتاجر، وأرى كيف أن عمال المناجم، كثيرون منهم ما زالوا في ملابس تشبه ثياب السفر وبطانيات وما شابه ذلك، وما غدا الآن جدائل لكنها كانت مجرد طريقة تسريح شعورهم، يريدون شراء شيء ما. النضد حالياً، كان عليه عندئذٍ سلك قوي، نوع من سياج بين صاحب المتجر والزبون. كان الزبون يشير إلى هذا الشيء أو ذاك، وكان صاحب المحل ينزله. لم يستطع الزبون الأسود أن يجرب أي شيء، ولم يستطع أن يلمس أي شيء لمعرفة ما إذا كان ما يريده. كان عليه أن يدفع نقوده عبر النضد، ثم يحصل على السلع. وأنا طفلة لم أستطع إلا أن أفكر في أن هذا غريب، لأنني عندما كنت أذهب مع والدتي إلى المدينة وأشتري زوجاً من أحذية أو فستاناً أو أي شيء، كنا ندخل إلى حجرة صغيرة ونجربه. لماذا يجب على هؤلاء السود أن يشيروا إلى شيء ما، ولا يمكنهم حتى النظر إليه ومعرفة ماهيته، وما هي صفته حقاً. وبالتالي جعلتني مثل هذه الحوادث أفكر في الاختلاف.

وثمة مسألة مدهمات الخمور أيضاً. كانت طبعاً في ذلك الوقت، أنا أتحدث عن الثلاثينيات الآن، وأواخر الثلاثينيات. كان ممنوعاً على السود شراء الخمور، لذا كان السود يصنعون جعتهم الخاصة في كل مكان، وفي كل الأرجاء، في أفناء منازل البيض، وعندما غدوت أكبر سناً، أظن في سن الحادية عشرة، حدثت مدهمة في أحد الأيام. استيقظت، واستيقظ والداي. خرجنا إلى الفناء، وكان هناك رجال شرطة، بيض وسود، يقبلون كل شيء رأساً على عقب في غرفة الخادمة. هذه الخادمة العجوز لدينا منذ أن كنت في الثانية من عمري، يقبلون فراشها، وينزعون ملابسها، بحثاً عن الجعة. وقف والداي، ولم يقولوا: «أين مذكرتكم للتفتيش؟ أنتم تدخلون منزلي.» لقد قبلاً ذلك ببساطة وجرى إذلال المرأة، وفي الحقيقة، كانت تلك الحادثة وراء أولى القصص التي كتبتها للكبار في حياتي.

بعد مضي سنتين إلى ثلاث سنوات، عندما كنت في الخامسة عشرة، كتبت قصة ظهرت بالفعل في عام 1939، العام الذي اندلعت فيه الحرب، في إحدى المجلات مجلة أدبية في جنوب أفريقيا. لم يعرف أحد أنني طفلة، لكن الحقيقة التي أردت أن أوضحها هي أن هذا كان شيئاً مؤلماً جداً رأيته مع هذه المرأة، حيث أن هذين الشئيين اللذين وصفتهما لك معاً، جعلاني أفكر في الطريقة التي كنا نعيش فيها، ولماذا نعيش على هذا النحو، ومن نحن لنحصل على الامتيازات التي لا يتمتع بها شخص آخر إذا كان من اللون الخطأ؟

- هل تعتقد أن أنه بمجرد أن بدأت في إدراك هذا الظلم، هذا الإذلال، بدأت في تجميع صورة ثلاثية

الأبعاد أكثر للسود في جنوب أفريقيا بعكس كثيرين من مواطني جنوب أفريقيا الذين دعموا الفصل

العنصري أو تجاهلوه، ولم ينظروا إلى السود كناس حقيقيين بالنسبة إليهم؟

ن. غ.: نعم، لكنني أعتقد أن على المرء أن يأخذ الظروف بالحسبان. لم يكن متخيلاً بالنسبة إليّ أن أقابل أو أعرف أشخاصاً سوداً يشاركونني اهتماماتي، بعبارة أخرى، أن يوجد أي نوع من العلاقات الطبيعية واللقاء. كان دائماً على أساس الخادم/ السيد، وحتى لو كنت ابن السيد أو السيدة، ستبقى تمتلك هذه المكانة الخاصة، لكن كوني نفرت من ذلك، وكوني قارئاً عظيمة كما كنت دائماً، شرعت أكتشف أنه يوجد شيء يسمى عنصرية في العالم وأنتي أعيش فيه، وأنتي جزء منه.

وبعد ذلك عندما كبرت وذهبت لفترة وجيزة إلى الجامعة أستقل القطار كل يوم، التقيت هناك أول مرة، حتى في ذلك الوقت كان هناك واحد أو اثنان، كان هناك عدد قليل من الشبان السود. تذكر أن الجامعة

كانت طبعاً للبيض، لكن كانت هناك دورات معينة لم تكن متوفرة في جامعات السود، عندئذٍ، كامتياز، في مستوى التخرج، ومستوى ما بعد التخرج، كان هناك عدد قليل من السود، وهكذا قابلت واحداً أو اثنين من السود، مع من تشاركت أشياء كثيرة أكثر مما شاركتها مع الشبان البيض الذين عرفتهم في المدينة. لم أكن رياضية. أشياء كثيرة فعلوها لم تكن ذات أهمية خاصة لي، وهنا كان شبان، سود، كانوا يحاولون أن يكتبوا، وبدأوا يكتبون. لذلك كان لدينا هذا الطموح العظيم، ليس مجرد طموح، كان لدينا هذا الأسلوب العظيم في التعامل مع الحياة ولغز الحياة والأسئلة الاجتماعية في حياتنا، ثم بدأت، في ذلك العمر، في اتخاذ أصدقاء سود. وبعدئذٍ، عندما أصبحت كاتبة شابة لديّ كتيبي المنشورة، انتقلت إلى دائرة مختلفة، كانت، مرة أخرى، من الصحفيين، والممثلين، أشخاص مهتمون بالفنون الذين عادة لا يتبعون القواعد، القواعد المحافظة، وحيث الشعور بالتشوهات المذهلة للعنصرية، ليس اضطهاد السود وحسب، بل التشوهات في شخصية المرء، في عقل المرء كأبيض، وقد غدت هذه الأشياء جزءاً كبيراً من حياتي، وبدأت بالفعل طريقي إلى التحرر من العنصرية، من الأفكار العنصرية التي انغرست في ذهني في المدرسة، وفي المنزل، وفي كل مكان منذ الطفولة.

- تصفين نفسك بأنك كاتبة بالفطرة. ربما كان بعض الأشخاص الآخرين الذين التقيت بهم كتاباً بالفطرة أيضاً.
ن.غ.: نعم.

- كما تعلمين، كان هناك اعتراف بالظلم. لا بد أنه كان هناك الغضب الذي شعرت به. ما الذي غذى صوتك وعززته؟

ن.غ.: حسن، أعتقد أن ذلك فعل فعله، وبعد ذلك، طبعاً، عنى هذا أنه امتد إلى الأوقات التي تعرّض فيها الأشخاص لمشكلات بحسب ما يعتقدون، وإذا كان المرء أسود، كانت العواقب وخيمة. حيث غدت اتصالات المرء، التي كانت شخصية وعبر الفنون، سياسية، ووقع الأصدقاء في مشكلات، ووجد المرء نفسه مضطراً، في الواقع، عندما تستجوبه الشرطة أن يكذب، ليقول إنه لم يرههم أو لم يكن يعرفهم. صنع الفصل العنصري كاذباً رائعاً من كل من كان ضده. كان على المرء أن يكذب للحفاظ على حياة أصدقائه والآخرين، ولا يبالي بالكذب في هذه الحال. وبالتالي في الحقيقة تطور الاثنان معاً.

- لديك جيل كامل نشأ في ظل نظام الفصل العنصري، يتلقى أطفاله الآن نوعاً مختلفاً من التعليم. هل ثمة فجوة بين الأجيال لا تقدم نوع الدعم الضروري لرعاية الكتاب الشبان؟

ن.غ.: نعم، لكن هذا ليس شيئاً يميزه اللون. الأطفال السود والأطفال البيض، يعودون إلى المنزل من المدرسة، ويشغلون التلفزيون؛ وقصة ما قبل النوم لم تعد موجودة. يضع أحد الوالدين الطفل أمام التلفزيون ويشغل برنامج الأطفال وهذا كل شيء. لم تعد الأم أو الأب يقرأ لهم البتة. عندما يقرأ لك، ربما أنت، أنت شاب لكنك من جيل ربما قرئ له، تبدأ تفكر بالكلمات وتريد التعرف إليها بنفسك وتغدو متعلماً. لدينا مشكلة كبيرة مع الأمية. لدينا نسبة عالية من الأمية وأعزوها إلى حقيقة أن الناس لا يحصلون على المتعة واللذة في الكتاب. إن الاضطرار إلى قراءة كتاب معين في المدرسة شيء، إنها مهمة، لكن أن تسلي نفسك وتدعها تدخل إلى عالم آخر، فهذا أمر مختلف حقاً، لكن هذا طبعاً يغدو عالمياً تقريباً. قرأت منذ أيام كيف انخفض مستوى معرفة القراءة والكتابة في إنكلترا وأمريكا.

- لذلك تجاوزت هذا النوع من الخصوصيات المميزة للفصل العنصري. أنت ترين ذلك أنه مشكلة عالمية؟

ن.غ.: نعم، ليس لهذا علاقة بالفصل العنصري. هذا هو خطر الصورة على الكلمة، على الكلمة المكتوبة، على الكلمة المنشورة في كتاب.

- كانت كتابتك المبكرة، «الأيام الكاذبة»، نوعاً من بلوغ سن الرشد، وإدراك... أول تعبير عن فهمك

المجتمع حولك؟

ن.غ.: كنت أكتب القصص، التي كانت فعلاً تبحث في سؤال كيف نعيش، ومن ثم الرواية الأولى، إنها الشيء الوحيد الذي كتبتة في رواياتي الأربع عشرة، وفي كتبي القصصية التسعة أو العشرة؛ إنها السيرة الذاتية الوحيدة. أنا لست كاتبة تستخدم حياتها. يتسع نطاق كتاباتي بلغة من هي الشخصية المركزية، وسواء كانت في ضمير المتكلم، أو بصيغة الغائب، أو مزيج من الاثنين، لست كاتبة سيرة ذاتية. لكن الرواية الأولى، مثل الرواية الأولى للكتاب جميعهم، احتوت على الكثير من عناصر السيرة الذاتية وأعتقد أن الرواية الأولى عادة ما تكون نوعاً من انتقام من خلفية الكاتب، وكما تعلم، عليك أن تتخلص منها.

- أنت تكتبين من وجهات نظر شديدة التنوع، وشخصيات متنوعة للغاية، ومواقف متنوعة. أنت

تكتبين عن الجندر (الجنسين)، وتكتبين عن الجنس، وتكتبين عن الظلم، وتكتبين عن العرق.

ن.غ.: لكنني أكتب عنها من الداخل. أنا لا أكتب عنها. أكتب عن كيفية تشكيلها للأشخاص الذين شكلتهم. أن تكتب عن ذلك هو ألا تكتب عملاً قصصياً، هو أن تكتب مقالات، وقد فعلت ذلك طبعاً، لكنني في رواياتي وقصصي لا أكتب عنها...

- أنت تكتبين كثيراً بصفتك شخصاً من الداخل، من مواقف متنوعة جداً. لقد قرأت للتو بعض

قصصك القصيرة في مجموعتك غنيمة (Loot). على سبيل المثال، «بيان المهمة»، كما تعلمين، صورة

حميمة جداً جداً من داخل موقف معين، من داخل حياة شخص ما. كيف أمكنك أن تدخل إلى عوالم

مثل هذه الشخصيات المتنوعة جداً في مواقف متنوعة؟

ن.غ.: لا يسعني إلا أن أقول إنني لا أعرف. أنا حقاً لا أعرف.

- لكن هل ثمة عملية، لأنه واضح أنك تظهرين معرفة حميمة في هذه الحالة في عالم عامل إغاثة

ما. هل تدخلين في تجربة هذه المواقف على نحو فاعل، وتتعرفين إلى هذا النوع من الناس؟

ن.غ.: لا، أنا لست صحفية، أنا لا أفعل هذا، لكن طبعاً عرفت، في حياتي الطويلة، مجموعة متنوعة من الناس، وكما قلت، هناك فضول تجاه الآخرين وكذلك الاهتمام بما يفكرون أو يفعلون والطريقة التي يتخلون بها عن مشاعرهم الحقيقية. لكنني لا أستطيع شرح ذلك، ولا أعتقد أن أي كاتب يمكنه شرح ذلك. يحدث هذا طبعاً، هناك بعض الأشخاص، وهناك بعض المناسبات في حياتك عندما تشارك إحدى شخصياتك في جانب معين من الحياة، الذي لا تعرف الكثير عنه، قد يستمتع آخرون بهذا، لكن عليّ أن أجبر نفسي، على مضض شديد، على الخوض فيما يسمى البحث للتأكد من أنني لم أستخدم المصطلح الخاطئ أو أي شيء آخر، لكن هذا غير مرجح لديّ إلى حد كبير. على سبيل المثال، أنا لا أستطيع أن أكتب رواية تاريخية لأنني لا أملك البراعة والقدرة على إجراء البحث الضروري.

- والتعليم. لقد التحقت بجامعة ويتس، ولم تتخرجي.

ن.غ.: نعم لم أخرج، التحقت بالجامعة لمدة عام فقط، ولم أحضر إلا دورات متباعدة.

- أليس هذا غريباً بالنسبة إلى مؤلف بمكانتك، كما تعلمين، جاءت العملية من الداخل؟ كيف طوّرت نفسك ككاتبة؟ كيف طوّرت طاقات اللغة، طاقات الوصف، المصطلح الذي ابتكرته أنت؟ من أين جاء هذا كله؟ هل هذا مجرد عمل شاق؟

ن.غ.: ليس من البحث في الكتب، من القراءة منذ أن كنت في السادسة من عمري، حقاً.

- هل هذا فرع معرفة حقيقي؟

ن.غ.: والحياة طبعاً. لا، لم تكن فرع معرفة قط، كما تعلم، هي متعة هائلة، متعة لا تنتهي في حياتي، لكن لا يمكن لأحد أن يفسّرهما. أفترض أن حب الكلمات يبرز إلى الوجود، لكن من أين تأتي الكلمات إذا لم تحصل على تعليم أكاديمي طويل، وهو ما لم أحصل عليه بالتأكيد. لا أعلم. هل كنت لأغدو كاتبة من نوع مختلف، أسأل نفسي أحياناً. من ناحية أخرى، غالباً ما أرى في أدب الأكاديميين القصصي التخشب وجمود اللغة الأكاديمية الطاغية. لذلك ربما كنت محظوظة. الشيء الوحيد الذي أندم عليه حقاً هو أنني كنت أرغب في دراسة اللغات، لغات أكثر.

- لغات أخرى؟

ن.غ.: نعم، واضح أنني أعني أن اللغة الإنجليزية هي لغتي ولكن فقط لأدرس اللغات الأجنبية وليس لأتعلّم لغة أفريقية ما. لذا مثل معظم مواطني جنوب أفريقيا، أجلس هناك مع أصدقائي السود ونتحدث جميعاً باللغة الإنجليزية وبعد ذلك قد أخرج من الغرفة ربما للحصول على وعاء من الثلج أو شيء ما والعودة، فنحن نتناول المشروبات معاً، فأجدهم يتحدثون لغتهم الخاصة. إنهم يتحدثون لغة سيتسوانا، ويتحدثون لغة الزولو، أو أي لغة أخرى محلية، عندئذٍ أشعر أنني غريبة في بلدي وبين شعبي. لذلك هذا ما أندم عليه كثيراً في حياتي.

- لقد توقعت أنك ربما غدوت كاتبة من نوع مختلف لو امتلكت خلفية أكاديمية أعلى. وطبعاً ربما كنت كاتبة من نوع مختلف تماماً لو لم تختبري الظلم والمواجهة والصراع وصدمة تنامي ذلك في الجانب الذي اخترت أن تكوني فيه.

ن.غ.: لا، ما كنت لأغدو ذلك. إذا كنت تعد لتصير كاتباً، يمكنك أن تجعل من موت عصفور كناري أمراً مهماً، يمكنك أن تربط ذلك بسلسلة الحياة كلها، وبغموض الحياة. بالنسبة إليّ ما هو غرض الكتابة؟ بالنسبة لي شخصياً، لا أعرف [الكتاب] الآخرين، إنه حقاً تفسير لغز الحياة، ويتضمن لغز الحياة طبعاً القوى الشخصية والسياسية التي تجعلنا ما نحن، بينما توجد قوة أخرى داخلنا تصارع لتجعلنا شيئاً آخر.

- ما هي القصص التي سنشاهد قديمها؟

ن.غ.: يجب أن أقول، في الموضوع الآخر، إنني غير متديّنة. ربما لو كان لدي دين ما، لاعتقدت أن ثمة إجابة ما للغز الحياة، لكن بصفتي غير متديّنة وبكل تواضع، أعلم أنه لا يوجد دين يمكنه أن يقدم لي تلك الإجابة.

- لسنوات عديدة، كان جلُّ الثقافة والفن والمسرح والكتابة في جنوب أفريقيا قائماً على معرفة واسعة بالنضال ضد الفصل العنصري. هل سيظهر نوع من التحرر في الفنون حيث يكون الناس قادرين على المواجهة والتعبير عن مزيد من الكشف عن مشكلات الذات الشخصية والحميمية في الوقت الحاضر؟

ن.غ.: لا أحب أن أرى الأدب يتحوّل إلى داخل الذات. لا أحب أن أراه يفكر ملياً بحبل سرتها الأدبية. التغيير استثنائي جداً ومع نمو جيل جديد في ظروف مختلفة تماماً عن تلك التي أعرفها أنا أو أطفالي أو أحفادي حقاً، توجد أشياء كثيرة غير مكتشفة، ويوجد غموض كبير حول الطريقة التي نحب أن نُكتشف

فيها الآن، وأنا أنتظر في الوقت الحاضر، ليس بفارغ الصب، أن أرى بعض من هذا يُعبّر عنه في [كتابة] الكتاب الشباب في الآونة الراهنة.

ثمة أشخاص يكتبون جيداً لكنهم مهووسون بالماضي. هم كتاب سود على وجه الخصوص، وهذا مفهوم بسبب عبء كل ما كان على ظهورهم، يثقل كاهلهم، ويغيّر حياة آبائهم وأجدادهم وما شابه ذلك. التغيير، ما أقوله، لم يتغيروا، كان كل واحد مثل السابق تماماً. ثم يبدو أن هذا شيء يريدون التعبير عنه كله. إنها عودة المكبوت بالمصطلحات الفرويدية، لكن يبدو أن ذلك يحدث مع البيض أيضاً، كان هناك تدفق كبير في الكتب، إنه كتاب الضرب على الصدر. أوه، لم أستطع تحمل ذلك، كان والداي عنصريين وهكذا، كما تعلم، كنت دائماً غير مرتاحة حيال ذلك. هذا شيء يجب أن تذهب إلى طبيبك النفسي من أجله، لا أن تجعله يضايق أي شخص آخر. هذا لا يعني أن تجربة البيض ليست ذات صلة، بالطبع لم تكن كذلك، لكنني أحب أن أرى كثيراً مما يحدث الآن، لأن الأشياء الصغيرة بالنسبة إليّ ليست صغيرة جداً. إنها حوادث صغيرة، لكن لها عواقب اجتماعية كبيرة.

بالقرب من المكان الذي أعيش فيه توجد مدرسة ابتدائية، كانت طبعاً للبيض دائماً. مدرسة جميلة جداً، ليست كبيرة جداً. الآن، إذا مشيت هناك، وكان ثمة استراحة، وقت استراحة الغداء، يخرج الأطفال، هم صغار، هي مدرسة ابتدائية ولا تزال تمنحني نوعاً من الانشراح عندما أرى ولدين، صبياً أسود وصبياً أبيض. أنت تعرف كيف تصارعتم جميعاً، كنت صبياً ومن الطبيعي أن يلعب الأولاد الصغار نوعاً ما من المعارك، ويصارع بعضهم بعضاً، لكن هذا أبيض وأسود. كان هذا لا يمكن التفكير به حتى في زمن أطفالي، ثم اذهب إلى مسرحية أو فيلم، وهناك ترى زوجين مختلطين؛ زوجان أسود/ أبيض على هذا الجانب، وترى اثنين من السود في ذلك الجانب. هذا يمنحني صدمة فرح.

- وقد أعلنت نفسك في حياتك العامة، في وقت مبكر جداً، أنك معارضة قوية ونشطة للفصل

العنصري. الآن حقبة جديدة وأعني عام 2001 أنه كان لك موقف استبعدت فيه برنامج شعب تموز (People's July) من التوصية...

ن. غ.: في إقليم واحد.

- في إقليم واحد بالضبط.

ن. غ.: ليس على المستوى الوطني...

- ... وانتهى الأمر بسرعة كبيرة، لكن لا بد أن ذلك شكّل صدمة. ربما كان مجرد انحراف، لكن هل

ما زلت تواجهين مظالم مجتمع جنوب أفريقيا الجديد؟

ن. غ.: نعم، حقاً. أنا لا أتحدث عن هذا الحادث الصغير مع شعب تموز (People's July). أنا أتحدث على سبيل المثال عن الموقف من الإيدز، عن التردد في الحكومة. لقد استغرق الأمر وقتاً طويلاً لحملها على التحرك، ولا يزال وزير الصحة متردداً جداً بالفعل في قبول أن الأدوية المضادة للفيروسات العكوسة ضرورية جداً. لا أحد ينكر أنه يجب على المرء أيضاً أن يتغذى بشكل لائق، وأن يكون لديه ظروف معيشية تسمح له بالفعل أن يدعم العلاج بتغذية جسمه، لكن هذا الإنكار ضد الحاجة إلى الأدوية شيء تحدثت وما زلت أشعر بأسف شديد لأن رئيسنا، الذي أحترمه وأؤيده في أشياء أخرى يفعلها، أعتقد أنه رئيس ممتاز، لكن

لا يمكنني قبول أو فهم افتقاره إلى الإصرار وعدم اقتناعه بأنه يجب علينا معالجة فيروس نقص المناعة/ الإيدز بالعقاقير، والأدوية المناسبة، وأن العلاقة بين فيروس نقص المناعة والإيدز قد ثبتت مراراً وتكراراً، وهو ما يزعجني لأنه رجل يتمتع بذكاء رائع حقاً، رجل من هذا العالم، ينكر ذلك بطريقة أو بأخرى.

- لقد صنفت هذه المجموعة الرائعة من قصص كتاب متميزين بأنها بيان عالمي. هل يمكنك إخبارنا

قليلاً عن «سرد الحكايات»؟

ن.غ.: حسن، الآن أعتقد أنه قبل 15 شهراً، كانت هناك، ولا تزال بالطبع، هذه المناسبات الموسيقية الكبيرة الرائعة لا سيما نجوم البوب والموسيقيون والمغنون، وبعض الموسيقيين الكلاسيكيين أيضاً، جرت تلك الحفلات الكبيرة حيث قاموا بأداء رائع، وحيث جمعوا بالفعل الأموال لقضية المصابين بفيروس نقص المناعة/ الإيدز، وفي الوقت نفسه، رفعوا وعي الناس بهذا المرض الوبائي وفعلوا الكثير، على ما أعتقد، لإعطاء دفعة لمشكلة الإنكار والعار التي يشعر بها الناس المرتبطة بالإصابة بالمرض. وفكرت، حسن، هناك بونو، وهناك جلدوف، وهناك كل شخص آخر يفعل هذه الأشياء، ماذا يفعل الكتاب؟

بن (PEN) المنظمة الدولية للكتاب، التي كانت رائعة على مدى 30 عاماً ولا تزال مستمرة بالنسبة للكتاب المضطهدين سياسياً الذين تطاردتهم أنظمة مختلفة، لا يزال يحدث ذلك في بعض الأماكن. لقد قاموا بعمل رائع هناك لكن بن (PEN) لم تفعل شيئاً حول فيروس نقص المناعة/ الإيدز. لذلك فكرت، حسناً، ليس من الجيد الاستمرار في التذمر بشأن ذلك والقول لماذا لا يفعل هذا شيئاً، لماذا لا يفعل ذلك شيئاً؟ حسن، ماذا يمكنك أن تفعل كفراد؟ ثم فكرت، ماذا عن مجموعة قصص جميلة، قصص رائعة. توجد كتب كثيرة حول فيروس نقص المناعة/ الإيدز والكتب المدرسية والكتيبات لمساعدة المرء في حالة الإصابة بالمرض وما إلى ذلك. لكن يجب ألا تكون هذه قصصاً عن هذا الموضوع البتة وتجارية تماماً، أبحث عن الأسماء الكبيرة والقصص الرائعة وحاول نشرها في وقت مناسب، لا سيّما قريباً من عيد الميلاد عندما يبحث الناس عن هدايا، لكن بعبارة أخرى لتحصل على كتاب يرغب الناس في شرائه لأنفسهم وتقديمه كهدية. لذا، كتبت فجأة إلى 20 كاتباً وقلت: انظر، لدي هذه الفكرة، هل تسمح لي بالحصول على قصة؟ لم أكتب لكتاب هم في الأساس روائيون لأنني لا أعتقد أن أجزاء من روايات تعمل بشكل جيد. لذلك كتبت إليهم جميعاً، من الفائزين الخمسة بجائزة نوبل والعديد من الآخرين، ومن وودي آلن إلى غونتر غراس وجون أديك، كما تعلمون، كل من أعتقد أن قصصه رائعة حقاً وأنا معجبة بها.

كانت الاستجابة رائعة. لم أحصل على رفض واحد وقد أرسلوا لي جميعاً هذه القصص الرائعة ومن ثم الناشر بالطبع. ذهبت أولاً إلى الناشر الخاص بي في أمريكا وقلت، انظر، لا أعرف ما هو شعورك حيال هذا، لكن هل ستشر هذه المجموعة، وهل ستتحمل تكاليف الإنتاج فحسب؟ لن تحصل على قرش واحد من العائدات، ولن يتقاضى الكتاب أي تعويضات، وستذهب الأموال جميعها بالفعل إلى حملة إجراءات العلاج لأننا منطقة موبوءة بشدة، وحملة إجراءات العلاج طبعاً الآن، كما تعلم، لا تعمل جيداً في المناطق المحيطة أيضاً، ولدهشتي كانوا سعداء للغاية، قالوا إننا سنفعل ذلك. وفعل ناشري الإنكليزي الشيء نفسه، ولدي الآن أربعة عشر ناشراً في أنحاء العالم جميعها. لقد ظهرت باللغة اليونانية منذ أيام. حصلت على نسخة في اليوم التالي، نسخة منها. لقد صدرت باللغة الألمانية، وهي في طريقها إلى الصدور في فرنسا وإيطاليا والصين. سمّها ما شئت، إنها في كل مكان. وفي روسيا.

- إنه جهد رائع. لم أقرأها كلها لكنني أحببت ما قرأت حتى الآن.

ن.غ.: القصص جميلة حقاً، لذا يشتريها الناس يشترونها، وفي الوقت نفسه، يسعدهم كثيراً أن يعرفوا أن ما يستمتعون به يساعد الآخرين أيضاً. لكنني لا أعرف كيف أشكر بما يكفي الكتاب الذين قدموا بسخاء ما حققناه. وأشكر الناشرين أيضاً، الذين هم، بعد كل شيء، رجال أعمال، وقد وافق أربعة عشر ناشراً على فعل ذلك.

- لنعد إلى جائزة نوبل خبرينا عنها؟ أعني عام 1991. هل تلقيت مكاملة هاتفية، هل عرفت أنك

على القائمة القصيرة؟ ماذا جرى؟

ن.غ.: حسناً، لقد كنت على القائمة القصيرة لبضع سنوات، مثلكم عادةً كما أعتقد، وكان الصحفيون يتصلون بي ويقولون، أنت في القائمة القصيرة، ربما ستحصلين على جائزة نوبل، ما رأيك في ذلك؟ وكنت أقول، إذا حصلت عليها، فسوف أخبركم، وداعاً، وأغلق الهاتف. انتهى. وفي هذه المناسبة صادف أنني كنت في نيويورك لسبب آخر، وبقيت مع ابني. لقد استيقظت قبل أن يفعل أي شخص آخر في الشقة لأنني أردت أن أتصل بأحد الأشخاص في لندن عندما كان الفارق الزمني، كما تعلمون، مناسباً، لكن عندما دخلت المطبخ حيث كان الهاتف يرن، كان الهاتف سويدياً بالفعل. صحفي اكتشف، من خلال صديق في السويد، مكان تواجدي واتصل بي ليخبرني أنني حصلت على الجائزة. لقد كان هذا حقاً غير مألوف لأنني أعتقد أنه في ذلك العام، ربما لأنني كنت بعيدة، لم يكلمني أحد وقال إنك مدرجة في القائمة القصيرة مرة أخرى.

- كيف شعرت؟ كيف أثر ذلك في حياتك؟

ن.غ.: طبعاً إنه لأمر رائع أن تحصل عليها لأنها الجائزة الأولى في العالم ليست لمجرد دولة ما. لقد حصلت على جائزة بوكير Booker ولكن كانت للكومنولث. والأشخاص الذين يحصلون على بوليتزر هنا وما إلى ذلك أو جائزة الكتاب الوطني، يجب أن يكونوا أمريكيين ليحصلوا عليها وهذا جيد. هذه جوائز وطنية، لكن جائزة نوبل، وهذا هو سبب قوتها، وقد يقول بعضهم، إن من أسباب ضعفها أنها تنظر إلى الكتب من أنحاء العالم جميعها في اللغات كلها. لقد توصلت إلى استنتاج أن هذا شيئاً جيداً جداً. على سبيل المثال، شخص أحترمه الآن، وكان يجب أن يكون لديّ قبل ذلك بوقت طويل، لكنه لم يكن موجوداً في الترجمة بما يكفي لكي أقرأ أعماله، إنه الكاتب البرتغالي خوسيه ساراماغو، وهو كاتب عظيم جداً. وفجأة أعلن أنه حصل على جائزة نوبل وأنا أقول، من، كما تعلمون، لم يُسمع به قبل. ثم ظهرت الترجمات بالطبع وأدركت كم هو رائع أن شخصاً لم يكن معروفاً على نطاق واسع يُعترف به الآن في أنحاء العالم جميعها في لغات كثيرة جداً.

- هل يعطي ذلك قوة إضافية لصوتك؟ تحصلين على عدد أكبر من القراء، وتحصلين على

الاعتراف والتقدير؟

ن.غ.: أنت تعلم أنها نقطة خلافية جداً حول جمهور القراء. يُحتمل أن يكون موضوع القراء هو العام الذي تحصل عليه فيه، لأحدث كتاب، ولكن بعد ذلك، كما تعلم، يغدو سطرراً على الغلاف. لا أعتقد أن هذا يحدث فرقاً كبيراً. يُتوقع أن يوجد كتاب كثيرون نجوم حيث إذا كان لديك كتاب جديد، وطبعاً إذا كان كتاباً جيداً، وإذا روجع جيداً، فيجب أن يدور الحديث حوله، وأن يكون موضوع برامج حوارية وأشياء من هذا القبيل. ويظهر هذا الجانب منه في المبيعات.

لكن تغيير حياتك. لقد ذكرت أنه يمنحك ... طبعاً يمنحك صوتاً، فهل يُحتمل أن يُسمع أكثر قليلاً. على سبيل المثال، في حالة سرد الحكايات (Telling Tales)، ربما ساعدني ذلك عندما كتبت إلى الكتاب وساعدني الناشر على إنجاز هذا الأمر، ثم بالطبع تلقيت دعوة، يا إلهي، أعتقد أنهم لا يفعلون ذلك. لا أعرف حتى نوع جائزة نوبل التي حصلت عليها. لذلك فجأة يدعونك إلى عقد مؤتمر حول إنقاذ الحيتان أو أي شيء آخر، كما تعلم، في أجزاء مختلفة من العالم. ولكن، من ناحية أخرى، فإنه يمنحك صوتاً عندما يوجد شيء تهتم به، وتريد أن تعطيه دفعة.

طبعاً كل عام، بمجرد حصولك عليها، يكون لديك امتياز السرية المطلقة، للمؤسسة فقط، لطرح شخص ما وترشيحه للعام الحالي. لذا منذ عام 1991... أصبح الأمر سرّياً تماماً. يرسل الناس إليك كتبهم ويقولون، من فضلك، هل يمكنك أن تقدمني إلى الأمام وغير ذلك، تجاهلها وحسب. ومنذ عام 1991، مستفيدة من هذا الامتياز كل عام، حققت نجاحين ويمكنني إخباركم لأنهما حصلتا على الجائزة. الأول كان الكاتب الألماني العظيم غونتر غراس، والآخر الياباني كينزابورو أوي. لا أعرف، إنه متوسط عام منخفض جداً.

- لذا يمكنك أن تخبريني من سترشحين هذا العام، وأعدك بأنني لن أخبر أحداً.

ن.غ.: لا أعرف.

- إذن إلى أين بعد ذلك؟ ماذا تفعلين الآن؟

ن.غ.: أكتب، ماذا سأفعل غير ذلك؟

- هل لديك أشياء أخرى؟

ن.غ.: حسناً، انتهيت مؤخراً من رواية جديدة، وستصدر في نهاية هذا العام.

- أي تفاصيل؟

ن.غ.: لا.

- لا؟

ن.غ.: لم أتحدث قط عما كتبه توأ.

- لأختتم، أنا أتصفح موقع نوبل وأتصفح هذه المقابلة وأنا كاتب شاب طموح، ما هي نصيحتك

الأكثر قيمة؟

ن.غ.: ممل أن أكرّر دائماً: اقرأ، اقرأ، اقرأ ولا تقرأ الكتاب القادم في سلسلة كلمات على الشاشة، لا تعتمد على ما لديك الآن في سيارتك، الله يعلم، وعلى هاتفك المحمول وكل شيء. من فضلك، اذهب إلى المكتبة وقرأ.

ثم تمر بمرحلة، عندما تكون فتياً، تبدأ في تقليد الكتاب الذين تُعجب بهم ولكن ذلك سيمر. إذا كان لديك صوتك الخاص فسوف تسمعه. لهذا ها نحن هنا.

- شكراً جزيلاً لك على وجودك معنا.

ن.غ.: سرّني لقاءكم. □



نادين غورديمر كان يا ما كان

• ترجمة: د. مدكا صالح

كتب أحدهم إليّ يطلب أن أساهم في مختارات قصصية للأطفال. أحبته أنني لا أكتب قصص أطفال؛ وردّ أن روائياً ما، في ندوة للكتاب، قال إن على كل كاتب أن يكتب قصة واحدة على الأقل للأطفال. فكرتُ بأن أرسل بطاقة بريدية تتضمن أنني لا أقبل «وجوب» أن أكتب أي شيء. لكن، بعد ذلك، استيقظتُ الليلة الماضية، أو بالأحرى أوقظتُ من دون أن أعرف ما الذي أيقظني: هل هو صوت في حجرة صدى اللاشعور؟ خبطة.

صريراً بتقل وطاء الأقدام على أرضية خشبية. أنصتُ. شعرتُ بفتحتي أذنيّ تتوسعان من التركيز. مرة أخرى: الصرير. كنت أنتظره؛ بانتظار أن أسمع ما إذا كان يشير إلى أن الأقدام تتحرك من غرفة إلى غرفة، قادمة في المر إلى بابي. ليس على نوافذ بيتي قضبان للحماية من اللصوص، ولا مسدس تحت وسادتي. لكن لدي مخاوف الأشخاص الذين يتخذون هذه الاحتياطات نفسها، وزجاج نوافذي رقيق مثل قشرة، يمكن أن يتحطم مثل كأس نبيذ. قُلتُ امرأة (كما يقال) في وضع النهار في منزل على بعد مبنيين، العام الماضي، والكلاب الشرسة التي كانت تحرس أرملاً عجوزاً وساعاته العتيقة، خنقها قبل أن يطعنه عامل مؤقت طرده الأرملة من دون أجر.

• مترجمة ومدرسة في جامعة دمشق.

كنت أهدق في الباب، أحاول أن أتخيل بدلاً من أن أرى، في ذلك الظلام. مستلقية بلا حراك - أرى نفسي ضحية - لكن خفقان قلبي الذي يشبه الهروب طارقاً ملاً قفصي الصدري. كم هي دقيقة حواسنا، تتأثر بالراحة والنوم! لم أكن قادرة على الإصغاء في النهار، كما الآن، بتأثير المشتتات. أما الآن، فإنني ألتقط حتى أخفت الأصوات، وأحاول تحديدها وتصنيف تهديدها المحتمل.

شعرتُ بأنني لست عرضة للتهديد، كما أنني قد لا أنجو. لم يكن هناك ما يشير إلى أن حركة بشرية تضغط على الألواح، كان الصرير المحيط بؤرة للتوتر. كنتُ فيها. المنزل الذي يحيط بي في أثناء نومي مبني على أرض متصدعة؛ هناك بعيداً، تحت سريري، الأرضية، أساسات المنزل، وهناك حيث حفرة وممرات المناجم الذهب قد أفرغت الصخور، وعندما يهتز حائطٌ وينفصل ويسقط عميقاً آلاف الأقدام، يتحرك المنزل بأكمله، مخلخلاً التوازن بين الطوب والإسمنت والخشب والزجاج في هيكله الذي يحيط بي. خفتت ضربات قلبي المضطربة مثل ألحان جميلة مكتومة على آلة سيلوفون خشبية صنعها عمال المناجم المهاجرون من شعبي تشوبي وتسونغا،⁽¹⁾ الذين ربما كانوا هناك، تحتي في الأرض، في تلك اللحظة. قد تكون الحفرة، حيث حصل الانهدام، مهجورة، تقطر المياه من عروقها الممزقة؛ أو قد يكون الرجال الذين دخلوا إلى هناك في القبور الأكثر عمقاً.

لم أتمكن من العثور على وضعية تحرر عقلي من جسمي وتطلقني لأنام مرة أخرى. لذا بدأت أروي لنفسي قصة... قصة ما قبل النوم.

في منزل ما، في إحدى ضواحي مدينة ما، سكن رجل وزوجته وقد أحبا بعضهما بعضاً كثيراً، وعاشا في سعادة. رزقاً بطفل، أحبا كثيراً. لديهما قطة وكلب أحبهما الصبي الصغير كثيراً. ولديهما سيارة وكرفان للإجازات، وحوض سباحة سيجاه ليلعب الطفل الصغير وزملاؤه من دون أن يتعرضوا للسقوط والغرق. ولديهما أيضاً خادمةٌ جديرةٌ بالثقة تماماً، وبستاني أوصى به الجيران بشدة. عندما بدأ العيش سعيدين، حذرتهما تلك الساحرة العجوز الحكيمة، والدة الزوج، من استخدام أي شخص من الشارع. تسجلا في الجمعية الطبية الخيرية، ورخصا كلبهما الأليف، وأمنا ضد الحريق وأضرار الفيضانات والسرقة. شاركا في اللجان المحلية لمراقبة الحي، التي زودتهما بلوحة للبوابة تحمل عبارة: «لقد تم تحذيركم»، على صورة ظل لدخيلٍ محتملٍ، لا يمكن تمييزه إذا كان أسوداً أو أبيض، لأنه كان مُقنَّعاً؛ وأثبتوا بذلك أن مالك العقار ليس عنصرياً.

لم يكن من الممكن تأمين المنزل وحوض السباحة والسيارة ضد ضرر أعمال الشغب. كانت هناك أعمال شغب، لكنها خارج المدينة، حيث سكن أناس ذوو لون آخر. لم يُسمح بدخول الضاحية إلا للخدمات والبستانيين الموثوقين من هؤلاء الناس، لذلك لم يكن هناك ما يخشانه حسب قول الزوج لزوجته. ومع ذلك ذلك، كانت تخشى أن يأتي هؤلاء الناس يوماً ما إلى الشارع ويمزقون اللوحة التي كتب عليها «لقد

(1) تشوبي وتسونغا (Chopi and Tsonga) : شعبان من موزمبيق، شمال شرق أفريقيا الجنوبية (الترجمة).

تم تحذيركم» ويفتحون البوابات ثم يتدفقون إلى الداخل... «هذا هراء يا عزيزتي»، قال الزوج، «هناك شرطة وجنود وغاز مسيل للدموع وبنادق لإبعادهم». لكن كي يرضيها - لأنه أحبها كثيراً في وقت كانت الحافلات تُحرق، والسيارات تُرمى بالحجارة، وتلاميذ المدارس تُطلق عليهم النيران من الشرطة في تلك الأحياء بعيداً من سمع وبصر سكان الضاحية - قام بتركيب بوابات يتم التحكم فيها آلياً. كان على أي شخص ينتزع لافتة «لقد تم تحذيركم»، ويحاول فتح البوابات أن يعلن عن نواياه بالضغط على زرٍّ والتحدث عبر جهاز استقبال موصول مع المنزل. كان الطفل مفتوناً بالجهاز وكان يستخدمه كجهاز اتصال لاسلكي عندما يلعب لعبة «الشرطة والحرامية» مع أصدقائه الصغار.

قُمت أعمال الشغب، لكن استمرت عمليات سطو كثيرة في الضاحية، وقيد اللصوص إحدى الخادמות الموثوق بهن وحبسوها في خزانة في الوقت الذي تشرف فيه على منزل أرباب عملها. وقد استاءت الخادمة التي تعمل لدى الرجل والزوجة وطفلهما جداً بسبب هذه المصيبة التي لحقت بصديقتها لا سيما أن عمليهما متشابهان، فالأخيرة أيضاً مسؤولة عن ممتلكات الرجل وزوجته والصبي الصغير، لذلك توصلت إلى ربي عملها أن يضعها قضيباناً لحماية أبواب المنزل ونوافذه تمنع دخول اللصوص، بالإضافة إلى تركيب نظام إنذار للمنزل. قالت الزوجة: «إن الخادمة على حق، فلنأخذ بنصيحتها». لذا، من كل نافذة وباب في المنزل، حيث عاشا بسعادة، أصبحا يريان الأشجار والسماء عبر القضبان، وكلما حاولت قطة الصبي الصغير الأليفة التسلق عبر النافذة المشبكة كي تبقى بجوار الطفل في سريره الصغير في أثناء الليل، كعادتها، تسببت بإطلاق صافرة الإنذار في المنزل.

غالباً ما قوبل الإنذار بانطلاق أجهزة إنذار، في المنازل المجاورة، بسبب القطط الأليفة أو قضم الفئران؛ والصافرات غالباً ما تتطلق معاً عبر الحداثق مثل صراخ وصيحات وعويل، سرعان ما اعتاد الجميع عليها وغدا الصوت الحاد الرتيب لا يزعج سكان الضاحية أكثر من نقيق الضفادع والأصوات الموسيقية التي تصدر عن احتكاك أرجل الزيزان. وتحت غطاء حوارات المتطفلين الإلكترونية تلك، كان الدخلاء ينشرون القضبان الحديدية ويقترحون المنازل، ويسطون على المعدات التكنولوجية وأجهزة التلفزيون ومشغلات الكاسيت والكاميرات وأجهزة الراديو والمجوهرات والملابس، وفي بعض الأحيان، عند جوعهم الشديد، يلتهمون كل شيء في الثلاجة أو يتوقفون بجراحة لشرب الويسكي المخبأة في الخزائن أو بارات الأبنية. لم تدفع شركات التأمين أي تعويض عن أنواع الويسكي الفاخرة، ما ضاعف خسارات المالكين لقناعاتهم بأن اللصوص لم يكونوا قادرين حتى على تقدير قيمة ما كانوا يشربون.

جاء الوقت الذي بدأ فيه أناس كثر من غير الموثوق بهم من الخادمت والبستانيين بالالتفاف حول الضاحية بسبب البطالة. بعضهم يستجدي أي عمل: إزالة الأعشاب الضارة أو طلاء السقف؛ أي شيء من الأسياذ. لكن الرجل وزوجته تذكر التحذير من استقبال أشخاص من الشارع. كان بعض طالبتي العمل هؤلاء يشربون الخمر ويلوثون الشارع بالزجاجات الفارغة، وبعضهم الآخر يتوسل منتظراً الرجل أو زوجته لإخراج السيارة من البوابات الآلية. كانوا يجلسون واضعين أقدامهم في المزاريب، تحت أشجار

الجاكاراندا التي حولت الشارع إلى نفقٍ أخضر - فالضاحية الجميلة لم يفسدها إلا وجودهم - وأحياناً كانوا ينامون أمام البوابات في شمس الظهيرة. لم تستطع الزوجة رؤية أي شخص جائئاً، فترسل الخادمة مع الخبز والشاي، إلا أن الخادمة كانت تقول إن هؤلاء متسكمون من التسوتسيين،⁽²⁾ سيأتون ويربطونها ويحبسونها في خزانة. قال الزوج: «إنها على حق. استمعي لنصيحتها. أنت تشجعينهم بالخبز والشاي. هم يبحثون عن فرصتهم»، جلب دراجة طفله ثلاثية العجلات من الحديقة إلى المنزل كما يفعل كل ليلة، لأنه ولو كان المنزل محصناً وأمناً، بمجرد إغلاقه ومع وجود جهاز إنذار، يمكن أن تبقى الفرصة سانحة أمام أي شخص لتسلق الجدار أو البوابات المغلقة آلياً والوصول إلى الحديقة. قالت الزوجة: «أنت على حق، كما يجب أن يكون الجدار أكثر ارتفاعاً»، والساحرة العجوز الحكيمة، والدة الزوج، دفعت ثمن الطوب الإضافي هدية عيد الميلاد لابنها وزوجته - وحصل الصبي الصغير على طقم رجل فضاء وكتاب قصص خيالية.

لكن التقارير تزايدت كل أسبوع عن الاقتحام: في وضوح النهار، وعمق الليل، وفي ساعات الصباح الأولى، وحتى في شفق الصيف الجميل - تجتمع عائلة ما على العشاء بينما تتعرض غرف النوم للنهب في الطابق العلوي. كان الرجل وزوجته يتحدثان عن أحدث عملية سطو مسلح في الضاحية عندما شتت انتباههما منظر قطة الطفل الصغير الأليفة تسير بلا عناء فوق الجدار الذي يبلغ ارتفاعه سبعة أقدام، وتنزل بحركة سريعة على السطح العمودي بأطرافها الأربعة الممتدة ثم تقفز برشاقة هابطة بذيل هفيف داخل المنزل. كانت آثار أطراف القطة، ذهاباً وإياباً، مطبوعة على الجدار الأبيض؛ أما على سطح الجدار المقابل للشارع فكانت لطخات التراب الأحمر أكبر حجماً وقد تكون من آثار نوع أحذية جري معطوبة، شوهدت على أقدام المتسكمين العاطلين عن العمل، ذوي المقاصد غير البريئة.

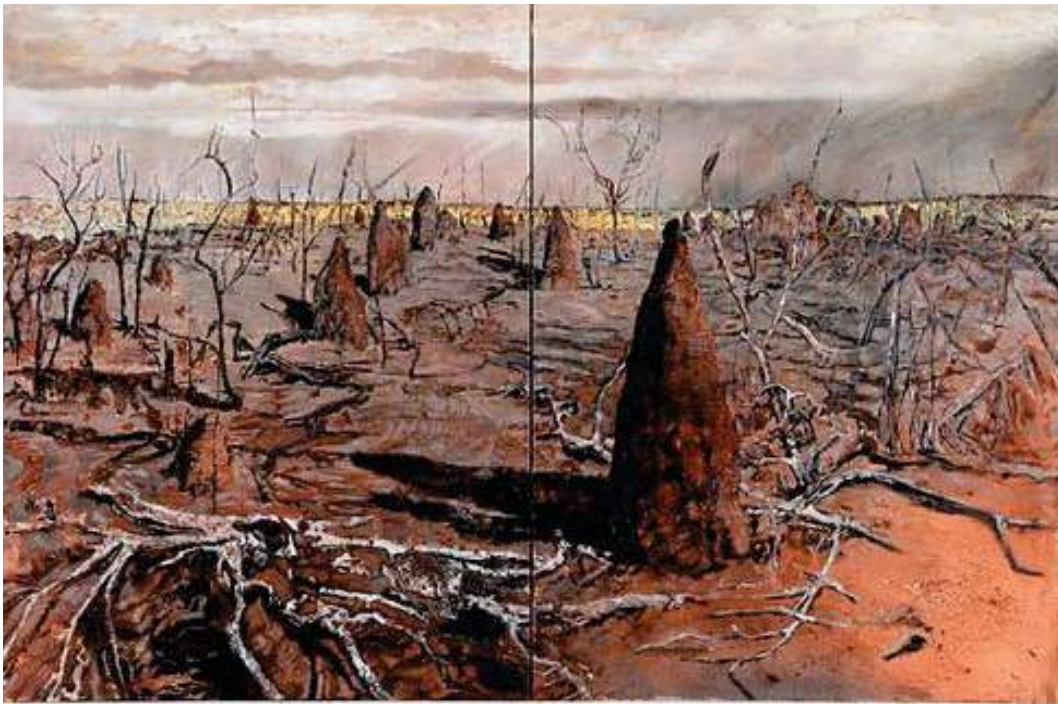
عندما صار الرجل وزوجته والصبي الصغير يأخذون الكلب الأليف في نزهة في شوارع الحي، لم يعودوا يتوقفون للإعجاب بالورود أو الأعشاب الرائحة لأنها اختفت خلف مجموعة من الأسوار والجدران والأجهزة الأمنية المختلفة. لذلك، وجّه الرجل وزوجته والولد الصغير والكلب اهتمامهم إلى أمرٍ مميزٍ آخر: سورٍ منخفض التكلفة من قطع الزجاج المكسور المغروسة في الإسمنت على طول الجزء العلوي من الجدران بشبكات حديدية تنتهي برؤوس مدببة، مع محاولات للتوفيق بين جماليات هندسة السجون وأسلوب الفيالات الإسبانية، فمثلاً، المسامير مطلية باللون الوردية والجرار مصنوعة من الجص المزخرف بأسلوب الكلاسيكية الجديدة (حراب بطول 12 بوصة مزعنة مثل تعرجات من البرق مطلية باللون الأبيض الخالص). على بعض الجدران ألواح صغيرة مثبتة، تحمل اسم ورقم هاتف الشركة المسؤولة عن تركيب هذه الأجهزة. بينما يتسابق الصبي الصغير والكلب الأليف، وجد الزوج والزوجة نفسيهما يقارنان فاعلية كل نمط مقابل مظهره؛ وبعد أسابيع عدة عندما أصبحا يتوقفان لتأمل حاجز أو آخر، من

(2) التسوتسيين (Tsotsis) مجموعة من قطع الطرق العنيفين (المتروحة).

دون الحاجة إلى الكلام، خرج كلاهما باستنتاج مفاده أن واحداً فقط من الأسوار كان يستحق النظر. لقد كان الأبلع لكنه الأكثر شبهاً بأسلوب معسكر الاعتقال، من دون زخرفة، وبفاعلية واضحة. يتكون هذا السور من لفافة شائكة على طول الجدار من معدن قاسٍ لامع مسنن ذي شفرات خشنة، حيث لا يوجد مجال للتسلق فوقه أو العبور خلاله من دون الوقوع فريسةً لمكالبه، حيث لا مخرج، مجرد صراع، يصبح أكثر دموية، وعرز أكثر عمقاً وحادّة وتمزيقاً للجسد. ارتجفت الزوجة حين نظرت إلى السور. قال الزوج: «إنك محقة، أي شخص سيفكر مرتين قبل أن يحاول التسلق.» كما انتبها إلى النصيحة المكتوبة على لوحة صغيرة مثبتة على الحائط، تقول: استشر شركة «أسنان التين»، الأكثر جدارة بتأمين الحماية التامة.

في اليوم التالي جاءت مجموعة من العمال ومدت اللفافات الشائكة ذات الشفرات المسننة على الجدران المحيطة بالمنزل حيث يعيش الزوج والزوجة والصبي الصغير والكلب والقط الأليف بسعادة تامة. سطع ضوء الشمس وتخلل في المسننات التي أصبحت تحيط بالمنزل تماماً وهي مشرقة. قال الزوج: «لا عليك. سوف يخف بريق السور عندما يصدأ.» قالت الزوجة: «أنت مخطئ. لقد ضمنوا مقاومته للصدأ.» انتظرت الزوجة حتى ذهب الطفل الصغير للعب قبل أن تقول: «أمل أن تتبته القطة.» قال الزوج: «لا تقلقي، يا عزيزتي، القطة تنظر دائماً قبل أن تقفز.» وهذا ما حصل، فمنذ ذلك اليوم، صارت القطة تنام في سرير الصبي الصغير والتزمت بالحديقة ولم تخاطر بالاقتراب من السور.

ذات مساء، قرأت الأم للطفل الصغير قصة كي ينام، اختارت له قصة خرافية من الكتاب الذي أهدته إياه الساحرة العجوز الحكيمة في عيد الميلاد. في اليوم التالي تظاهر الطفل بأنه الأمير الذي يتحدى غابة رهيبة من الأشواك لدخول القصر وتقبيل الجميلة النائمة ليعيدها إلى الحياة. جرّ سُلماً إلى الجدار، كانت اللفافة الشائكة اللامعة على شكل نفق واسع بما يكفي حتى يتسلل داخله جسده الصغير، ومع أول تثبيت لشفراتها الحادة في ركبتيه ويديه ورأسه صرخ وبدأ يعاني من تثبيته العميق في الشبك. هرعت الخادمة والبستاني المتجول الذي كان «دوره» في هذا اليوم، فكانا أول من رأى الطفل وبدأ بالصراخ معه، ومزق البستاني المتجول يديه في محاولة الوصول إلى الصبي الصغير. ثم اندفع الرجل وزوجته إلى الحديقة بجنون، ولسبب ما (القطة، على الأرجح)، انطلق جرس الإنذار ليغطي على الصراخ في حين أُخرجت الكتلة النازفة، التي كانت صبياً صغيراً، من الأسلاك الشائكة بالمناشير وقواطع الأسلاك والسواطير، وحُملت إلى المنزل برفقة الرجل، والزوجة، والخادمة المسعورة، والبستاني الباكي. ■



Mandy Martin at Roslyn Oxley9 Sydney - Artmap.com



باربرا تمبك ثورستون

• ترجمة: د. عدنان عزوز

باربرا تمبك ثورستون (Barbara Temple Thurston): أستاذة في قسم اللغة الإنكليزية في جامعة المحيط الهادئ اللوثرية.

الملخص

تطبق هذه المقالة مبادئ نظرية «التاريخية الجديدة» لإظهار إمكانية قراءة رواية رياضة الطبيعة (*A Sport of Nature*) على أنها سعي غوردنيمر الحثيث لإقتناع فتاني جنوب أفريقيا للقيام برفض فن الاحتجاج المجرد وتحويل الفن إلى ما يتجاوز فخ القوى المعارضة في تاريخ جنوب أفريقيا المعاصر. إذ يدعو النص بدلاً من ذلك - عبر الأدب والخيال - لإنتاج فن جديد في مرحلة ما بعد الفصل العنصري من شأنه أن يخلق إمكانيات إبداعية لجنوب أفريقيا المستقبل. يمكن أن تُقرأ بطللة غوردنيمر «هيللا كابران» على أنها استعارة للفنان الجنوب أفريقي أبيض البشرة الذي يناضل، شأنه شأن هيللا، لانتزاع هوية أصيلة وأداء دور هادف في التاريخ الناشئ لجنوب أفريقيا. تؤكد هذه المقالة أن رواية رياضة الطبيعة

• عميد كلية الآداب- رئيس قسم اللغة الإنكليزية في جامعة قاسيون الخاصة بدمشق- سورية .

1) Temple-Thurston, Barbara (1991) "Nadine Gordimer: The White Artist as A Sport of Nature," *Studies in 20th Century Literature*: Vol. 15: Iss. 1, Article 13. <https://doi.org/10.4148/2334-4415.1272>

تطرح بجرأة موضوع التحوّل الملحّ لكل من الفنان وشعب جنوب إفريقيا وذلك لحل التشظي السياسي أو الشخصي أو الفنّي، مما يستدعي تضافر جهود فنانين آخرين على طول الطريق. ومع ذلك فإن الأمل في نجاحها المؤكد لا يزال بعيد المنال ولا يمكن التنبؤ به كما يجب أن تكون عليه أي من «رياضة الطبيعة».

الكلمات الدالة

تاريخية جديدة، رياضة الطبيعة، غوردنيمر، جنوب إفريقيا، فنانون، احتجاج فني، تاريخ جنوب إفريقيا، أدب، خيال، ما بعد الفصل العنصري، فن، جنوب إفريقيا، نادي غوردنيمر، هيلينا كابران، فنانة بيضاء من جنوب إفريقيا، بيضاء البشرة، هوية أصيلة، الهوية، رياضة الطبيعة، الطفرة، السياسية، الشخصية، التشظي الفني، رياضة الطبيعة

قامت نادين غوردنيمر وهي كاتبة روائية ذائعة الصيت من جنوب إفريقيا وحائزة العديد من الجوائز الدولية، بنشر روايتها التاسعة في عام 1987. وفي حين أن جميع رواياتها الروائية والواقعية تعلقّ بعمق على التأثير النفسي والسياسي والتاريخي للفصل العنصري على شعب جنوب إفريقيا ومجتمعها، فإن أحدث رواياتها «رياضة الطبيعة» تعدّ الأكثر بانورامية تاريخياً وجغرافياً من بين مجمل أعمالها.⁽²⁾ أصبح الآن وعي غوردنيمر الذكي والانعكاسي التاريخي، حقيقةً راسخة من خلال عمل ستيفن كلينجمان الأساسي، وكتاب روايات نادين غوردنيمر، ومن خلال تعليقات غوردنيمر غير الخيالية، الأمر الذي أصبح جلياً بشكل لا يدع مجالاً للشك في هذه الرواية الأخيرة.

تتطلب قراءة رواية «رياضة الطبيعة» قارئاً يعترف بإدراك غوردنيمر الحاد لصيرورات التاريخ. لقد نشأ الخلاف حول الرواية من عدم القدرة على فهم النص من حيث الجدلية بين الشخصي والسياسي والتاريخي. إن ترسيخ قراءة المرء المستندة على النهج التاريخي الجديد يسمح للقارئ بالتعرف على دعوة غوردنيمر لظهور وعي فني جديد بشكل وعياً ويتشكل من خلال الظروف التاريخية، والذي يفرض بدوره نقلاً جديداً في مرحلة ما بعد الفصل العنصري.

إن التاريخية الجديدة، كما يراها لويس مونتروز، «جديدة في رفضها للتمييز غير المشكوك فيه بين «الأدب» و«التاريخ»، وبين «النص» و«السياق»؛ إنها جديدة في مقاومة النزعة السائدة لفرض امتياز خلق فرد موحد ومستقل - سواء كان مؤلفاً أم عملاً أدبياً - يُوضع على خلفية اجتماعية أو أدبية (6). يجسّد التناسل في رواية «رياضة الطبيعة» وجهة النظر هذه من خلال دمج شخصيات تاريخية مثل مانديلا ونكومو ولوثولي، ومن خلال حركات سياسية كالمؤتمر الوطني الأفريقي، ومن خلال ظهور شخصيات مثل شخصية كرورزا برغر من روايات غوردنيمر السابقة.

تعلن مونتروز أيضاً أن التاريخية الجديدة تتميز بإيجاز «من ناحية، من خلال الاعتراف بتاريخية النصوص: الخصوصية الثقافية، والتضمين الاجتماعي، لأنماط الكتابة [أو التقارير] جميعها... ومن

(2) جميع الإشارات إلى رياضة الطبيعة سيتم الاستشهاد بها بطريقة نسبية وسيتم استخلاصها من طبعة نوف لعام 1987 من النص. اختصارات نصوص غوردنيمر الأخرى المذكورة هي A for F («Apprentices for Freedom» New Society Dec 1981) و EG (The Essential Gesture Knopf 1987 ed. Clingman).

ناحية أخرى، من خلال اعترافها بنصية التاريخ: أي عدم توفر ماضٍ كامل وصادق، أو وجود مادي حي، لم تتوسطه بالفعل النصوص الباقية للمجتمع المعني - هذه «الوثائق» التي يفسرها المؤرخون في نصوصهم الخاصة، المسماة «التواريخ»، وهي التواريخ التي تبني بالضرورة ولكن دائماً وبشكل غير كامل ما يدعى بـ «التاريخ» الذي يقدمون إمكانية الوصول إليه». ومرة أخرى تعكس رواية رياضة الطبيعة وجهة النظر هذه للتاريخ. نُظِمَ النص كنوع من السيرة الذاتية التي ينطلق منها الراوي ظاهرياً في محاولة استعادة هيلينا «الحقيقية» (البطلة الأنثوية بيضاء البشرة). يتم تخريب هذه الاستعادة «للحقيقة» عمداً من خلال إطار السيرة الذاتية للنص، لأن الروايات المسرودة عن هيلينا متناقضة ومنقوصة؛ إذ تم صبغها بشكل جلي وفقاً لأيدولوجية كلِّ راوٍ ومكانه في الوقت المناسب. يدمر بناء الرواية أي محاولة من القارئ لـ «فكِّ طلاسم» هيلينا، لأنه وكما يقول الراوي: «كل شخص على دراية بالذكريات التي يدعي الآخرون امتلاكها عن ذاته والتي لا علاقة لها بذاته. ففي حياة العظماء - هناك مثال عن هذه الثغرات - يختفي المسيح وشكسبير من ثم يظهران في السجلات التي يوفرها التوثيق والذاكرة البشرية» (100).

تثبت هذه النظرة التاريخية الجديدة للعالم أنها مُفصَّلة بشكل خاص لتناسب غوردنيمر وذلك بسبب موقعها المحدد في المكان والزمان، أي لدى بروز الفصل العنصري وانهاره في جنوب إفريقيا، ولطبيعة حرفتها. فعندما رتبت «قصصها المختارة» ترتيباً زمنياً في السبعينيات، أدركت أن التاريخ قد فعل فعله فيها. فتكتب في المقدمة: «يبدو أن الترتيب الزمني تاريخيٌّ حقاً. فالتغيير في المواقف الاجتماعية الذي ينعكس دون وعي في قصصي يمثل كل الناس في مجتمعي - أي التاريخ - ومخاوفي منه؛ وفي الكتابة فإنني أعكف على مجتمعي وعلى طريقة تخويفي، وطوال الوقت فإن التاريخ يفعل فعله علي» (13). أو، كما يقول مونتروز، «إن الحديث إذن عن الإنتاج الاجتماعي لـ «الأدب» أو أي نصٍّ معين لا يعني فقط أنه مُنتج اجتماعياً ولكن أنه مُنتج اجتماعياً أيضاً - أي إنه نتاج العمل وأنه يؤدي دوراً في عملية الكتابة أو التشريع أو القراءة» (8-9).

إذا ما قمنا بقراءة رواية رياضة الطبيعة من خلال إطار تاريخي جديد، فإنه يمكن عدّها رفضاً شخصياً وفنياً لغوردنيمر للخضوع لمنطق القوى المعارضة في تاريخ جنوب إفريقيا اليوم، وكمحاولتها تحويل الفن عبر الأدب والخيال - وذلك خارج حدود الاستعمار للتاريخ المعاصر وفي المستقبل، وبالتالي تغيير التركيز من الحاضر العليل إلى آفاق الاحتمالات المستقبلية الخلاقة لجنوب أفريقيا ما بعد الفصل العنصري.⁽³⁾ لقد قالت: «الأدب هو وسيلة لاستكشاف الاحتمالات الموجودة ولكن لا يتخيّلها المرء في عيشه بحياة واحدة» (EG 2). ومع ذلك، فإن ما يجعل قراءة هذه الرواية معقدة ومجزية في الوقت عينه هو المفارقة الشاملة لوعي غوردنيمر. ففي حين تدرك أن رغبتها بإفئاع الفنانين بالتحرّر من نير أغلال التاريخ إلى مستقبل إبداعي وخيالي مدفوعة بظروف تاريخية، فإنها تبقى ثابتة على التزامها بالعمل وفقاً لمسار التاريخ بنفسها.

(3) يناقش جيه إم كويتزي التأثيرات الاستعمارية للتاريخ على الأدب في جنوب أفريقيا في الرواية اليوم، بينما يناقش نجابولونديبيلي مخاطر الوقوع تاريخياً في وضع الفن الاحتجاجي في اتجاهات جديدة في أدب جنوب أفريقيا.

في تصريحاتها التي أدلت بها في كانون الأول للعام 1981 بعد نشر روايتها السابقة شعب تموز، وفي الوقت الذي كانت أفكارها عن رواية رياضة الطبيعة تختمر، وصفت غوردимер طبيعة الفن المعاصر في جنوب إفريقيا بأنه «تعليمي وتبويوي وذاتي الشفقة ويحمل اتهام الذات». وأكدت أن على الفنان الجنوب أفريقي أن يسعى للهروب من أغلال اللحظة التاريخية الكابوسية وأن يطرح فتاً في مرحلة ما بعد الفصل العنصري: «عندما نطرح فن ما بعد الفصل العنصري - وينبغي علينا القيام بذلك الآن - فإننا نوقف الديناميكية المروعة للتفكك والكارثة». إن رواية رياضة الطبيعة هي دعوة غوردимер الأدبية للقيام بهذا الواجب.

من خلال ملاحظتها الواقعية من ناحية، والعرض المجازي لشخصياتها (خاصة هيلينا، التي يمكن قراءتها على أنها شخصية الفنان) من ناحية أخرى، فإن غوردимер تعيد تمثيل عملية التاريخ لأنها تشكل وعي الأفراد والمجتمع والفنان. من خلال إظهار تقادم فئات المقاومة الراسخة (الليبرالية البيضاء والوعي الأسود على سبيل المثال) تؤكد صحة استدعائها - عبر قصة الحب الخيالية وخاتمتها السعيدة - للقوى الخلاقة لمجتمع فتاني جنوب أفريقيا وذلك للبحث عن طريقة جديدة نحو تكامل

الوعي المجزأ لجنوب إفريقيا الحالية.⁽⁴⁾ في مقدمة الإيماءة الأساسية، يوضح كلينجمان التطور الفني لغوردимер قائلاً: «يكمن سعيها إلى الكمال وراء انقسامها وانشطارها، والذي يمكن أن تقدمه الكتابة الخيالية، والذي يظل نموذجاً سياسياً مثالياً» (8). إنها تنوي من خلال فنها إثارة نوع جديد من الأدب الذي سيحجز موقعها كفنانة بيضاء البشرية في «ثقافة محلية حقيقية للمستقبل من خلال المطالبة بذلك الموقع في الطبيعة الضمنية للفنان كعامل تغيير» (Gordimer, A for F v).

لا تهدف القراءة المجازية للنص إلى التقليل من واقعية تفاصيل الحياة في جنوب إفريقيا أو نفيها؛ وبدلاً من ذلك، فإن الاستعارة والواقعية تتفاعلان ضمن توتر جدلي، مما يثري مثل هذه القراءة ويبيّنهما، ويظهر من جديد تردد صدى الأبعاد الشخصية والسياسية والفنية في أدب غوردимер. ففي رياضة الطبيعة، يتم تأسيس هذا الصدى من خلال الإطار الزمني للرواية. تم تعيين الإطار من خلال مغامرات

(4) يؤكد ملخص الشبكة الآتي على الجانب الخيالي في الرواية: التقت فتاة ببشرة بيضاء بصبي ببشرة سوداء؛ يقعون في شباك الحب ويعقدون قرانهم ويعيشون في سعادة غامرة فيما بعد (حل جميع مشكلات جنوب إفريقيا في هذه العملية!). إن استخدام غوردимер لوضع الحكاية الخرافية متمم، ويشير إلى الحاجة إلى قراءة النص مجازياً. إنه يدعو أيضاً إلى اتباع نهج تخيلي وإبداعي لأدب جنوب إفريقيا، مع التركيز على قدرة الفنان على تشكيل وعي المجتمع. تتبع الرواية مغامرات الحياة ونشأة بطل الرواية هيلينا كابرون. إنها مرآة بيضاء شابة هجرتها والدتها وفرت مع عشيق برتغالي في سن الرابعة. وبعد طردها من مدرستها الداخلية في روديسيا لمصادفتها لشاب «ملون»، وهبها والدها غير المؤثر في جوهانسبرج لرعاية عمتيها اليهوديتين من الطبقة المتوسطة العليا (إحداهما غنية مادية والأخرى ليبرالية). عندما يتم ضبطها وهي تقيم علاقة مع ابن عمها ساشا، يُفرض عليها مغادرة منزل خالتها الليبرالية والمضي قدماً في سلسلة من المغامرات: تعمل بعدد من الوظائف الغربية، وتكتشف علاقات مختلفة - يقودها إحداها إلى الفرار مع ناشط أبيض زائف إلى تنزانيا المستقلة. وبعد هجرانه لها، «أنقذها» ثوار الجنوب الأفريقي الذين يعملون في المنفى، وهو مصير يدفعها - بعد بعض الانعطافات- إلى الزواج من منظم الثوار الجنوب إفريقي ذي البشرة السوداء «ويلة كغمان» وأن تُرزق بطفلة منه. بعد أن حُطّم زواج «فوس قزح» المثالي بسبب اغتيال ويلة الوحشي، تعلمت هيلينا الحاجة إلى الالتزام بقضية التحرير التي كرسّت حياتها لأجلها بلا كلل ولا ملل منذ ذلك الحين. ونتيجة لعملها، فقد قابلت أميركياً أبيض البشرة يدعى براد وكانت على وشك الزواج منه. إلا أنها في النهاية تزوجت بدلاً منه جنراً أفريقياً أسود البشرة، والذي أصبح بعد فترة وجيزة رئيساً ناجحاً لدولة أفريقية مستقلة غير محددة. أصبح في النهاية رئيساً لمنظمة الوحدة الأفريقية وبمساعدة تراس وزوجته بيضاء البشرة من جنوب إفريقيا مراسم الاحتفال بالتحرك الناجح من الفصل العنصري في جنوب إفريقيا.

حياة البطلة بيضاء البشرة الغامضة المدعوة هيلينا كابران (الشخصية). علينا ملاحظة أنه لا يمتد فقط خلال الفترة الكاملة لنظام الفصل العنصري للحكومة الوطنية (التاريخ/السياسة)، ولكنه يتزامن أيضاً مع كامل فترة نشر روايات غوردنيمر (الفن). إذ يمتد من أواخر الأربعينيات إلى الوقت الحاضر، ومن ثم ينفجر في المستقبل الخيالي.

لرسم خريطة للتحوّلات الدقيقة بين الأنماط الواقعية والمجازية، بالإضافة إلى التفاعل بين المستويات الشخصية والتاريخية والفنية، أعود الآن إلى بطلة الرواية الاستثنائية لغوردنيمر «هيلينا كابران». لقد طرحت هيلينا مشكلات حقيقية للقراء التقليديين للنص. ويبدو أنها تتأثر بأفقه الأمور. إنها طيّعة وقابلة للتكيف وشبقة ولا أخلاقية تثير حيرة العديد من القراء وحتى تهددهم (يُشير النقاد الأدبيون إليها على أنها «فاسقة» و«لقبطة مطواعة» و«انتهازية جذابة» و«بريئة»).⁽⁵⁾ إلا أن الالتباس متعمد، لأنه كما ذكرنا من قبل، فإن الإطار الهيكلي للسيرة الزائفة يقاوم «معرفة» أو «إصلاح» هيلينا. لم نكد نحكم على هيلينا حتى أدركنا أننا تحالفنا مع شخصية أقل إثارة للإعجاب في النص: المنافق بولين، أو المتحيّز جنسانياً أرنولد، أو الزوجان الإنجليزيان المزيّغان، أو براد الحاد. ومع ذلك، بينما يتهرب النص من الحكم الأخلاقي «العقلاني» لهيلينا، فإنه يحثنا - عبر مشاهد مثل تلك الخاصة بالحب الشهواني الحقيقي - على الشعور ببطافة هيلينا الجذابة. يقترب القارئ الذي يقاوم إغراء الحكم ويقبل الغموض، من فهم ديناميكية الطاقة الإبداعية التي ستحفّز الحركة نحو فن ما بعد الفصل العنصري.

وقع النقاد أمثال ريتشارد بيك وروланд سميث، والذين أمضوا الكثير من الوقت في سبر أغوار هيلينا ذهاباً وإياباً، في فخ الحكم الإيجابي أو السلبي.⁽⁶⁾ ونظراً لعدم قدرتهم على الاستجابة لجاذبية تفردتها، فإن أعينهم مغلقة أمام إمكانياتها المجازية. وعلى عكس هؤلاء النقاد، فإن اهتمامي يبدأ ببطافتها التي تسيطر بشكل جليّ على عالم النص. وكما أن هيلينا شخصية في نص يُسمى «رواية»، فكذلك فإن الفنان شخصية في نص يُسمى «التاريخ». إذا اتبعنا الاستعارة التي أرسّتها هذه القراءة، فيمكننا الكشف عن الأهمية الحقيقية لهيلينا التي، مثل كل القصص الجيدة، لم تعد ترفيهاً مجرداً. تتضح الدلائل على بعدها المجازي من تغير اسمها خلال أحداث الرواية: فكيم مرفوضة، كما هو الحال مع الماضي الاستعماري؛ يُفترض أن هيلينا تبحث عن مكان وهوية، شأنها شأن الحاخام هيليل الذي كان رئيس السنهدريم في زمن المسيح؛ يمنحها قائدها الجنرال اسم «شيميكافريقية» عندما تجد موطناً مستقراً في إفريقيا.⁽⁷⁾

(5) تشير مراجعات مثل تلك التي كتبها جينيفر كراوس، «النشاط 101» الجمهورية الجديدة (18 أيار 1987)، ومورين هوارد، «صعود هيلينا وسقوط جنوب أفريقيا» نيويورك تايمز بوك ريفيو (3 أيار، 1987)، إلى الردود المتباينة على نطاق واسع من النقاد لكل من بطل الرواية والرواية ككل.

(6) انظر مقالة رولاند سميث «قانون الترفيه والبغضاء: الرعاة والعشيقات والأمهات في روايات نادين غوردنيمر وجيليان بيكر»، ومقالة ريتشارد بيك «ما هو الشيء الأبيض الفقير الذي يجب فعله؟ خيارات الجنوب أفريقي أبيض البشرية في رياضة الطبيعة».

(7) تشرح جوديث ثورمان في مراجعتها لرياضة الطبيعة في نيويورك أصول الاسم هيلينا (29 حزيران 1987). يعود ذلك الاسم إلى الحاخام هيليل الذي كان رئيس السنهدريم في زمن المسيح، عندما كان اليهود يواجهون التشتت ويكافحون للحفاظ على هويتهم تحت حكم الرومان. سأل هيليل: «إذا لم أتصرف بنفسي، فمن سيتصرف لي؟ وإذا كنت أتصرف بمفردي، فماذا أكون؟ وإذا لم أتصرف الآن، فمتى؟» يمكن قراءة بيان هيليل، على ما أعتقد، كتعبير عن وجهة نظر غوردنيمر في وضعها كفتاة بيضاء البشرة من جنوب أفريقيا اليوم.

عند النظر إلى هيلينا كاستعارة للفنانة ذات البشرة البيضاء في جنوب أفريقيا، أو بالأحرى إلى غوردنر نفسها (لأنها قالت، «عليّ أن أقدم لكم نفسي كأكثر نموذج لاحظته عن كُتب» (EG 264))، نشهد الحدث التاريخي في كل من هيلينا وغوردنر. ومثلما حدث مع وعي غوردنر، فقد طرأ التغيير لدى هيلينا في وقت متأخر من حياتها. وكلاهما يمرّ بما يسميه كلينجمان في حالة غوردنر «سلسلة من التجاوزات، أي تجاوز للحدود المتتالية» (EG 4). ففي حالة غوردنر، كان التجاوز الأول «القراءة»، أما الثاني فكان «الكتابة». بينما في حالة هيلينا، كان التجاوز الأول كسر حاجز الألوان (صداقتها مع الشباب «الملونين»)، أما الثاني فكان سفاح القربى (عندما أقامت علاقة محرّمة مع ابن عمها ساشا) وهذه الأنشطة هي التي تجعلهما «يسقطان في بحر الحياة في جنوب إفريقيا» (غوردنر، إي جي 26)، الأمر الذي يجرّ كلاً من غوردنر وهيلينا خارج حدود الثقافة التقليدية لجنوب إفريقيا. يمنحهما هذا السقوط مكانة خارجية، وهو أمر ضروري لتغيير وعيهما. من هذه اللحظة فصاعداً، يبدأ كلاهما تحركاً لا يرحم نحو تكوين منظور أسود. ومن المتوقع تحرك هيلينا في وقت مبكر من خلال علامات مثل شعرها الأسود المجدد الذي قامت بفرده مرّة مثل بعض الأفارقة (7)، وطبيعتها العاطفية مع الخدم «جيثرو» (6) و«بيتي» (29)، واحتفالها في البلدات «الملونة» في بيج فيو وفوردسبرج (53)، ومن المفارقات تعرضها لآراء السود من خلال خالتها الليبرالية بولين. في حالة غوردنر، تم توثيق التحول في وعيها الأيديولوجي حيث يفعل التاريخ فعله فيها بعناية من كلينجمان في روايات نادين غوردنر. إذ أنني أعتمد على مخطوطه.

في رواياتها الثلاث الأولى، التي نُشرت في الخمسينيات خلال فترة الأمل الكبير لليبراليين، تتبعت كلينجمان أيديولوجية الليبرالية الإنسانية، التي تردّد صداها في حياة هيلينا عندما كانت تقيم العلاقات الشخصية والعائلية أثناء زواجها من «وحيلة». تعكس روايتا غوردنر التاليتان، واللذان كُتبتا في الستينيات في زمن القمع والعنف المروعين، خيبة أمل من النزعة الإنسانية واعترافاً بضرورة استبدال الإصلاح بالثورة. يعكس ضيف الشرف أيضاً اعترافاً بأهمية مستقبل إفريقيا المستقلة. بالتوازي مع هذا التحول نجد هيلينا تقرّ، بعد اغتيال «وحيلة»، أن الحب الشخصي «لا يمكن التخلص منه»، فهو ليس كافياً. «الحب الوحيد الذي له قيمة يعود إليهم» (232). ومنذ هذه اللحظة تصبّ هيلينا أيضاً جُلّ طاقتها في تعزيز قضية الثورة، وإن وجودها المادي في بلد أسود مستقل يردّد صدى اعتراف غوردنر بإفريقيا متحدة في كفاحها ضد العنصرية.

رواية المُحافظ (The Conservationist, 1974) هي رواية تنبؤية تنبأ على وجه اليقين بالانتقال التاريخي للسلطة من ذوي البشرة البيضاء إلى ذوي البشرة السوداء في وقت تصاعدت فيه حركة الوعي بذوي البشرة السوداء وانهيار موزمبيق وأنغولا، بينما تفحص رواية ابنة برغر (Burger's Daughter, 1979) الدور الثوري المحتمل لذوي البشرة البيضاء الملتزمين المنفصلين عن جميع شرائح المجتمع. هيلينا أيضاً لا ينتابها الشكّ ومصممة على أن الثورة ستنتصر، وهي تؤدي دورها في دعم القادة السود للثورة. أيّدت غوردنر وجهة نظر مونجاني والي سيروتي القائلة بأن «على ذوي البشرة السوداء أن يتعلموا أن يرفعوا صوتهم عالياً، وعلى ذوي البشرة البيضاء أن يصغوا باهتمام» (EG 267). وتقول غوردنر إن على

الكاتب الأبيض البشرية «إيجاد طريقة للتوفيق بين ما لا يمكن التوفيق فيه داخل نفسه، وإقامة علاقة بثقافة نوع جديد من المجتمع المفترض، غير العنصري، ولكن يقوم السود بتصميمه وقيادته» (EG 278). ومع ذلك تعترف غوردимер أيضاً بأنها كفنانية (مصممة على أن أجد مكاني في «التاريخ» وبينما ما لا أزال أشير ككاتبة إلى القيم التي تتجاوز التاريخ. فإنني لن أتخلّى عنها مطلقاً) (EG 278). يعكس تصوير غوردимер لزيجات هيليبلا أولاً من «وحيلة» ومن ثم من الجنرال، اقتناعها بضرورة أن تتماشى الفنانية مع القوى السياسية الثورية في إفريقيا ويؤيد وجهة نظرها بأن لقيم الفنانية ورؤيتها أدواراً هامة تؤديها. ينبغي أن يؤدي أي حسابان لكيفية إيصال الفنان لهذه القيم إلى الوصول لمسألة اللغة. استكشفت رواية غوردимер السابقة شعب تموز انهيار التواصل بين ذوي البشرة السوداء وذوي البشرة البيضاء؛ فاللغات تفصل بين الأعراق. في رواية رياضة الطبيعة، تسعى غوردимер للوصول إلى لغة يمكنها استعادة التواصل، واللغة التي تعتمد عليها هي اللغة المجازية. مناقشة دانيال شوارتز حول «الاستعارة» مفيدة في هذه المرحلة. إذ يُظهر أن اللغة الفنية أو المجازية قد قُدرت منذ فترة طويلة من فلاسفة مثل نيتشه الذي نقلها دريدا بدوره:

المنطق مجرد عبودية في حدود اللغة. ومع ذلك، تحتوي اللغة على عنصر غير منطقي، وهو الاستعارة. تؤدي قوتها الأساسية إلى تحديد اللا تماثل؛ ومن ثم فهي ضرب من ضروب الخيال. وعلى هذا الأساس يكمن وجود المفاهيم والأشكال وما إلى ذلك.

يرى شوان أن الاستعارة بحكم تعريفها «متزامنة ولا تعرف حدوداً... لأن الاستعارة تستحضر إلى الوجود شيئاً غائباً بمجرد إعلان وجوده» (14). يستخدم الفنان الذي يعمل بشكل إبداعي لغةً مجازيةً وهي لغة يتشاركها جميع الفنانين بغض النظر عن جنسهم أو عرقهم، ويمكن أن نتشارك فيها جميعاً كقراء. إن هيليبلا شأنها شأن الفنانية إذ لها لغتها الخاصة وهي لغة عالمية ألا وهي لغة الجسد. إذاً من الناحية المجازية فإن لغة الجسد (مصدر الإبداع الجسدي) تثير الخيال بوصفه مصدر الإبداع الخصب للفنان وتثبت صحة المقولة أن الفنان مولد للأفكار حول المستقبل.

إن اللغة المجازية التي تقرُّ من منطق الزمان والمكان هي لغة الأفكار الطوباوية. وكما يقول ساشا (ابن عم هيليبلا والشخصية البيضاء الوحيدة التي تستوعبها) عند الحديث عن مشكلات جنوب أفريقيا: «الغريزة طوباوية. وكذا العاطفة... كل شيء ينبغي أن يسقط يا أمي. من دون المدينة الفاضلة (يوتوبيا) -فكرة المدينة الفاضلة- لن يوتَي الخيالُ أكله- وهذا إخفاقٌ في إدراك كيفية الاستمرار في المضي في هذه الدنيا. سيتطلب الأمر نوعاً آخر من الوجود للبقاء هنا. وجود شخص أبيض البشرية جديد. ولكن ليس نحن على أي حال. هذه الفرصة نادرة شبيهة بالوقوع في تلايبب الحب» (187). يدرك ساشا، مثل غوردимер، أن القرار بالنسبة إلى البيض والفنانين البيض في مستقبل جنوب أفريقيا محفوف بالمخاطر للغاية؛ إنه «رياضة الطبيعة».

إن تأكيد غوردимер على «رياضة الطبيعة»، وتركيزها على ذلك كعنوان للنص، يرغمنا على دراسة أهميته وبالتالي جذبنا إلى الجانب الأكثر رصانة في الرواية. بينما ضمنت هيليبلا موقعها في المستقبل

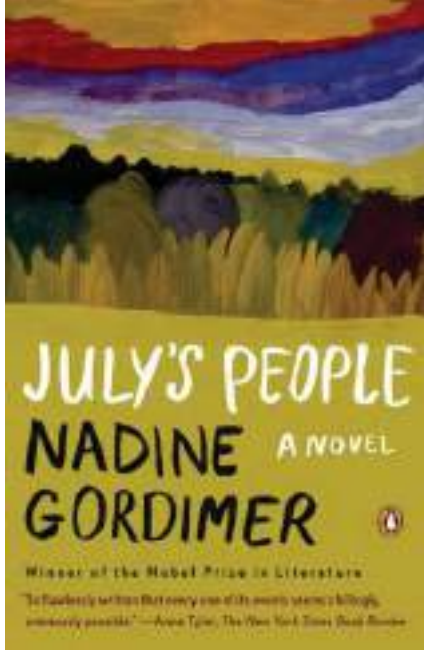
الأفريقي، فذلك لأنها ذلك الكائن النادر رياضة الطبيعة. إن استعارة غورديمر لهذا المصطلح من الكاتبة الجنوب أفريقية سارة جيرترود ميلين أمرٌ مثير للسخرية عن عمد. في الدعوة إلى النقاء العرقي في أوائل القرن العشرين، أكدت ميلين أن أولئك الذين ينكرون وجود «الوعي بالألوان هم، من الناحية البيولوجية، رياضيون». وادعت أن الوعي بالألوان هو «شعور عميق (يطلق عليه غريزة أو يطلق عليه التحيز المكتسب)» لا يمكن أن تتغلب عليه سوى قوة بيولوجية أخرى، مثل الرغبة الجنسية (كويتزي 153). ومع ذلك، فإن وعي هيلينا بالألوان ينتشي بالاختلاف ويجمع مع طبيعتها الحسية ما يسمُّها بأنها «رياضة طبيعية». ومن المفارقات إذاً كيف عكست غورديمر القيمة السلبية لتصبح قيمة مرغوبة، لأن هيلينا هي الوحيدة في الرواية التي يمكن أن تتكيف وتتحوّل إذا جاز التعبير، وبالتالي أن تجد لها مكاناً في أفريقيا. بالنسبة إلى غورديمر حتى تجد الفنانة مكانها، فهي أيضاً لا بد وأن تصبح رياضة. تعدّ رواية *رياضة الطبيعة* دليلاً على تحورها، فضلاً عن دعوتها لجنوب أفريقيا، البلد المحاصر في التاريخ، لبدء تحورها أيضاً.

من الجليّ أنه من خلال التشبيه المجازي لرياضة الطبيعة، فإن النص يفسد أي أوامٍ لحل سهل وسلس. فعلى سبيل المثال، فإن بيض البشرة الذين نجوا واستفادوا من الصراع هم ابناً أولغا، المصريّ الدولي ومتذوق النبيذ. على زوج هيلينا الرئيس أسود البشرة أن يتعامل مع حقائق الاستعمار الجديد والشركات متعددة الجنسيات. تم اختيار ابنة هيلينا السوداء البشرة، والتي سُميت على اسم السيدة مانديلا، من قبل التجارة الغربية لتكون نموذجاً لأغلفة المجلات البراقّة. إن بيض البشرة الذين اهتموا فعلاً ودفعوا الثمن، أي ساشا ووالده ووالدته هم الغائبون عندما يأتي التحرير أخيراً. ومع ذلك، فإن ساشا هو الذي يشير إلى أن «اليوتوبيا بعيدة المنال؛ أي من دون أن تأمل الوصول إليها واقتناص الفرصة! - فلا يمكنك أبداً أن تأمل حتى في التقصير في تحقيقها» (187). ولذا فإن أي حل شخصي أو سياسي أو فني لجنوب أفريقيا المجزأة يظل بعيد المنال.

يمكننا أن نقرأ تصوير غورديمر لجنوب أفريقيا المستقبلية كمحاولة ملتزمة لمتابعة حاجة الفنان إلى تكامل الوعي المتحلل الذي تسببه سياسة الفصل العنصري في جنوب أفريقيا وليس للإجابة عنه. إنه تدريب مهني، أي خطوة مؤقتة نحو الشفاء، ورؤية للكمال وتشكّل وعي «حقيقي». فيمكنه - جنباً إلى جنب مع الرؤى الأخرى - دفع عجلة التاريخ للخروج من أهدودها العقلاني لتجري على طول المسار الخيالي للفنان، وهو مسار (يتجاوز فخ الصيغ التقليدية والانقسامات التي يمكن التنبؤ بها) والذي قد يصادف في طريقه «ضيف المستقبل» - الفنان كني لحل الثقافات المنقسمة (غورديمر، A for F v). □

المصدر:

Studies in 20th & 21st Century Literature, Vol. 15, Iss. 1 [1991], Art. 13
<https://newprairiepress.org/sttcl/vol15/iss1/13> DOI: 10.4148/2334-4415.1272



مقارنة بين أوجه عدم المساواة لدى نظام الفصل العنصري وطوباوية المرحلة اللاحقة له في رواية «شعب يوليو» لنادين غورديمر

تأليف: علي إيريتونجا

- ترجمة: وطفة العسافين

د. علي إيريتونجا: دكتور في جامعة كينت العامة (Kent State University) في ولاية أوهايو في الولايات المتحدة الأمريكية. مختص في الأدب الأفريقي وأدب ما بعد الاستعمار والطوباوية والسياسة في الأدب.

ملخص

تتناول هذه المقالة رواية نادين غورديمر (Nadine Gordimer) *شعب يوليو* (*July's People*) (1981)، وتطرح جدلية أنها تشمل تحليلاً نقدياً ديستوياً لنظام الفصل العنصري (الآبارتايد) في جنوب أفريقيا، وتوقعات طوباوية تتطلع إلى حكم أكثر مساواة في مرحلة ما بعد هذا النظام. تنتقد غورديمر بصورة رئيسة الليبراليين البيض من جنوب أفريقيا لإغفالهم حقيقة أنهم يدينون برؤيتهم المادي بنسبة كبيرة إلى السياسات التمييزية لنظام الفصل العنصري. فعلى الرغم من رفضهم لحاجز اللون، تجد غورديمر أن الليبراليين البيض يمانعون إعادة توزيع الموارد المادية لجنوب أفريقيا. إضافة إلى هذا، تتمثل إحدى المساعي الجوهرية للمقالة بتوضيح التوافق بين استخدام غورديمر لمفهوم المدينة

• مترجمة سورية .

الفاضلة (اليوتوبيا) في شعب يولييو ورفض أدب ما بعد الحداثة للتحكيم والسرديات الكبرى. في هذه الرواية، لا تعطي غوردимер صورة متبلورة لجنوب أفريقيا في مرحلة ما بعد نظام الفصل العنصري، بل تكتفي بالإشارة إلى إمكانيات التعايش القائم على المساواة بين السود والبيض. فسياسات الفصل العنصري القائمة على التمييز العرقي رجّحت كفة الميزان الاقتصادي لصالح البيض. بالمقابل، تتخيل غوردимер المستقبل في مرحلة ما بعد هذا النظام، حيث يقوم البيض برأب التفاوتات الاقتصادية القائمة بينهم وبين رفقائهم السود من جنوب أفريقيا.

في عام 1981، أي قبل إقصاء نظام الفصل العنصري بثلاثة عشر عاماً، نُشرت رواية شعب يولييو، التي توقعت فيها الكاتبة نادين غوردимер انهيار دولة جنوب أفريقيا البيضاء الحتمي، وظهور وقائع سياسية واجتماعية جديدة تستدعي من الجنوب أفريقيين البيض رسم معالم هوية جديدة. ولا تكمن المسألة الأساسية التي تعالجها غوردимер في هذه الرواية بمن سيحكم جنوب أفريقيا في نهاية المطاف. فهي تقترض أن السود سيخرجون ظافرين من كفاحهم في سبيل العدالة السياسية والاقتصادية، في حين سيجد البيض أنفسهم في موقع التبعية، تحت حكم السود. بل تكمن الأهمية الأكبر بالنسبة لغوردимер في النسخة الطوباوية من دولة جنوب أفريقيا التي تتمتع بالديموقراطية، والتي تحكمها الغالبية السوداء، بالإضافة إلى الدور الذي سيلعبه الجنوب أفريقيون البيض في نظام الحكم الجديد. ولكن رواية شعب يولييو لا تطيل النظر في الزوال الوشيك لجنوب أفريقيا البيضاء وفي طوباوية المستقبل القريب، بل ينصبّ تركيزها أكثر على الصعوبات التي تنجم عن محاولة تجاوز المخاطر الدفينة في النظام القديم، وسط نظام جديد. تحدد العبارة المقتبسة في مقدمة الرواية، والمنتقاة من أنطونيو غرامشي (Antonio Gramsci)، الإطار الزمني ثلاثي الأبعاد للسرديّة: «إن القديم يحتضر، بينما لا يستطيع الجديد أن يولد؛ وفي ظل هذا الفراغ تظهر أعراض مرضية كثيرة التنوع». إن ماضي جنوب أفريقيا ميّت، لكن لا بدّ لمحاولات تجاوزه نحو مستقبل أفضل أن تواجه فراغاً متمرّداً.

على الرغم من أن رواية شعب يولييو ليست رواية مدينة فاضلة تقليدية من ناحية أنها تحتم دولة ديموقراطية مثالية، لكنها تحتوي على توقعات طوباوية تحدد معالم الشكل الأنسب للتفاعلات بين الأعراق، والتي يجب أن تحدث في مرحلة ما بعد نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا. تستخدم غوردимер الدافع الطوباوي في محاولة للإشارة إلى الاحتمالات الكامنة وراء النهاية المسدودة لنظام الفصل العنصري، وللتأكيد على «مبدأ الأمل» بالمعنى الموجود لدى إرنست بلوخ (Ernst Bloch).¹ ولكنها لا ترسم خريطة واضحة للمستقبل، ولا تتخيّل صورة متبلورة للنظام الاجتماعي. إذ ينتمي الأفق الطوباوي الذي تطرحه غوردимер إلى السرديات الطوباوية التي يصفها بولنت سومي (Somay) بأنها «ذات نهاية مفتوحة» (26)، ويراها فيليب ي. واغنر (Philip E. Wegner) بأنها تقدّم «فضاءً ناشئاً» (17).² وتكمن المفارقة بأن لجوء غوردимер للطوباوية، والذي يبرز في نهاية الرواية، ينبع من إدراكها أن جنوب أفريقيا قد انحدرت إلى مدينة فاسدة (ديستوبيا) في ظل نظام الفصل العنصري. إذ كما يلاحظ كرشان كومار (Krishan Kumar)، «تمثل كل من المدينة الفاضلة ونقيض المدينة الفاضلة [أو المدينة الفاسدة] حدين متضادين ولكنهما يعتمدان على بعضهما بعضاً» (100). ويضيف: «يظهر نقيض

المدينة الفاضلة [أو المدينة الفاسدة] بصورة المجتمع المعاصر القائم، حيث يقدم المؤلف المدينة الفاضلة كحلٍّ للأمراض ومشكلاته» (105).³ ويوصفها رواية من نمط المدينة الفاسدة، ترسم شعب يوليوية صورة قائمة لجنوب أفريقيا، ليس بهدف كشف عواقب نظام الفصل العنصري الاجتماعية والاقتصادية فحسب، بل أيضاً لفتح آفاق طوباوية بعده. وإذا أردنا استخدام مصطلحات Gilles Deleuze وFelix Guattari، تقوم غوردنيمر بانتزاع بعض مظاهر الفصل العنصري المتمردة، وتعيد توطين الفضاء الذي تفرغته ببدائل جديدة تتبأ بدولة مساواة في مرحلة ما بعد نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا.

أولاً:

تضع غوردنيمر حبكة شعب يوليوية في مستقبل فاسد بهدف التحذير من العواقب الكارثية التي ينطوي عليها استمرار ما يفرضه نظام الفصل العنصري من استغلال اقتصادي للأفريقيين وهيمنة سياسية للأفريقيين، دون توقف. ولكن الثورة، واختلال الأنظمة الاجتماعية، والطريق المسدود للتفاعلات بين الأعراق التي تصورها غوردنيمر، كانت واضحة في جنوب أفريقيا البيضاء منذ الخمسينيات، وبصورة أكثر استدامة منذ اضطرابات سويتو في السبعينيات (Thompson, 212-13). وبالاعتماد على نسخة منقحة من تقييم Kumar للمدن الفاسدة في القرن التاسع عشر، فيمكن القول إن جنوب أفريقيا البيضاء التي كتبت عنها نادين غوردنيمر في شعب يوليوية كانت «قد وصلت أصلاً إلى مرحلة متقدمة من وقوفها ضد الطوباوية [أو المدينة الفاسدة] ولن تحتاج إلا القليل كي تصل إلى صورتها المستقبلية» (110). في الواقع، وكما تشير غوردنيمر في مقابلة أجريت عام 1987: «في السنوات القليلة بعد كتابة [شعب يوليوية] [...] بدأت العديد من الأمور التي كانت تبدو خيالاً علمياً في وقتها بالحدوث. ولا يعود سبب هذا لأنني عرّافة أو نبّية، ولكن لأنها كانت موجودة بالفعل. كنّا نقوم بأشياء ستؤدي إلى ما آلت إليه الأمور» (مقتبس في Bazin, 119).⁴

تبدأ رواية شعب يوليوية قصتها مع الشخصيتين مورين وبامفورد سميلز، وهما أبيضان من جنوب أفريقيا، في بيت قدمه لهما خادمهما الأسود السابق يوليوية. إذ كانا قد هربا من جوهانسبرج التي تتنازعها الحرب إلى الأدغال الأفريقية حيث يقدم لهما يوليوية ملجأً بين عائلته وشعبه. لكن حياتهما الجديدة هي بعيدة كل البعد، وتمثل تناقضاً صارخاً للحياة الفخمة التي كانا ينعمان بها قبل أن تقوِّض الحرب أعمدة رخائهما. إذ كان لدى بام ومورين «منزل مؤلف من سبع غرف ومسبح» (25)، وكانا يتحملان نفقة تشغيل خدم في المنزل، ويذهبان في رحلات صيد باستمرار، إضافة إلى «المدخرات والاستثمارات المتزايدة» (8) التي كانا يملكانها، والحفلات الباذخة التي كانا يقيمانها. باختصار، كانا يعيشان حياة الطبقة المتوسطة المريحة. ولكن أتت فترة كانت فيها الحرب الأهلية، التي عملت على تحريض الثوريين السود ضد حكومة جنوب أفريقيا العنصرية البيضاء، ترسم خريطة جحيم اجتماعي، كما يسميها توم مويلن (Tom Moylan) في تعريفه للمدينة الفاسدة (112). في ذلك الوقت، وجدت عائلة سميلز نفسها في حالة الحرمان التي عانى منها الأفريقيون لسنوات عديدة، أي دون أي من مقومات الراحة الأساسية للحياة العصرية. وأجبرتهم مصاعب حياتهم الجديدة، وخاصة مورين، أن يفكروا بأصول امتيازاتهم الاجتماعية والاقتصادية، وبيعض الافتراضات البديهية التي كانوا يحملونها عن المساواة العرقية في جنوب أفريقيا.

صحيح أن بام ومورين اختارا أن يتأيا بنفسيهما عن تطرف نظام الفصل العنصري؛ فمعاملتهما للخدم السود كانت لبقة، ولم يقبلا بالسياسات العنصرية لجنوب أفريقيا البيضاء، وحتى إنهما حاولا، وإن لم يكتب لهذه المحاولة النجاح، الانضمام إلى «أحزاب سياسية ومجموعات «تواصل» رغبة منهما في التخلص من امتيازات كان يفترض أن تقودهما طبيعتهما البيضاء إلى حمايتها بطائرات الميراج والدبابات» (8). مع ذلك، نعرف من تاريخ نظام الفصل العنصري أنهما مدينان بثروتها وحياتهما السهلة بنسبة كبيرة لسياسات دولة جنوب أفريقيا القومية في ظل الحكم الأبيض.

يشير ليونارد طومسون (Leonard Thompson) إلى أن نظام الفصل العنصري سعى إلى إضفاء الطابع الأفريقي على مؤسسات الدولة كالخدمات المدنية والشرطة والجيش، وإلى دعم مجتمع الأعمال الأفريقي ليصبح كبيراً وثرياً.⁵ بالمقابل، كانت النتيجة الطبيعية المعاكسة لهذه السياسة تتمثل بالإفقار والقمع الممنهجين للسود، وبدرجة أقل، لأصحاب البشرة الملونة والآسيويين.⁶ كانت غالبية الجنوب أفريقيين البيض، المدعومين من الحكومة العنصرية والداعمين لها، مستفيدين من العالم المانوي⁽¹⁾ الذي وطّده نظام الفصل العنصري.⁷ وبالنظر إلى المنافع الاقتصادية التي جناها البيض نتيجة هذا النظام، سأناقش بأن غوردنير تؤمن بأنه ينبغي لمحاولات تقويض الهيمنة السياسية للدولة القومية في جنوب أفريقيا أن تستهدف أيضاً الانعكاسات الاقتصادية لسياساتها العنصرية. ولن تتبلور دولة جنوب أفريقيا القائمة على المساواة إلا إذا اعترف البيض بضرورة مشاركة للسود لهم في الوصول إلى الموارد والمهارات والثروة، وتصرفوا بناء على ذلك.

كشفت غوردنير في العديد من رواياتها ومقالاتها ومقابلاتها تداخل الجنوب أفريقيين البيض، بمن في ذلك الليبراليين، مع السياسات العنصرية لدولتهم القومية. وتخص غوردنير الجنوب أفريقيين الليبراليين بالانتقاد لأنها ترى معارضتهم لنظام الفصل العنصري غير فعالة.⁸ من مكانهما كليبراليين، يمتلك مورين وبام الرغبة بالانتماء إلى مجتمع متعدد الثقافات، ولكنهما، كما سأطرح في نقاشي، يتمسكان بحرص بممتلكاتهما المادية وامتيازاتهما. فهما يعجزان عن ربط حياة البذخ التي عاشاها قبل الثورة بالسياسات العنصرية لجنوب أفريقيا البيضاء. إذ يبدو عليهما عدم الإدراك لحقيقة أن «مؤسسات نظام الفصل العنصري وقوانينه وممارساته هي بشكل رئيس أجهزة فوق اقتصادية لتأمين عمليات تراكم رأس المال عبر إبقاء الأكثرية السوداء مصدراً سهل الاستغلال للعمالة الرخيصة» كما أتى على لسان حزب المؤتمر الوطني الأفريقي (ANC) الذي تمثل غوردنير عضواً ناشطاً فيه (مقتبس في Wolpe 30). ولذلك، فلا يمكن فصل ثروة الجنوب أفريقيين البيض عن هيكليات التمييز العنصري التي أقامها نظام الفصل العنصري.

لأي درجة تتحمل عائلة سميلز مسؤولية «الماضي وعقابه» (36)، أي مسؤولية نظام الفصل العنصري، وبالتالي تجريد أنفسهم من الملكيات؟ لا تصور رواية شعب يولييو عائلة سميلز على أنهم ضحايا، ولا على أنهم أشرار، إلا أنها، كما يلحظ نيكولاس فايزر (Nicholas Visser)، تكشف تواطؤهم غير المقصود مع نظام الفصل العنصري:

(1) المانوية (Manichaeism) هي من العقائد الثنوية وتقوم على معتقد أن العالم مركب من أصلين قديمين أحدهما النور والآخر الظلمة. (المترجمة)

إن عائلة سميلز مقيدة بكل تأكيد، وتخضع هذه القيود لاستكشاف مستفيض. لكن الرواية لا تدينهم بأي طريقة مباشرة. بل تكشف، بلا هوادة، التناقضات المستعصية الموروثة في حياة هؤلاء الأشخاص. (63)

جاهدت عائلة سميلز لتجنب المواقف العنصرية التي كان يأخذها غالبية البيض في جنوب أفريقيا، إلا أن محاولاتهم لتجاوز حاجز اللون أعمتهم عن المكون الاقتصادي لنظام الفصل العنصري. في واقع الأمر، وطوال الرواية، تراهم يقاومون إعادة توزيع الثروات، غافلين كما يبدو عن حقيقة أنه قبل الثورة، كانت كفة الميزان الاقتصادي خاصتهم هي الراجحة نتيجة القوانين العنصرية لنظام الفصل. حيث أن ما يغذي آراءهم الاقتصادية هو جوهر الرأسمالية الذي ينص على أن الملكية ثابتة. وفقاً لروزمري بودهايمر (Rosemarie Bodenheimer): «في كفاهما للحفاظ على حقوق الملكية دون جدوى، يُظهر الزوجان سميلز «الأعراض المرضية» لثقافة استهلاكية تحتضر، تتشكل فيها الهوية من الملكية، وتتكون العلاقات بوساطة المادة.» ومع «نفسيتيهما اللتين تتفقان وخصائص الرأسمالية الاستهلاكية الغربية» (109)، يرفضان مشاركة آخر ما تبقى من حياتهما في ظل النظام القديم⁽²⁾، وتحديداً شاحنتهما الصغيرة (bakkie).

يبدأ النزاع على الشاحنة عندما يقودها يوليو دون التماس الإذن من عائلة سميلز، بمساعدة صديقه دانيال. حيث يذهبان إلى المخزن الهندي الذي يبعد حوالي أربعين كيلو متراً عن القرية، وهو المكان الذي يشتري منه البقالة وبعض الحاجيات الأساسية. يتهمه الزوجان سميلز بالسرقة، ويستصعبان الموافقة مع مطالبته بالشاحنة. وتعكس ردة فعلهما على استخدامه للسيارة دون تردد ليبراليتهما. فظالماً أن يوليو مطيع وضعيف، كان ينتابهما الغضب من عنصرية نظام الفصل. ولكن مع تحول علاقته معهما إلى صيغة تطوي على المساواة المادية، أصبحا ساخطين عليه. يتبرّم بام قائلًا، وهو غير مصدق لمجاهة يوليو لحقه الحصري في الشاحنة: «لم يخطر لي قط أنه من الممكن أن يفعل شيئاً كهذا. لقد كان دائماً شخصاً نزيهاً» (58). تجاوز هذا الرجل الأسود حدوده، ولم يعد يعرف مكانته.

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن المشكلة لا تكمن في خسارة عائلة سميلز للشاحنة نهائياً. بل إن يوليو بات يواجه حقهما الحصري فيها. صحيح أن يوليو يبقي مفاتيح السيارة معه، لكنه لا يسعى لسرقتها من عائلة سميلز. في الواقع، يتكبد يوليو عناء طمأنتهما بأنه يستخدم السيارة لغرضين أساسيين: أولهما شراء البقالة من المحال التجارية، وثانيهما تعلم القيادة، الأمر الذي يساعده عليه دانيال. وعند زيارتهما لعمدة القرية، يوليو، ومن تلقاء نفسه، لا يجلس على مقعد السائق، بل يقوم بام بالقيادة. لكن مع وجود العقلية الرأسمالية الراسخة وخيالهما القاصر، لا يتوقف الزوجان سميلز عن إصرارهما على أن يوليو قد سرق السيارة منهما. تتماشى مطالبة يوليو الحازمة بالسيارة مع النقاش الذي تطرحه غوردنيمر في محاضرة «Living in the Interregnum» التي لخصت فيها بعض المشاغل المطروحة في الرواية. حثت غوردنيمر في هذه المحاضرة

الجنوب أفريقيين البيض على التخلي عن الملكية الفردية لثروة جنوب أفريقيا الاقتصادية ومؤسساتها: من وجهة نظر الأغلبية السوداء التي ستتولى الحكم، يتوجب على البيض من جنوب أفريقيا السابقة أن يعيدوا تعريف أنفسهم في حياة جماعية جديدة وضمن هيكلية جديدة. من البرلمان المشكّل بأكمله من

(2) يحمل المصطلح الوارد في النص الإنكليزي (ancient regime) إشارة إلى النظام السياسي والاجتماعي الذي كان سائداً في مملكة فرنسا قبل الثورة الفرنسية عام 1789 (الترجمة).

الأعضاء البيض، إلى النادي الريفي ذي الأعضاء البيض كلياً، ومحطات التلفاز «البيضاء» المنفصلة. فلا يتوقف الأمر على استلام السود زمام القيادة في المؤسسات البيضاء، بل لا بد من خلق مؤسسات - من دور الحضانة إلى الدوائر الحكومية - تعكس النسيج المجتمعي المختلف اختلافاً كبيراً عن النسيج الذي بني وفق خصائص السلطة والامتيازات البيضاء. (65-264)

لا تتوقع غوردنير من البيض أن يشاركوا سلطتهم وممتلكاتهم بطيب خاطر. وإذا تطلب الأمر فإنه «يمكن فرض قوانين تقضي بتوزيع الثروات بطريقة أكثر عدلاً» (265). ولكن في فوضى الفراغ، أصبح يوليو هو من يسن القانون لنفسه.

يعترض الزوجان سميلز بحجة أنهما كانا ليعيرا الشاحنة طوعاً ليوليو بمجرد أن يسألتهما. ولكن ربما كان شعور التبعية المقترن بالطلب منهما هو ما يحاول يوليو أن يتفاده بتصرفه الحازم هذا. حيث إن حاجته إلى طلب إذنهما على الدوام هي مؤشر على حالته الاجتماعية والاقتصادية المتدنية عندما كان يعمل لديهما. في نهاية الرواية، تفهم مورين أخيراً ماذا يعني له «أن يطلب كل شيء». حبة أسبيرين. هل أستطيع استخدام الهاتف. لا شيء في ذلك المنزل كان ملكه» (155). مجرد إقامته في البلدة كانت تتوقف على حسن نية مورين، فهي التي توقع على عبوره في كل شهر. كونه أفريقياً، كانت الحقوق التي يتمتع بها قليلة مقابل العديد من الالتزامات - وهذا الظروف وضعته في حالة «تبعية دائمة» (155). وفي رفضه طلب الإذن لاستخدام السيارة إشارة إلى رفضه للوضع السابق لعائلة سميلز كأسياد بيض، وتذكير لهم بأن النظام القديم لم يعد موجوداً. فمع «انفجار الأدوار» (117) الذي أحدثته الثورة، أصبح الآن يفرض طلباته ورغباته.

تنطوي مواجهة يوليو لعائلة سميلز في مطالبتهم بالشاحنة أيضاً على طعنه في قوة معارضتهم لنظام الفصل العنصري وقيمتها. كحال شخصية الفتاة الشابة في قصة «Is There Nowhere Else? Where We Can Meet?» تتنازع عائلة سميلز مع السكان الأصليين لإبقاء سيطرتهم على ممتلكاتهم، ولكن على عكسها، يمنعهم الغموض الذي يلف هذا التصرف من فهمه. وعلى عكسها أيضاً، فهم لا يعالجون الأسئلة المتعلقة بالقضية، والمزعجة في واقع الأمر، من قبيل: «لماذا كنت أحارب، فكرت بهذا فجأة. ما الذي حاربت من أجله؟ لماذا لم أقم بإعطائه النقود وصرفه؟» (96). تقوض غوردنير اتهام عائلة سميلز ليوليو بسرقة شاحنتهم عن طريق التشكيك الحاذق بصحته. ففي خضم يأسها للحصول على دواء الملاريا لأطفالها وهم في طريقهم إلى الأدغال، وفي ظل الفوضى التي سببتها الثورة، تقوم مورين بالسرقة من إحدى الصيدليات. ويعكس هذا التصرف قبولها لمسوغات فعل السرقة تحت الإكراه. ولكنها لا تطبق ذات النسبية الأخلاقية عندما يتعلق الأمر بسرقة يوليو المزعومة لشاحنتهم. فعند رؤيته متكباً على عجلة السيارة، تعبّر عن استيائها من هذه الحركة والتي تعدّها مدفوعة بكبرياء صاحب الملكية، غير المسوّغ في حالته. «كان الكبرياء، والارتياح في التملك هذا ينسيه من الذين تكبّدوا الخسارة التي أوصلت إليه هذه الملكية» (94). برأيي، يوجد هنا سخرية عميقة تتبع من محاولة مورين جعل نفسها ضحية السرقة من يوليو، ومن عدم إدراكها أن تعليقها يصور، دون رحمة، نسيانها لمصدر ثروتها المتمثل في استغلال السود وإقصائهم من موارد بلدهم.

علاوة على ذلك، توضّح الرواية أن ما كان يكفل أمان عائلة سميلز وسلامة ممتلكاتهم في جوهانسبرج هو عنف الدولة؛ مع أن بام قد يجد هذا ادعاءً قذراً على أقل تقدير. ولكن زوجته تكتشف درجة اعتماده على الحماية من الشرطة والجيش خلال فترة نظام الفصل العنصري، على الرغم من عدم إدراكه لها، حين تشاهد ردة فعله على سرقة سلاحه. في ثورة غضبه وعجزه، وهو يفتش في أرجاء الكوخ بحثاً عن سلاحه، تشهد مورين عليه بشخصية الرئيس الأبيض المستعد إلى أن يلجأ للإكراه في سبيل حماية ما يعده ملكيته الثابتة: «لم يكن يعرف ماذا سيفعل إذا لم يتسنّ له رفع السماعرة والاتصال بالشرطة التي كانا، هو وهي، يحتقرانها بسبب وحشية أفرادها وعنفهم عندما كانا يعيشان حياتهما هناك» (145). في ظل غياب الشرطة، يتعامل بام مع خساراته بابتذال وسخرية. وهكذا تصف غوردنر ردة فعله لدى علمه بأن يوليو أخذ السيارة إلى المحلات التجارية دون إذنه:

نهض من السرير وعلى وجهه معالم تهديد ذكورية، كتلك التي كانت لدى الإنسان قبل أن يسيطر جانبه العقلاني على جسده. استيقظ من نومه وكان عضوه منتفخاً تحت بنطاله المجدد. بدأ يتجول بين الأكوخ، واحداً تلو الآخر [...] لم يكن هنالك مكان يلجأ إليه. لم يكن من سبيل للنجاة. لم يكن بوسع سوى أن يقول لمورين أنه كان يوليو. يوليو. (39-40)

وإذا كان فقدان أعصابه يدل على الصعوبة التي يواجهها في التأقلم مع معطيات الواقع الجديد لفترة الفراغ، فإن لجوءه إلى التعليقات اللاذعة طوال الرواية للتقليل من قيمة يوليو هي بمثابة سلاح، أو بديل عن الشرطة.

على خلاف زوجها، دائماً ما تفكر مورين بمواقفهما تجاه يوليو ودرجة تورطهما مع نظام الفصل العنصري. ولكن على الرغم من قدرتها على الرؤية وراء ليبرالية زوجها، ومراجعتها لذاتها، تُظهر مواقف مورين الليبرالية تصدعات تحت الضغط الذي يسببه عالم الفراغ المجهول. في إحدى الحوادث، ترسل في طلب يوليو إلى كوخها في محاولة واضحة منها لاستعادة الأدوار التراتبية التي كانت تتسم بها علاقتهما في جوهانسبرج: «أذهب وقل له بأني أريد رؤيته» (68). عندما يأتي دون أن تظهر عليه علامات الاعتراف بالهزيمة، «ينقلب نصرها البسيط في إحضاره إلى اضطراب في داخلها، وتظهر دناءة أمر ما مخفي وراء ستار» (68). وهذا الشعور المخبيء هناك هو دون شك شعورها الراسخ بفوقيتها على يوليو. ونتيجة فهمه الكامل لطبيعة العلاقة الهرمية معهما، يرفض يوليو أن يعترف بأنهم متساوون - وهو الاعتراف الذي تحرص على أن تأخذه منه. في الوقت الذي تتوسل إليه سائلةً: «متى عاملناك دون مبالاة؟ أو بطريقة سيئة؟ أود أن أعرف، أرغب حقاً أن أعرف هذا» (71)، يصرّ يوليو على الإشارة إلى نفسه على أنه «صبيها» في حين يسمّي بام «السيد»، «وكأنه لا توجد كلمات أخرى يستخدمها عوضاً عن تلك؛ لا توجد أيّ كلمات تعبر تماماً عما تعنيه علاقته معهما بالنسبة إليه» (111). يرفض يوليو، عمداً، أن يعقتهما من شعور الذنب الذي ينتابهما بوصفهما جنوب أفريقيين بيض عبر تحطيم الفاصل الذي كانا قد أصراً على إبقائه بينهما وبين البيض العنصريين، والذي كانا يفتخران به.

كما تتجلى درجة تداخل مورين مع نظام الفصل العنصري عندما تتذكر مخططها لزيارة قرية يوليو قبل الثورة. وتبين غوردنر هنا انفصال مورين عن الواقع المادي للأفريقيين. حيث إن «انفصالها عما

تتم ملاحظته» (170) كما يقول جون كوك (John Cooke)، لا يكشف فقط الهوية الموجودة بين تصورهما والعالم الأفريقي الذي تسعى للانخراط فيه، كما يؤكد كوك، بل يظهر أيضاً قرب مواقفها من مواقف نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا. تتذكر مورين كيف تخيلت نفسها «تسير في [الأدغال] مع هدايا [لعائلة يوليوس] المصطفين جنباً إلى جنب، يصفقون بأيديهم ترحيباً بها. كيف أنها تشرح لأطفالها أن هذا هو منزلها، هذه هي حياتها، وترىهم كيف يبني يوليوس بيوتها بكل ذكاء. وتخبر الجميع في موطنها كيف قادوا بنفسهم طول الطريق إلى تلك المنطقة النائبة وزاروه كأصدقاء» (38). ترسم مورين بطريقة متعالية صورة لقرية يوليوس على أنها جذابة بشكل غريب، وتتخيل شعبه بأنهم يطيلون النظر إليها في خشوع وكأنهم مائلون أمام إلهة. وهذا ما يجعلها تتصور القرية على أنها عالم غريب ولكنه غير مألوف. ولكن تغيب أبعاد القرية التاريخية والاقتصادية عن الصورة التي تتخيلها مورين لها. لهذا، تساهم الأفعال التي تصنفها مورين على أنها أعمال خيرية ومقياس لمبادئها الليبرالية بكل بساطة في تعزيز موقعها كواحدة من الجنوب أفريقيين البيض. وعندما تأخذ بالحسبان إخفاقات الماضي وصعوبات مرحلة الفراغ، تقر مورين بالمسافة التي تفصلها عن «التفاصيل الحقيقية لحياة [يوليوس]» (73). وقد عزلتها هذه المسافة عن إدراك مشاركتها في إفتقار الأفريقيين، حتى وإن كانت مشاركة غير مباشرة أو لم تكن مدركة لها.

إن آراء مورين الليبرالية ومعاملتها الإنسانية لخادمها قبل الحرب الثورية لم تصل إلى عمق السياسات العنصرية والتمييزية لجنوب أفريقيا البيضاء. بل كانت مجرد أفكار تجميلية، لا تمس التمييز الاقتصادي الذي كان يمارسه نظام الفصل العنصري. تنتقد غوردنيمر، عبر عائلة سميلز، الرأي الليبرالي الذي عبر عنه هارولد وولب (Harold Wolpe) «بأن النظام العنصري هو في جوهره ظاهرة سياسية/أيديولوجية. حيث ينشأ، ويستسخ، خارج الاقتصاد الحديث الصناعي أو الرأسمالي» (25). إن مورين وبام لم يعارضا الثورة، ولم يقبلوا بالسياسات العنصرية لدولتهما القومية، بل كانا يعاملان السود على أنهم متساوون معهما، وكانا يؤمنان بقضيتهم. لكنهما غير مستعدين للتخلي عن ممتلكاتهما أو امتيازاتهما. وهذا الانقسام في مواقف عائلة سميلز السياسية والاقتصادية هو السبب وراء عدم قدرتهما على فهم طبيعة مطالبة يوليوس بسيارتها.

توضح غوردنيمر أن مشاركة الملكية هي الاختبار الحاسم لموقف الجنوب أفريقيين البيض الليبراليين. بالنسبة لها، لا يكفي لهؤلاء أن يتعاطفوا مع السود ويرفضوا العنصرية ويعارضوا سياسات الفصل العنصري. وتحاول في [كيف يجب أن ينظر أحدنا إلى الآخر إذًا] «How Should We Look at Each Other? Then» أن تؤسس الأرضية التي ينبغي أن تبنى عليها العلاقات المثلى بين البيض والسود، في دولة جنوب أفريقيا الجماعية. كما أنها لا تتفق مع «أولئك المؤمنين بالذاتية، الذين يعتقدون أن تغير مواقفهم روحياً هو أساس التسوية السلمية» وتؤيد «الموضوعيين - الذين أصنف نفسي معهم - والذين يؤمنون بأن الأساس ينبغي أن يكون ظروفاً اقتصادية» (144). حيث أنها لا تؤمن بالأمر الذي يقضي بأن «تحبوا بعضكم بعضاً أو تموتوا» كحل للفرقات بين البيض والسود، لأنها تشك في «قدرتك» على محبتي في الوقت الذي أنعم فيه بمعدة ممتلئة بينما تتضور أنت جوعاً» (145). تدعو غوردنيمر إلى «وجود سياسة ترضى العدالة المادية قبل أن تتمكن من الأمل بالعيش بسلام. يجب إعداد دستور جديد، وقوانين جديدة لتغيير الظروف الاقتصادية للأغلبية. ولا يمكن أن نتعاضد إلا بالاستناد إلى نزاهة الهدف» (How Should We Look, 145).

ثانياً؛

في رواية شعب يوليوس، لا تقوم غوردنير بمجرد كشف الطريق المسدود الذي حتمه نظام الفصل العنصري على العلاقات بين الأعراق. لكنها أيضاً ترسم صورة لمستقبل طوباوي يحاول فيه الجنوب أفريقيين أن يتجاوزوا مشكلاتهم الاجتماعية والاقتصادية المستعصية. لكن تجدر الإشارة مباشرة إلى أن الفترة اللاحقة لنظام الفصل العنصري، التي تتوقعها غوردنير، لا تقدم دولة ديمقراطية مثالية متميزة، على سبيل المثال، كتلك التي يرسمها توماس مور (Thomas More) في *يوتوبيا* (Utopia). فالمدينة الفاضلة التي تصورها تتسم بسمات ما بعد الحداثة، من خلال تقاديبها للتحتيم، واكتفائها برسم احتمالات جديدة. وفي الواقع، فإن استخدام غوردنير للدافع الطوباوي يتماشى مع محاولات فريدريك جامسون (Fredric Jameson) لمواءمة المدينة الفاضلة مع رفض فترة ما بعد الحداثة لكل من التحتيم والغائية والتفاوتية الساذجة. يناقش جامسون أن «المدينة الفاضلة الأصلية» نادراً ما تكون تحتمية، بل تلعب بالمقابل دور المنارة التي تدل على الطريق ولكنها ليست الميناء بحد ذاتها - ليست الوجهة النهائية. فهي لا تحدد الخطوط الرئيسية للحرية، بل تتوقع الحرية، ولا تطالب بالمستقبل، بل تقوم بالتميح إليه. يرى جامسون أن «مثاليات العيش الطوباوي تضع المخيلة في مشروع مناقض. إذ من المفترض لها أن تسعى إلى توضيح وممارسة مفهوم الحرية الذي يساء استخدامه كثيراً، وهو مفهوم لا يمكن تقريباً، وبحكم طبيعته، أن يتم تعريفه مقدماً، فضلاً عن تجسيده» (385). حسب هذا التعريف، ليست المدينة الفاضلة تنبؤية ولا مذهبية: بل إنها ترفض التحتيم والتاريخ الغائي المتبصر.

وعلى غرار جامسون، يناقش رالف بورديك (Ralph Pordzik) أن الروائيين من أدب ما بعد الاستعمار، بمن فيهم غوردنير، ينتمون إلى مجموعة حديثة من «مصري المدينة الفاضلة» الذين أعلنوا ثورتهم على الختام التحتمي «لروايات المدينة الفاضلة التقليدية». وكردة فعل على المدينة الفاضلة التقليدية، يتخيل روائي أدب ما بعد الاستعمار «موقعاً للمدينة الفاضلة يتصف بكونه أكثر تعقيداً وذا نهاية مفتوحة، ويضم كل احتمالات التغيير التي لم يتم إدراكها بالكامل بعد» (16). ولهذا، فإنهم «نادراً ما يتسمون بطابع الحتمية في مفهومهم للمجتمع الأفضل» (18). تضم رواية شعب يوليوس طبقات عدة للصورة المتوقعة للمدينة الفاضلة التي تتوافق مع تعريف جامسون وبوردنير لهذا المفهوم. ويمكن رؤية أكثر هذه الطبقات وضوحاً في نهاية الرواية. بعد أن يوضح يوليوس لمورين بصورة مؤلمة في مواجهتهما الأخيرة، حين يوبخها بلغته، أن مجرد التواصل، فضلاً عن التفاهم، هو أمر مستحيل بينهما، تجد مورين أفكارها الليبرالية على المحك، وأن إيمانها بهم قد تقوض دون رجعة. ونتيجة لذلك، تصل إلى طريق مسدود كما يصفه رولاند سميث (Rowland Smith).⁹ ولهذا، عندما تسمع هدير المروحية، تندفع نحوها كالمغناطيس، لتبحث عنها، حيث حطت وراء النهر. تعبر النهر، و«تركض نحوها. تركض» (160). تنتهي الرواية هنا، دون أن تخبر القارئ ماذا سيحصل معها. لا يوجد في المروحية ما يدل على هوية الناس في داخلها، هل هم ثوريون أم جنود بيض؟ هل يجلبون الخلاص أم الهلاك؟ هل هنالك ما يدعو مورين لأن ترحب بهم أم تخاف منهم؟ حتى شكلها الخارجي يجعلها أكثر غموضاً: «لم تكن قادرة على تمييز لونها أو العلامات المرسومة عليها. لم تكن تعرف إن كان بداخلها مخلصون أم قتلة. حتى إن استطاعت تمييز العلامات، لم تكن لتعرف دلالتها» (158).

تعمق النقد ملياً بالتفكير في المعنى المبهم الذي يحمله المشهد الأخير من رواية شعب يوليوس، دون أن يصلوا إلى إجماع حول معناه الدقيق وطبيعة المستقبل الذي يتبأ به. على سبيل المثال، يعترف ستيفن كلينغمان (Stephen Clingman) بصعوبة تحديد الرسالة وراء تلك النهاية - «تتسم الظروف المحيطة [بركض مورين] بالغموض» - ولكنه يتابع قوله بأن «أهمية هذا الفعل ليست غامضة بالتأكيد [...] فهي تركض هرباً من الهيكليات والعلاقات القديمة التي أوصلتها إلى هذا الطريق المسدود» (203). بما أن الحاضر أثبت استحالة استرداده من نظام الفصل العنصري، يتمثل المخرج الوحيد الذي بقي لمورين في إمكانية التغيير التي تعد بها المروحية. على خلاف كلينغمان، ترى نانسي تبنغ بيزن (Nancy Topping Bazin) أن «محاولة مورين المندفعة للهروب ستقودها على الأرجح إلى تدميرها لذاتها أكثر من تحريرها» (124). وتؤكد بيزن أن «الأشخاص الذين سيخرجون من المروحية هم في الغالب ثوريون سود، وأنهم في ظل الإجبار الذي فرضته الثورة، من المحتمل أن يغتصبوها و/أو يقتلوها أكثر من أن ينقذوها ويحموها» (124).¹⁰ أما فايزر فيقدم قراءة مختلفة لهذه النهاية. حيث يناقش أن وصف المروحية باستخدام «لغة تتسم بالجنسية العنيفة» (64) واندفاع مورين نحوها بطريقة سلبية وكأنها نمومة، يستحضر لقاء ليدا والبعجة (Leda and the Swan) في قصيدة دبليو. ب. بيتس (W. B. Yeats) العظيمة. ومن هذه التشابهات التي يجدها بين القصيدة والرواية، يصل فايزر إلى خلاصة تقول إنه ومثلما «يرى بيتس أن ليدا الطرف المتلقي لبشارة ستؤسس الحضارة الإغريقية» بالنظر إلى أن اغتصابها أدى إلى ولادة هيلين الأرغوسية «والتي اندلعت حرب طروادة بسبب اختطاف باريس لها»، فإن:

الالتقاء الوشيك بين مورين والمروحية، يشبه الالتقاء بين ليدا والإله-البعجة، إذ ينبئ بحضارة جديدة، بحقبة جديدة في جنوب أفريقيا لا يمكن وصفها، وخاصة من قلب لحظة الفراغ، لكن يمكن فقط تصويره بشكل رمزي في إشارة تنبؤية من التفاضلية الثورية. (65-66)

ومهما كانت قيمة أصداء Leda and the Swan التي لمسها فايزر في نهاية رواية شعب يوليوس، أتفق معه بأن هذا المشهد الأخير يصور مستقبلاً في جنوب أفريقيا لم تتضح معالمه بعد، وأنه يضم «رؤية طوباوية - تمثل توقعاً لمستقبل يشير إلى عالم من الاحتمالات تتجاوز مرحلة الفراغ» (66).

كان تركيز النقد المقتبس عنهم هنا ينصب بأكمله على ما تُبئ به المروحية لمورين، في حين أنهم تجاهلوا ما الذي يمكن أن تُبئ به للقرويين. لكن رواية شعب يوليوس توضح أن أحداث النهاية تضم كلا الطرفين:

خرجت القرية بأكملها، الآن، كانت متزنة بانشغالاتها أو بكسلها، منكمشة تحت هذا الشيء الذي يحوم فوقهم. بل توجد بعض البهجة، غالباً لدى الأطفال [...]. يصرخون جميعهم. تركض امرأة بمحاذاة مورين ضاحكة بذعر، وطفلها يتأرجح على ظهرها. وكانت صيحاتهما تختلط ببعضها بعضاً. (158)

كان القرويون «يشعرون بالحماسة بدلاً من الخوف» (158) من هذا الجسم الصاخب الذي يحوم فوق رؤوسهم، ثم يحط في قريتهم. كانت ردة فعلهم على المروحية تتسم بمزيج من أصوات «الصرخ، والهتاف، والنقاشات، والضحك» (159). على عكس القرويين الذين كانوا مبتهجين بمنظر المروحية، كانت مورين مذعورة منها. «كان الخوف يسري في جسمها ليخنقها، ويحكم قبضته عليها» (159). هل من الممكن أن

نرى في ضحك القرويين وبهجتهم اعترافاً بخلصهم القريب، ونهاية فترة معينة وبدء فترة جديدة؟ هل تتبع مخاوف مورين من عدم يقينها كيف ستتدبر أموراً في جنوب أفريقيا في مرحلة ما بعد نظام الفصل العنصري؟ هل تعكس احتفالات الطرف الأول ومخاوف الطرف الثاني الموضوع الذي أثارته غوردنيمر في محاضرة [العيش في فترة انتقالية] «Living in the Interregnum» والتي قالت فيها «إن الشخص الأسود يعرف أنه سيكون في نهاية المطاف في موطنه في المستقبل. لكن الأبيض الذي كرس نفسه (أو نفسها) لذلك المستقبل [...] لا يعرف فيما إذا كان سيجد نفسه في موطنه في النهاية» (270). لا يقدم النص أيّ إجابات عن هذه التساؤلات، لكن مما لا شك فيه أنه ينبغي لأيّ قراءة للمشهد الأخير من شعب يوليوي أن تأخذ بالحسبان مصير القرويين. حيث أن المستقبل غير المحدد سيؤثر عليهم تماماً كما سيؤثر على مورين. على الرغم من محدودية وجهات نظرهم، يدرك كل من كليغمان وبيزن وفايزر البعد الطوباوي للرواية. ومن جهة أخرى، يجد سميث أن ركض مورين الذي يكشف «عجزاً كاملاً عن العيش في الحاضر» يقود فقط إلى «طريق مسدود أليم»، «نهاية مغلقة» (145). والمقصود هنا أن الرواية خالية من أي رؤية لمستقبل أفضل يمكن أن يكسر النهاية المغلقة. «مجرد التوقع هو أمر مستحيل، ويتوجه تركيز الكتابة برمته على الحاضر الذي لا يطاق» (145). أتفق مع سميث في رؤيته بأنه «يتعذر الوصول» إلى الآثار المترتبة على هروب مورين، ولكنني أعتزف بأنه أهمل بذور الطوباوية في شعب يوليوي التي تشير إلى ما وراء الفراغ. إذا كان تحول الذاتية يشكل محوراً أساسياً للمدينة الفاضلة، وفقاً لما تطرحه روث ليفيتاس (Ruth Levitas) (14)، فيمكن عدّ ركض مورين نحو المروحية تصرفاً طوباوياً. إذ يمكن أن يكون وراء اندفاع مورين الجسور، «هربها من الهيكليات والعلاقات القديمة» كما يقول كليغمان، جهوداً يائسة ساعية وراء تحقيق هوية جديدة مختلفة عن الهوية الليبرالية التي كانت قد نمتها في ظل الترتيبات السياسية والاقتصادية لنظام الفصل العنصري، وأثناء مناهضتها. كما يمكن أن يكون ناجماً عن إيمانها بأن المستقبل، على الرغم من عدم وضوح معالمه الأساسية، يحمل بدائل طوباوية أكثر جاذبية، ويحمل في طياته حيوية أكبر مما توفره مرحلة الفراغ. بالإضافة لهذا، فمن المهم التركيز على فكرة أنه ومن بين كل الناس الذين يتربعون المروحية، فإن مورين هي من تذهب إليها. وهنا يمكن لركضها أن يكون مؤشراً على إيمان غوردنيمر بأنه من واجب الجنوب أفريقيين البيض - أكثر من السود - أن يتحلوا بالإيمان ويحتضنوا المستقبل المجهول. وهذه ليست المرة الأولى التي تحمّل فيها غوردنيمر الجنوب أفريقيين البيض عبء بدء التغيير إلى ما وراء النهاية المسدودة التي فرضها نظام الفصل العنصري.

تعرفّ غوردنيمر في شعب يوليوي بعضاً من النهايات المسدودة أو «الأعراض المرضية» للفراغ. لكنها في نهاية الرواية، لا تشير بشكل واضح إلى طرق تجاوزها، ولا تحكم عليها بأن زوالها أمر ميؤوس منه. إن رفض غوردنيمر لتعريف الملامح الأساسية لمرحلة ما بعد نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا يتماشى مع الدور الذي تتصحه الجنوب أفريقيين البيض بلعبه في النظام الجديد الذي يحكمه الأفريقيون. في نهاية رواية ابنة برغر (*Burger's Daughter*)، تصل روزا إلى إدراك أن مشكلة الناشطين البيض ضد نظام الفصل العنصري تتمثل بميلهم إلى تلقين السود مبادئ النضال. ويتطلب الأمر حوض نقاش مزعج لكنه تنويري مع زوليبيزيا فولينديلا، أحد أعضاء حركة الوعي الأسود، لتدرك روزا أنه ينبغي للبيض المتمردون أن يكونوا مستعدين لأن

يتبعوا بدلاً من أن يقودوا (23-318). وهذا الموقع الذي تمضي غوردنير بموافقتها عليه، وتحذر في مقالة [ما المكان الذي يناسب البيض؟] «Where Do Whites Fit In?» من أن «حتى البعض منا الذين لا يرغبون بأن يكونوا أسياداً، (أو بالأحرى «باس»⁽³⁾) كما يقولها المحليون) قد اعتادوا على أن يكونوا متسلطين [...]». لن يأخذ أحد بالحسبان حقيقة أننا نحمل نوايا حسنة، وأن النصيحة التي نقدمها هي نصيحة جيدة وتوجد حاجة ماسة لها. وكلما أسرعنا في تشرب هذا في عقولنا، كلما كان الوضع أفضل» (35). لطالما انتقدت غوردنير الليبراليين البيض لافتراضهم بأنهم يرسمون للسود النظام الاجتماعي والسياسي الصحيح. وعليه، فمن المتوقع منها أن تطبق تعليماتها في كتاباتها. إن لرواية شعب يوليويو نهاية طوباوية، تتجنب الإغلاق ورسم العالم المحتمل في مرحلة ما بعد الفراغ. لكن هذه النهاية تقاوم كشف معنى هذا الأفق، لأن غوردنير ترفض هنا أن تفرض على شعب جنوب أفريقيا، البيض منهم والسود، الشكل الذي يتوجب على البلاد أن تأخذه، أو ستأخذه بالفعل.

في [نهايات فضفاضة: انغلاق جمالي وأزمة اجتماعية] «Loose Ends: Aesthetic Closure and Social Crisis» يقول رسل ريسينغ (Russell Reising) إن نهايات السرديات تتبع تلقائياً من الديناميات الداخلية للرواية ومن الآراء السياسية للروائي:

سواء أكانت الخاتمة تنهي السرد بالتأكيد على بنية مفرطة في الغائية، أو برسم مجال مفتوح شديد الإبهام ومفعم بالإسقاطات، وسواء أدفعنا السرد باتجاه لحظاته الختامية مع أو بدون تقديم معلومات نصية كافية لتجعل نهايته واضحة بشكل مباشر، فحتى النهايات الأكثر تجريبية [...] غالباً ما تؤكد أو توسع أو تعقد أو تصف أو على الأقل تعكس بدرجة كبيرة بقية الأعمال التي أنجزوها. (319)

ومن جهة، فإن «الخطط السردية» (321) تحدد نهايات الروايات. ومن جهة أخرى، فإنه وفي حين يميل الروائيون المحافظون إلى توظيف نهايات رواياتهم لتخفيف التوتر الذي ينتج عن سردياتهم، إلا أن الروائيين الثوريين يفهمون الطبيعة الهادمة «للنهاية المفتوحة». فهم يتجنبون صقل الأطراف الحادة لرواياتهم لأنهم عادة ما يسعون إلى إعلان احتماليات طوباوية غير محددة. عندما تتجنب الروائية تحتيم واقع بديل على القارئ، فهي بذلك تكون قد اعترفت بحق القارئ في تحديد ماهية الواقع ومكنته من ذلك. وتتوافق سياسات النهاية المفتوحة مع أهداف غوردنير في رواية شعب يوليويو.

ولكن التوقعات الطوباوية الأخرى في شعب يوليويو تخفف نسبياً من حدة الغموض الذي يلف النهاية. لقد قلت سابقاً بأن غوردنير تقاوم التحميم، لكن ينبغي لهذه السمة أن تتسم بالكفاءة. في الواقع، إن غوردنير من موقعها كمواطنة جنوب أفريقية بيضاء وناقدة للقمع الأبيض والليبرالية البيضاء، قد اقترحت على البيض، وغالباً بشكل قسري، العديد من الطرق لكي يندمجوا في جنوب أفريقيا. وهذا الموقع جعل من المستحيل لغوردنير في الغالب أن تجد مفرّاً من التحميم والتوجيه الوعظي. في شعب يوليويو، تلتزم غوردنير بإيمانها أن «مهمة الكاتب الأبيض بصفته «عاملاً ثقافياً» تتمثل في رفع وعي الشعب الأبيض» (The Essential, Gesture, 293). وهذا ما يفسر النبذة التوجيهية لبعض العناصر الطوباوية في الرواية.

يحمل أطفال سميلز الثلاثة، فيكتور وجينا ورويس، عبء جنوب أفريقيا في مرحلة ما بعد نظام الفصل العنصري. إذ يكمن جوهر الدافع الطوباوي الذي يمثلونه في وضع قواعد للبيض تضبط تعايشهم المشترك

3 مقارنة باللفظ الصحيح لكلمة boss والتي تعني سيد أو رئيس في اللغة الإنكليزية. (المترجمة)

والعادل مع السود في المستقبل. يلاحظ دومينيك هد (Dominic Head) أن «إمكانية ولادة جديدة بعد الثورة تتم بشكل رئيس عن طريق أطفال سميلز، وخاصة الابنة جينا» (134). إن العلاقة التي تبنيها جينا مع الأفريقيين تتحدى خوف البيض العنصريين من «التحول إلى سكان أصليين»، وتعيد أصداء دعوة غورديمر الشغوفة لبناء دولة جنوب أفريقيا الجماعية، حيث يكون البيض «مجرد أفراد عاديين في مجتمع متعدد الألوان، وبأي لون، ويحررون من الامتيازات كلها ومن الذنب الناتج عن خطايا آبائنا البيضاء» (1959، 32). وعلى عكس والدتها التي لم تتعلم لغة فاناغالو - اللغة الوسيطة لسود جنوب أفريقيا - رغم ترعرعها في بلدة مناجم ووسط الأفريقيين، فإن جينا تتحول إلى طفلة أفريقية، وتزج بنفسها في اللغة والعادات والطعام والمفاهيم الأفريقية لدرجة أصبح فيها عالمها الجديد المقياس الذي ترى من خلاله بقية العالم: «بالنسبة لجينا، ما لم تره في هذه القرية من قبل كان يعدّ جديداً على العالم» (140). وبدلاً من التهوديات الأفريكانية التي تعلمتها من والدها، باتت الآن تفني تهويدات «تعلمتها من أصحابها [الأفريقيين] بلغتهم» (79).

ويتجلى انفصال جينا عن النظام القديم بأوضح صورة من خلال علاقتها مع الأطفال الأفريقيين. حيث إن عدم إدراكها للاختلافات العرقية في موقفها تجاههم يتناقض إيجاباً مع التمييز الذي كانت تتسم به صداقة مورين في شبابها مع ليديا. على الرغم من أن مورين كانت ترى في ليديا صديقة مقربة وتثق بها، لم يكن تعاملها معها يخلو تماماً من الهرمية الموجودة بين البيض والسود. كان إحساس مورين باستحقاقاتها بناء على عرقها متأصلاً ومتجذراً بعمق، لدرجة أنها لم تتساءل يوماً عن مدى لباقة حمل ليديا لحقيبتها على رأسها من المدرسة إلى المنزل، أو فيما إذا كان هذا التصرف منطقياً أو عادلاً. تنوه مارغريت لينتا إلى أن «[مورين] افترضت أن بيئتها يجب أن تكون بيضاء كلياً، وأن السود كانوا يلعبون دوراً صامتاً وذليلاً فيها» (135). بالمقابل، تتبنى جينا عادات الأفريقيين التشاركية التي تقوم على أن يساعد الأطفال الأكبر سناً في تربية الأطفال الأصغر منهم. «سارت إلى الداخل بمشية امرأة كبيرة يميل وركها، وهي المشية التي تميز الأطفال السود الذين يحملون إخوتهم وأخواتهم الذين هم بحجمهم تقريباً. كانت تحمل طفلاً على ظهرها الصغير وعلى وجهها ملامح الجدّة» (41). إن قوة الصداقة بين جينا ونايكو تبشر بالخير لمستقبل الأعراق في جنوب أفريقيا (7-156).

تستحضر علاقة جينا الطوباوية مع أفريقيا والأفريقيين التعريف الذي قدمته ماري لويس برات (Mary Louise Pratt) لمنطقة الاتصال «على أنها محاولة لاستدعاء الوجود المكاني والزمني المشترك للرعايا الذين كانوا سابقاً منفصلين بفوارق جغرافية وتاريخية، والذين تتقاطع مساراتهم الآن» (7). ويمثّل هذا «الفضاء الاجتماعي» المكان الذي يحدث فيه التبادل الثقافي. يصف التبادل الثقافي «كيف تقوم مجموعات تابعة أو مهمشة بالاختيار والابتكار من مواد نقلتها لهم الثقافة المهيمنة أو الحضرية» (6). ترى Pratt أن التبادل الثقافي ينتج بدرجة كبيرة عن علاقات قوة غير متكافئة تتضمن «المستعمرين والمستعمرين». كما أنه يمثل محاولة المجموعات التابعة لبناء هويات تحريرية عبر إعادة كتابة تاريخ الغزو الغربي وهيمنته بهدف تحديه ووسمه بنسخهم المنقحة. لكنّ الموقع الذي تتبناه جينا في الأدغال الأفريقية هو موقع سلبية الطفلة البيض والمستعمرين، والتي تنفصل أخيراً عن إرثها، وتتبنى العادات والقيم الأفريقية. بالنسبة لغورديمر،

إن الجنوب أفريقيين البيض هم من يتوجب عليهم أن يعيدوا تعريف أنفسهم عبر تقبّل قيم الأغلبية في جنوب أفريقيا. فيما أنهم اختاروا أن تكون أفريقيا موطنهم، ينبغي عليهم أيضاً أن يندمجوا مع ثقافتها ولغتها وقيمها. وهكذا تقوم جينا بتهجين هويتها عبر مزج خلفيتها الثقافية مع الخلفية الثقافية للأفريقيين. لكن التصوير المتفائل لشخصية جينا يتناقض مع شخصية فيكتور، حيث إن غوردنيمر تستخدم فيكتور لتبين أن الانتقال إلى مرحلة ما بعد نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا سيكون تجريبياً ومشحوناً بالتحديات، وأن جزءاً أساسياً من هذا الانتقال يجب أن ينطوي على فهم جديد للملكية. تدرك غوردنيمر تماماً أن إدخال الجنوب أفريقيين البيض في نظام اقتصادي عادل لن يكون خالياً من المشاكل أو بالأمر اليسير. ولكن يجب رسم صورة لإعادة توزيع الثروات، بغض النظر عن كونه الهدف الطوباوي الأصعب. تعرّف غوردنيمر المدينة الفاضلة على أنها النموذج الأسمى الذي يستحيل إدراكه، ولكنه مع ذلك ضروري. فالعالم المجرد من التخيلات الطوباوية هو عالم محروم من الأمل، وبالتالي هو عالم تسوده الكآبة. وكما أوردت على لسان إحدى شخصياتها: «إن المدينة الفاضلة هي أمر يستحيل تحقيقه. ولكن من دون السعي إليها - أو تجريب ذلك على أقل تقدير! - لن تتمكن أبداً حتى من عدم إدراكها. [...] من دون المدينة الفاضلة - فكرة المدينة الفاضلة - ستفشل الخيلة - وهذا بحد ذاته فشل في معرفة كيفية الاستمرار بالحياة» (A Sport of Nature, 187). بعد أن قوضت غوردنيمر ادعاءات عائلة سميلز الليبرالية لفشلهم في فهم البعد الاقتصادي لنظام الفصل العنصري، تقابل غوردنيمر هذا الفشل بتصوّر جيل فتي من الجنوب أفريقيين الذين سيصنعون نظاماً اقتصادياً عادلاً، حتى وإن كانت العملية متقطعة وغير منتظمة. يظهر عند فيكتور إحساس كبيرٌ عدائيٌّ وغير مسوّغٍ بالملكية، وهذا ما تراه غوردنيمر سمةً غير مقبولة في جنوب أفريقيا البيضاء. فعندما يصل إلى القرية، يُظهر فيكتور رغبةً بأن يبهر الأولاد الآخرين بمضمار سيارات السباق، لكنه يناشد والدته «أن تخبرهم ألا يمسه. لا أريد لأحد أن يعيب بأشياء ويكسرها. يجب أن تخبرهم بهذا» (14). كما يبدي ردة فعل عنيفة تجاه القرويين الذين يستخدمون الماء من الخزان الذي نصبه والده: «الجميع يأخذون من الماء! لقد اكتشفوا أنها تخرج من الصنبور! الجميع يأخذونه! لقد أخبرتهم أنني سأعاقبهم لكنهم لا يفهمون. تعال بسرعة يا أبي.» لم يثنه رفض والديه لشكواه، بل أصرّ «أنه لنا، إنه لنا» (3-62). لكن هذا الشعور بالحقوق الثابتة للملكية الخاصة هو مجرد بقايا راسخة من نظام يحتضر. إن ما يقابل حب التملك لدى فيكتور، هو الفهم المتنامي بأن الملكية أمر يمكن مقايضته - كما هو الحال عندما قام بمبادلة مجسمات السيارات المكسورة من مضمار السباق خاصته «بعبوات مصنوعة يدوياً من الهياكل العظمية ومربطة بأسلاك من صنع الأطفال السود» (39)، وأن الاكتساب يمكن أن يكون نتيجة جهود تشاركية - كما حدث عندما شارك في الحصاد مقابل حصة من الفستق. على الرغم من عيوبه، يمثل فيكتور، كما جينا، نموذجاً على الجنوب أفريقيين البيض أن يحاكوه.

إذاً يمكن إيجاد دافعين طوباويين متناقضتين في شعب يوليوس. أحدهما غير مؤكد وغير محدد وغامض، والآخر صريح وتوجيهي بشكل صارخ. ويعود الفرق بينهما إلى التوتر الناتج بغالبية عن التقسيم العرقي الذي تتسم به جنوب أفريقيا واستجابة غوردنيمر له. فمن الناحية الأولى، تشعر غوردنيمر، باعتبارها تنتمي إلى الأقلية فرداً من أفراد من الطرف الظالم، على الرغم من تمرداها، أنها لا تملك الحق بأن تلقن

السود مسيرة كفاحهم وللشكل الذي يجب أن تأخذه جنوب أفريقيا في مرحلة ما بعد الفصل العنصري. أما من الناحية الأخرى، فهي تشعر بأنها مخولة لأن تخبر البيض، أو بالغالب تلقنهم، الشروط الصحيحة التي من شأنها أن تساعدهم في الانخراط في أفريقيا. وتعزى إلى هذا الموقف النبوة التوجيهية التي تسم الدافع الطوباوي لدى أطفال عائلة سميلز.

وانطلاقاً من اتفاقها مع رأي جورج شتاينر (George Steiner) أن «البشر متواطئون مع كل ما يجعلهم لا مبالين» (92، Speak Out، التأكيد في النص الأصلي)، فقد ناهضت غوردنر علانية السياسات العنصرية التي يتبعها نظام الفصل العنصري. وتقادياً للتواطؤ مع هذا النظام، كانت أفعالها تمثل «وعي مجتمعها» على حد تعبيرها (مقتبس في Kamanga, 25). ولا بدّ لهذه المهمة أن تتطوي على نسبة لا بأس بها من التوجيهية. تؤكد غوردنر أنه لا يسع الروائية المتمردة من جنوب أفريقيا أن تتأى بنفسها عن المرحلة التاريخية التي تعيشها وعن مطالب مجتمعها التي تقع على عاتقها: «إن العمل الإبداعي ليس نقياً، فالتاريخ يثبته، والعقيدة تطالب به، والمجتمع ينتزعه. يخسر الكاتب جنة عدن، ويكتب حتى يُقرأ له، ويدرك أنه مسؤول» (86-285، *The Essential Gesture*). إضافة لهذا، عرفت غوردنر نفسها على أنها «بيضاء، متمردة، كاتبة بيضاء» (272)، وبهذا أدركت دورها المتمثل في تعرية تواطؤ الجنوب أفريقيين البيض مع نظام الفصل العنصري وفي تخيل طرق يمكن أن تساعدهم على التكفير عن أنفسهم.

على الرغم من التزامها السياسي العلني، إلا أن غوردنر كانت دائماً تدافع عن نفسها في وجه الاتهامات بأنها تزيّف بقناعاتها العقائدية نزاهة الأدب الفنية. وتؤكد غوردنر بقولها «أنا لست داعية، لست سياسية، أنا كاتبة إبداعية» (17، Powell). ويحق للكاتب وفقاً لرؤيتها أن «تكون لديه رؤيته الخاصة العميقة والمنفصلة حول الوضع الذي يجد فيه مجتمعه، وأن وينشر هذه الرؤية إلى العالم. إذا كان سيقوم بأفضل ما لديه، يجب أن يأخذ، وأن يعطى، الحرية من الالتزام العام للتفسير والقيم والتوجهات السياسية» (104، *Three in a Bed*). وبصرف النظر عن تأييد غوردنر الراسخ لحرية الكاتب، فقد كانت تسعى لخلق توازن بين استقلالية التعبير الفني والتزامها بتحقيق دولة جنوب أفريقيا تكون أكثر عدلاً، حيث يمكن للسود أن يحصلوا على الحقوق المدنية والاقتصادية والسياسية. «إن التوتر القائم بين الوقوف بعيداً والانخراط الكامل هو ما يصنع الكاتب. فهذا هو المكان الذي نبدأ فيه. وإن شرعية هذه الجدلية هي ما يخلق الرؤيا» (114).

ومن خلال نظرتها لنفسها على أنها أداة للكفاح الاجتماعي في سبيل المساواة والعدالة، تماشت غوردنر مع مشاريع العديد من الروائيين من أدب ما بعد الاستعمار. فعلى سبيل المثال، يرفض أشيبي (Chinua Achebe) مبدأ الفن للفن، أي فكرة أن «سمة الفنان الحقيقي تكمن في قدرته على تجاهل المجتمع» (10، Morell). وفي (*Freedom of the Artist*)، يضع نيغوا ثيونغ (Ngũgĩwa Thiong) أيضاً المحاولات الفكرية ضمن مصفوفة المسؤولية الاجتماعية، وذلك في حديثه ضد السلطة ومناصرة حقوق المقموعين:

يجب أن نستخدم أقلامنا في تأجيل مخاوف الأنظمة القمعية كافة. على أقل تقدير، ينبغي استخدام القلم «لحرمانهم من النوم» عبر تذكيرهم باستمرار بجرائمهم ضد الشعب، وجعلهم يدركون أنهم مكشوفون. قد لا يكون القلم دائماً أبلغ من السيف، لكن عند استخدامه في خدمة الحقيقة، يمكن أن يصبح قوة جبارة. (69)

ومثل أشيبي ونيغوا ، تؤمن غورديمر أن دور الكاتب هو أن «يعمل ناطقاً باسم [المظلومين]» (The Essential Gesture, 287). وتثق أنه يمكن للذن أن يرص الجهود بفعالية لمقاومة إساءة استخدام السلطة: «في الكفاح الطويل ضد نظام الفصل العنصري، تبين أنه ينبغي للشعب المقموع أن يتحلى بالثقة بالدعم الثقافى. وقد أصبح الأدب، أي الكتابات الإبداعية بما في ذلك المسرحيات والشعر، بمثابة ما يعرف باسم «سلاح الكفاح» (Three in Bed, 13).

على الرغم من شرحها الدؤوب لآثار نظام الفصل العنصري ضد السود، إلا أن غورديمر وبشكل أساسي قد بحث في نواطؤ البيض، الواعي وغير الواعي، مع هذا النظام، وفشلهم في مناهضته، واحتمالات تحقيق التعايش في المستقبل. ومع أنها خلقت شخصيات سوداء متميزة ومقنعة، لكنها ركزت بشكل أساسي على البيض لأسباب عدة تتعلق بالجمهور والسلطة والوصول إلى المعلومات ذات الصلة. كما تعترف غورديمر في (The Essential Gesture)، «أنا أشك فيما إذا كان الكاتب الأبيض، حتى عند تعبيره عن مواضع السود نفسها، يتمتع بذات الأثر الاجتماعي في إلهام السود، أو فيما إذا كان ذلك مطلوب منه بالأساس. وتعد تجربة العيش في الأحياء الفقيرة المعزولة المؤهل الأساسي الذي ينتص الكاتب الأبيض» (294). لذلك، لا يسع الكاتب الأبيض سوى أن يخاطب بأعماله غيره من البيض: «أن تكون [كاتباً أبيضاً] يعني بالمرتبة الأولى أن تحمل مسؤولية سياسية، إن لم يكن تشدداً حقيقياً: إن مهمة الكاتب الأبيض بصفته «عاملاً ثقافياً» تتمثل في رفع وعي الشعب الأبيض الذي، على عكسه، لم يستفك بعد» (293). وفي كتاباتها، اتخذت غورديمر على عاتقها مسؤولية تثقيف البيض وتويرهم بما يكلفه نظام الفصل العنصري على الجانب الإنساني والأخلاقي، وبتعريفهم بموقعهم في مجتمع ما بعد نظام الفصل العنصري.

تشبث غورديمر برأيها أنه ما لم يكن «الكاتب الأبيض» راغباً بأن يتماشى مع قوى الظلم ويتقرب من موقف عدم الارتباط، فإنه «يجب عليه اتخاذ القرار فيما إذا كان يريد أن يبقى مسؤولاً تجاه النظام الأبيض المحتضر [...] أو يعلن نفسه بشكل إيجابي مسؤولاً أمام النظام الذي يكافح في سبيل أن يولد» (Living in the Interregnum, 278). ربما لن ينجح في تغيير سياسات حكومته، لكنه «قد يؤثر قليلاً على البيض» (The Essential Gesture, 294). إن عمله الملتزم «هو إشارة ثورية» تمكنه من «تقديم طرح لتأسيس مجتمع جديد» (The Essential Gesture, 295). بالإضافة لذلك، ينطوي التزامه بالمستقبل الثوري على «تكوين علاقته مع ثقافة من نوع جديد لمجتمع مفترض، غير عنصري لكن تم تصوره مع السود الذين يقودونه» (Living in the Interregnum, 278).

تأتي رواية شعب يوليوشاهدة على التزام غورديمر المتفاني بجنوب أفريقيا في مرحلة ما بعد نظام الفصل العنصري. فالفراغ الذي تدرسه ينطوي على وجهين متناقضين: فهو يضع أصول النهايات المسدودة الحالية في ماضٍ قائم على عدم المساواة والتواطؤ، لكنه ينظر إلى مستقبل من المحتمل أن يكون واعداً، ويمكن له أن يحطم النهاية المسدودة غير المحتملة لنظام الفصل العنصري. ترفض غورديمر الإشارة إلى المسار الذي ستجد من خلاله جنوب أفريقيا الخلاص في مرحلة ما بعد نظام الفصل العنصري. وتمتدح عن توقع تفاصيل ذلك المستقبل لأنه ينتمي للسود أكثر من البيض وهم من يقررون مضمونه. لكنها لا

تتجنب نقاش ماهية الدور الذي يجب أن يلعبه البيض في المجتمع الديموقراطي المرتقب بأسلوب يغلب عليه التوجيه. كما تحثهم باستمرار على التوقف عن طلب الامتيازات بناء على عرقهم فحسب، وعلى علاج عدم المساواة الاقتصادية عبر مشاركة الممتلكات والمهارات مع الجنوب أفريقيين السود.

ملاحظات

1 - للاطلاع على تحليل مفصل لنظرة إرنست بلوخ المؤثرة عن المدينة الفاضلة بوصفها «مبدأ الأمل» يمكن الإشارة بشكل خاص إلى لفيتاس. باختصار، يناقش بلوخ أن المدينة الفاضلة تحقن التفاؤلية وتعمل كترياق للحدثة التي يطغى عليها الانهزام واللامبالاة. كما سأناقش، ترفض غورديمر النأي بالنفس عن المشاكل الاجتماعية والسياسية لبلدها، كما تقاوم الرأي الواهن الذي يوجب على الأدب أن يكون منغمساً بالترف ويتجنب الانخراط بالسياسة.

2- يجد بولنت سومي أنه «بداية من أواخر الستينيات، ومروراً بالسبعينيات» سعى العديد من مصوري المدينة الفاضلة «وهم مدركون ألم النقد الديستوبي (الفاسد) للمدينة الفاضلة بتجريد ذلك النقد» (25) عن طريق تفادي التحميم المذهبي الذي ابتلي به المعنى التقليدي للمدينة الفاضلة.

3- يشير توم مويلن، كما كومار، إلى أنه «في وسط المدينة الفاسدة المسلحة يظهر أفق طوباوي، أو على الأقل بصيص الأمل».

4- للاطلاع على تحليل مفصل للأسباب التي أدت إلى تقويض نظام الفصل العنصري في النهاية، يمكن العودة إلى (Thompson, 221-240).

5- يلاحظ طومسون أنه «بحلول عام 1976، كان رواد الأعمال الأفريكانيين قد أسسوا موطناً قدم ثابت في التعدين والصناعة والتجارة والأعمال المالية-وهي مجالات كانت جميعها محجوزة في السابق للناطقين بالإنكليزية. في عام 1946، كان متوسط دخل الأفريكاني يعادل 47 بالمئة من دخل المواطن الأبيض الناطق باللغة الإنكليزية من جنوب أفريقيا، أما في عام 1976، ارتفع إلى 71 بالمئة وواصل ارتفاعه بعد ذلك» (188).

6- وفقاً لطومسون، كان السود وأصحاب البشرة الملونة والآسيويون والبيض يشكلون «الفئات العرقية الأربعة الأساسية التي اعترفت بها حكومة جنوب أفريقيا». وبهدف التقسيم والاحتلال، خلق نظام الفصل العنصري تراتبية هرمية مبنية على العرق، كان البيض وفقاً لها يحتلون الدرجة الأعلى، يليهم أصحاب البشرة الملونة والآسيويون، في حين أقصى السود إلى الدرجة الأدنى. كانت مجموعة السود مكونة في معظمها من «الأفريقيين الناطقين بلغة البانتو»، وكان يؤتى بالآسيويين من الهند إلى محافظة ناتال بصفة عمال مأجورين في ستينيات القرن التاسع عشر، أما البيض فقد ادعوا أن أوروبا، وتحديداً هولندا وإنكلترا، هي موطن أجدادهم، في حين كان أصحاب البشرة السوداء مزيجاً من السكان الأصليين والأشخاص المنحدرين من أصول مختلطة. في واقع الأمر، كانت «الاختلافات البيولوجية والثقافية بين الأشخاص أصحاب البشرة الملونة» هائلة (65): «ويتضمن أسلافهم سكاناً أصليين وعبداً من إندونيسيا ومدغشقر وأفريقيا المدارية» (113). ولكن العديد من أصحاب البشرة الملونة رفضوا تصنيفهم بفتة منفصلة عن السود كجزء من معارضتهم للسياسات التمييزية لنظام الفصل العنصري.

7- «على مدى ثلاثة عقود، منذ استلامه للسلطة في عام 1948] كان الحزب الوطني يتمتع بدعم الأغلبية الساحقة من المواطنين الأفريكانيين» (187).

8- للاطلاع على دراسة مفصلة لعلاقة غوردимер مع الليبرالية الجنوب أفريقية، يمكن العودة إلى واغنر وكامنغا، يمكن أيضاً العودة إلى رولاند سميث، والذي يقول في (*Critical Essays of Nadine Gordimer*) أن «تحليل غوردимер لفشل الليبرالية في سياق جنوب أفريقيا هو أحد أكثر مواضيعها إصراراً» (14). كما يعطي سميث أيضاً بعض المعلومات عن النقاش العام المحتمل الذي جرى بين غوردимер و ألان باتون في عام 1974، والذي أثاره إقصاؤها لليبراليين على أنهم «أشخاص يقطعون وعوداً لا قدرة لهم على الحفاظ عليها» (15-16).

9- يناقش سميث أن «مورين تعتبر نفسها وحياة عائلتها غير ملوثين بأشكال التحيز البغيضة التي يتميز بها عرف العرق الأفضل الأبيض. هذا المعتقد هو ما ينهار في مواجهتها الأخيرة مع يوليو» (148).

10 - تشارك لينتا رأي بيزن التي ترى «أنه بما أن جنسية طاقم الطائرة وولاءهم هي أمور مجهولة بالنسبة لها، وبما أنه سبق ووردت إشارة لعدد من المتصارعين على السلطة من المعارضين في جنوب أفريقيا والأجانب، أرى في هذا دليلاً قوياً على أن غوردимер تريدنا أن نفكر بالمعنى السلبي لفعالها: إنها تترك، لا تتضمن» (135). بالمثل، يناقش بيلي (Bailey) أن المروحية «هي رمز للموت وليس للحياة [...] بما أن احتمالية أن تكون مروحية يديرها ثوار سود نيههم دانيال لوجود عائلة بيضاء هي أكبر من أن تكون تدخلت من العناية الإلهية على الطراز الأمريكي. حتى وإن كانت تمثل الوسيلة المرجوة للعودة للحضارة، لا شيء في الرواية يدل على أن مورين قادرة على أن تركض نحو شيء جديد» (221). يمكن العودة أيضاً إلى نقاش مايكل غرين (Michael Green) بأن غوردимер «ليست منشغلة بشكل كبير في المستقبل بحد ذاته: من بين كل الكتابة من جنوب أفريقيا، تمثل غوردимер الكاتبة الأكثر انخراطاً بالزمن الحاضر بقوة، في حين أن اهتمامها بالمستقبل هو منظور لتحدث منه عن الحاضر بشكل رجعي. [...] في محاولتها لجعل شعب يوليو أكبر من مجرد «عرض مرضي»، تسعى غوردимер إلى الوصول لما وراء «الفراغ»، وبهذا تضيف معنى على هذه الفترة العقيمة، وهي الحاضر» (17). يختلف فهمي لاستخدام غوردимер لمفهوم المدينة الفاضلة في نهاية رواية شعب يوليو عن فهم غرين. فأنا أرى بأن غوردимер تُسقط على المستقبل نظاماً ناشئاً لكنه لا يزال مجهولاً. ■

المصدر:

Research in African Literature، مجلد 37، رقم 4، شتاء 2006، ص 84-68 (مقالة)
منشورات جامعة إنديانا (Indiana University Press)
للمزيد من المعلومات يمكن زيارة الموقع: الآتي
<http://muse.jhu.edu/journals/ral/summary/v037/37.4erritouni.htm>



نادين غورديمر: وطنية بقلب من ذهب

تأليف: داريك أكون ومومنجاني والي سيروتجي

- ترجمة: لين المهاييني

داريك أكون: يعمل في الصحافة منذ أربعة عقود. وهو أيضاً زميل في ندوة سالزبورغ وورشته عمل الكتاب الدولية في جامعة هونغ كونغ المعمدانية ومؤلف «All Under Heaven: The Story of a Chinese Family in South Africa» و «Euripides must Die».

مومنجاني والي سيروتجي: (مواليد 8 مايو 1944) شاعر وكاتب جنوب أفريقي. انخرط في المقاومة السياسية لحكومة الفصل العنصري من خلال الانضمام إلى المؤتمر الوطني الأفريقي (ANC) وفي عام 1969 تم اعتقاله واحتجازه لأشهر عدّة دون محاكمة. بعد ذلك أمضى سنوات في المنفى، وعمل في بوتسوانا، ولاحقاً في لندن وإنجلترا لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي في قسم الفنون والثقافة، قبل أن يعود في النهاية إلى جنوب إفريقيا في عام 1990. حاز جائزة الشاعر الوطني لجنوب إفريقيا في عام 2018.

قابلت نادين للمرة الأولى في عام 1959م أو 1960م، إن لم تخني الذاكرة. ذات مرة كنت أقرأ مجلة ذا كلاسيك (*The Classic*) لمؤسستها نات ناكاسا، حين ورد اسم نادين بين هذه الكلاسيكيات. زرتها في منزلها، ولست أذكر كيف اكتشفت مكان سكنها. أخذت معي رزمة من قصائدي. تحدثنا حول هذه القصائد بإسهاب: من علامات الترقيم والبنية إلى الصور والتشبيه. لا بد أننا لبثنا قرابة ثلاث ساعات، وهي تراجع قصائدي بتفصيل دقيق. وبعد ذلك كلّه، قالت لي ألا أتردد في العودة مجدداً في أي وقت ومعني المزيد من القصائد. وقد عدت. أظن أن تطوّري ككاتب بدأ من هناك. في ذلك الوقت كنت أصبُّ جلّ تركيزي على الشعر، لكنني كبرتُ وانتقلت إلى كتابة الروايات.

• مترجمة سورية .

منذ ذلك الحين حرصت نادين على أن توقع وترسل لي نسخة من كل رواية تشرها، وقمت أنا بالمثل.

نقاشات عالمية

أسفرت صداقتنا عن نقاشات سياسية وثقافية وعالمية عديدة. كانت نادين تكبرني بقرابة عشرين عاماً، لذا كانت إحدى أصدقائي الذين تعلّمت منهم الكثير.

لكنها عاملتي دوماً باحترام. حين وصلتها دعوات للسفر خارج البلاد، كانت دائماً تشجّع مضيفيها على دعوتي أنا أيضاً، فسافرنا إلى الولايات المتحدة وأوروبا وأمريكا الجنوبية وحول القارة الأفريقية معاً. حين كنت في المنفى، سافرنا معاً إلى السينغال وزيمبابوي وسوازيلاند وغيرها.

قالت لي إنه في رأيها، روايتي (*Scatter the Ashes and Go*) عمل مهم بين أعمالها. أثنت على أسلوبها بادئ ذي بدء، لكنها أكّدت إن الرواية طرحت مشكلات لم تكن معروفة في الوعي العام أو مسجلة بشكل مكتوب، حول الحياة في معسكرات المؤتمر الوطني الإفريقي بشكلٍ سرديٍّ قصصي. قالت إن الكتاب في رأيها يستحق النشر على نطاقٍ أوسع.

عندما كنت في المنفى (غادرت جنوب إفريقيا في عام 1974م وعدت في عام 1990م) - في المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة أو بوتسوانا - حرصت نادين على أن نلتقي حين زارت هذه البلدان وأطّلعتني على مجريات الأمور في جنوب إفريقيا.

في بوتسوانا، قامت بالكثير لحركة حزب المؤتمر الوطني الإفريقي. عملت دون هوادة لازدهار حركة الفنون والثقافة.

كان لدينا الكثير من الاجتماعات مع بيل أينسلي وكولين سموتس، في محاولة لإنشاء مراكز ومنظمات للفنون المجتمعية للكتاب والمسرحيين. كانت جمعية الموسيقي في جنوب إفريقيا، وحقوق عمال الفنون المسرحية ومؤتمر كتاب جنوب إفريقيا - جزئياً - من ثمار هذه النقاشات.

المقاطعة الثقافية

خلال ذلك الوقت، ناقشنا أيضاً المقاطعة الثقافية. كان لديها تحفظات في هذا الخصوص، ولكنها في النهاية شعرت أنه إذا دعا حزب المؤتمر الوطني الإفريقي إلى المقاطعة، فيجب أن تحدث.

تحفظاتها كانت نابعة من حبها لجنوب إفريقيا. شعرت أن الفنانين الجنوب أفريقيين كانوا بحاجة إلى الظهور الإعلامي وأن الناس لن يتمكنوا من السفر إلى الخارج نتيجة المقاطعة، لا سيما في المناطق الريفية.

سياسياً، لست متأكّداً إن كنت سأطلق على نادين لقب راديكالية، ولكن ما يمكنني أن أكرره هو أنها شعرت بحب عميق لجنوب إفريقيا، وكانت تدرك بعمق التأثير السلبي للفصل العنصري، ليس فقط على البيض ولكن بشكل خاص على السود.

فكرياً، كانت على دراية تامة بما يجب القيام به لتدمير الفصل العنصري، لكنها كانت أيضاً ملتزمة بالتنفيذ العملي.

لن أصفها بأنها راديكالية لأن الراديكالية يمكن أن تعني أيضاً التهور، وكل خطواتها كانت مدروسة بدقة. كانت نادين ملتزمة للغاية بالنضال وتطلعية وتقدمية.

أيدولوجية قصيرة النظر

كانت لنادين اعتراضات على حركة الوعي الأسود في البداية. عرّفَتْها على زعيم حركة الوعي الأسود ستيف بيكو، وكثيراً ما كنا نلتقي في بيت نادين أثناء زيارات ستيف إلى جوهانسبرج، حتى إننا كنا نستخدم سيارتها للتنقل.

كانت أيدولوجية وأهداف حركة الوعي الأسود في رأيها قصيرة النظر، ومن المحتمل أن يساء تفسيرها إن لم يفهم الناس في الميدان قيم قادة الوعي الأسود. شعرتُ أن هناك خطراً في سياسة اللون، وأنها كانت أشبه بالمشي على الجليد الرقيق. كان منطقتها: فكّر على نطاق واسع في النظام الذي تريد إنشاءه وما تريد القيام به.

خضنا نقاشات صريحة حول هذا الموضوع. في النهاية، فهمت نادين أن الحركة ليست معادية للبيض كما صورتها وسائل الإعلام. كانت فلسفة تدور حول تكاتف الناس السود وحشدهم لبعضهم بعضاً بهدف تحرير أنفسهم. وهذا أمر لم تستطع الجدل ضده.

قدرة نادين على تصوير حياة سكان جنوب إفريقيا شاملة الأعراق والطبقات الاجتماعية كلها تعتمد في المقام الأول على تعاطفها وكونها جنوب-إفريقية وطنية ملتزمة. هكذا تفاعلت مع العديد من الناس عبر الحدود العرقية والثقافية، مما ساعدها على فهم حياة جنوب إفريقيا. يجب على الجميع قراءة *(My Son's Story)* و *(July's People)* لفهم ذلك. هناك المزيد أيضاً من بين أعمالها، لكن العملين السابقين مثالان جيدان.

نقاشات حول المستقبل

ذهبت لزيارة نادين قبل ثلاثة أسابيع وجلسنا لمناقشة مستقبل بلدنا وقارتنا والعالم لساعات. كنت متردداً حول دفع عجلة النقاش بسبب حالتها الصحية، خاصة في النقاط التي اختلفنا فيها، لكنها أصرت. كانت تلك طبيعة نادين.

إنها تنتقد حكومتنا بشدة في روايتها الأخيرة *(No Time like the Present)*. لا بأس. لها الحق في ذلك لأنها ناضلت من أجل هذه الديمقراطية. إنه كتاب مهم.

عندما سافرتُ معها لتستلم جائزة نوبل في النرويج، رأيت كيف كان الناس يجلبونها. كان الناس خارج هذا البلد يعرفون عن نادين أكثر من الناس هنا، ووقع رواياتها أدّى لاتخاذهم مواقف قوية ضد الفصل العنصري. يجب أن تكون أعمالها ضمن مناهج التعليم الأساسي والتعليم العالي للمساعدة في رفع وعي شبابنا.

مونغانى والي سيروتي كاتب وشاعر تحدث إلى كوانيلي سوسيبو.

كانت لفظة جوهرية، مثل الكثير مما فعلته.

إنها فترة ما بعد الظهر في هايفيلد والفصل صيف، حوالي منتصف الصيف. الجو ضبابي مع زخات من المطر، والسماء خالية من السحب الرعدية. الضوء رمادي في الصالة، يعكس الرذاذ في الخارج.

كلمات الكاتبة من مقابلة قبل خمس سنوات أو نحو ذلك تحث المحرر. قالت حينها «التوتر بين الداخل والخارج: من هنا ينبع العمل» عيناها الشفافتان تحدقان الآن في الحديقة، في العشب الصيفي المقصوص، والزهور تتفتح.

في غرفة أخرى تتردد الأصداء «غرفة صغيرة بها طاولة أو مكتب يواجه جداراً فارغاً. لا شيء سوى الكتب في الغرفة. ربما زهرة، إن قطفتها تمنحك عبيراً.» حين سُئِلت عن أفضل مكان للكتابة، أجابت «أنت نزيل العالم الذي تخلقه».

ثمة غرفة بهذه المواصفات على مقربة. فيها آلة كاتبة إلكترونية، تقف بسلطة لكن بسكينة على مكتب خشبي بسيط. عندما كانت الكاتبة في سن الثانية عشرة لا غير، ادّخرت كل الأموال التي كانت تأتيها كهدايا لتشتري آلة كاتبة سويسرية، كانت على الأرجح ماركة Hermes Baby. هكذا أخبرت المحرر. تلتها آلات كاتبة أكبر وأفضل، لكنها لم تقم يوماً حاسوبياً.

يقول المحرر إن العثور على نسخة من كتابها (*The Essential Gesture*) يكاد يكون مستحيلاً. يخبرها عن البحث الحزين في مكتبات جوبورغ المستعملة. أظن أنني أملك نسخة إضافية، تقول الكاتبة. تنهض من الأريكة وتتناول عصاها الرقيقة الأنيقة التي تسندها الآن داخل المنزل وخارجه. وتصعد أدراجاً عريضة من خشب الصنوبر المصقول.

تغيب في الطابق العلوي لبعض الوقت. ثم تعود على رأس الدرج، ثم مرة أخرى إلى الصالة، وفي يدها نسخة بغلاف سميك من (*The Essential Gesture*) إنها الطبعة الأولى، بغلاف إضافي. تعطي الكتاب للمحرر، وليس فقط لينظر إليه، بل كهدية. إنها لفظة جوهريّة، كالكثير مما فعلته في حياتها. (*The Essential Gesture* - اللفظة الجوهريّة هو عنوان الكتاب). □

المصدر:

مجلة MAIL AND GUARDIAN

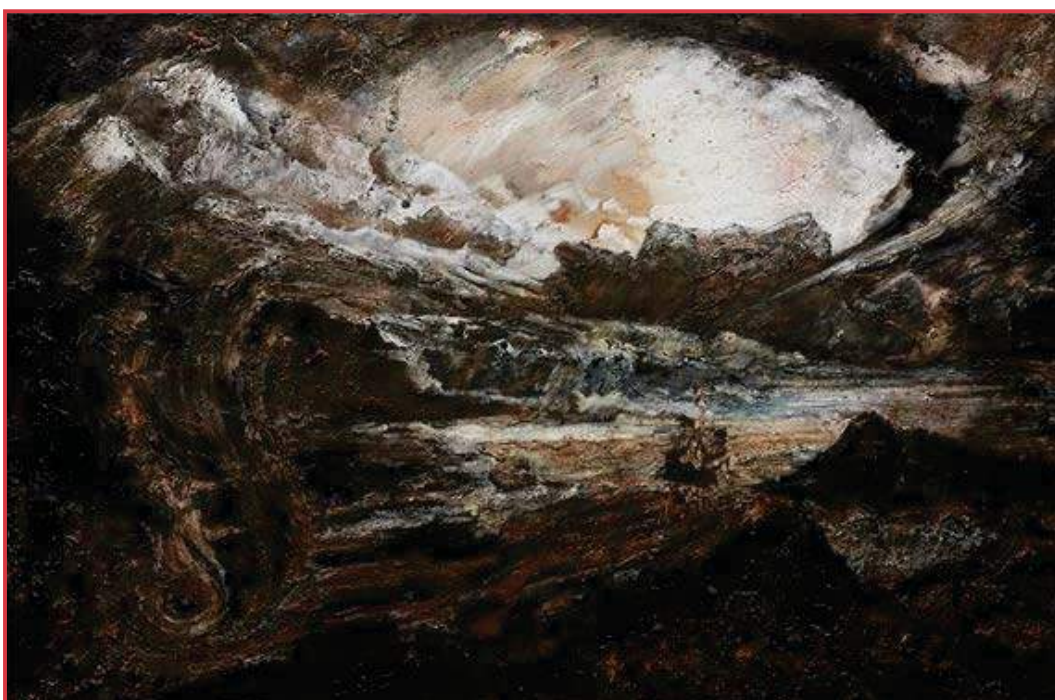
<http://heart-a-with-patriot-a-gordimer-nadine-2014-07-17/article/za.co.mg/>



جسور الثقافة

(الملف البيئي)

إعداد د. معين رومية



Wanderers in the Desert of the Real- after John Martin's 'Macbeth, 2008



ما علم البيئة السياسي؟

ت.أ. بنجامنسن وهان سفارستاد

- ترجمة: د. محمد عرب صاصيلا

ت.أ. بنجامنسن (Tor A. Benjaminsen) عالم جغرافيا، الجامعة النرويجية لعلوم الحياة،
قسم دراسات البيئة والتنمية الدولية.

هان سفارستاد (Hanne Svarstad)، عالمة اجتماع، المعهد النرويجي لبحوث الطبيعة، أوسلو.

علم البيئة السياسي (political ecology) مقارنة تواجدت، منذ عشرة إلى خمسة عشر عاماً، في صلب دراسات البيئة والتنمية، ولا سيما في إطار الدراسات الجغرافية والأنثروبولوجية الأنجلو-أمريكية. ويحلل هذا العلم، أساساً، السلطة، والصراع في سبيل الوصول إليها، في كل ما يتعلق بإدارة البيئة. الأمر الذي يجعل من الضروري التركيز على مختلف الفاعلين في قطاع البيئة، والمصالح التي يدافعون عنها، وكذلك على الخُطَب التي تتناول الطريقة المعمول بها لفهم الموضوعات والمسائل المعنية. وتستتبع هذه المقاربة، فضلاً عن ذلك، تحليل كيف أن التعديلات على البيئة، والتدابير الهادفة إلى حمايتها، تقتضي إيجاد طرق خاصة لتوزيع الفوائد والتكاليف بين مختلف المجموعات الاجتماعية. كما أن علم البيئة السياسي يجعل من إنتاج المعرفة بالبيئة موضوعاً للتحليل. إن البحث في قضايا البيئة لم

- د. محمد عرب صاصيلا، أستاذ جامعي ومترجم سوري.

يكن مطلقاً، في الواقع، موضوعياً بشكل كامل، على الرغم من إفادته من موضوعية العلوم الطبيعية. فالباحثون أنفسهم هم فاعلون توجّه بحوثهم المصالح والقيم والمفاهيم التي يحملونها، على غرار الذين كلفوهم القيام بمهمة البحث.

يكن أحد الرهانات الكبرى لعلم البيئة السياسي في فهم أسباب النزاعات المرتبطة بالموارد الطبيعية والبيئة. وبدلاً من اقتصره على تحليلات ضيقة محصورة في حقل معرفي واحد، يطمح هذا العلم إلى تقديم فهم أعمق، يقوم على تنسيق بين عناصر مستمدة من مقاربات متنوعة، الأمر الذي يستتبع أخذ ثوابت طبيعية واجتماعية في الحسبان.

يلعب تحليل الخطاب والسرديات، اليوم، دوراً مركزياً في علم البيئة السياسي على المستوى الدولي. ويمكن تعريف الخطاب بأنه طريقة لإنتاج معارف، أو حقائق، عن موضوع معين، في حين أن السردية عبارة عن سيناريو ملموس مغروس في نظام فهم خطاب محدد (Benjaminsen et Svarstad, 2008). ولهذه العمليات والقوى الفاعلة المسيطرة في ميدان الدراسة، من المفيد، غالباً، دراسة النزاعات التي تتم فيها، وهي نزاعات مكوّنة من صراعات على الموارد المادية، ومن معارك فكرية مرتبطة بهذه الموارد (Brosius, 1999). وهذه الأفكار، التي يصاغ الخطاب والسرديات انطلاقاً منها، تحدّد ما يمكن أن يُنظر إليه كمسألة رئيسة، وما هي أسبابها، والحلول الممكنة مواجهتها. وفضلاً عن ذلك، فإن البحث التجريبي في الجوانب العديدة لبعض المقاربات يضع ثانياً قيد التساؤل صحة الخطاب المسيطر من دون أن يكون لهذا الأمر أثرٌ على السياسات المعمول بها (Roe, 1995; Leach et Mearns, 1996; Keeley et scoones, 2000; Blaikie et Muldavin, 2004; Benjaminsen et al, 2006). لهذا، من المفيد، أيضاً، تحليل الأفكار التي تُترجم بتدابير سياسية، وبيان أسباب ذلك. في هذا الموضوع، يرى روي (Roe, 2004) أن السرديات السياسية تقاوم، غالباً، مثل الحجج التي تحملها، التغيرات، حتى حين تواجه بمعطيات تناقض السيناريو الذي تضعه في المقدمة. ويعتقد أن مثل هذه السرديات تُعزّز معتقدات أصحاب القرار في عالمٍ متميّز بالشكوك والتعقيد والاستقطاب.

علاوة على المنظور من زاوية الفاعلين والسلطة، من المهم، في علم البيئة السياسي، دراسة كيفية تأثر الشروط المحليّة بالبنى والسياقات الإجمالية. وهكذا يقتضي هذا العلم وجود منظور بنيوي. وقد درس كلٌّ من بليكي (Blaikie) وبروكفيلد (Brookfield) (1987) هذا الترابط بين منظور من زاوية فاعلي السلطة ومنظور بنيوي، في واحدة من أولى الإسهامات في علم البيئة السياسي، بصفته مقارنة جامعية. تفترض المقاربة من زاوية علم البيئة السياسي، أيضاً، دراسة تحولات البيئة، وأسبابها على المدى البعيد، الأمر الذي يحتمل جانبيين. في إطار الجانب الأول، يُسعى إلى جمع معطيات عن البيئة تغطي سلاسل زمنية طويلة إلى أقصى حدٍّ ممكن، بغية التمكن من استنتاج الاتجاهات الحالية منها. وكلّما كانت هذه السلاسل أطول كانت الفرص أكبر لاستخلاص نتائج ملائمة منها بالنسبة لتحولات الموارد الطبيعية من حيث الزمن. أما في إطار الجانب الثاني، الخاص بدراسة النزاعات المرتبطة بالموارد الطبيعية، فإن من المهم تبني مسار تاريخي بغية فهم كيفية تطوّر هذه النزاعات.

وبتركيزه على قيم، مثل العدالة وحقوق الإنسان، يُعبر علم البيئة السياسي، غالباً، عن وجهة نظر معيارية، ولا سيما بالنسبة إلى بعض المجموعات المُهمَّشة. ويشكل هذا الأمر، بتعبير آخر، محور بحث يقتضي انحياز الباحثين إلى المجموعات البشرية الضعيفة، المُهمَّشة أو المُضطَّهدة. وقد فُسر هذا التسييس، غالباً، بانتقاداته كَنَفِيٍّ للنزعة التجريبية. إن بعض إسهامات علم البيئة السياسي يمكن، من دون شك، أن يُتهم، بشكل مشروع، بالانحياز فيما يتعلق برؤيته لحالة العالم، وعليه فإن من المهم تجنب مثل هذه الآراء المُعدَّة مُسَبِّقاً. إننا ننوي، هنا، الدفاع عن علم بيئة سياسي يزاوج بين رسوخ معياري في قيم مُحدَّدة بوضوح، وبحوثٍ تجريبية يكون منفتحاً في إطارها على كل نتائج المراقبة. ويمكن لنتائج هذا النمط من البحث أن تشكل، في رأينا، إسهامات مهمة في المجادلات السياسية، وتبدو، إلى حد كبير، أكثر إثراءً وفائدة من إعادة الإنتاج الحرِّيِّ لأجوبة «صحيحة» تطابق الحقائق المُتَبَتَّة للخطاب ساري المفعول.

النظرية النقدية:

بتوفيقها بين توضيحات متعلقة بالقيم وشفافية تجريبية، تُصِّب المقاربة، التي شكَّلتها علم البيئة السياسي، نفسها وريثةً لنظرية مدرسة فرانكفورت النقدية. ويدَّعي ماكس هورخايمر (Max Horkheimer)، أحد ممثليها، أن النظرية التقليدية لا تسعى إلا إلى فهم بعض مظاهر المجتمع، وتفسيرها، في حين أن النظرية النقدية تقدِّم، زيادة على ذلك، بُعداً مُحرِّراً، لأنها تدلُّ على عناصر المجتمع التي يجب أن تتحوَّل. الأمر الذي يجعل من الضروري، برأيه، اللجوء إلى حقول معرفية عديدة. وفي ستينيات القرن الماضي، اقترح يورغن هابرماس (Jürgen Habermas)، وهو ممثل آخر للمدرسة نفسها، نقداً للنزعة الوضعية، أشار فيه إلى أن العلم التقليدي يفتخر بالموضوعية على أُسسٍ خاطئة. أما البديل الذي يقترحه هابرماس (1968) فهو نظرية نقدية للعلوم ترتبط في إطارها العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية، على التوالي، بألعاب مصالح خاصة، ذات طابع مَعْرِيفِيٍّ، تكون، على التوالي، تقنية، وعملية، ومُحرَّرة.

إن علم البيئة السياسي يقوم على المعارف التي ولَّدتها الميادين العلمية الثلاثة، المشار إليها أعلاه. وقد سلَّطت إسهاماته الضوء، بطرق مختلفة، على مظاهر المجتمع التي جعلت استغلال البشر للموارد الطبيعية مُولِّداً لمشاكل. ولِنُضِيفَ أنه إذا كان علم البيئة السياسي قد أسهم، إلى الآن، بطريقة فعَّالة، في الدلالة على ما ينبغي أن يتحرَّر (انظر: Peet et Watts, 1996)، فإنه بدأ، على الرغم من ذلك، محدوداً، على غرار مدرسة فرانكفورت، في تحديد ما يجب أن يقود إليه هذا التحرير. لهذا السبب، من دون شك، يمكن ملاحظة تطور يؤدي إلى تأثير سياسي لعلم بيئة لا سياسي (apolitical ecology) أكبر بكثير من التأثير السياسي لعلم البيئة السياسي.

كتب روبنز (Robbins, 2004) إن علم البيئة السياسي يعرض وجهين، ويعطي لنفسه مَهْمَتَيْنِ – يسمِّيها «الفأس» و«البزرة». وجه الفأس يسيطر ويمثِّل المقاربة النقدية، في حين أن وجه البزرة يشكل إسهام علم البيئة السياسي في عالم يتطور بطريقة أكثر عدلاً واستدامة. وينتقد والكر (Walker, 2006) عدداً من مؤيدي علم البيئة السياسي بسبب إهمالهم بعض الشيء للمهمة الثانية. ويشير إلى أن لغالبية

النصوص التي أنتجها علم البيئة السياسي طابعاً داخلياً، وأنها موجهة للجامعيين الذين يعملون في الميدان نفسه. ثم يضيف قائلاً إن العلاقات بين علم البيئة السياسي والسياسة لا تتميز بالفتور، فحسب، وإنما بالنفور، أيضاً. وهو، في الواقع، نفور متبادل بين مَنْ يتولون السلطة، وقسم كبير من الذين يطبقون علم البيئة السياسي. وفيما يتعلق بهؤلاء، فإنهم يتحررون من التزامهم بالسياسة الواقعية، ويمكن القول إن لديهم مقاربة لا سياسية مثلها مثل علوم البيئة اللاسياسية التي ينتقدونها.

علم البيئة اللاسياسي:

نشر الكاتب والمفكر الألماني الملتزم هانس ماغنوس أنزنبرغر (Hans Magnus Enzensberger)، في 1974، مقالة شكّلت إحدى الإسهامات الأولى في علم البيئة اللاسياسي (Enzensberger, 1974). ويكمن جوهر تفكيره في أن علماء البيئة، والعلوم الطبيعية الأخرى، يتصرفون، أيضاً، حين يعبرون عن آرائهم في موضوع قضايا البيئة، كفاعلين سياسيين، ويخفون، في الوقت نفسه، دوافعهم، ومصالحهم الخاصة خلف واجهة علمية، أو لا يعبرون عنها بطريقة واضحة، إلا جزئياً. وعليه، فإن علم البيئة هذا سياسي، إذن، لأن أصحابه يعملون كفاعلين سياسيين، حتى لو تمنوا الظهور كحياديين، اجتماعياً وسياسياً، عبر تقديم أنفسهم فقط كباحثين، أو أساتذة. لقد كان أنزنبرغر ينوي، إذن، الكشف عن أن علماء البيئة يتصرفون كفاعلين اجتماعيين وسياسيين حين يتصدون لقضايا البيئة، المرتبطة بخيارات مجتمعية وقرارات سياسية. وفي النتيجة، فإن حياد علم البيئة وهم، وإن ما يدعوه أنزنبرغر «علم بيئة سياسي» يطابق، في عبارات أخرى، ما ندعوه «علم البيئة اللاسياسي».

إن من الممكن القول عن قسم كبير من البحوث الحالية إنها لا تزال تصدر عن مثل هذا العلم البيئي اللاسياسي. وعلى الرغم من أن الباحثين في علم البيئة، والعلوم الطبيعية، بصفة عامة، يدعون أن بحوثهم موضوعية وحيادية، تماماً، فإنها تبدو، لمن ينظر إليها عن قرب، متأثرة، بشدة، بقيم، وتدرج بطريقة وثيقة جداً في رؤية «صحيحة» للعالم كما هو عليه، وكما يجب أن يكون.

إن المالتوسية الجديدة (Le néomalthusianisme) هي التي يقرنها أنزنبرغر، بشكل خاص، بـ «علم البيئة السياسي». ففي ستينيات القرن الماضي، أخذ علماء بيئة أمريكيون ذائع الصيت، مثل بول أهرليتش (Paul Ehrlich) وغاريت هاردن (Garrett Hardin)، ثانياً، بالفعل، بأفكار مالتوس (Ma - thus)، وطبقوها على مسائل بيئية. وكان هؤلاء المالتوسيون الجدد يرون أننا نشهد، حالياً، نمواً عالمياً في عدد السكان، كما في الاستهلاك، وأن هذا النمو في طريقه لتجاوز القدرة الاستيعابية البيئية للأرض. وقد أدى مؤلف أهرليتش «القنبلة السكانية» (The Population Bomb) (1968) (11)، ومقالة هاردن المشهورة حول «مأساة العامة» (La tragédie des communs) (1968)، دوراً كبيراً في الجدل البيئي. وبحسب روبرنز (2004)، فإن ثمة فئتين رئيسيتين في علم البيئة اللاسياسي: المقاربة المالتوسية الجديدة، والمقاربات المتنوعة التي يمكن تجميعها في فئة واحدة، نطلق عليها تسمية المقاربات «التحديئية». وعلى غرار الفئة الأولى، فإن المقاربات «التحديئية» تعاني من ضعف أخلاقي وتجريبي. إن حصة الأسد في أوساط البحوث الحالية عن البيئة تذهب إلى هذين النموذجين التفسيريين.

إن «التحديث»- أو «التحديث البيئي»، كما يسمّيه هاجر (Hajer, 1995) - يستند، عادة، على مقارنة «رابح- رابح» التي تقوم على فكرة أن النمو الاقتصادي وحماية البيئة يعزّزان بعضهما بعضاً بشكل متبادل. وقد يكفي تحديد أسعار مناسبة وإدخال تقانات ملائمة لتسوية المشكلات. وهكذا ننزع الطابع السياسي عن مسائل معقّدة، تمسّ الأولويات السياسية، بتحويلها إلى مسائل أسعار وتقانات.

وعلى غرار المقاربة المالتوسية، فإن مقاربات التحديث هذه تتجاهل التركيب البنيوي السياسي والاقتصادي للسلطات القائمة. وزيادة على ذلك، فإن هذه المقاربات «اللاسياسية»، التي تسعى جاهدة إلى جلب حلول تقنية لمشكلات الفقر، هي سياسية بشكل عميق، لأنها تستتبع، على سبيل المثال، نتائج واضحة في موضوع توزيع الموارد. إن علم البيئة السياسي لم يعد سياسياً، إذن، أكثر من المناظير الأخرى المتنبّئة من أجل التطرق للبيئة والتنمية. إنه، ببساطة، وبشكل أكثر صراحة، سياسي، أو معياري. وهو، بتعبير آخر، لا يسعى، أبداً، للتخفي وراء «موضوعية»، أو «علمية» وهميتين (روبنز، 2004).

علم البيئة السياسي: التوسّع والاتجاهات الحالية:

منذ الثمانينيات، عرف حجم الدراسات والبحوث عن البيئة والتنمية توسعاً غير عادي. ففي العلوم الإنسانية، ولا سيّما علم الجغرافيا والأنثروبولوجيا، جرى قسم كبير من هذا التوسّع في إطار الاتجاهات المختلفة لما يمكن تصنيفه كعلم بيئة إنساني أو ثقافي. ويثابر هذا الفرع التقليدي الواسع من البحث على دراسة التفاعلات بين البشر، وبيئتهم الطبيعية، أي على الطريقة التي تحدّد بها المجتمعات البيئة، وتحوّلها، والطريقة التي تؤثر بها البيئة الطبيعية على تنظيم المجتمعات. وضمن هذا التقليد، نجد، أيضاً، اتجاهات مهمّة أخرى، مثل بحوث المخاطر، وتحليل النظم، والدراسات حول مقاومة الضغط والتكيف. إن علم البيئة السياسي يتحدّر، جزئياً، من علم البيئة الإنساني أو الثقافي هذا، وعلى أساس تعارض نقدي معه. يكمن النقد العام الموجه لعلم البيئة الإنساني أو الثقافي في أن العوامل البيئية قيّمت فيه بأكثر مما ينبغي، وأن ثمة مبالغة فيه في أهميتها. كما انتقدت هذه المقاربة، أيضاً، لتطبيقها مفاهيم مستمدّة من علم البيئة، مثل مفهومي: المثوى، والقدرة الاستيعابية، في دراسة المجتمعات البشرية.

لقد خسر علم البيئة الثقافي، في العقدين الأخيرين، شيئاً من ميدان انتشاره لصالح علم البيئة السياسي، بسبب حقيقة أن كثيرين هم أولئك الذين بدأوا يرون أن اقتصار التحليل البيئي على النظم المحلية، والبنى المحلية، وعلى الاستغلال المحلي للموارد، أمرٌ مرّضٌ قليلاً، في الوقت الذي تعمل فيه، خارج هذا الإطار المحلي، قوى اقتصادية وسياسية قوية يجب أن تؤخذ في الحسبان في هذا التحليل نفسه. أما في علم البيئة السياسي، فإن من المعتاد، بالعكس، التوفيق في التحليل، بطرق متنوعة، بين المستويات الجغرافية المختلفة، من المستوى المحلي إلى المستوى العالمي، مروراً بالمستوى الوطني. ويعدّ بليكوي وبروكفيلد (1987) من بين أوائل من سلّطوا الضوء على ضرورة مثل هذا التوفيق. فأدخلا طريقة تقترح استعمال سلاسل سببية يمكن الاعتماد عليها من أجل التعرّف على مصدر التدهور البيئي. واقترحا البدء في المستوى المحلي، وإدارة الموارد فيه عبر الأشخاص والأسر، أو المؤسّسات، التي تستغلها مباشرة. وبتعبير آخر، فإنهما كانا يسعيان إلى فهم العقلية المحلية. ويحاولان، بشكل طبيعي، الحُكم على حالة

البيئة: هل ثمة انحسار في الغابات، انجراف للأراضي، مبالغة في استغلال المراعي، ندرة في المواد المغذية للأرض، وإتلاف للتنوع الحيوي؟ وللقيام بذلك، يمكن، عموماً، الاستفادة من دراسات علمية تناولت موضوع التغيرات البيئية، أو التعاون مع فريق من العلماء. وقد استعمل كثير من الجغرافيين التصوير الجوي، أو صور الأقمار الصناعية بغية تحليل التعديلات الجارية في مساحة الأراضي المُستَغلة، وتوسُّع الغابات، والكمية الإجمالية للكتلة الحيوية.

يتعلق الأمر، حتى الآن، بمقاربة مشابهة لتلك التي تبناها علم البيئة الإنساني أو الثقافي. ولكن، في حين أن هذا العلم لن يتكلم بإسهاب عن الثوابت الخارجية، فإن تحليل علم البيئة السياسي سيبحث فيها، بالضبط، عن عوامل السببية. ويمكن، على سبيل المثال، الانطلاق من نزاعات محلية حواسستعمال الأراضي والموارد الأخرى، والسعي إلى رؤية إن كانت مرتبطة، بأي طريقة كانت، بالخطب المسيطرة، وبآليات سياسية على المستوى الوطني.

وعلى المستوى المحلي، سيكون من الممكن، أيضاً، تحديد النتائج الملموسة لخطط التصحيح البيئي، وبشكل أعم، للسياسة الاقتصادية الوطنية. فالغاء الإعانات المالية للأسمدة الكيماائية، على سبيل المثال، سيكون له نتائج واضحة على مقدار المواد المغذية للأراضي، الأمر الذي يمكن، بدوره، أن يؤدي إلى الانتقال من تكثيف الإنتاج إلى تخفيفه وبسطه على مساحات أوسع؛ فيمدُّ الفلاحون مساحة الأراضي المزروعة لجني المحصول نفسه الذي كانوا يجنونونه قبل ذلك. وهكذا، يمكن لخطة تصحيح بيئي أن تقود إلى انحسار في مساحة الغابات.

لقد أثار ثلاثة مفكرين، بشكل خاص، على الاتجاهات الحالية لعلم البيئة السياسي. وهم: ميشيل فوكو (Michel Foucault)، وإدوار سعيد، وجيمس س. سكوت (James C. Scott).

قدّم ميشيل فوكو إسهاماً كبيراً فيما بعد البيئية، وفي تحليل الخطاب الذي لعب، في هذه السنوات الأخيرة، دوراً أساسياً في علم البيئة السياسي. فقد دمجت ما بعد البيئية مقاربات علمية نُظِرَ، في إطارها، إلى ما قيل وكتب كمادة للتحليل. وأظهر فوكو (1961 و1975) عبر دراسات تاريخية حول موضوعات، مثل الجنون والسجن والعقوبات، كيف أن ممارسات العصور المختلفة ارتبطت بخطب تدل على ما له معنى، وما ليس له معنى، وما هو حقيقي، وما هو غير حقيقي، وكذلك على الأشكال المقبولة لما يُقال ويُفعل.

إن بُعداً مهماً للعولة يتجلى في اتجاه عدد قليل من الخطب للسيطرة على العالم. ومثل هذه الخطب يمكنها، في النتيجة، أن تلعب دوراً كبيراً في الطريقة التي تُعرض فيها المسائل التي تمس إدارة البيئة والتنمية. وقد فهم ممارسو علم البيئة السياسي، بفضل فوكو، كم هو مهم تحليل كيف تُتَبَّط الخطب المسيطرة «حقائق» عن البيئة والتنمية، تبدو حاسمة ومحددة للعمل السياسي (انظر: Stott et Su - 2000: Adger et al., 2001; Forsyth, 2003; Svarstad, H., 2004).

غير أن من الممكن توفير بعض السمات الموجودة في تحليل فوكو الاستدلالي. سنأخذ، أولاً، في الحسبان النقد الموجه إليه لقوله إن كل عصر تاريخي يتميز بخطاب موحد يقدم الحقيقة والممارسات الجيدة

في كل الميادين. إلا أننا حين نحلل الخطب التي قيلت في موضوع المسائل البيئية على المستوى العالمي، فإنه ليس من النادر ملاحظة نزاعات الرأي التي تحصل بين اثنين، أو أكثر، من الخطب المسيطرة (Adger et al., 2001). وعلاوة على ذلك، أخذ على فوكو أنه تعامل مع ما يمكن تسميته بالخطب التي لا يوجد مؤلفون لها (Fox, N.J., 1998). ونظن أن من الملائم التركيز على واقع أنه إذا كانت الخطب تشكل بُنى مهمة، فإن الذين صاغوها أشخاص فاعلون، ولهذا فإنها تُعدُّ مواداً قابلة لأن يعدلها هؤلاء، ويغيروها بشكل مستمر. ولهذا فإنه يُوصى، من أجل فهم أمثل للوقائع النظر، في آن معاً، إلى الخطب، وإلى الفاعلين الذين صاغوها.

كما بدأ مفهوم الحكوماتية (la gouvernementalité)، الذي ابتدعه فوكو، مفيداً لعلم البيئة السياسي. فقد ثابر فوكو على تحليل كيف يُمَرَّ حَكَمُ المواطنين عبر تطبيق بعض التقانات، وبدء هؤلاء تنفيذ بعض العقليات (Burchell et al., 1991). إن هذا المفهوم، الذي ظهر في أعمال فوكو الأخيرة، هو التتمة المنطقية لتأملاته في العلاقات بين السلطة والمعرفة. فالسلطة تُعرَّف، لديه، بأنها قوة تنفيذية متفاعلة مع المعرفة.

إلا أن مفهوم الحكوماتية أُدْخِل في علم البيئة السياسي بفضل أرون أغراوال، بشكل خاص. ويميّز أغراوال مقاربه كنتاج للبيئية (L'environnementalité) (Arun Agrawal, 2005). إن الأمر يتعلَّق، إذن، بفهم كيف تعمل الحكوماتية في ميدان البيئة. وقد تمسَّك أغراوال بفهم كيف أصبحت المعرفة، والسياسة، والمؤسَّسات، والشخصية الذاتية، مرتبطة فيما بينها عبر الدخول المفاجئ للبيئة، بصفتها ميداناً للتنظيم والحفظ. وانطلاقاً من التجربة المكتسبة في قرى بشمال الهند، يُظهِر أغراوال كيف تطورت التنظيمات البيئية القائمة على اللامركزية بشكل مواز لتغيرات في عقلية سكان القرى، الذين أصبحوا يدركون أهمية استغلال الموارد بشكل يضمن ديمومتها. ومع «البيئية» كمبدأ أساسي، برهن أغراوال أن التعديلات التي تطرأ على المعرفة والسياسة والمؤسَّسات والشخصية الذاتية لم تُعدَّ تُدرَّس بشكل منفصل، وبطريقة مجزأة، وإنما بأخذ طُرُق تفاعلها في الحسبان.

ومارس عالم اجتماع العلوم برونولاتور (Bruno Latour)، أيضاً، بعض التأثير على علم البيئة السياسي. وقد شغل إسهامه البنائي، في المقام الأول، في فهم البحث العلمي، مكاناً مهماً في علم البيئة السياسي. وكانت أعماله الأولى مُتحدِّرة من بحوث تجريبية حول العمل المخبري (Latour, B., Woo - gar, S., 1979)؛ وفيها كشف عن التفاوت الموجود بين ما يقوله العلماء، ويكتبونه، عن سيرهم نحو نتائجهم، من جهة أولى، وما يفعلونه، حقاً، من أجل إثبات الوقائع العلمية التي سُمِّح لهم بالوصول إليها، من جهة أخرى. إن العلم لا يُقدِّم وقائع موضوعية عن الطبيعة، وإنما يُنتج خلاصات تخضع لأدوات القياس المستعملة، ولتفسيرات الباحثين.

وفي المقام الثاني، عدَّ بعض الفاعلين في علم البيئة السياسي أن لإسهامات لاتور المهمة في النظرية الخاصة بالعلاقات بين الفاعلين والنظام فائدة كبيرة لتحليلاتهم الخاصة للمسائل التي تتناول موضوع

الموارد الطبيعية (Forsyth, 2003)؛ (Robbins, 2004)؛ (Rangan et Kull, 2008). وهذه النظرية تضع الأشخاص الطبيعيين والمواد في نظام واحد، الأمر الذي يمكن أن يُسهم في توضيح الشروط الأساسية للسلطة المأخوذة عبر بعض المناظير.

وفيما يتعلق بإدوار سعيد، فقد كان يرى، نتيجة تأثره بفوكو، بشكل خاص، أن لكل زعم طبيعة أيديولوجية، أساساً، ولا سيما حين يتناول ثقافات أخرى. وهو يؤكد، في مؤلفه الأكثر شهرة «الاستشراق» (Saïd, E., 1978)، أن الأدب، والرسم، والمعرفة الأكاديمية، والصحافة، في الغرب، عرضاً «الشرق»، باستمرار، كثقافة غربية ومختلفة وأدنى من «الثقافة الغربية». وهكذا أسهم «الاستشراق» في تسويق الاستعمار والسيطرة الغربية. ويثابر سعيد، بشكل خاص، على مناقشة العلاقات بين الغرب والبلدان العربية، إلا أن الدراسات اللاحقة عن مرحلة ما بعد الاستعمار، المستوحاة من مؤلف «الاستشراق» وسَّعت ميدان التحليل ليطال أجزاء أخرى من العالم، ولا سيما إفريقيا، والشرق الأقصى، وحتى المنطقة القطبية. وتظهر هذه الدراسات، في أغلب الأحيان، إلى التعبير الثقافي والمعرفة الأكاديمية للغرب كانعكاس للسياسة وللمصالح الغربية أكثر مما هي عرضٌ لحقيقة «الشرق».

وفيما يخص جيمس سكوت، فإنه أحد الممثلين الكبار لما اتُّفق على تسميته بـ «الدراسات الفلاحية»، التي حُلَّت، في إطارها، عقلية صغار الفلاحين، على سبيل المثال، والأسباب التي تدفعهم، غالباً، إلى معارضة التحديث. ويؤدي هذا النمط من الدراسات، غالباً، إلى نقد الفكرة الشائعة القائلة إن صغار الفلاحين أشخاص لا عقلانيين وغير فعَّالين. ويلاحظ سكوت في مؤلفه «البنيّة الأخلاقية للفلاحين» (The Moral Economy of the Peasants) (Scott) (1976) أن صغار الفلاحين يتجهون إلى محاولة اتقاء المخاطر من خلال تطوير أجهزة اجتماعية لإعادة توزيع فوائض السنوات الجيدة المخصّصة لحماية أنفسهم من نتائج السنوات الرديئة. ويمكن لهذا الأمر أن يأخذ شكل تقاسم للأرض واليد العاملة مع آخرين. وفي مؤلفه «أسلحة الضعيف» (The Weapons of the Weak) (Scott) (1985) يصف سكوت ما يدعوه معارضة صغار الفلاحين اليومية للتحديث والاستغلال. وهذه المعارضة للتدخلات الآتية من العالم الخارجي هي، برأيه، أشمل وذات قيمة أكبر بكثير من تمرد مسلح، حتى وإن كان الحديث عن هذا التمرد أكثر.

كما ينبغي الإشارة، أيضاً، إلى إسهام علم الأنثروبولوجيا الاقتصادية الفرنسي ذي الاتجاه الماركسي الجديد (كلود مياسو (Claude Meillassoux)، بيار فيليب راي (Pierre-Philippe Rey)، موريس غودوليه (Godelier Maurice)، إيمانويل تيراي (Emmanuel Terray)) في الدراسات الفلاحية (انظر، على سبيل المثال، مياسو، 1964 و1974). وقد أسهمت الأعمال التي تحدّرت منه، هي أيضاً في تحوّل علم البيئية الثقافي إلى علم بيئية سياسي. وقيل عن مياسو، على سبيل المثال، إنه كان يرفض «النظر إلى أي مجتمع، وأي ظاهرة اجتماعية، كشيء يمكن أن يُحلَّ بطريقة مستقلة، ومعزولة، وخارج السياق» (Schlemmer, 2005).

- علم البيئة السياسي: جدالات حول المكانة التي ينبغي إعطاؤها لعلم البيئة :

أسهم رجالان، أكثر من أي كان، في الثمانينيات، في تطور علم البيئة السياسي. وهما: بيرس بليكي وميخائيل واتز. كان الاثنان، في الأصل، ماركسيين، إلا أن بليكي ابتعد، في الثمانينيات، عن المقاربة البنوية، ودمج في دراسته إحساس الفاعلين والعوامل البيئية. وهكذا أنتج بليكي وواتز مقاربتين مختلفتين عن علم البيئة السياسي. إلا أن الأمر المشترك بينهما هو أنهما وضعاً في مركز مقاربتهم أفق النضال من أجل السلطة والاقتصاد السياسي، لكون هذا الاقتصاد قد تأثر بقوة بنظرية التبعية، التي طُوِّرت في إطار البحوث حول التنمية، التي يُعدُّ كلٌّ من إيمانويل والرشتاين (Immanuel Wallerstein) (1974)، وأندريه غوندر فرانك (André Gunder Frank) (1979) الممثلين الرئيسيين لها.

في عام 2003، تقاعد بيرس بليكي من منصبه كأستاذ دراسات التنمية في جامعة شرق إنجلترا، إلا أنه بقي نشيطاً كأستاذ متقاعد. وحين نشر، عام 1985، مؤلفه «الاقتصاد السياسي لتآكل التربة في البلدان النامية» (The Political Economy of Soil Erosion in Developing Countries) (Blaikie, 1985)، رأى كثير من القراء أن هذا المؤلف كان يعرض طريقة مُسنَّجة في فهم القضايا البيئية (انظر: Geoforum, 39, 2 [2008], en l'honneur de Blaikie).

كنا، إذن، في شخص بليكي، أمام عالم أساء للعلوم الطبيعية بقوله بصوت عالٍ إن ظاهرة طبيعية، كظاهرة تآكل التربة، لا يمكن فهمها تماماً إلا بمساعدة أدوات الاقتصاد السياسي (Rigg, 2006)؛ (Simon, 2008). وقد طُوِّرت هذه الأفكار، فيما بعد، في مؤلف بليكي التالي «تدهور الأراضي والمجتمع» (Land degradation and Society)، (1987) الذي شاركه في تأليفه عالم البيئة الثقافي هارولد بروكفيلد (Harold Brookfield). وفيه يُعرِّف تدهور الأراضي «كمشكلة اجتماعية يُدركها الفاعلون المتنوعون في اللعبة بطرق مختلفة». إن «التدهور» لا يمكن أن يُقاس بمساعدة مناهج العلوم الطبيعية. فانحسار الغابات يمكن، من دون شك، أن يُقاس، وكذلك تآكل التربة، إلا أن تحديد ما إذا كانت هاتان الظاهرتان تشكّلتان تدهوراً، أم لا، يخضع لوضع كلٍّ مراقب. فالمناضل البيئي الغربي، على سبيل المثال، يمكنه النظر إلى أي خسارة في الأراضي المُشجَّرة في بلدان الجنوب كتدهور. والفلاح المسكين، الذي يخلِّص قلبه من الأشجار الصغيرة والأدغال، سينظر، من جانبه، إلى هذا العمل كتحسين للأراضي. وهو بقيامه بهذا الأمر يوسِّع، بالفعل، المساحة القابلة للزراعة. وهكذا يمكنه، ربّما، تحسين الأمن الغذائي لأسرته. إن فهمنا، وتفسيرنا، للمسائل البيئية تقوده، إذن، معاييرنا، ومصالحنا، وقيمنا. لقد أسهمت هذه الأفكار، التي تبدو اليوم بديهية لمن يُمارس علم البيئة السياسي، منذ عشرين سنة، في التحضير لقدم ميدان بحث جديد كلياً.

وعلى الرغم من تأثره الواضح بالفكر ما بعد البنيوي، كان بليكي يتردد في الموقف الذي ينبغي تبنيه بالنسبة لهذا التيار الفكري الذي سيسيطر، فيما بعد، على علم البيئة السياسي. وقد حصل، غالباً، بالفعل، برأيه، أن تفكيك السرديات البيئية لا يأخذ على محمل الجد العلوم الطبيعية، ولا يستغل نتائج البحث العلمي إلا بطريقة انتقائية بهدف تشجيع البرنامج البنائي لمؤلفيه (Blaikie, 1999 et 2001).

وكان يؤكد أن مثل هذا الموقف كان غير مسؤول، وأن أي نقد بنائي يجب أن يكون في استطاعته تقديم اقتراحات سياسية أخرى تكون أكثر من مجرد تفكيك. وهكذا كان بليكي يجد نفسه متأرجحاً بين الموقف الواقعي والموقف البنائي، في إطار ما يُسمى بالواقعية النقدية (Proctor, 1998). إن الواقعية النقدية تمثل خياراً بديلاً عن الوضعية وما بعد الحداثة. إنها، بتعبير آخر، في منتصف الطريق بين الفكرة الوضعية للموضوعية العلمية والبنائية «القصوى».

أما ميخائيل واتز (Michael Watts)، أستاذ الجغرافيا في جامعة بيركلي، بكاليفورنيا، فهو من أرسى في الولايات المتحدة مقاربة في علم البيئة السياسي، ذات إحياء ماركسي.

كان الإسهام الأول لواتز في علم البيئة السياسي مؤلفه «العنف الصامت» (Silent Violence, 1983)، الذي يعالج موضوع تهيمش صغار الفلاحين الساحليين في شمال نيجيريا. وفيه، يصف واتز كيف أن إضفاء طابع رأسمالي على المبادلات في القرى لم يكن له نتائج سلبية على البيئة، فحسب، وإنما أدخل، أيضاً، الجوع والتهيمش الاقتصادي على الفلاحين. وبالفعل، فإن الفلاحين، المدفوعين لزراعة مساحات أكبر من الأراضي لسدّ حاجة السوق، وجدوا أنفسهم ملزمين بالتعرض لمقدار أكثر من المخاطر. وأصبحوا شيئاً فشيئاً خاضعين لتذبذبات سوق متغير الأهواء، فكان عليهم اللجوء إلى الاقتراض. وفي حين كانوا قبل ذلك مكتمين ذاتياً، تحوّلوا إلى عمال زراعيين بأجور زهيدة. إن العملية ستنتج، إذن، بشكل إجمالي، انتقالاً من الكفاية الذاتية إلى زراعة إنتاجية مولدة لعائدات نقدية، أدت، بدورها، إلى خسارة في خصوبة التربة، وتدهور في الأراضي الزراعية، بسبب خفض الاستثمار في اليد العاملة. وأكد واتز، فيما بعد، في تعليق على «العنف الصامت» أن هذا المؤلف كان يمثل محاولة لهدم الحدود التي أقامها علم البيئة الثقافي (Watts, 2001)، وأنه كان ينظر إليه كهجوم مباشر على أنصار علم البيئة الثقافي، ومنهم روي رابابور (Roy Rappaport). وبفضل الماركسية المنسقة مع الإحياء المُستمد من «دراسات فلاحية»، ولا سيما من دراسات سكوت (1976)، تمكن واتز من الانتقال من علم البيئة الثقافي إلى علم البيئة السياسي.

في التسعينيات، تأثر واتز، أيضاً، بالموجة ما بعد البنيوية، التي كانت تتدفق، حينذاك، على العلوم الاجتماعية. وتعكس أعمال بيت (Peet) وواتز (Watts, 1996) هذا التأثير، وتستتبع تسيقاً بين الماركسية وما بعد البنيوية، الأمر الذي يجعل من الممكن، برأي المؤلفين، وجود علم بيئة سياسي، طابعه السياسي أكثر وضوحاً. وعلاوة على ذلك، طوّر بيت وواتز فكرة خصبة لعلم البيئة السياسي القادم، وهي الفكرة القائلة إن النزاعات على الموارد ليست نزاعات من أجل السيطرة على الموارد المادية، فحسب، وإنما هي نزاعات أيديولوجية (خطب وسرديات)، أيضاً، الأمر الذي يتضمّن أن تعالج النزاعات، إلى أقصى حد، محتوى المشكلات، والطريقة التي يمكن أن تحلّ بها، أيضاً.

وأخذ واتز على أعمال بليكي أنها اهتمت كثيراً بالمظاهر الطبيعية للمشكلات «البيئية»، وقليل جداً بمظاهرها «السياسية» (Peet et Watts, 1996; Watts, 1997). وأكد أن هذه المؤلفات لانظرية (athéoriques)، وينقصها نظرية اجتماعية عامة تسمح بتفسير تدهور البيئة. وقد فسّر هذا النقد كتنقيد صادر عن ماركسي تائب، لأن علم البيئة السياسي كان قد انتقل من «حقيقة» ماركسية واحدة إلى

مجموعة «حقائق»، بفضل مؤلف بليكي وبروكفيلد «تدهور الأراضي والمجتمع»، بشكل خاص (Bryant et Goodman, 2008). ويعكس هذا النقد، أيضاً، توتراً لا يزال راسخاً في علم البيئة السياسي بين الاتجاه «السياسي» والاتجاه «البيئي»، أو، أيضاً، بين مدرسة واتز ومدرسة بليكي. فواتز يثابر على تطوير تحليل نظري للبيئة كموضوع اجتماعي، إلا أن من الممكن الحكم بأن قسماً من النقد الموجه إلى علم البيئة السياسي يعنيه إلى أعلى حد، ولا سيما واقع أن مقارنته تعبر عن حتمية بنوية ما، وبالتالي أن الأسباب لديه مُحدّدة، بالدرجة الأولى، وينبغي اكتشافها في بُنى الرأسمالية، وهو ما يمكن أن نضيف إليه أن معارف بيئية حقيقية، وتحليلاً بيئياً علمياً وتجريبياً كانا ينقصانه (Vayda t Walters, 1999). كذلك تساءل والكر (2005) عن المكان الذي انتقل فيه علم البيئة إلى علم البيئة السياسي، وأسهم، هكذا، في الجدل الحالي الذي يتناول مسألة معرفة ما إذا كانت هذه المقاربة لم تصبح بعد من قبيل «سياسة بلا بيئة». وعلى الرغم من هذا الاتجاه «المُسيّس» الذي ظهر في منتصف التسعينيات، فإنه لا ينبغي نسيان أن دراسات عديدة في علم البيئة السياسي استمرت في وضع الثوابت البيئية والعلمية في مركز تحليلها، وأن مثل هذه الدراسات أنتجت معارف جديدة وانتقادات جديدة للرأي التقليدي في ميادين عدّة، ولا سيما في إفريقيا، نذكر بعضاً منها، بشكل خاص: التدهور الإجمالي للبيئة في إفريقيا (Mears, et Leach, 1996)؛ انحسار الغابات في إفريقيا الغربية (Fairhead et Leach, 1996)؛ تصحّر السافانا الإفريقية (Basset et Crummev, 2003)؛ و (Benjaminsen et Berge, 2004)؛ فقدان خصوبة الأراضي في إفريقيا (Scoones, 2001)؛ انحسار الغابات في جزيرة مدغشقر (Kull, 2004)، أو الإفراط في استغلال المراعي في الساحل (Turner, 1993). ويمكن القول عن هذا النوع من الدراسات إنها، كورثة جيدة لبليكي، تعبير عن علم بيئة سياسي ملتزم، بنشاط، في تحليل التحولات الطبيعية للبيئة. وكورث لبليكي، أيضاً، ينتقد تيم فورسيث (Tim Forsyth) علم البيئة السياسي في بعض صيغته التي توفّق بين المقاربة الوضعية لعلم البيئة والتحليل الاجتماعي الماركسي الجديد (Forsyth, 2003)؛ و (Forsyth et Walker, 2008). وعلى الرغم من أن هذه المقاربة أسهمت في فهم أفضل للآليات السلطوية المرتبطة بمسائل البيئة، فإنها أنتجت بعض المزايم التي لا قيمة لها، إلى حد ما، في موضوع آثار العولة الرأسمالية على البيئة، والتي بنتيجتها أكد فورسيث والكر (2008) أنها تشكل تبسيطاً للعلاقات المعقدة الموجودة بين البيئة والمجتمع.

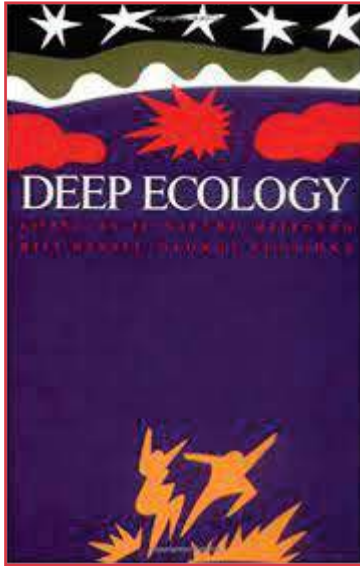
ولإنهاء حديثنا، نبدي اتفاقنا مع فورسيث (2003 و2008) حين يؤكّد أن التحدي، أمام علم البيئة السياسي، يكمن في دراسة تجريبية وتحليل للتحولات البيئية والسياسية المُستخلّصة من الأحكام المُسبّقة التي يمكن أن تُضَرَّ بالبحث. ويقتضي هذا الأمر وجود علم بيئة سياسي منفتح وتجريبي لا تقوده نماذج تفسيرية مُسبّقة الصنّع، سواء كانت هذه النماذج مستوحاة من النزعة المالتوسية، أم من نقد الرأسمالية. □

المصدر: Natures Sciences Sociétés. <http://www.nss-journal.org>

ou <http://dx.doi.org/10.1051/nss/2009002>



Water on Goolring, no. 2, 1996



الإيكولوجيا العميقة

بيك دوفال وجورج سيشنز

- ترجمة: د. معين روميه

بيك دوفال (1938-2009) Bill Deval: أستاذ الفلسفة وعلم الاجتماع في جامعة هُمبولت Humboldt، كاليفورنيا.

جورج سيشنز (1938-2016) George Sessions: أستاذ الفلسفة في جامعة سييرا Sierra، كاليفورنيا.

صاغ أرني نيس Arne Naess مصطلح الإيكولوجيا العميقة (deep ecology) في مقالته عام 1973، «الحركات البيئية الضحلة والعميقة وبعيدة المدى»⁽¹⁾ آنذاك سعى نيس إلى وصف النهج الأعمق والأكثر روحانية تجاه الطبيعة المتمثل في كتابات ألدو ليوبولد وراشيل كارسون. وقد اعتقد أن هذا النهج الأعمق نتج عن انفتاح أكثر حساسية تجاه أنفسنا وتجاه الحياة غير البشرية من حولنا. يتمثل جوهر الإيكولوجيا العميقة في مواصلة طرح الأسئلة المعمّقة بشأن حياة الإنسان والمجتمع والطبيعة على شاكلة طريقة سقراط في التقليد الفلسفي الغربي. ومن أمثلة هذا الاستجواب، يشير نيس إلى «أنتا نسأل [في هذا النهج] لماذا وكيف، في حين لا يسأل الآخرون ذلك. فعلى سبيل المثال، لا تسأل الإيكولوجيا بوصفها علماً [علم البيئة]

• مترجم سوريا.

1) Arne Naess, «The Shallow and The Deep, Long-Range Ecology Movements: A Summary», Inquiry 16 (Oslo, 1973), pp. 95-100.

عن نوع المجتمع الأفضل الكفيل بالحفاظ على نظام بيئي معين - فهذا يعدّ سؤالاً يخص نظرية القيمة والسياسة والأخلاق.» وبالتالي تمضي الإيكولوجيا العميقة أبعد مما يسمى بالمستوى العلمي الواقعي لتصل إلى مستوى حكمة الذات والأرض.

تتجاوز الإيكولوجيا العميقة النهج الضحل المجزأ المحدود في مقارنة المشكلات البيئية، وتسعى إلى صوغ نظرة شاملة إلى العالم دينية وفلسفية. إن ركائز الإيكولوجيا العميقة، تلك التي تشكل الوعي البيئي، هي الحدوس الأساسية وخبرتنا بأنفسنا وبالطبيعة. وتتبع بشكل طبيعي من هذا الوعي وجهات نظر حول السياسة والتدبير العام.

إن العديد من هذه الأسئلة هي أسئلة فلسفية ودينية خالدة طالما واجهها البشر في الثقافات جميعها على مرّ العصور. ما الذي يعنيه أن تكون كائناً بشرياً فريداً؟ كيف يمكن للذات الفردية أن تحافظ على فرادتها وتمييزها في حين أنها أيضاً جزء لا يتجزأ عن المنظومة بأكملها حيث لا فواصل حادة بين الذات والآخر؟ يؤدي المنظور الإيكولوجي، بهذا المعنى الأعمق، إلى ما يسميه ثيودور روزاك «إيقاظ الوعي بأنّ الكليات أكبر من مجموع أجزائها. ففي جوهره، هذا المنظور تأملي وعلاجي».⁽²⁾

يتناقض الوعي البيئي والإيكولوجيا العميقة بشكل حاد مع النظرة إلى العالم السائدة في المجتمعات التكنولوجية الصناعية التي ترى البشر معزولين، ومنفصلين بشكل أساسي عن بقية الطبيعة، على أنهم متفوقون على بقية الخليقة ومسؤولون عنها. لكن نظرة البشر على أنهم منفصلون ومتفوقون على بقية الطبيعة ليست سوى جزء من أنماط ثقافية أكبر. فمنذ آلاف السنين، أصبحت الثقافة الغربية شديدة الهوس بفكرة الهيمنة: هيمنة البشر على الطبيعة غير البشرية، والذكورة على الأنوثة، والأثرياء والأقوياء على الفقراء، والثقافة الغربية على الثقافات غير الغربية. يسمح لنا الوعي البيئي العميق إدراك هذه الأوهام الخاطئة والخطيرة.

بالنسبة للإيكولوجيا العميقة، إن دراسة مكانتنا في منزلنا كوكب الأرض تتضمن دراسة ذاتنا بما هي جزء من الكل العضوي. وحين نمضي أبعد من الفهم العلمي المادي الضيق للواقع، سوف تندمج الجوانب الروحية والمادية للواقع معاً. يميل قادة الفكر في إطار النظرة إلى العالم السائدة إلى رؤية الدين بوصفه «مجرد خرافة»، واكتفوا برؤية الممارسات الروحية القديمة والاستنارة، كما في بوذية زن، بوصفها خبرات ذاتية في الأساس، أمّا البحث عن وعي إيكولوجي عميق فهو بحث عن وعي أكثر موضوعية وعن حالة وجودية من خلال تشمل التساؤل العميق الفعال وسيرورة التأمل وأسلوب حياة.

طرح العديد من الأشخاص هذه الأسئلة الأعمق ورعوا وعياً بيئياً في سياق مختلف التقاليد الروحية- المسيحية والطاوية والبوذية وطقوس الأمريكيين الأصليين، على سبيل المثال. وبينما تختلف هذه التقاليد اختلافاً كبيراً مع الإيكولوجيا العميقة في نواح عديدة، فإنها تتفق في نواحٍ أخرى مع مبادئها الأساسية.

2) Theodore Roszak, Where the Wasteland Ends (New York: Anchor, 1972).

وقد عبّر الفيلسوف الأسترالي وريك فوكس بإيجاز عن الحدس المركزي في الإيكولوجيا العميقة: « فكرة أنه لا يمكننا إقامة تقسيم أنطولوجي ثابت في مجال الوجود: لا يوجد افتراق في الواقع بين الإنسان والعوالم غير البشرية ... ومتى تصوّرنا أن هذه الحدود قائمة، فإننا نقصر عن حياة الوعي البيئي العميق»⁽³⁾ طوّر آرني نيس انطلاقاً من هذا التبصّر الأساسي أو السمة المميزة للوعي البيئي العميق معيارين أو حدسين نهائيين لا يمكن اشتقاقهما من مبادئ أو حدوس أخرى. وتتوصل إليهما من خلال عملية الاستجواب العميقة التي تكشف أهمية الانتقال إلى المستويين الفلسفي والديني للحكمة. وبالطبع لا يمكن التحقق من صحتها بواسطة طرائق العلم الحديث المستندة إلى افتراضاته الميكانيكية المعتادة وتعريفه الضيق جداً للمسلّمات. هذان المعياران النهائيان هما تحقيق الذات (self-realization) والمساواتية المتمركزة حيويًا. (biocentric equality)

1. تحقيق الذات:

يتوافق معيار تحقيق الذات الذي تقول به الإيكولوجيا العميقة مع التقاليد الروحية للعديد من أديان العالم، ويمضي في الوقت نفسه أبعد من مفهوم الذات الغربية الحديثة التي تعرّف بأنها الأنا المنعزلة التي تسعى في المقام الأول للإشباع المتعوي أو للشعور المحدود بالخلاص الفردي في هذه الدنيا أو في الآخرة. هذا الشعور المبرمج اجتماعياً للذات الضيقة أو الذات الاجتماعية مخلخل، ويتركنا فريسة لأي بدعة أو موضحة سائدة في مجتمعا أو لأي جماعة مرجعية اجتماعية. وبالتالي فقد حرّمنا من الشروع في البحث عن شخصيتنا الروحية/ البيولوجية الفريدة. يبدأ النمو الروحي، أو التفتح، عندما نتوقف عن فهم أو رؤية أنفسنا كأنوات متنافسة معزولة وضيقة ونبدأ في التماهي مع البشر الآخرين من عائلتنا وأصدقائنا وصولاً في المآل إلى جنسنا البشري. لكن الشعور البيئي العميق بالذات يتطلب مزيداً من النضج والنمو، إنه تمأه يمضي أبعد من البشرية فحسب ليشمل العالم غير البشري. ويتعيّن أن نمضي أبعد من افتراضاتنا وقيمنا الثقافية المعاصرة الضيقة، ونتجاوز الحكمة الدارجة في زماننا ومكاننا، وهذا يتحقق على أفضل وجه بواسطة سيرورة التساؤل التأملي العميق. وبهذه الطريقة فحسب يمكننا أن نأمل في بلوغ فرادتنا وشخصيتنا الناضجة المكتملة.

يمكن للمجتمع الراعي غير المهيم أن يساعد في «العمل الحقيقي» المفضي إلى الشخص الكامل. ونلخص «العمل الحقيقي» رمزياً بأنه تحقيق «الذات الصغرى في الذات الكبرى» حيث «الذات الكبرى» تعني الكلية العضوية. ويمكن أيضاً تلخيص سيرورة التفتح الكامل للذات بعبارة «لا يخلص الواحد حتى نخلص جميعاً»، حيث كلمة «الواحد» هنا لا تشملني أنا فقط، ذلك الكائن البشري الفرد، بل كل البشر، والحيتان، والدببة الرمادية، والنظم البيئية للغابات المطيرة، والجبال والأنهار، وأصغر الميكروبات في التربة، وما إلى ذلك.

3) Warwick Fox, «Deep Ecology: A New Philosophy of Our Time?» The Ecologist, v. 14, 5-6, 1984, pp. 194-200. Arnie Naess replies, «Intuition, Intrinsic Value and Deep Ecology,» The Ecologist, v. 14, 5-6, 1984, pp. 201-204.

2. المساواتية المتمركزة حيويًا:

الحدس من المساواة الحيوية هو أن كل الأشياء في المحيط الحيوي لها حق متساو في العيش والازدهار والوصول إلى أشكالها الفردية الخاصة من التفتح وتحقيق الذات ضمن السيورة الأشمل لتحقيق الذات الكبرى. يفيد هذا الحدس الأساسي بأن جميع الكائنات والكيانات في المحيط البيئي، بوصفها أجزاء من الكل المترابط، متساوية في القيمة الجوهرية. يشير نيس إلى أن بديهية المساواتية الحيوية صحيحة من حيث المبدأ، على الرغم من أنه في سياق العيش تستخدم جميع الأنواع الحية بعضها بعضًا إما في الطعام أو المأوى، وما إلى ذلك. إن الافتراض المتبادل أحد الحقائق البيولوجية في الحياة، وقد كافتحت العديد من الأديان للتعامل مع الآثار الروحية لهذا الأمر. ويضطر بعض دعاة حركة تحرير الحيوانات الذين يحاولون تجاوز هذه المشكلة من خلال الدعوة إلى النباتية إلى القول إن المملكة النباتية بأكملها، ويشمل ذلك الغابات المطيرة، ليس لها حق ذاتي في الوجود. تتعارض هذه المراوغة مع الحدس الأساسي للمساواة الذي عبّر عنه ألدو ليوبولد⁽⁴⁾ عندما قال إن البشر «مواطنون عاديون» في المجتمع الحيوي، وليسوا أولياء أو سادة الأنواع الأخرى جميعها.

ترتبط المساواتية المتمركزة حيويًا ارتباطاً وثيقاً بتحقيق الذات الكبرى كليّ الشمول، بمعنى أنه إذا أدينا بقية الطبيعة فإننا نؤذي أنفسنا. لا توجد حدود فاصلة وكل شيء مترابط بغيره. لكن، بقدر ما نتذهن الأشياء ككائنات أو كيانات عضوية فردية، يدفع بنا هذا التبصر إلى احترام الأفراد جميعهم من البشر وغير البشر في حدّ ذاتهم كأجزاء من الكل من دون الشعور بالحاجة إلى إنشاء تسلسلات هرمية للأنواع الحية ووضع البشر في القمة.

توحي المضامين العملية لهذا الحدس أو المعيار بأننا يجب أن نعيش بأدنى وليس بأعلى تأثير في الأنواع الحية الأخرى وفي كوكب الأرض عموماً. فعلى هذا النحو ندرك جانباً آخر لمبدئنا التوجيهي: «بساطة في الوسائل، وثراء في الغايات».

إن المناقشة المكتملة لمعيار التمرکز الحيوي كما تكشف نفسها في الممارسة تبدأ بإدراك أننا، كأفراد، وكمجتمعات من البشر، لدينا احتياجات حيوية تتجاوز أساسيات من قبيل الطعام والماء والمأوى لتشمل الحب للهو، والتعبير الإبداعي، والعلاقات الحميمة مع منظر طبيعي معين (أو مع الطبيعة في مجملها) وكذلك العلاقات الحميمة مع البشر الآخرين، والحاجة الحيوية للنمو الروحي وليغدو المرء إنساناً ناضجاً. ولعل احتياجاتنا المادية الضرورية أكثر بساطة مما يدركه كثيرون. ففي المجتمعات الصناعية التكنوقراطية، تسود الدعاية والإعلان الساحقين مما يشجع الاحتياجات الزائفة والرغبات المدمرة

4) Tom Regan, The Case for Animal Rights (New York: Random House, 1983).

وللاطلاع على الانتقادات البارزة لحركة حقوق الحيوان، انظر:

John Rodman, «The Liberation of Nature?» Inquiry 20 (Oslo, 1977). J. Baird Callicott, «Animal Liberation,» Environmental Ethics 2, 4, (1980); see also John Rodman, «Four Forms of Ecological Consciousness Reconsidered» in T. Attig and D. Scherer, eds., Ethics and the Environment (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1983).

المصممة لتعزيز إنتاج السلع واستهلاكها بشكل متزايد. ومعظم هذا يحيد بنا عن مواجهة الواقع بطريقة موضوعية ويمتدنا من الشروع في «العمل الحقيقي» للنمو الروحي والنضج.

ثمّة كثير من الناس لا يرون أنفسهم مؤيدين للإيكولوجيا العميقة لكنهم يدركون مع ذلك مدى حاجة البشر، بل والحياة بمجملها إلى بيئة طبيعية صحية وعالية الجودة، مع أدنى حدّ من ترسّب النفايات السامة والإشعاع النووي من المشروعات البشرية، والحد الأدنى من الأمطار الحمضية والضباب الدخاني، وبريّة متدفقة كافية حتى يتمكن البشر من التواصل مع مصادرهم، والإيقاعات الطبيعية وانسياب الزمان والمكان. وبالاعتماد على التقاليد الأقلوية [غير المهيمنة] وحكمة كثيرين ممن قدّموا نظرات ناقبة حول الترابط الشامل، ندرك أن أنصار الإيكولوجيا العميقة يمكنهم تقديم اقتراحات لاكتساب النضج وتشجيع سيورورات التناغم مع الطبيعة، ولكن لا يوجد حلّ شامل مضمون ينقذنا من أنفسنا.

تقترح المعايير النهائية للإيكولوجيا العميقة نظرة إلى طبيعة الواقع ومكانة الفرد (كثير في الفرد) في المخطّط الشامل للأشياء. وإذا لا يمكن استيعاب هذه المعايير فكريا بشكل كامل لكنها في المآل اختبارية. ونلخص في الجدول الآتي التعارض بين الإيكولوجيا العميقة والنظرة السائدة إلى العالم.

النظرة المهيمنة إلى العالم	الإيكولوجيا العميقة
الهيمنة على الطبيعة	التناغم مع الطبيعة
البيئة الطبيعية هي موارد مخصصة للبشر	كلّ من في الطبيعة له قيمة جوهرية (المساواتية في المجال الحيوي)
النمو المادي / الاقتصادي لأجل عدد السكان المتزايد	الاحتياجات مادية بسيطة وتتسم باللطف (الأهداف المادية تخدم الهدف الأكبر المتمثل في تحقيق الذات)
الاعتقاد بوجود احتياطات موارد وافرة	إمدادات كوكب الأرض محدودة
التقدم التكنولوجي العالي والحلول التي يوفرها	التكنولوجيا الملائمة؛ العلم غير المهيمن
النزعة الاستهلاكية	القيام بما يكفي / إعادة التدوير
المجتمع الوطني / المركزي	التقليد غير المهيمن / الإقليم الحيوي

3. المبادئ الأساسية للإيكولوجيا العميقة:

في أبريل 1984، أثناء حلول فصل الربيع وعيد ميلاد جون موير، لخص جورج سيسنيز وأرني نيس خمسة عشر عاماً من التفكير في مبادئ الإيكولوجيا العميقة وهم مخيمون في وادي الموت (Death Valley) في ولاية كاليفورنيا. في هذا المكان الرائع والخاص، صاغوا هذه المبادئ بطريقة بعيدة عن المجاز، ومحايدة إلى حدّ ما، على أمل أن يفهمها ويقبلها الأشخاص من مختلف المواقف الفلسفية والدينية.

ويُدعى القراء إلى تطوير نسخهم الخاصة من الإيكولوجيا العميقة، وتوضيح المفاهيم الأساسية والتفكير في نتائج السلوك وفقاً لهذه المبادئ.

برنامج حركة الإيكولوجيا العميقة (Deep Ecology Movement Platform (DEMP)

1. إن ازدهار ما هو حيٌّ على الأرض له قيمة جوهرية، وإن قيمة الأشكال غير البشرية للحياة مستقلة عن النفع الذي تقدمه للأغراض البشرية الضيقة.
2. يُنظر إلى غنى أشكال الحياة وتنوعها باعتبارهما قيمتين بذاتهما تسهمان في ازدهار ما هو حي على الأرض، سواء كان بشرياً أم غير بشري.
3. ليس للبشر الحق في إنقاص هذا الغنى والتنوع إلا عند تلبية حاجاتهم الحيوية فحسب.
4. إن التأثير الراهن للبشر على العالم غير البشري هائل، ويتفاقم الوضع سوءاً بشكل متسارع.
5. يتوافق ترعرع الحياة البشرية وثقافتها مع خفض موازٍ لعدد سكان الأرض، ويسهم هذا في ازدهار الحياة غير البشرية أيضاً.
6. يتطلب التغيير نحو الأفضل في شروط الحياة تغييراً في السياسات والتدابير المعتمدة. وهذا ينبغي أن يؤثر على البنى الأساسية الاقتصادية والتكنولوجية والإيديولوجية.
7. إن التغيير الإيديولوجي الرئيس المطلوب هو ذلك الذي يقدر ويثمن نوعية الحياة (العيش في حال القيم الجوهرية)، وليس ذلك الذي يلح على سوية عالية من الرفاهية. ينبغي أن يكون ثمة وعي عميق بالفرق بين مفهومي الكبير big والرفيع great.
8. إن على من يقرُّ بالنقاط السابقة ويؤيدها إلزام مباشر أو غير مباشر في المشاركة والسعي لإنجاز التغييرات الضرورية. □

المصدر:

مقتطف بتصريف من الفصل الخامس من كتاب

Deep Ecology: Living as if Nature Mattered. by Bill Devall. George Sessions. Gibbs Smith Publisher. 1985.



تاريخ الأخلاقيات البيئية

تأليف: جيسن كاوال

- ترجمة: د. وفاء دقماق

جيسن كاوال (Jason Kawall) : أستاذ الفلسفة والدراسات البيئية بجامعة كولجيت. يعمل حالياً رئيساً لقسم الفلسفة. يركز بحثه على قضايا فني الأخلاق، ونظرية المعرفة. من أعماله (The Handbook of Virtue Ethics).

يعرض هذا الفصل لمحة تاريخية عن الأخلاقيات البيئية (Environmental Ethics) بوصفها فرعاً مستقلاً من فروع الفلسفة، ويسعى إلى توصيف أهم الحركات وأكثرها تأثيراً في هذا السياق¹. وعلى الرغم من وجود مجموعة متنوعة من العوامل التي ساهمت في نشوء الأخلاقيات البيئية فإن ثلاثة من الأبحاث القيمة التي نشرت خلال ستينيات القرن الماضي يمكن عدّها بشكل مُسوِّغ على أنها أهم المحفّزات. أولها رواية راشيل كارسون (Rachel Carson) المأثورة بعنوان الربيع الصامت (Silent Spring) عام 1962 التي سلّطت الضوء على آثار المبيدات الكيماوية مثل DDT على غذائنا وعلى المناخ والطيور بشكل خاص. لقي هذا الكتاب رواجاً كبيراً بين القراء ويحتسب له أنه لعب دوراً في جذب الانتباه العام والأكاديمي إلى القضايا البيئية. وكذلك حظيت مقالة لين وايت جونيور (Lynn White, Jr.) بعنوان «الجدور التاريخية لأزمتنا البيئية» عام 1967 باهتمام واسع لا سيما في الأوساط الأكاديمية. يجادل وايت بأن المعايير الشائعة والمقبولة لعلم

• مترجمة سورية.

اللاهوت المسيحي كان لها دور أساسي في تسويغ السلوك الاستغلالي إلى حد عميق تجاه العالم الطبيعي، حيث خلقت ادعاءات اليهودية المسيحية أن الرب قد منح البشر السلطة على الطبيعة وبأن الإنسان مخلوق على هيئة الرب ازدواجية إشكالية بين البشرية وسائر العالم الطبيعي وسوغتها. وبالنظر إلى هذا المنظور العالمي فقد سعى التطور التقني المستمر إلى إخضاع الطبيعة والسيطرة عليها، وقد أدى هذا التلاعب بدوره إلى أزمة بيئية. استشارت مقالة وايت عشرات الردود وخاصة من علماء الدين الذين يرون أن الفهم الصحيح للدين المسيحي يشجع على الإشراف المراعي للعالم الطبيعي حيث إن الرب برأيهم ينظر إلى العالم على أنه خير وأن سلطة البشر تمنحهم دور المشرف وليس القاهر. وقد أشار وايت نفسه إلى أن القديس فرانسيس الأسيزي (St. Francis of Assisi) وتعاليم الأرثوذكسية الشرقية تقدم نماذج مسيحية أكثر تواضعاً وبعداً عن التسلّط، (للاطلاع على الاستجابات الأولية أنظر Cobb, 1972 و Barbour, 1973). ولفتت مقالة وايت النظر إلى تساؤلات حول القيم والرؤى العالمية التي يمكن أن تؤدي إلى التدهور البيئي وطريقة تغييرها والتغلب عليها.

وأخيراً أثارت مقالة غاريت هاردين (Garrett Hardin) بعنوان «مأساة المشاعسات» عام 1968 أسئلة مهمة حول النمو السكاني واستخدام الموارد والعمل الجماعي. يقوم جدل هاردين على أن الأفراد سيستخدمون مزيداً من الموارد وينجبون مزيداً من الأطفال وهكذا دواليك طالما أن المنافع التي يجنونها من هذه السلع تفوق التكاليف التي يتحملونها، وذلك بغض النظر عن الآثار الأوسع التي يخلفونها على المجتمع أو الأجيال القادمة. لذلك فإن البشرية عرضة لخطر نقص الموارد والانهايار البيئي عندما يصل نموها إلى حد يفوق القدرة الاستيعابية لكوكب الأرض (انظر أيضاً Ehrlich, 1968). يمكننا أن نأمل بنوع من الانضباط في حالات كهذه، ولكن ما لم يكن الفرد مقتنعاً بأن الآخرين سيضبطون أنفسهم فإن تضحياته لن تحقق أي أثر فاعل رغم تكاليفها الباهظة عليه، وبذلك تبدو هذه التضحيات غير منطقية. وهنا تواجهنا مشكلة العمل الجماعي حيث تقود مجموعة من الأعمال الفردية المنطقية في النهاية إلى نتائج أسوأ بالنسبة لجميع المعنيين مما لو تمكنوا من التعاون في الانضباط جميعاً. وقادت مقالة هاردين إلى التدبّر العميق في مشكلات العمل الجماعي في الوقت الذي سلّطت فيه الضوء على آثار الاستهلاك البشري وتعداد السكان.

1. نشوء الأخلاقيات البيئية خلال السبعينيات:

بدأت الردود الفلسفية على التساؤلات المطروحة من كارسون ووايت وهاردين بالظهور بحلول مطلع سبعينيات القرن العشرين، وظهرت خلال هذا العقد أعمال مهمة أسست لعدد من الاتجاهات المتميزة في الأخلاقيات البيئية. تتضمن الجذور الأولى مؤتمراً نظّمه ويليام ت بلاكستون (William T. Blackstone) في جامعة جورجيا عام 1971، نشرت الأبحاث لاحقاً عام 1974 في كتاب الفلسفة والأزمة البيئية (*Philosophy and Environmental Crisis*). وبعده هذا المؤتمر الذي ضم علماء الدين إلى جانب الفلاسفة على أنه المؤتمر الأول حول الأخلاقيات البيئية بمشاركة مهمة من الفلاسفة. ركزت الأعمال الأولى في هذا المجال في الغالب على التساؤل فيما إذا كانت الأزمة البيئية التي تواجهها

البشرية بحاجة إلى مقارنة أخلاقية جديدة. وقدم ريتشارد راوتلي (Richard Routley) (المشار إليه لاحقاً باسم سيلفان (Sylvan)) بحثاً بعنوان «هل تستدعي الحاجة أخلاقيات بيئية جديدة؟» في المؤتمر العالمي الخامس عشر للفلسفة عام 1973. وعرض فيه راوتلي جدله الشهير حول «الإنسان الأخير» القائم على السؤال الآتي: بعد وقوع كارثة ما، هل من ضرير في أن يقوم آخر إنسان ناج في آخر أيامه بتدمير أشكال الحياة المتبقية كافة؟ فالواقع أنه بمجرد وفاته لن تبقى أيُّ مصالح أو احتياجات بشرية على المحك. وكان اعتقاد راوتلي هو أن فعلاً كهذا سيبدو خاطئاً بالنسبة إلينا إلا أنه يجادل بأن النظريات الأخلاقية التقليدية التي تتعامل عادة مع الطبيعة من منظور المصلحة البشرية لا يمكنها استيعاب هذا الحدس البديهي، وبالتالي تبرز الحاجة إلى تطوير أخلاقيات بيئية جديدة.

كما كتب الباحث القانوني كريستوفر ستون (Christopher Stone) مقالاً بعنوان «هل تملك الأشجار حقوقاً؟» عام 1972 رداً على مخططات شركة والت ديزني للاستثمار في بناء منتجع تزلج في وادي مينيرال كينغ (Mineral King) في غابة سيكوي الوطنية بكاليفورنيا. يطالب ستون في هذه المقالة التي قام لاحقاً بتوسيعها ونشرها على شكل كتاب عام 1974 بالحقوق القانونية للأشجار والغابات والمحيطات وغيرها من «الكائنات الطبيعية» الموجودة في البيئة. واقترح أن يتم تمثيل مصالح هذه الكيانات أمام المحاكم من أوصياء أو أمناء وهو إجراء متبع بالفعل بالنسبة للأطفال وغيرهم وهو شبيه بالحماية الممنوحة للشركات والبلديات وغيرها من الجمادات التي تملك حقوقاً.

وكذلك نشر هولمز رولستون الثالث (Holmes Rolston III) مقالته بعنوان: «هل توجد أخلاقيات بيئية؟» في مجلة الأخلاقيات (Ethics) عام 1975 ويقدم فيها مقترحات من ضمنها منح الأنواع الحية قيمة جوهرية [ذاتية] وتعمق لاحقاً في تطوير هذا المقترح. وربما تأتي أهمية مقالة رولستون الكبرى من كونها نشرت في إحدى أكثر المجلات انتشاراً وقراءة في مجال التحليل الفلسفي. لقد شكّلت نوعاً من الانقلاب وساعدت في تعريف المجتمع الفلسفي الأوسع على هذا الفرع الناشئ وتساؤلاته.

وقد سلطت القضايا المطروحة في هذه المقالات المبكرة الضوء على التمييز بين المقاربات التي تتمحور حول الإنسان وتلك النقيضة لها. فالنظريات المتسمة بمركزية الإنسان (anthropocentric) تتعامل مع القضايا البيئية من منظور التفضيلات والمصالح البشرية حصراً، حيث تشير هذه النظريات إلى قضايا من مثل حاجة الأجيال المستقبلية للمياه النظيفة والقيمة الترفيهية والجمالية للمناطق البرية والنطاق الواسع من الخدمات التي تقدمها الأنظمة البيئية المختلفة. ولكن في كل حالة من الحالات يتم فهم القيمة من منظور المصالح البشرية سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

من أوائل أنصار مركزية الإنسان نذكر جون باسمور (John Passmore) ويوجين هارغروف (Eugene Hargrove). يدافع كتاب باسمور بعنوان مسؤولية البشر تجاه الطبيعة (*Man's Responsibility for Nature*) عام 1974 بشراسة عن الالتزامات الأخلاقية تجاه البيئة ولكن من منظور المصالح البشرية. وقد شكك باسمور في منح الحقوق للحيوانات (بوصفها غير قادرة على التواصل والاعتراف بالالتزامات المتبادلة) وكان أكثر تشكيكاً في منح الحقوق لكيانات مثل الأنهار والجبال (لتشكيكه أساساً في كونها تمتلك أيُّ مصالح). بينما طوّر هارغروف وهو رئيس التحرير المؤسس لمجلة الأخلاقيات البيئية (Environmental Ethics) عام 1979 آراءه في سلسلة من المقالات نشرها على مدار عقدي السبعينيات والثمانينيات والتي

توجّهها بكتابه أسس الأخلاقيات البيئية (*Foundations of Environmental Ethics*) عام 1989. وقد ركز هارغروف عموماً على القيمة الجمالية للعالم الطبيعي كونها جوهر التزاماتنا، حيث ينظر إلى القيمة الجمالية من ناحية التفضيلات والأحاسيس البشرية، ولكن في الوقت ذاته يمكننا تقدير الكيانات ذات القيمة الجمالية لذاتها بوصفها أهدافاً بحدّ ذاتها. كما ناقش هارغروف بأن التدخل المفرط في عمليات العالم الطبيعي يمكن أن تقلل من أصالة البيئات المختلفة وجمالها.

في المقابل، ترى النظريات المتّسمة باللامركزية البشرية (non-anthropocentric) بوجود قيم وأسباب للعمل لا تقتصر على المصالح البشرية، حيث يُنظر إلى الكيانات غير البشرية على أنها تمتلك نوعاً من القيمة أو المكانة الأخلاقية بشكل مستقل عن احتياجات البشر.² وهناك تمايز ضمن النطاق العريض لآراء غير المركزية البشرية. حيث يقع التمييز الرئيس بين الآراء التي ترى أن الكائنات الحية الفردية وحدها يمكن أن تمتلك نوعاً من المكانة الأخلاقية، وتلك التي تمنح نوعاً من القيمة أو المكانة الأخلاقية للكيانات الجمعية أو الكلية. وكذلك تختلف النظريات الفردية في النطاق المحدد للأفراد الذين يعدّون أنهم يمتلكون مكانة أخلاقية وفيما إذا كان الأفراد جميعهم يمتلكون هذه المكانة بالتساوي. هذا بينما تختلف النظريات الشمولية في الكليات التي يعدّونها ذات قيمة (الأنواع الحية والأقاليم الحيوية والأنظمة البيئية) ونوع القيمة أو القيم الممنوحة لهذه الكليات وفيما إذا كانت هذه الكليات تمتلك قيمة متساوية.

2. الأخلاقيات البيئية الفردية:

كانت الأخلاقيات الفردية الموسّعة من ضمن الأكثر شيوعاً عندما بدأ اختصاص الأخلاقيات البيئية بالظهور مطلع السبعينيات، وما تزال مؤثرة حتى يومنا هذا. توسّعت النظريات الفردية الاعتبار الأخلاقي الممنوح عادة للبشر بحيث يشمل الكائنات الأخرى. وغالباً ما يكون ذلك من خلال توسيع المكانة الأخلاقية لتشمل المخلوقات الواعية الأخرى.

ويعدّ كتاب بيتر سينغر (Peter Singer) بعنوان *تحرير الحيوان (Animal Liberation)* عام 1975 عملاً أصيلاً في الأخلاقيات البيئية والرفق بالحيوان. وقد أشاد سينغر بأهمية عمليتين سابقتين في تطوير آرائه وهما مقالة روزاليند غودلوفيتش (Rosalind Godlovitch) عام 1971 بعنوان «الحيوان والأخلاق» وكتاب روث هاريسون الآلات الحيوانية (*Animal Machines*) عام 1964 وهو كتاب مهم وسبق في فضح أساليب الزراعة المكثفة. تبنى سينغر منهج النتائج في مقارنته لرعاية الحيوان حيث يرى أننا يجب أن نمنح اعتباراً متساوياً لمصالح الكائنات جميعها الحاسة بغض النظر عن نوعها الحي، وأن التعامل مع معاناة كائن حي ما على أنها أقل شأنًا أو عديمة الشأن بناءً على نوعه يرقى لاعتباره تحيزاً ضد النوع شبيهاً بالتحيز العرقي أو الجنسي. وبالطبع فإن المصالح تختلف باختلاف الأفراد، حيث لا يتوجب علينا التعامل مع الإنسان البالغ العادي بالطريقة ذاتها التي نتعامل بها مع كلب صغير. ولكن ما لا يمكن تقبله هو إهمال مصالح الكلب على أساس انتمائه النوعي. وقام سينغر بمرور الوقت بتعديل منهجه حيث ميّز لاحقاً بين الأفراد القابلين وغير القابلين للاستبدال. فالأفراد الذين يتمتعون بالوعي الذاتي يمتلكون رغبات ومخططات مستقبلية تتمتع لها الكائنات الأخرى. ويجادل سينغر أنه في حين من المقبول قتل كائن غير واع كدجاجة مثلاً دون الشعور بالأسف (بعد أن

عاشت حياة صحية ومزدهرة) واستبدالها بدجاجة أخرى عاشت في ظروف مشابهة، غير أنه من غير المقبول استبدال البشر الذين يتمتعون بالوعي الذاتي (أو غيرهم) بالطريقة ذاتها لأن مصالحهم ذاتية الوعي والمستقبلية ستعرض للإحباط (انظر Singer, 1979).

ربما يكون توم ريفان (Tom Regan) أشهر مناصري موقف الواجب الأخلاقي تجاه حقوق الحيوان وهو منظور تطور بدقة بالغة في كتابه قضية حقوق الحيوان (*The Case for Animal Rights*) عام 1983. يجادل ريفان بأن المواقف النفعية كالتى يتبناها سينغر تتعامل فعلياً حتى مع الكائنات العاقلة ذات الوعي الذاتي على أنها أوعية للمتعة، بما يتيح التضحية بالأفراد بسهولة من أجل الحفاظ على الصالح العام، في حين يرى ريفان أن الأحياء جميعها: (الكائنات الحاسة التي تملك مشاعر ومعتقدات ورغبات) تتمتع بقيمة متأصلة بغض النظر عن الذكاء والنوع وغيره. وتمنح هذه القيمة المتأصلة مجموعة من الحقوق الأخلاقية المتساوية. وفي مقابل أولئك الذين يدعون بأن الأحياء من غير البشر لا يملكون قيمة متأصلة أو يملكون قيمة أقل من البشر فإن ريفان يجادل بأن أي معايير مقبولة يمكنها أن تسوّج هذه المزايم (مثل الافتقار إلى المنطق أو الاستقلال الأخلاقي) تستثني أيضاً العديد من البشر بما فيهم الأطفال الرضع وأولئك الذين يعانون من إعاقات ذهنية كبيرة. لكن هؤلاء البشر يتمتعون بقيمة متأصلة مساوية لبقية البشر، وبذلك يعد هذا المعيار ناقصاً، وبالتالي فليس لدينا أساس صلب ينكر القيمة المتأصلة المتساوية على الأحياء جميعها.

ويرى فلاسفة آخرون أن تقييد المكانة الأخلاقية بالكائنات الواعية ليس كافياً، حيث يبدو مثلاً بأننا يمكن أن نؤذي النباتات وغيرها من الكائنات غير الواعية حتى لو لم نتسبب لها بالألم. ولكن بإمكاننا أيضاً أن نساهم في رفاه النبات وصحته من خلال ضمان حصوله على الضوء الكافي لينمو ويزدهر أو بتزويده بالماء الكافي وهكذا.

بيرز پول تييلور (Paul Taylor) بين أتباع النظرية الفردية التي تقول بمرورية الأفراد الأحياء (biocentric individualists) والذين يجادلون بضرورة توسيع المكانة الأخلاقية لتشمل جميع الكائنات الحية (Taylor, 1986، انظر أيضاً Johnson, 1991 و Varner, 1998 و Agar, 2001). ويدافع تييلور عن موقف المساواة الحصري حيث تتمتع الكائنات الحية الفردية جميعها بقيمة متأصلة متساوية. وفي حين يميل البشر إلى عدّ الكائنات العاقلة والذكية أرفع شأنًا من غيرها من الكائنات فإن تييلور يجادل أن هذه المعايير منحازة؛ فعلى الرغم من أهمية الذكاء بالنسبة إلى البشر، ما الذي يسوّج استخدامه كمعيار لتقييم الكائنات التي لا تحتاجها؟ فالنباتات تفتقر إلى ذكائنا إلا أن بإمكانها القيام بالتركيب الضوئي، إذًا لماذا لا نقيم الكائنات بناءً على هذه القدرة بدلاً من الذكاء؟ بشكل أوسع ينتهج تييلور منهج الواجب الأخلاقي ويدافع عن مجموعة من المبادئ الأخلاقية تقودنا إلى التفاعل مع الكائنات الأخرى خاصة في الحالات التي ينشأ فيها تعارض للمصالح.

مع ذلك، لا يتبنى الفلاسفة جميعهم الذين يمنحون مكانة أخلاقية للكائنات الحية جميعها مبدأ تييلور في المساواة المتشددة المستندة إلى مركزية الأفراد الأحياء (Schmidtz, 1998)، بل إن كثيراً منهم يتعاملون مع المكانة الأخلاقية كمسألة نسبية، حيث تتمتع الكائنات التي تمتلك صفات مختلفة ذات صلة أخلاقية (مثل القدرة على المعاناة والإدراك الذاتي والعقلانية) بمكانة أكبر من تلك ذات القدرات الأقل أو الأضعف تطوراً (Attfeld, 1987).

وقد دار خلال الثمانينيات جدل مهم حول النظريات الفردية خاصة المقيدة بالكائنات العاقلة وفيما إذا كانت تصلح كأخلاقيات بيئية (Callicott, 1980 و Sagoff, 1984)، حيث يقلق كثيرون من كون المواقف الفردية ساذجة بيئياً وغير قادرة على السماح بإمكانية استبعاد الأنواع الحية الحاسة ذات التعداد المضطرب أو القضاء على الكائنات الحاسة العدوانية، وسيؤدي ذلك إلى نتائج عيثة، على سبيل المثال كأن يتوجب علينا منع الافتراض لأنه يؤدي إلى موت كائن حاسّ ذي قيمة سواء قتله أسد أو إنسان. وبالطبع يعدُّ كثيرون النقطة الأخيرة برهاناً قاطعاً ينقض الفرض في النظرية الفردية.

ويشير أتباع المذهب الفردي بدورهم إلى مشكلات مهمة في النظريات الشمولية في حين يجادلون بأن الفردية يمكنها أن تعالج الجوانب المقلقة في آرائهم. على سبيل المثال هم يؤكدون على الحاجة إلى السماح للأنظمة البيئية الفاعلة بازدهار المخلوقات الحاسة (بما يسوّغ القضاء على الأنواع العدوانية في نطاق واسع من الحالات) والتمييز بين القضاء على الحياة الحاسة على يد البشر الذين يعدّون فاعلين أخلاقياً من جهة، وبين الافتراض من قبل غير البشر الذين يفترضون للفهم الأخلاقي والفاعلية من جهة أخرى، حيث يمكن للمرء أن ينكر الوجه الأول بينما يتقبل الثاني منهما.³

3. الأخلاقيات البيئية الشمولية

3-1 ليوبولد (Leopold) وكاليكوت (Callicott)

أعيد في السبعينيات اكتشاف كتاب ألدو ليوبولد (Aldo Leopold) بعنوان تقويم مقاطعة الرمل (A Sand County Almanac) لعام 1949 بعد حوالي عشرين عاماً من تاريخ نشره وبعد فترة طويلة من الإهمال النسبي له. وفي حين أنه اجتذب اهتمام علماء البيئة والأحياء بشكل رئيس إلا أن الاهتمام به سرعان ما انتشر بين غيرهم من الأكاديميين وإلى العامة بشكل أوسع. ويجادل ليوبولد أنه بإمكاننا، كما يتوجب علينا، أن نوسع حسّ المجتمع الأخلاقي لدينا ليشمل الأرض (بما فيها من تربة ومياه وحيوانات وغيرها). وحالما تصبح جزءاً من مجتمعنا تمتد القيمة الأخلاقية إلى الأرض، حيث يجب عدم تقييمها من منطلق القيم النفعية والاقتصادية فحسب. وقد أصبحت خلاصة أخلاقيات الأرض التي وضعها ليوبولد معروفة الآن: «يعدُّ الأمر صواباً إذا كان يعزّز كمال مجتمع الأرض واستقراره وجماله، ويكون خاطئاً خلاف ذلك» (Leopold, 1949).

وسرعان ما أدرك الفلاسفة أهمية أعمال ليوبولد وإمكاناته. ولربما يكون ج بيرد كاليكوت (J. Baird Callicott) أهم داعمي آراء ليوبولد من الفلاسفة، وهو الذي قام بتطوير وتهذيب أخلاقيات قائمة على أعمال ليوبولد منذ أواخر السبعينيات. أكد كاليكوت في بواكير أعماله عام 1979 و1980 على الشمولية في أخلاقيات الأرض لليوبولد: حيث إن الأهمية الجوهرية أخلاقياً تتمثل في كمال واستقرار مجتمع الأرض. بينما تكون الأحياء الفردية ذات أهمية ضئيلة نسبياً، فإن كان استبعاد جمهرة ما أو القضاء على نوع عدائي يعزّز صحة مجتمع الأرض وسلامته فإن هذه الأفعال تعدُّ مسوّغة.

ويجادل النقاد أن أخلاقيات الأرض، إن فهمت على هذا النحو، فإنها تمنح أهمية ضئيلة جداً للمخلوقات الفردية، ويمكن القول بأنها تسوّغ استبعاد البشر بشكل واسع للحفاظ على سلامة مجتمع الأرض واستقراره (تهمة «الفاشية البيئية»، انظر مثلاً Regan, 1983). رداً على ذلك أكد كاليكوت أننا

ننتهي إلى نطاق من المجتمعات يتحمل كل منها مجموعة من الواجبات. فضي حين أن أخلاقيات الأرض (مأخوذة بشكل منعزل) قد تدعو إلى استبعاد البشر فإننا أيضاً جزء من مجتمعات إضافية أصغر تحرم هذه الأفعال، وقد أمل كاليكوت بطرحه هذه الرؤية المعدلة في دحض مزاعم الفاشية البيئية (انظر Callicott, 2001 للاطلاع على أحدث تصريحاته في تفسيره لأخلاقيات الأرض).

وكذلك بنى فلاسفة عدة آخرون على أعمال ليوبولد (نذكر مثلاً Rolston, 1975 و Norton, 1988) إلا أنهم لا يتفقون جميعاً مع تفسيرات كاليكوت المؤثرة. فنورتون (1988) على سبيل المثال يجادل بأن أخلاقيات الأرض يمكن قراءتها على أنها صيحة أقل جذرية، أي أن ليوبولد ليس متشبهاً بعدم المركزية البشرية ولديه استعداد لتقبل المركزية البشرية بعيدة النظر (بمعنى أننا نتمتع بالحكمة لإدارة الأرض وفقاً لأخلاقيات الأرض، إلا أن ذلك يمكن بالنهاية أن يُسوَّغ من منظور المصالح البشرية).

2-3 هولمز رولستون (Holmes Rolston)

طور هولمز رولستون أخلاقيات بيئية غنية وعميقة في سلسلة من المقالات والكتب بدءاً بمشاركته في مجلة الأخلاقيات (Ethics) عام 1975. يجادل رولستون بشكل جوهري بوجود قيم متأصلة موضوعية في الطبيعة سابقة ومستقلة عن أي وسيط أخلاقي بشري (أو سواه)، بخلاف الكثير من التنظير اللاواقعي في هذا المجال. وقد اجتذبت هذه الواقعية المثينة كثيرين نحو آراء رولستون، على الرغم من إثارها أيضاً لبعض الانتقادات. منح رولستون قيمة متأصلة للكائنات الحية الفردية وكذلك للأنواع الحية، حيث يجادل أنه يمكن النظر إلى الأنواع على أنها «كائنات حية فائقة» (superorganisms) تظهر العديد من السمات الجوهرية ذاتها التي للكائنات الحية الفردية (فهي تتكيف وتتكاثر وما إلى ذلك). وبعد منح القيمة المتأصلة للأنواع منح رولستون ما أطلق عليه اسم القيمة «المنظومية systemic» للأنظمة البيئية، وهي القيمة التي تملكها هذه الأنظمة لكونها منتجة وحافظة للحياة: حيث لا توجد كائنات حية فردية ولا أنواع حية دون وجود البيئات التي تتفاعل معها وتتغذى منها وتجد فيها الملجأ وما إليه. ولذلك تمتلك الأنظمة البيئية قيمة متميزة كونها الأنظمة المعقدة التي تشكل مصدر الحياة كلها وصانها (انظر Rolston, 1986, 1994 و Johnson, 1991 لمقاربة شمولية بارزة أخرى).

3-3 الإيكولوجيا العميقة Deep Ecology

ظهرت حركة الإيكولوجيا العميقة في النرويج خلال عقدي الستينيات والسبعينيات. وتمت صياغة مصطلح «الإيكولوجيا العميقة» في مقال أرني نيس (Arne Naess) عام 1973 بعنوان «ملخص حركة الإيكولوجيا السطحية والعميقة بعيدة المدى». قارن نيس بين «الإيكولوجيا السطحية» التي وصفها بأنها حركة معنية بالتلوث وإدارة الموارد من أجل المصالح الاقتصادية البشرية قصيرة الأمد، والإيكولوجيا العميقة التي تركز على الترابط بين الكائنات الحية (وغير الحية) وتدعو إلى المساواة بين الكائنات الحية جميعها.

يمكن القول إن المساواة القائمة على النظم الحيوية التي تبناها نيس أتت نتيجة لفهمه للذات. فقد اقترح نيس أن ذاتنا غير مقيدة بأجسادنا وإنما هي تتوسع بالتماهي مع أفراد آخرين وتبيننا لمصالحهم والتعامل معها على أنها مصالحنا. بالتالي يمكننا التماهي مع الكائنات الحية كافة وكذلك مع الجبال والأنهار والأنواع

الحية بكيّتها وهكذا. وكأجزاء من الذات الكليّة الأوسع يتشارك الأفراد الأحياء جميعهم في القيمة المتأصلة الممنوحة للذوات البشرية الفردية، ونصل بذلك إلى المساواتية المتمركزة حيويًا [المساواتية الحيوية]. ويجادل نيس أنّه بتوسيع مفهوم الذات لن نشعر بالبعد عن الكائنات الأخرى وبالتالي لن نشعر بأننا مثقلون أو مقيدون أخلاقياً بأخذ مصالحها في الحسبان. بدلاً من ذلك فإننا من خلال التماهي عندما نتصرف وفقاً لمصالحها فنحن نتصرف طوعاً وفقاً لمصالحنا الذاتية (الموسعة) (Naess, 1989).

كما تطور إلى جانب النواحي الميتافيزيقية للإيكولوجيا العميقة منصة/برنامج للمبادئ العملية، وفي حين إمكانية تسوية هذه المبادئ من خلال الميتافيزيقا التي قدمها نيس فإن أنصار الإيكولوجيا العميقة يقرون بإمكانية وجود ميتافيزيقيا بديلة يمكنها أن تدعم هذه المنصة بشكل مساوٍ. طرح نيس مجموعة أولية من المبادئ في مقاله عام 1973 إلا أنها خضعت للتعديل والمراجعة من نيس وجورج سيشنز (George Sessions) عام 1984 (Devall and Sessions, 1985). وتعدّ المجموعة الناتجة التي تضم ثمانية مبادئ على أنها المنصّة الجوهرية التي تربط أنصار الإيكولوجيا العميقة جميعهم اليوم. عموماً تضي هذه المبادئ قيمة متأصلة على الأحياء جميعهم، وتتبع عن نقطة الانطلاق هذه مبادئ تدعو إلى تخفيض تعداد السكان وترشيد استخدام الموارد للسماح لبقية الكائنات بالازدهار، ويدعو هذا إلى تغييرات أساسية في طريقة فهم البشر لرفاه والسياسة وأهداف الاقتصاد وما إلى ذلك. ويأتي التغير الأهم في الاعتراف بأن ازدهار البشر لا يتطلب استهلاكاً مادياً ضخماً وإنما يحتاج أموراً كالصداقة وتطوير المواهب والروابط مع البيئة المحلية.⁴

4. إعادة النظر في البراغماتية البيئية والمركزية البشرية:

يمكن القول إن الذرائعية البيئية ظهرت في ثمانينيات القرن العشرين حيث تعدّ مقالة أنتوني ويستون (Anthony Weston) بعنوان «ما وراء القيمة المتأصلة: البراغماتية في الأخلاقيات البيئية» عام 1985 من بواكير المقالات المؤثرة. ويجادل ويستون أن الكثير من العمل على الأخلاقيات البيئية مضلّ في سعيه لإظهار أن الكائنات الحاسة أو الأنظمة البيئية تملك قيمة جوهرية/متأصلة، وقد لفت النظر إلى مجموعة من المشكلات الميتافيزيقية والمعرفية في سعيه لفهم فكرة القيمة المتأصلة بحد ذاتها وفي الجدل بأن أي كيان كان يمتلك هذا النوع من القيمة. واقترح ويستون بالمقابل الحاجة لفهم القيم البيئية بطريقة شمولية. مقارنة: يمكننا تقدير التنزّه سيراً على الأقدام جزئياً لكونه يساهم في صحتنا الجسدية ويتيح لنا التمتع بالجمال وهكذا. ولكن يمكننا بشكل مساوٍ أن نقدر صحتنا جزئياً لأنها سمحت لنا بالمشي، وبذلك تترايط القيم وتقدم الدعم المتبادل لبعضها بعضاً. وبالمثل ليس بالضرورة أن نضمن القيم البيئية على أنها جوهرية ومتأصلة وإنما يمكننا الحديث عن نطاق واسع من القيم وتسوية كل منها من خلال علاقتها بالقيم الأخرى. وبشكل أوسع يميل أتباع البراغماتية البيئية إلى تبني مجموعة من القيم والمبادئ المتعددة وغالباً الاستعداد للاستفادة من مختلف النظريات الأخلاقية في مختلف القضايا والسياقات. فإن كان هنالك مجموعة من الأسباب الوجيهة سواء كانت نسوية بيئية أو جمالية أو إيكولوجية عميقة لإقرار مشروع سياسي محدد، فإن البراغماتيين سيكونون عادة على استعداد لتبنيها جميعها، فكل من هذه المواقف يمكن أن يسترعي شيئاً قيماً بينما يروق لمختلف الفاعلين وأصحاب المصلحة. وفي سياق متصل يقلق البراغماتيون البيئيون من أن

الأخلاقيات البيئية التقليدية غالباً ما تتعامل مع نمط ما من الشمولية غير المركزية البشرية كشرط لازم لأيّ أخلاقيات بيئية حقيقية. في المقابل يلتزم البراغماتيون بجعل الأخلاقيات البيئية أكثر فاعلية في تشكيل السياسات والمواقف العامة، حيث يميلون للانفتاح على مجموعة من الجوانب النظرية بما فيها نظريات مركزية الإنسان في تطوير المشروعات السياسية (انظر Katz, 1987 و Light and Katz, 1996 و Light, 2002).

ويتضح هذا الانفتاح على وجهات النظر القائمة على مركزية الإنسان في أعمال بريان نورتون (Bryan Norton) القيمة. ففي مقالته بعنوان «الأخلاقيات البيئية ومركزية الإنسان المخففة» عام 1984 يقترح أن مركزية الإنسان المخففة (حيث تحدد القيمة من خلال تفضيلات البشر المدروسة والواعية) يمكن أن تتوصل إلى مخرجات سياسية مشابهة للأخلاقيات الشمولية غير المركزية البشرية مع تجنب بعض من الفرضيات الميتافيزيقية والأخلاقية الصعبة لهذه النظريات، وهذا ما بات يعرف بـ «فرضية التقارب». وشكل هذا منهجاً براغماتياً أتاح إمكان تعددية النظريات والأسباب ذات الصلة، في حين ركّز على الأسباب التي اعتقد نورتون أنها ستكون أكثر دفئاً وتأثيراً في تحفيز السياسات فعلياً. وقد طور مذهبه في مركزية الإنسان المخففة القائمة على البراغماتية في مجموعة من المقالات والكتب القيمة (انظر مثلاً Norton, 1991, 2003).

ومازال المنهج البراغماتي البيئي يتمتع بالحيوية مع استمرار أعمال كل من ويستون ونورتون ولايت وغيرهم (مثلاً Minter, 2011). وبشكل أعم فقد ظهر اهتمام مستمر ومتنام بقضايا العالم الواقعي بين علماء الأخلاق البيئية يتجاوز تطوير النظريات وفلسفة القيم العامة.

على سبيل المثال دار جدل مهم حول أخلاقيات (وجماليات) الإصلاح/الترميم البيئي ecological restoration، أي الجهود المبذولة لاستعادة الأنظمة البيئية المتدهورة أو المتضررة من خلال التدخل البشري المباشر. حيث يجادل روبرت إليوت (Robert Elliot) في مقاله «تزييف الطبيعة» عام 1982 أن البيئات المرممة تمتلك عادة قيمة أدنى من الأصلية نتيجة فقدان الأصول السببية وتاريخ البيئات الأصلية، حيث تشبه البيئة المرممة لوحة فنية مزوّرة،⁵ وقد درس الفلاسفة مؤخراً جوانب أخرى من الإصلاح البيئي بما فيها تداعيات التغيير المناخي على الإصلاح: هل علينا مثلاً أن نعدل جهود الإصلاح لإتاحة المجال للظروف المناخية الجديدة؟ (انظر Sandler 2012).

لقد حظي تغيير المناخ العالمي بالاهتمام الكبير وخصوصاً من ناحية العمل الجماعي على المشكلة. على سبيل المثال لفت ستيفن غاردينر (Stephen Gardiner) النظر إلى التعقيدات المهمة الناشئة عن الجانب المشترك بين الأجيال لتغيير المناخ (انظر Gardiner, 2001, 2011). ويناقش بايلر جونسون (Baylor Johnson) عام 2003 أن مسؤوليتنا كأفراد هي الدفع باتجاه الاتفاقيات المشتركة لمعالجة تغيير المناخ عوضاً عن الانخراط في أعمال انضباط فردية غير قادرة على معالجة المشكلة بشكل كاف. وكذلك يجادل ماريون هورديكين (Marion Hourdequin) عام 2011 رداً على ذلك أن أعمال الانضباط الفردية قد تملك قيمة تواصلية تشجع على الثقة بالآخرين مما يسهل حل المشكلات الجماعية (انظر أيضاً Schmidt, 2000 و Jamieson, 2007 و Hourdequin, 2010). وبشكل عام كان هنالك جدل متنام حول القضايا المتعلقة بتغيير المناخ بما فيها أخلاقيات الهندسة الجيولوجية والطبيعة ودرجة التزامنا تجاه الأجيال القادمة.

5. حركة النسوية البيئية ecological feminism

يمكن تقصي جذور حركة النسوية البيئية بالعودة إلى منتصف السبعينيات حين تمت صياغة مصطلح «النسوية البيئية» عام 1975 من فرانسوا دوبون (Françoise d'Eaubonne) في كتابها النسوية أو الهلاك (*Le Feminisme ou la Mort*). يمكن القول إن هذا الكتاب، إلى جانب كتاب روزماري رادفورد روثر (Rosemary Radford Ruether) امرأة جديدة / كوكب جديد (*New Woman / New Earth*) عام 1975 يشكلان منطقياً الجذور الأولى لهذه الحركة الفنية والواسعة. مع ذلك فقد تبلورت النسوية البيئية تماماً في منتصف الثمانينيات مع نشر العديد من المقالات والكتب والإصدارات الخاصة من المجالات. تصف كارين ج وارن (Karen J. Warren) الفلسفة النسوية البيئية على أنها تتبنى «وجهة النظر التي ترى ارتباطاً مهماً بين السيطرة على المرأة (وغيرها من البشر التابعين) والسيطرة على الطبيعة، وأن عدم الاعتراف بهذا الارتباط ينتج حركة نسوية ومناصرة وفلسفة بيئية منقوصة» (Warren, 1996). وبذلك كان التركيز الأساس لمعظم الفكر الفلسفي النسوي على اكتشاف هذه الروابط وتعزيزها ودراسة تبعاتها.⁶ يجادل أتباع النسوية البيئية بأن المجتمعات الغربية تميل لاعتناق سلسلة من الثنائيات الإشكالية مثل: الإنسان والحيوان، الذكر والأنثى، والمنطق والمشاعر، حيث يعدُّ القسم الثاني في كل منها أقل شأنًا أو ثانوياً بالنسبة إلى الأول (انظر Ruether, 1975 و Plumwood, 1986, 1993). وتجادل كارن وارن بأن ثنائيات القيم هذه تضاف لاحقاً إلى «منطق السيطرة» حيث تعدُّ الأفضلية (المفترضة) مسوغاً للتبعية. وبذلك وفقاً لهذا الإطار التصوري الذكوري يجب أن تخضع النساء والحيوانات والطبيعة للتحكم والسيطرة (Warren, 1990). ويعود هذا بنا بالطبع إلى مقالة وايت عام 1967 والتقاليد اللاهوتية المسيحية، حيث يُنظر إلى الطبيعة والحيوانات والمرأة على أنها تخضع شرعاً لسلطة الرجل. ويُعنى أحد الروابط المهمة الأخرى بالآثار المختلفة للتدهور البيئي على الرجال والنساء. حيث يجادل أتباع النسوية البيئية أن النساء والأطفال غالباً ما يتحملون الآثار الأسوأ للضرر البيئي، متمثلة في آثار التلوث وفي الحاجة للعمل بمشقة أكبر للحفاظ على موارد الرزق وما إلى ذلك. إضافة إلى أن سياسات التنمية الغربية غالباً ما تؤثر سلباً على الدول النامية، وتحديدًا على النساء والأطفال (انظر Shiva, 1989 للاطلاع على شهادة تقليدية). وكذلك يجادل بعض أتباع النسوية البيئية أن النساء بحكم ظروفهن وتجاربهن الحياتية قد يكنّ أكثر انسجاماً من الرجال مع العالم الطبيعي وبالتالي فإنهن يشعرن بصحة الأرض وتدهورها ويفهمنه بعمق يفوق الرجال (Salleh, 1984). وقد انتقدت فيكتوريا دافيون (Victoria Davion) عام 1994 بحذر بعض النسخ الأقل منطقية العائدة إلى هذا الطرح الأخير.

6. أخلاقيات الفضيلة البيئية Environmental Virtue Ethics

يبني المنهج الحديث في الأخلاقيات البيئية وهو أخلاقيات الفضيلة البيئية على إحياء أخلاق الفضيلة بشكل أوسع، وقد أصبح أحد أكثر المجالات نشاطاً في أخلاق الفضيلة البيئية والتطبيقية. وتعدُّ مقالة توماس هيل (Thomas Hill) بعنوان «نماذج التفوق البشري والحفاظ على البيئات الطبيعية» عام 1983 المقالة الأولى التي تعبر صراحة عن منهج أخلاق الفضيلة في مقارنة الأخلاقيات البيئية. ويجادل

هيل أن أولئك الذين يرون العالم الطبيعي حصراً من منظور التكلفة والمنافع أو الذين لا يترقب لهم جفن عند قطع الأشجار أو تدمير البيئات يعانون من عيوب في شخصياتهم، كالاتفاق إلى التواضع والامتنان والفضائل الأخرى ذات الصلة، بغض النظر عن كون القيم والمصالح الأخرى على المحك.

ويعتبر كل من مقالة جيفري فراز (Geoffrey Frasz) بعنوان «أخلاق الفضيلة البيئية: اتجاه جديد في الأخلاقيات البيئية» عام 1993 وكتاب لوك فان وينسفين (Louke van Wensveen) بعنوان *الفضائل القذرة: ظهور أخلاقيات الفضيلة البيئية (Dirty Virtues: The Emergence of Ecological Virtue Ethics)* عام 2000 من الأعمال الجوهرية في تطور أخلاق الفضيلة البيئية. شرح فراز بدقة العناصر الرئيسة لأخلاق الفضيلة وأهميتها المحتملة في الأخلاقيات البيئية مع إعادة دراسة نقاش هيل حول التواضع في ضوء أعراف أخلاق الفضيلة في الوقت ذاته. ويستكشف كتاب فان وينسفين وهو أول كتاب مكرس لأخلاق الفضيلة البيئية طريقة تضمين لغة الفضيلة والرذيلة في معظم الخطاب البيئي وكيف يمكن لمنهج أخلاق الفضيلة أن يندمج مع جوانب مهمة من التفكير الأخلاقي البيئي ويهذبها.

وقد بدأ الاهتمام الكبير بأخلاق الفضيلة البيئية منذ عام 2000 مع نشر العديد من المقالات إضافة إلى مجموعات محررة وإصدارات خاصة من المجلات (Sandler and Cafaro, 2005 و Sandler, 2007 و Thompson and Bendik-Keymer, 2012). وببساطة فإن هذا يعكس جزئياً الاهتمام المستمر والمتنامي بأخلاق الفضيلة في الفلسفة بشكل عام، إلا أن أخلاق الفضيلة تتمتع بخصائص عدة قد تجعلها جذابة بشكل خاص كمنهج في أخلاقيات البيئية.

فهي على سبيل المثال تبني على البديهة التي ترى أن الشخصية البشرية، بما فيها أهدافنا وقيمنا وتصرفاتنا وعاداتنا، جوهرية في التوصل إلى أساليب صالحة أخلاقياً وبيئياً للعيش، حيث لا يمكننا عزل المصالح البيئية عن الطرق الأكثر عموماً في تواجدها في هذا العالم (Frasz, 1993 و Jamieson, 2007). ثانياً: تتعامل النسخ البارزة من أخلاق الفضيلة البيئية مع الفضائل مثل السمات اللازمة لازدهار البشر (وغير البشر في بعض الحالات) وبالمقابل هنالك اعتراف بأن ازدهارنا يعتمد بشكل أساسي على ازدهار البيئات التي نعيش فيها (Sandler, 2007 و vanWensveen, 2000). وأخيراً، تركز أخلاق الفضيلة البيئية على أهمية النظر إلى النماذج كدليل مرشد للأعمال وأساليب الحياة الملائمة. ويمكن لاحتذاء النماذج، بدءاً بثورو (Thoreau) وانتهاء بكارسون (Carson)، أن يزودنا بطريقة لفهم القيم والشخصيات وأساليب الحياة الأوسع التي يمكننا أن نقتدي بها في حياتنا الخاصة (Frasz, 1993 و Cafaro, 2004).

7. آفاق المستقبل:

تضمن أكثر الاتجاهات الواعدة في الأخلاقيات البيئية في الاهتمام المنصب على العمل في مجال علم النفس وعلم الاقتصاد وغيرها من العلوم الاجتماعية. يمكن لهذه الفروع أن تزودنا بوسائل قيمة في ترجمة التأمل الأخلاقي إلى أفعال وسياسات مجدية في الحين الذي تثري فيه هذا التأمل وتؤثر فيه. فمع اقترابنا من فهم شخصية الإنسان وإمكاناتها وحدودها قد نصبح أكثر قدرة على صياغة المستقبل ومعايير بطرق تشجعنا لكي نصبح أكثر فضيلة، أو على الأقل التصرف بطرق أفضل. إن التعرف على

الحجج والعوامل الأخرى التي تحفزّ العامة وصنّاع السياسات يمكن أن يساعدنا في معالجة قضايا العمل الجماعي بينما يمكن أن تساعدنا الدراسات التجريبية في مجال السعادة والرفاه في رؤية طرق جديدة للازدهار. هذه المقاربات التجريبية للأخلاقيات البيئية، والتي تتجاوز علوم البيئة والحياة، يمكن أن تترك أثراً تحويلياً في هذا الفرع.

ملاحظات

1. انظر (Nash, 1989) للاطلاع على تاريخ الأخلاقيات البيئية بشكل أعم عودة إلى القرن التاسع عشر.
2. يجب التمييز بين الأخلاقيات القائمة على مركزية الإنسان ومواقف ذاتية غير واقعية ميتا-أخلاقية معينة. فمثلاً يمكن للمرء أن يعتقد (من وجهة نظر ميتا-أخلاقية) أن القيم تركز على مواقف بشرية محددة وتشكل منها. يمكن لأنواع الحية أن تمتلك قيمة متأصلة ضمن هذا المنظور بمعنى أنها تقدّر بحد ذاتها حتى لو كان المعنى الميتا-أخلاقي لذلك هو أن البشر في ظروف معينة يشكلون نوعاً من الاستجابة الإيجابية لأنواع الحية. بمعنى آخر حتى لو كانت القيم تشكل بفعل المواقف البشرية لن ينتج عن ذلك بالضرورة أخلاقيات مركزية بشرية تقيّم الكيانات فقط بمقدار مساهمتها في مصالح البشر ورفاههم. وبذلك فإن موقف هارغروف الذي يصفه بذاته كشكل من مركزية الإنسان يمكن أن يفهم على أنه أخلاقيات غير مركزية بشرية تضم جانباً ذاتياً ومركزياً بشرياً ميتا-أخلاقي، حيث تقدر القيمة الجمالية من خلال الاستجابة البشرية.
3. للاطلاع على لمحة عن الاستجابات الفردية انظر (Jamieson, 1998)، وللإطلاع على الاستجابات التصالحية للمقاربات الفردية انظر (Callicott, 1989).
4. بعيداً عن الأعمال الجوهرية لنيس وديفال وسيشنز فقد تمت مراجعة الفكر الإيكولوجي العميق وتهذيبه من قبل عدد من المفكرين. انظر مثلاً (Fox, 1990) و (Deval & Sessions, 1985) و (Katz, Light, and Rothenberg, 2000).
5. لنقاش أوسع حول الإصلاح البيئي والاستجابة لأعمال إيليوت، انظر المقالات المنشورة في (Throop, 2000) و (Hourdequin and Havlick, 2013).
6. كذلك كان لحركة النسوية البيئية مساهمات قيمة في النقاش حول الإيكولوجيا العميقة والوضع الأخلاقي للحيوانات وقضايا أخرى ذات أهمية. انظر مثلاً (Sallah, 1984) و (Plumwood, 1993) حول الإيكولوجيا العميقة و (Adams, 1994) و (Gruen, 1993) و (Kheel, 1985) و (Warren, 2000) حول الوضع الأخلاقي للحيوانات. □



مسرد مصطلحات في الفلسفة البيئية

ديفيد لانديس بارنهيك

- ترجمة رزان يوسف سلمان

ديفيد لانديس بارنهيك (David Landis Barnhill): ولد في 19 تموز عام 1949 في إنديانا بوليس بولاية إنديانا، من أصول قوقازية. مدير الدراسات البيئية في جامعة ويسكونسن. مترجم رحلة باشو: النثر الأدبي لماتسو باشو (2005)، وباشو هايكو: قصائد مختارة لماتسو باشو (2004)، والمؤلف المشارك (مع روجر س. جوتليب) لكتاب الإيكولوجيا العميقة وأديان العالم: مقالات جديدة عن الأرض المقدسة (2001).

فيما يلي تعريف بمصطلحات مهمّة للتفكير في العالم الطبيعي وعلاقتنا به.

مركزية الإنسان أو المركزية البشرية (Anthropocentrism): من وجهة نظر مركزية الإنسان، ينصبُّ التركيز على محور رئيس أو حصري على البشر، مع تجاهل العالم الطبيعي أو رؤيته خلفيةً لحياتهم فحسب. (معظم فروع التعلُّم - على سبيل المثال علم النفس أو الفلسفة - تتمركز حول الإنسان بهذا المعنى.) توضع القيمة للبشر في المقام الأول، ويكون للعالم الطبيعي قيمة أقل (أو عادة) قيمة نفعية فقط. ومن هذا المنظور، يُرى البشر عادة على أنهم منفصلون عن العالم الطبيعي، بل وحتى متعالون عليه، مع رؤية الطبيعة كموضوع للدراسة والاستخدام. هناك ضروب ودرجات مختلفة من مركزية الإنسان، من المتطرّفة إلى الأكثر اعتدالاً التي تمتلك الطبيعة فيها بعض القيمة الجوهرية.

المركزية الحيوية (Biocentrism) والمركزية البيئية (Biocentrism) : يعارض كل

من هذين المفهومين وجهات نظر مركزية الإنسان. يركّز كلاهما على العالم الطبيعي (مع عدّ البشر جزءاً متكاملاً معه أو أنهم فسادٌ غير طبيعي ومدمّر) ويمنحونه درجات عالية من القيمة الجوهرية. يُستخدم مصطلح المركزية الحيوية أحياناً للإشارة إلى الآراء التي تركّز وتُتمسّن الكائنات الحية (الحيوانات وربما النباتات)، في حين تميل وجهات نظر المركزية البيئية إلى تضمين العوامل غير الحية مثل الأنهار، والأنظمة التي تتضمن عناصر غير حيوية، مثل النظم البيئية ومُستجمعات المياه. وغالباً ما يؤكّد مفكرو المركزية الحيوية على قيمة الكائنات الفردية، في حين يميل مفكرو المركزية البيئية إلى السّير في نهج أكثر شمولية، مما يعطي قيمةً للأنواع الحية أو النظم البيئية أو الأرض ككل. ومع ذلك، يجري استخدام «المركزية الحيوية» أحياناً بمعنى واسع ليشمل المركزية البيئية، خاصة إذا عدّت الأنهار والنظم البيئية «حية».

الإقليمية الحيوية (Bioregionalism) : حركة اجتماعية بيئية معاصرة تؤكّد على أهمية

المنطقة الجغرافية المحليّة (الإقليم الحيوي) بدلاً من المفاهيم المجردة عن الطبيعة أو الأمة. وعلى المستوى الشخصي، تشجّع الحركة المعرفة الحميمة بالإقليم الحيوي والتجانس معه حتى يتمكن من «إعادة السكن» في مكاننا. وعلى المستوى الاجتماعي، تؤكّد الحركة على اللامركزية في الاقتصاد، والزراعة، والسياسة بما يعكس تفرّد الإقليم الحيوي، في حين تميل البنى الاجتماعية إلى أن تكون بسيطة وعادلة.

المحافظة على الموارد الطبيعية (Conservationism) : بالمعنى التقني، يشير مفهوم المحافظة

على الموارد الطبيعية إلى رؤية مركزية بشرية للطبيعة كمورد نستفيد منه. لكنها تعارض مجرد استغلال الموارد الطبيعية لتحقيق مكاسب قصيرة الأجل بطريقة تستنفذها أو تؤدي إلى تدهورها. ومن وجهة النظر هذه، يتطلب الازدهار الاقتصادي والالتزام الأخلاقي تجاه الأجيال القادمة إدارةً دقيقة للموارد لضمان الاستدامة. في الواقع، يمكن للإدارة الرشيدة للموارد أن تجعل الطبيعة أكثر كفاءة وإنتاجية، وبالتالي أكثر قيمة. كان أول مؤيد لهذا الرأي غيفورد بينشو (1865-1946)، أول رئيس لدائرة الغابات في الولايات المتحدة من عام 1898 إلى 1910.

الإيكولوجيا العميقة (deep ecology) : مدرسة جذرية معاصرة في الفلسفة البيئية تتسم

بالمركزية البيئية. تركّز على القيمة الجوهرية للطبيعة وتتبع نهجاً شاملاً يؤكّد على النظم البيئية والأنواع والكوكب ككل. وتدّعي أن السبب الرئيس للمشكلة هو مركزية الإنسان التي تعارضها من خلال التأكيد على أن البشر بأكملهم جزء من العالم الطبيعي ولهم القيمة نفسها مثل الأنواع الحية الأخرى جميعها.

ترى أن المثل الأعلى للشخص هو تحقيق الذات، وفيه يتماهى المرء مع الطبيعة كلها؛ وترى أن للحياة البرية التي لا يقيدّها البشر قيمة خاصة، على شاكلة ما كانت عليه في مجتمعات الصيد والجمع التي تعيش في تناغم مع الطبيعة.

النقد البيئي (Ecocriticism): هو أديباً «نقد ينشأ من، وموجّه نحو، الاهتمام بالتفاعل بين البشري وغير البشري والعلاقة المتبادلة بينهما» (باتريك دي ميرفي Patrick D. Murphy). وهو «دراسة الكتابة عن الطبيعة عن طريق أيّ نهج علمي؛ أو، على العكس من ذلك، التدقيق في الآثار البيئية والعلاقات بين الطبيعة والإنسان في أيّ نصّ أدبي» (سكوت سلوفيتش Scott Slovic). ومثل كثير من النقد المعاصر، هو شكل من أشكال النقد الثقافي، متعدد التخصصات في أدواته ومقاصده (مايكل بي كوهين Michael P. Cohen).

النسوية البيئية (Ecofeminism): مدرسة جذرية معاصرة في الفلسفة البيئية. تؤكّد على الطرق المتماثلة التي جرى بها تصوّر الطبيعة والمرأة، والإنقاص من قيمتها، وظلمها. كما تؤكّد على الترابط الوثيق بين القضايا البيئية والاجتماعية. المركزية الذكورية (التمركز حول الذكر، الذكورية) هي مشكلة أساسية يجب معالجتها إذا أردنا إنهاء استعباد الطبيعة والمرأة. يتضمن النموذج المثالي لهذه المدرسة الاعتراف بقيمة الفرد كجزء من المجتمع، حيث يُثمن التنوع والمساواة والترابط. ويُنظر إلى الذات على أنها مضمّنة في المجتمع والمكان والجسد. تقدّر النسوية البيئية الثقافية العلاقة الخاصة والأساسية بين المرأة والطبيعة، في حين ترفض النسوية البيئية الجذرية أن تكون هناك أي علاقة جوهرية بين المرأة والطبيعة كبناء اجتماعي. بدلاً من ذلك، فإنها تفكك أي ثنائية متعالية يُعدّ فيها جنس أو عرق أو طبقة ما أقرب إلى الطبيعة وذا قيمة أعلى.

التنوير (Enlightenment)، الآلية (mechanism)، الإنسيّة / النزعة الإنسانيّة (humanism): كان التنوير حركة في أوروبا بدأت في القرن الثامن عشر رداً على «ظلام» التعصّب الديني في العصور الوسطى. ورأت العقل والعلم أكثر الوسائل الموثوقة للمعرفة والعمل. كان الاعتقاد بأن هذا النهج موضوعي ومجرّد، وبالتالي قدّم حقائق كليّة. وقد نشأ وتطور خلافاً للمعرفة والعمل القائم على أساس المشاعر الشخصية والأديان، والتي تميل إلى تسويغ الأفعال غير العقلانية والتعصّب والخرافات والادعاءات العنيفة لمجموعة ضد أخرى. كان نهجاً إنسياً، يركّز على البشر ورفاهيتهم في هذه الحياة بدلاً من مجرد التكرّس لله أو الاهتمام بالحياة الآخرة. كما كانت حركة اجتماعية تقدّمية، تسعى إلى تحسين الرفاهية المادية والحرية والمساواة بين الناس جميعهم. ودعت إلى إلغاء مركزية الكون المادي، مُعدّة إياه مادة خاملة، من دون حيوية روحية أو قيمة جوهرية. وارتبطت بالآلية المضمّنة في الثورة العلمية، التي رأت الطبيعة منظمّة وقابلة للفهم ويمكن التحكم فيها لمنفعة الإنسان، ورأت الكون، وحتى الحيوانات،

شبيهة بالآلة. يمكن العثور على الطبيعة برّية أو «في حالة حرية»، أو «في حالة خطأ» (أحداث غير عادية)، ولكن من الناحية المثالية وضعها البشر في حالة «عبودية» من أجل انتزاع الأسرار من «ها». كان هذا كله الأساس لمركزية الإنسان الحديثة والاعتقاد بأن «التقدم» أمر جيد وحتمي.

إيديولوجيا التقدم (Ideology of progress) : طريقة تفكير تدعم توسُّع الحضارة الغربية (كما هو موجود على نحو رئيس في المدن والدولة القومية). ترتبط على نحو خاص بالتنوير، الذي يُظهر تفاعلاً بشأن قدرة البشر، من خلال العقل والعلم والتقنيات والحرية، على تجاوز الحروب الدينية والخرافات، وتحقيق الرفاهية المادية للفقراء، وتحقيق المساواة والحرية للمظلومين. عدَّ هذا التقدم حقاً لا جدال فيه وواجباً أخلاقياً واتجاهاً متأسلاً في التاريخ. واتخذت إيديولوجيا التقدم في الولايات المتحدة صيغة «القَدْر المحتوم»، الذي نصَّ على أن للأوروبيين [المستوطنين] الحق بل عليهم واجب الفوز بأراضي الغرب [الأميركي] - وفي الواقع، هذا هو مصيرهم التاريخي. يُرى اليوم في النقاشات أن توسُّع المجتمع الصناعي العمراني هو بطبيعته «تنمية» و«تقدم» جيد وحتمي. يشير النقاد إلى الارتباط بين هذه الإيديولوجية والاستعمار، والإبادة الجماعية للأمريكيين الأصليين، وتدمير مفهوم المزرعة العائلية، وتدهور البيئة.

الفردانية مقابل الكلانية (Individualism versus holism) : ترى الفردانية العالم مكوناً من أفراد متميزين، وهم من لهم القيمة. ترى الكلانية العالم ككل متكامل، وتضع أكثر القيمة أو كلها في الكليات مثل الأنواع الحية أو النظم البيئية أو كوكب الأرض. ومن الممكن نشوء أشكال متطرِّفة من الفردانية تلغي الآخر (الذرية) ومن الكلانية (الأحادية والفاشية)، وكذلك الآراء التي تضع القيمة في الأفراد والجماعات (مثل المشاعية communalism).

القيمة الأداتية (Instrumental Value) : تكون لشيء ما قيمة أداتية إذا كان ذا قيمة لشيء آخر. ووفق هذا، فإن الغزال، على سبيل المثال، ذو قيمة أداتية كموضوع لرياضة الصيد أو كمصدر للغذاء. وبالمثل، تحمل الغابة قيمة كمورد للخشب والورق فحسب (مثالان على القيمة الأداتية المتمركزة بشرياً). أو يمكن إعطاء الكائن الحي قيمة بقدر ما يساهم في صحة أحد الأنواع الحية أو حيوية نظام بيئي فحسب (قيمة أداتية متمركزة بيئياً أو كلانية). وعادة ما ترى المركزية البشرية أن الطبيعة لها قيمة أداتية فحسب.

القيمة الجوهرية / المتأصلة (Intrinsic (Inherent) Value) : لشيء ما قيمة جوهرية إذا كانت قيمته «لنفسه» ومستقلة عن قيمته لشيء آخر. هنا يمكن عدّ الغزال، على سبيل المثال، ذا قيمة بحد ذاته ولذاته، سواء كانت له قيمة للبشر أو للأنواع الحية أو للنظام البيئي أم لا. ترى المركزية الحيوية والمركزية

البيئية أن للطبيعة قيمة جوهرية. ومع ذلك، يمكن أن تكون هناك خلافات. يجادل توم ريغان Thomas Regan أحد فلاسفة المركزية الحيوية بأن الكائنات الحيّة الفردية فحسب لها قيمة جوهرية؛ أمّا الأنواع والنظم البيئية فليس لها قيمة في حدّ ذاتها. ويجادل بأن الثدييات البالغة فقط هي التي تتمتع بالاعتباريّة الأخلاقية؛ أمّا الحيوانات الأخرى فليس لها سيرة حياة (subject-of-a-life) بالمعنى الفلسفي. وبالنسبة لبعض مفكّري المركزية البيئية، فإنّ الأنواع الحيّة أو الأنظمة البيئية هي التي تملك القيمة الجوهرية الأساسية؛ لا يهمّ غزال واحد بقدر أهمية صحة النوع الحي الذي ينتمي إليه أو النظام البيئي الذي يسكنه.

التاريخ الطبيعي (Natural history): هو معلومات حول العالم الطبيعي (على سبيل المثال، البنى

الجيولوجية لمنطقة ما، عادات الافتراس عند الصقور، أو تعاقب الغابات) والتي:

(1) توضع في إطار تفسيري يعطي معنى يتجاوز الحقائق المجردة.

(2) يتم تقديمها بأسلوب أدبي لعامة الناس - على عكس الرسائل العلمية أو الأدلة الميدانية. نلاحظ أن

«التاريخ» ليس بالضرورة عاملاً مهماً في «التاريخ الطبيعي».

الطبيعة (Nature): هناك تعريفان رئيسان للطبيعة. الأول مزدوج، تقتصر فيه الطبيعة على

ما هو ليس بشرياً أو ثقافياً، أو لم تشوّشه الإنسانية والمجتمع. وبالتالي فإن البلاستيك ليس جزءاً من الطبيعة. فأن تكون طبيعياً هو أن تكون خالياً من البصمة البشرية. والتعريف الثاني شامل، تستخدمه العلوم الطبيعية، وفيه تشمل الطبيعة كل شيء في عالم الظواهر. ويُسْتثنى من الطبيعة فقط ما هو خارق لها. في هذه الحالة، يُعدُّ البلاستيك جزءاً من الطبيعة. في كل حالة، يمكن أن يُنظر إلى الطبيعة على أنّها ذات قيمة أداتية فحسب، أو أنّها ذات قيمة جوهرية (أخلاقية، وجمالية، وروحية).

الطبيعة والمقدس (Nature and the sacred): جرى تقديم الطبيعة على أنّها مقدّسة بعدة طرق

في الكتابات عنها. ففي بعض الكتابات، تُعدُّ الطبيعة «الأخر المقدّس». في هذه الحالة تكون الطبيعة مقدّسة لأنها استثنائية وأصيلة. هذه الأماكن لا يمكن العيش فيها، بل يمكن زيارتها في رحلة ثم العودة منها. وبالتالي فهي مرتبطة بتقاليد الحج والحياة البرية. وفي كتابات أخرى، نجد أن الطبيعة المقدّسة هي التي يشعر المرء بالحميمية فيها ويكون ملتزماً بها. المثل الأعلى هنا هو الإحساس العميق بـ «المكان» و«الوطن» على الأرض. الإقليمية الحيوية هي تعبير عن هذا الرأي. هناك أيضاً كتابات أخرى أحادية وشاملة: كل مكان مقدّس، حتى المناطق المتدهورة بيئياً. ويجمع بعض الكُتّاب أكثر من مفهوم واحد للطبيعة المقدّسة. ونجد عدداً من السّمات الشائعة في الكتابة الروحانية عن الطبيعة. كما أنه غالباً ما يُنظر إلى الطبيعة على أنّها تتميز بالترابط والحيوية والخلق المستمر والاتساع والغموض. وغالباً ما يتميز الوعي الروحي بالطبيعة بتركيز الانتباه والطاقة، والتقبُّل المفتوح، وفقدان التفرقة بين الذات/الموضوع، والإدراك المباشر، والتركيز على الحاضر. إضافة إلى ذلك، غالباً ما تُظهر روحانية الطبيعة أبعاداً اجتماعية وسياسية.

الطبيعة كـ «برية» فوضوية («Nature as chaotic wilderness»): واحدة من أكثر

وجهات النظر الغربية سلبية عن العالم الطبيعي. ترتبط على نحو خاص بالفترة المبكرة من ظهور البيوريتانية (التطهّرية). وهي تجمع بين الثنائيات المتعالية للأفلاطونية والإحساس التوراتي بالسقوط من جنّة عدن. لم يكن طرد آدم وحواء مجرد سقوطٍ فرديٍّ من النعمة؛ بل كل الخليقة سقطت معها. من وجهة النظر هذه، الطبيعة أرض قاحلة وحتى شيطانية، تتناقض مع ما هو إنساني وروحي. لم يرَ الحاج الأمريكي ويليام برادفورد شيئا «سوى برية شنيعة ومقفرة، مليئة بالوحوش البرية والرجال الهمجيين». وتحدث البيوريتاني جون كوتون عن الطبيعة على أنها «حقل بريٌّ تعيش فيه جميع أنواع الوحوش غير النظيفة والبرية وتتغذى». يحمل اسم البرية هنا معنى انعدام النظام أو الاستقرار أو السيطرة. كما أنّها غير مفهومة لأننا لا نستطيع فهم أيّ بنية أو نمط أو تصميم لها. في سياق هذه النظرة للطبيعة على أنها برية، أصبح المثل الأعلى هو حديقة؛ فالبرية بحاجة إلى أن يغزوها الإنسان ويحوّلها إلى عالم طبيعي مبنيٍّ ومنظّم، جنّة عدن جديدة. لمثل هذه الحديقة نظام عقلائي وروحي، وبالتالي فهي قابلة للفهم، ويمكن التحكم فيها ولها قيمة دينية.

الكتابة عن الطبيعة (Nature writing): ببساطة، الكتابة عن الطبيعة هي أيّ عمل مكتوب

يتعامل على نحو كبير مع الطبيعة والعلاقة بين الإنسان والطبيعة. عادةً ما يجمع بين الاهتمام العلمي بالطبيعة، والحساسية الجمالية، والشعور الروحي، والجازبية الأدبية. هناك سبعة عناصر رئيسة للكتابة عن الطبيعة: قصص الطبيعة، والتجربة الشخصية للطبيعة، وفلسفة الطبيعة، وعلم النفس البيئي، والتجربة الاجتماعية للطبيعة، والسياسة البيئية، والروحانية. قد تركّز بعض النصوص على واحد أو اثنين من هذه العناصر؛ ويمكن للنصوص المعقّدة أن تتضمن معظم هذه العناصر أو كلها. المقالات الشخصية غير الخيالية هي الشكل الأكثر شيوعاً، لكن الشعر والخيال والرسائل، وحتى الإدلاء بشهادة أمام الكونغرس، يمكن اعتبارها كتابة عن الطبيعة.

الأخرية (Otherness): مصطلح يشير إلى الطريقة التي يميل بها الناس إلى رؤية الآخرين

(الأشخاص أو الطبيعة) المختلفين والمنفصلين عنهم. في بعض الحالات، يُستخدم المصطلح بطريقة عامة ومحيدة للدلالة على وجود اختلاف أساسي. وفي حالات أخرى، ينطوي على نظام معقد لتخفيض القيمة. بهذا المعنى، فإن تصوّر أحد ما على أنه «آخر» ينطوي على تشبيّه، والفضل في رؤية التشابه معه، والفضل في التعرف على ما يميزه، والفضل في التعرف على تعقيده وقابليته للتغيّر، والافتراض بأن الـ «الآخر» مجهول، وغير مرئي، مع رفض للتعرف على صوته، وتصوره على نحو مجرد، وفي كل هذه الطرق، الإنقاص من قيمته.

النظام الأبوي (Patriarchy) : نظام أيديولوجي ينقص من قيمة المرأة والمؤنث على أسس ذكورية. يقوم على الثنائية المتعالية ومنطق الهيمنة: هيمنة الواقع المتعالي على العالم الطبيعي، والإنسان على الحيوانات والنباتات، والثقافة على الطبيعة، والعقل على الجسد، والفكر على العواطف، والرجال على النساء. وفيه يُعتقد أن المعرفة الموضوعية والكلية المفترضة للفكر والعلم لها سلطة عليا، في حين أن العواطف والجسد مشكوك فيها كمصادر للمعرفة، وهي تعيق العقل، واعتبار الموقف الذاتي للفرد يفضي إلى وجهات نظر جزئية ومتمحّزة. فالهدف هو منظور واحد يكون شاملاً؛ أمّا الاعتقاد بصحة وجهات نظر متعددة لا يمكن إلا أن يقوّض الحقيقة والاتفاق. يُعتبر الناس في الأساس أفراداً، كائنات منفصلة ومستقلة. والمثل الأعلى في هذا النظام هو الاستقلالية، في حين أن العضوية في مجموعة والاعتماد على الآخرين يهددان نزاهتنا. تبدأ الأخلاق بتأكيد استقلاليتها وتسعى إلى تحديد العدالة بعقلانية. كما تحتاج الحكومات إلى أن تتمتع بسلطة هرمية ومرجعية على الناس والبلدان الأخرى من أجل تقديم المنظور الحقيقي الواحد لهم الذي يعمل على تبرير أيديولوجيا التقدّم.

الحفاظية (Preservationism) : تشير الحفاظية إلى وجهة نظر مركزية حيوية ترى الطبيعة ذات قيمة جوهرية، لذا يجب حمايتها بدلاً من التعامل معها كمورد. هذا الرأي أيده في الأصل جون موير (1838-1914)، «رجل الجبال»، مؤلف بيئي ومؤسس نادي سيبيرا. كانت حماية البيئة مؤثرة على نحو خاص في حركة البرية وتبني هدف الحد من أو إزالة التأثير البشري على الطبيعة. ليس الهدف مجرد استدامة الموارد، ولكن الحفاظ على كمال الطبيعة لذاتها. انتقدت الحفاظية مؤخراً من قبل بعض المفكرين البيئيين (بما في ذلك الجذريين منهم) لرؤيتهم الطبيعة على أنها جامدة (وبالتالي يمكن «حفظها») ورؤية البشر منفصلين عن الطبيعة.

الرومانسية (Romanticism) : حركة بدأت حوالي عام 1750 ولا تزال مهمة حتى اليوم. كانت في جزء منها ردّ فعل على عقلانية وآلية حركة التنوير. ترى أن البشر يرتبطون مع الطبيعة بعلاقة وثيقة، ويُنظر إلى الطبيعة على أنها ذات قيمة عالية، إمّا كتجلّ مباشر للواقع الروحي، أو لقيمتها الروحية الخاصة. تشكُّ بالفكر؛ وبدلاً منه، تقدّر الحدس والخيال والعواطف والتأمل في الطبيعة. كما أنّ المدن والتصنيع والتقنيات موضع شك؛ فالمثل الأعلى الاجتماعي لا يوجد في المدن ولكن في أنماط الحياة الرعوية الأبسط والقريبة من الطبيعة، ويركز المثل الأعلى السياسي فيها على الحرية الفردية. من الناحية الجمالية، تقدّر «الجليل»، وهو عظمة الطبيعة المذهلة والمُلهمة التي توحى بالبُعد الروحي وصِغرنا مقارنة به.

البرّي (Wild) : نوعية أو حالة. البرّي هو ما يولد ذاته تلقائياً، وينظّم نفسه بنفسه، ويعيش بحرية وفقاً لطبيعته الداخلية ويهدف إلى تحقيق اكتفائه الطبيعي، ولا تتحكم فيه قوة خارجية مثل الإرادة البشرية. المناطق البرية هي بحكم تعريفها برية، ولكن يمكن العثور على البرّي في أي مكان، في المدن مثلاً

أوفي جسم الإنسان. يمتلك البشر القدرة على أن يكونوا برّيين إذا لم يتصرفوا بإرادتهم العقلانية ولكن بطبيعتهم الداخلية الحقيقية. تقليدياً، كان يُنظر إلى البرّي على أنه غير منظم وفوضوي بطبيعته، لأنه يفتقر إلى أي سيطرة أو تصميم مفروضين من الخارج. فمن وجهة النظر هذه، ما هو برّي يتطلب ترويضه والتحكم فيه. لكن بالنسبة للعديد من كتّاب الطبيعة، نظراً لوجود البرّي وفقاً لطبيعته الداخلية الخاصة، فإنه يُظهر نظاماً عفويّاً عَرَضياً. وعلى هذا النحو فإن له قيمة جوهرية.

البرية (Wilderness): موقع محدد، منفصل عن البشر وغير متأثر به. على هذا النحو فإن هذا المصطلح عادة ما ينطوي على رؤية ثنائية للطبيعة. هذه هي الأماكن التي نزورها (من دون مساعدة الآلات البشرية)، وليست مكاناً نعيش فيه كمنزل. كان البيوريتانيون يعتقدون أن البرية هي أرض قاحلة فوضوية وخطيرة، ويجب أن تُعزل أو تُحوّل إلى حديقة من تصميم الإنسان. أمّا في الكتابة عن الطبيعة، والفلسفة البيئية، وتشريعات حماية البيئة، يُنظر إلى البرية عادةً على أنها ذات قيمة جمالية وأخلاقية وروحية جوهرية يجب الحفاظ عليها. □

المصدر:

العنوان الأصلي للبحث: *Glossary of Terms in Environmental Philosophy*. نُشر على الموقع الإلكتروني لجامعة ويسكونسن، أشكوش:

<https://www.uwosh.edu/facstaff/barnhill/490-docs/thinking/glossary>



هل يمكن للإيكولوجيا أن تكون شعبية؟

تأليف: أن لو سترا
ترجمة: فرح تلجة

أن لو سترا (Anne Le Strat): ولدت أن لو سترا في الـ 25 من شهر أيلول (سبتمبر) من عام 1968 في لوريان. وهي سياسية فرنسية وعضو في حزب «الخضر» حتى عام 2008، ومستشارة باريس من عام 2001 إلى عام 2014، ونائب عمدة باريس المسؤولة عن المياه والصرف الصحي وإدارة القنوات من عام 2008 إلى عام 2014.

الإيكولوجيا (Écologie) والشعبية، يعد ترافق ذكر هذين المصطلحين أمراً غير مألوف، وطرح هذا السؤال بحد ذاته يدفعنا للتشكيك في إجابته، لأن استخدام صفة «الشعبية» يخضع لكثير من التأويل. وللسؤال هنا معنى واضح يدفعنا إلى التساؤل عن قدرات الإيكولوجيا على مخاطبة عامة الشعب، كما إنه يسلط الضوء على تساؤلات أخرى تتعلق بقدرتها على جذب جمهور كبير من الناس وتجاوزه منطقة الأمان التي اعتادوا عليها.

أحد أهم الدروس المستخلصة من سلسلة الانتخابات الأخيرة⁽¹⁾ داخل تيار اليسار السياسي بأكمله، من المؤسسي إلى الحركي، هو أن السبب الرئيس لهزيمة اليسار يعود إلى حقيقة عزل نفسه عن الطبقات الشعبية. وبعيداً عن الجدل في هذا الموضوع، ينبغي علينا أن نستفهم عما تعنيه كلمة الطبقات الشعبية.

• مُترجمة سورية

(1) المقالة منشورة في الشهر الرابع عام 2002.

فعلى الرغم من التقارب المحتمل بالدخل والأوضاع الاجتماعية إلا أن صفة «الشعبية» تتطوي على حقائق اجتماعية مختلفة للغاية. فعلى سبيل المثال لا الحصر، كيف يمكننا أن نحدّد ما هو مشترك بين الشباب المنحدر من أصول مهاجرة وبين العمال في مصانع الحديد والفلاحين الذين يعيشون في مناطق الزراعة المهجورة؟ أو من جهة أخرى، ما هي الموضوعات المشتركة التي يمكن أن توحد تطلّعات السكان الذين يعيشون في الضواحي أو في المجمّعات السكنية العمالية أو في المناطق الريفية؟ إذا كان من الصعب علينا تحديد ماهية الطبقات الشعبية، فإنه ينبغي على الإيكولوجيا أن تتساءل عن تلك الروابط التي تربط فيما بينها في ظل هذا الواقع غير المتجانس.

لا بد للإيكولوجيا أن تكون شعبية :

يحتمل المشروع البيئي وتطويره استراتيجيتين: إما أن يكون مشروعاً يقتصر على سجل برنامجي وانتخابي محدّد مسبقاً، أو مشروعاً يفرض نفسه كضرورة حتمية تلزم العمل السياسي أن يصبح عملاً شعبياً.

تتجسد الإيكولوجيا السياسية في الحالة الأولى ضمن الطبقات الشعبية المتوسطة والعليا وتتوجه إليهما بشكل أساسي، حيث يُحتفظ بالناخبين⁽²⁾ البوبو (bobo) وتُصنّف الموضوعات المتعلقة بالبرامج التي تخدم مصلحة كل من الإدارة العليا والإدارة المتوسطة على أمل الإضافة النوعية إلى بيئتهما المعيشية. ولدينا الحالة الباريسية هي المثال الأقوى على ذلك. وتعدّ النقاط التي حصدها الحزب البيئي «الخضر» منذ الانتخابات الأوروبية والاستقبال الإيجابي نسبياً للملّفات التي قدموها دليلاً واضحاً على حساسية بيئية فريدة من نوعها إلى حد ما. تفسر السوسيولوجيا الخاصة بغالبية كوادره هذا الموقف إلى حد ما، والذي لا يتماشى مع بقية المجتمع الفرنسي. ومن المفارقات، أنه كلما أصبحت باريس أكثر تطوراً زاد التصويت لصالح «اليسار الأخضر» كمتغير هيكلي، حيث ارتفعت نسبة الكوادر من 19% عام 1954 إلى 58.5% عام 2000.

وكما نرى فإن التوافق بين الخطاب والناخب وبعض الممارسات السياسية يحافظ على التماسك والوضوح خلال العملية الانتخابية. مع ذلك، فإن الإيكولوجيا السياسية مهددة بالخطر، حيث يبدو أنها مركّزة فقط على اهتمامات فئات معينة، المؤيدين لتعديل النظام بدلاً من تغييره، والذين يعدون المسألة البيئية عنصراً إضافياً للروح ويزيد من الراحة النفسية.

تثبت الإيكولوجيا السياسية نفسها في الحالة الثانية على أنها إيكولوجيا شعبية وأنها تسعى إلى تشكيل أفق سياسي حقيقي يهدف إلى تغيير المجتمع، ولتحديد الخطوط العريضة لهذا المشروع الفعال المتعلّق بتغيير المجتمع لا بُدّ من تهيئة الظروف للانفصال عن أنظمة الإنتاج والاستهلاك والتهميش الاجتماعي والبيئي والثقافي. بعيداً عن الاستهتام حول قدرة هذا المشروع على أن يطبّق، فهو يهدف قبل كل شيء إلى مسألة تأكيد الإرادة السياسية، حيث يجب على الإيكولوجيا السياسية أن تضع

(2) Bobo : يُستخدم هذا المصطلح من الصحافة بشكل خاص، وهو اجتماع لكلمتي bourgeois-bohème، هم الأشخاص الأغنياء المنافقون والسُدج (الترجمة).

مطالبها في خضم توترات المجتمع بعيداً عن الإغراءات التي تتمحور حول الإصلاح الهامشي والبحث عن إجماع صعب المنال. كما ويهدف إلى إعادة طرح الصراع السياسي داخل النقاش الديمقراطي من خلال وضع القضايا البيئية في قلب التوترات الاجتماعية، لأنه وعلى العكس، يجب وضع القضايا البيئية في بوتقة التغيير الاجتماعي، بعيداً عن القضايا الهامشية المتبقية التي لا تهم سوى الطبقات الغنية فقط. فمن دون تحقيق العدالة البيئية لا يمكننا أن نصل إلى العدالة الاجتماعية. وبمجرد ملاحظتنا للظروف المعيشية للأشخاص الذين يعانون من الحرمان الاجتماعي سنستنتج بأنهم يعانون أضراراً بسبب الظروف البيئية أكثر من غيرهم. فعلى سبيل المثال، إن الأشخاص في باريس الذين يعيشون في الضواحي حيث البيئة متدهورة وملوثة، هم الأشخاص أنفسهم الذين لا يستطيعون شراء الطعام العضوي ولا الذهاب لقضاء عطلات نهاية الأسبوع في الريف، وسياسة النقل غير المنظمة هي التي تجبرهم على ذلك. ونرى أن تفاوت الظروف المعيشية هذا، داخل ما يسمى بالبلدان المتقدمة، أكثر وضوحاً بين سكان مناطق الشمال وأولئك من سكان الجنوب. إن الشعوب الأكثر تعرضاً للاستغلال هم أولئك الذين يعيشون في أكثر الأماكن تدهوراً وتلوثاً، وغالباً ما يكون نهب الموارد الطبيعية مرافقاً لهيمنة الاجتماعية والثقافية. ومع ذلك، لا يمكننا محاربة النظام الإنتاجي، الذي يوِّلد الجوع والاستغلال وعدم المساواة، إلا من خلال الربط الوثيق بين النضالات الاجتماعية والصراعات البيئية، والتشكيك ليس فقط في ملكية جهاز الإنتاج ولكن في الغرض ذاته من الإنتاج. حيث لا يمكن الفصل بين المطالبة بحماية البيئة والتناقضات الاجتماعية التي يسببها نمط التنمية الحالي. والتأكيد على أن المسألة البيئية يجب أن تكون شعبية بالتوجه لأكثر عدد ممكن من الناس هو أيضاً رفض لاستخدام قضايا الحفاظ على البيئة كأداة جديدة لهيمنة الغني على الفقير، والبلدان الغربية على البلدان الأقل نمواً. وحتى لا يظل الاهتمام بالمسألة البيئية حكراً على فئات من الشعب والمجتمعات المتقدمة يجب أن يقع على كاهل المجتمعات الفقيرة حمايتها وتحملها وأن تبنى على نطاق عالمي. طريقتنا الحالية في التنمية غير مقبولة، ليس فقط لأنها غير عادلة اجتماعياً وتعود بنتائج كارثية على البيئة وإنما لاستحالة الغالبية العظمى من العالم الوصول إليها. يجب على العقد الاجتماعي الجديد الذي نحتاج إلى ابتكاره محلياً وعالمياً أن يلبي حاجات قضايا الهيمنة الاجتماعية والبيئية المتعددة.

التوفيق بين العدالة البيئية والعدالة الاجتماعية في الميدان العملي:

إن الهدف من جعل مصطلح الإيكولوجيا مصطلحاً شعبياً يدفعنا إلى إعادة التفكير في سبل تحقيقه، وإلى صياغة الروابط بين الشكل السياسي والمؤسسي للحركة البيئية والشبكات النقابية والفئات الشعبية، وإلى تنظيم المسؤوليات بين المسؤول (ة) والمنتخب (ة) والناشط (ة) والمواطن (ة)، وبين السلطة والمجتمع. بينما يمتنع الشباب والطبقات العاملة بأغلبية ساحقة أكثر فأكثر عن التصويت، حيث لم يشهد الشباب ولا الطبقات العاملة مثل هذا التجاهل السياسي من قبل، هناك حاجة ملحة لإعادة النظر في أشكال تفويض السلطة الصادرة عن النظام الديمقراطي التمثيلي

الحالي. باختصار، إن وضع عمليات التشاور والإدارة المشتركة لجزء من القرارات العامة ضمن إطار ديمقراطي وتشاركي هو أمر ضروري، ليس فقط للتغلب على الاستياء المتزايد من الشؤون العامة ولكن أيضاً لتحقيق أكبر عدد ممكن من التطلعات. يجب على الإيكولوجيا الشعبية استنباط هذا النوع من الديمقراطية التشاركية.

تعد تجربة الإدارة البلدية التي يقودها «ميشيل بورجين» في «إيل سان دوني» مفيدة جداً في هذا الصدد، حيث تتم مناقشة قضايا السياسة العامة من جميع السكان تحت رعاية العمدة، وتتم دعوتهم للمشاركة في خيارات البلدية ويتشارك جميع الأطراف في ملف صنع القرار كما ويتم الجمع بين الإرادة السياسية والضرورات التقنية والاقتصادية وكذلك قيود الاستخدام. وإلى جانب ممارسة الإدارة التشاركية، يتم إجراء تجارب على النسيج الترابطي لإحياء فكرة الاقتصاد الاجتماعي والتضامني، والتي لا تزال حتى الآن وفي أغلب الأحيان مجرد نظرية. يشكل مركز الضيافة والاستقبال ذو التأثير البيئي والتضامني، المكون من سبعة هياكل تتراوح من التجارة العادلة إلى الحدائق المنزلية مروراً بالتعليم الشعبي والمطعم غير الربحي، تجربة ناجحة في الشبكة النقابية للاقتصاد الاجتماعي. ولا يزال واحداً من أكبر مجمعات التوظيف في الجزيرة، ويجذب جزءاً كبيراً من سكانها بمختلف أنشطته، ويوفر مكاناً للتبادل والهيكل الاجتماعي.

إذا كان العمل السياسي بحاجة إلى جذور محلية في حال أراد حشد المزيد، إضافة إلى صفوفه الداخلية، فيذكرنا مثال جزيرة سانت دينيس بذلك. وبالتالي يجب أن تكون الممارسات الناتجة عن هذا الإجراء قادرة على تسجيل المشروع مع مرور الوقت. لذلك، أحد أقوى عوامل الحشد لمشروع الإيكولوجيا الشعبية هو ضمان مشاركة الجميع في مراحل التصميم جميعها، والتنمية الجماعية والبراغماتية للأشكال البديلة للبناء الاجتماعي والبيئي والثقافي والسياسي. لكن المطالبة بإيكولوجيا شعبية مرغوبة لا يمكن أن تتغاضى عن فحص الطرق السياسية التي ستساعد على تحقيقها. حالياً، يحتفظ حزب الخضر بمصداقية نسبية فقط في تمثيل الإيكولوجيا السياسية. ومع ذلك، وإن كانوا يجسدون الصراعات البيئية، فهم غير قادرين على تقديم إطار عمل ولا حشداً للأغلبية سواء من الناحية العملية أو التطبيقية، وليسوا مستعدين بعد لأن يصبحوا حزباً جماهيرياً. ومع ذلك، إذا أرادوا الخروج من كونهم حركة بسيطة والوصول إلى تمثيل الرأي العام بوصفهم بديلاً سياسياً حقيقياً، فعليهم أن يطمحوا إلى بناء تحالف اجتماعي قادر على تنفيذ المشروع السياسي الذي يصوغونه. والأمور هنا متروك لهم لإيجاد الطرق لاكتساب دعم شعبي كبير من خلال توسيع قاعدتهم الاجتماعية بشكل أكبر، وبالتالي سيصبحون حزباً تمثيلاً حقيقياً للمجتمع بأسره وللمجموعات السكانية المختلفة التي يتكوّن منها، سواء في تجنيد المؤيدين أو في الانتخابات. وهذا يعني في الواقع التشكيك العميق في أنماط العمل التي لا تشكل في الوقت الراهن ذلك الهيكل المنفتح على المجتمع، كما وأنه يعني السعي إلى ترجمة الجهاز الأيديولوجي للإيكولوجيا الشعبية إلى ممارسات على أرض الواقع ترتبط بالحياة اليومية للمواطنين والمواطنات.

ما طبيعة خطاب الإيكولوجيا الشعبية؟

إننا بحاجة، قبل كل شيء، إلى ربط الفعل بالنيّة والممارسة. إن حقيقة التطرق إلى الطبقات والأحياء الشعبية لا تكفي لتحديد سياسة للتعامل معهم ولا لبناء خطاب موجه إليهم. هناك عقبتان تنتظران المشروع البيئي: أولاً، عدم معرفة صدى هذا المشروع على المجتمع. وثانياً، عدم اقتراح المشروع تطبيقاً ملموساً وذا مصداقية. يركز الخطاب البيئي بشكل كبير على مفاهيم المسؤولية والاستقلالية والعناية التي تتعارض مع السلوك الاستهلاكي. ويبقى خطاباً مقيداً، كبعض حالات التقشّف التي تتعارض بالواقع مع تسويق النهج المشترك للمجتمع الاستهلاكي وتطلعات الأغلبية عموماً نحو زيادة الإنتاج والاستهلاك، حيث إن المفهوم الكمي للرفاهية لا يرتبط بشكل وثيق مع قضية توفير الموارد وإعادة التدوير وإمكانية تتبع الاختيارات والقرارات، وهذا لا علاقة له بالطمع في أهمية المقترحات والمطالب التي قدمتها الإيكولوجيا السياسية، بل بدعوتنا إلى التفكير في الاختلافات الملموسة التي يمكن للكثير منّا إدراكها على الفور، وأولهم الشعوب الأكثر حرماناً وفقراً. إن المفاهيم البيئية، مثل التنمية المستدامة، ومبادئ الوقاية والاحتياطات - التي تخضع بدورها لتفسيرات متعددة على المستويات العلمية والتكنولوجية والسياسية - لن تمارس طاقتها وقوتها التقويضية إلا إذا وجدت تطبيقاً حياً من الناس في حياتهم اليومية.

إذاً، فإن الأزمات الاجتماعية والأزمة البيئية مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً، والمطالبات البيئية تكافح من أجل اكتساب المصداقية في القضايا الاقتصادية والاجتماعية، ويعد اقتراح تطوير الاقتصاد الاجتماعي والتضامني كاستجابة محتملة لإخفاقات اقتصاد السوق وضعف القطاع العام، مع إنشاء قطاع ثالث، استجابة غير كافية. إن تجربة الـ 35 ساعة موجودة لتذكرنا بحدود تطبيق القانون إذا لم يتم تنفيذه من غالبية الفئات المعنية وخاصة إذا قام المدراء التنفيذيون، لا العمال ولا الموظفين، بسحب مزايا تنفيذه. بالإضافة إلى ذلك، لا يمكننا أن نعد تقدّم مجتمع ما وباستمرار تناوت النمو بداخله، ضماناً للتغيير الحقيقي. وقوانين التكافؤ⁽³⁾ ونظام PACS وميثاق اللغات الإقليمية وما إلى ذلك، كلها عبارة عن قضايا اجتماعية بعيدة كل البعد عن أن تكون قضايا عشوائية - خاصة فيما يتعلق بالمساواة - ولكن الفوائد المتوقعة منها مرتبطة بالفئات التي تتمتع برأس مال إما اجتماعي أو ثقافي. ولكي تستجيب الإيكولوجيا للمطالب الشعبية، فهذا يتطلب أولاً استجابة منظمة للقضايا الاجتماعية التي لم يتم حلها بعد. وحالياً، تبدو الجبهة الوطنية على أنها الحزب الأكثر شعبية سواء قلقتنا حيال ذلك أم لم نقلق، فهي تصوّر جزءاً كبيراً من الإحباطات والمعاناة التي نعيشها. من السهل أن نرجع هذه الأوهام والمخاوف الأمنية بأن عوامل عدم الأمان الحقيقية هي: عدم الأمان الطرقي وعدم الأمان الصحي وعدم الأمان الغذائي وما إلى ذلك وهي التي تسبب أكبر عدد من الضحايا.

(3) نظام الباكس PACS هو نوع من نظام أتمتة معلومات ملفات المرضى الشعاعية لسهولة الوصول عن بعد (المترجمة).

ومع ذلك، فإن هدف الخطاب يجب أن يكون محاولة الإقناع بأن التغيير في أنماط الإنتاج والاستهلاك والتحول الجذري في علاقتنا بالبيئة من شأنه أن يفتح طرقاً لتنمية أكثر تنوعاً ومساواة لصالح أكبر عدد من الناس.

ومع ذلك، فإن هذا هو التحدي الذي تواجهه الإيكولوجيا السياسية، بإعادة النظر في مسألة ضغوط العمل والتحالفات المحتملة داخل المجتمع. ولدى الإيكولوجيا السياسية فرصة لتجسيد مشروع سياسي تحرري جديد إزاء هزيمة المشروع الشيوعي وعجز المشروع الاشتراكي عن تجاوز انحرافاته الليبرالية الجديدة. إن الخطاب البيئي الذي يضع مسألة استقلالية الفرد والجماعة في صلب أهدافه، وي طرح قضية الأجيال من خلال مخاطبة الأجيال القادمة، ويفترض الارتباط الجوهري بين المجتمع والبيئة، هو الخطاب المتطور والديناميكي المطلوب. لكن هذه الديناميكية لن تتحقق إلا من خلال إيكولوجيا شعبية مبنية على مدى زمن طويل. □

المصدر:

CAIRN INFO

<https://doi.org/10.3917/mouv.023.0076>



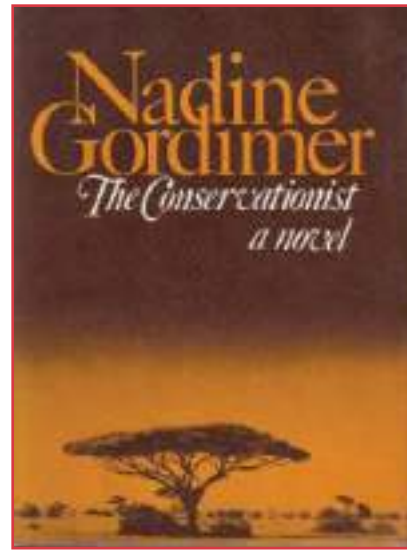
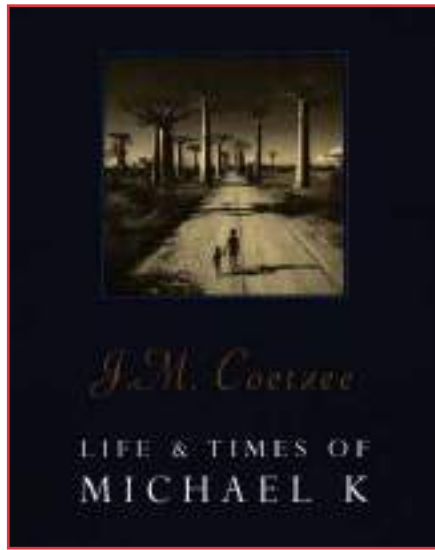
Mandy Martin, Red Ochre Cove, 1987, oil on canvas, Parliament House, Canberra

الطبيعة والآخر: النقد البيئي للإمبريالية في:

رواية نادين غوردنير «المحافظ»

ورواية ج. م. كوتزي

«حياة وزمن مايكل كي»



• ترجمة: علي عيسى داود

خلاصة: يلاحظ نقاد البيئة مثل، فال بلوموود (Val Plumwood)، وويليام آدمز (William Adams)، ومارتن موليفان (Martin Mulligan)، أن استراتيجيات الإمبريالية المفاهيمية تتطابق مع استراتيجيات استغلال البشر للطبيعة. فالإمبريالية واستغلال الطبيعة تعملان بتأثيرات الأنا والآخر، بين الإنسان وغير الإنسان، العقلاني وغير العقلاني. وما يتبع هو إقصاء الآخر جذرياً، في هذه الحال الطبيعة غير البشرية، وتمثيلها بأنها أدنى من الذات البشرية وتخضع لها. كنتيجة، يتطلب نقد الإمبريالية كضاحاً أخلاقياً مستداماً ضد استعمار الطبيعة. ينخرط كل من ج. م. كوتزي ونادين غوردنير في هذه الأبعاد السياسية والبيئية للإمبريالية في روايتهما: «حياة وزمن مايكل كي» و«المحافظ». إن تمثيل الطبيعة في

• مُترجم سوريا.

هاتين الروائيتين يقوِّض ممارسات الإمبريالية الخطابية التي تعامل الطبيعة بأنها الآخر السلبي. إذا كانت الإمبريالية مدفوعة بدافع إخضاع الطبيعة، فإن حياة وزمن مايكل كي والمحافظ يستعيدان قوة الطبيعة بإبراز مقاومتها للغة البشر وسيطرتهم. تتدخل رؤية كوتزي وغوردنيمر البيئية بشكل أكبر في المناقشات الأوسع داخل النظرية النقدية البيئية، لا سيما الاختلافات بين التقاليد الفلسفية المستمدة من هيدغر (Heidegger) ولفيناس (Levinas). أحد الموضوعات الأساسية في الروائيتين هو توصيف الطبيعة بأنها الآخر. تعيد الروائيتان تخيل تصادم الذات البشرية مع الآخر غير البشري من انفصال مهيم إلى اعتماد متبادل توافقي متعاطف. يشكل هذا أساس العلاقات الأخلاقية بين البشر والطبيعة. تعارض الروائيتان فكرة أن الطبيعة غير البشرية والذات البشرية منفصلتان البتة، بل تقدمان ترابطاً أخلاقياً بينهما. هذه الاستمرارية بين البشري وغير البشري تقوض الفصل الثنائي الذي يرى بلوموود أنه أساس للإمبريالية.

الكلمات الرئيسية: النقد البيئي، ما بعد الإمبريالية، جنوب أفريقيا، ج. م. كوتزي، نادين غوردنيمر.

أنت لا «تمتلك» بلداً بتوقيع قصاصة من الورق بالطريقة التي اشتريت بها سند ملكية تلك المزرعة. (غوردنيمر، «المحافظ»).

في حلم يقظة بشأن مزرعته، يتذكر مهرنغ (Mehring)، بطل رواية نادين غوردنيمر المحافظ، محادثة أجراها مع عشيقته بشأن ناميبيا. إن المقارنة التي تجربها بين امتلاك بلد ما وامتلاك مزرعة ما تكشف بشكل خاص أن الزراعة والاستعمار هما أساساً منظومتان لامتلاك الأرض والسيطرة عليها واستغلالها. في سياق الفصل العنصري، يمثل مهرنغ طبقة مالكة من المستوطنين الأوروبيين الذين يظهرون، بحكم امتيازهم العنصري والسياسي والمالي، أنهم «يمتلكون» جنوب أفريقيا. بالنسبة لمهرنغ لا تمثل ملكية المزرعة ملكية قانونية فحسب، بل تمثل أيضاً استغلالاً للطبيعة لتحقيق مكاسب شخصية. لاحظت إليزابيث دي لوغري (Elizabeth DeLoughrey) وجورج هاندلي (George Handley) أن الطبيعة تشكل خطابياً الآخر في خطابات الاستعمار والعنصرية والتمييز والجنس والهيمنة الطبقية. إن الهياكل المادية للاستعمار، كما لاحظ ويليام آدمز ومارتن موليفان، تستند إلى استغلال الطبيعة باسم المسعى الإمبراطوري، خضعت الشعوب والطبيعة للغزو والسيطرة، وجرى تسخيرها وتحويلها لتخدم مشاريع التحسين الزراعي، والتصنيع والتجارة. وبالتالي، فإن الإمبريالية ليست مجرد سيطرة على المنطقة السياسية، بل هي أيضاً استعمار الطبيعة نفسها.

تلاحظ الناقدة النسوية البيئية، فال بلوموود، أنه «يمكن تطبيق مفهوم الاستعمار مباشرة على الطبيعة غير البشرية نفسها» وأنه «يمكن وصف العلاقة بين البشر، أو مجموعات معينة منهم، والعالم الأكبر من البشر بأنها إحدى علاقات الاستعمار». وتزعم أن لخطابات استعمار المركزية الأوروبية والاستغلال الأنثروبولوجي للطبيعة البنية المنطقية نفسها، وتهاجم مبادئ التنوير الأوروبي التي تعتقد أنها المكونة لكل من هاتين الأيديولوجيتين. يخلق الخطابان ثنائيات أساسية بين الأنا والآخر، بين الإنسان وغير الإنسان،

بين العقلاني وغير العقلاني (5-54). ما يلي هو الإقصاء الجذري للآخر، وفي هذه الحال الطبيعة غير البشرية، وتمثيلها بأنها أدنى من الذات البشرية وتخضع لها. ثم، تنكر هذه الخطابات فاعلية الآخر حيث تُمثل الطبيعة بأنها خلفية غير أساسية وغير حية للتطور التكنولوجي البشري (بلوموود 7-56). الآخر هو أيضاً مجرد إضافة لغايات المستعمر (بلوموود 59) حيث تُستغل الطبيعة من أجل مكاسب اقتصادية. ليكون نقد خطابات الإمبريالية فعّالاً، يتطلب كفاهاً أخلاقياً مستداماً ضد استثمار الطبيعة.⁽¹⁾ وفقاً لبلوموود، إن هذا النمط من النقد «حركة مزدوجة» تحدد قرابة واستمرارية الآخر غير البشري مع الذات البشرية بينما تدرك في الوقت نفسه تنوعها وفعاليتها (60). بالنسبة إلى دلوغري (DeLoughrey) و (Handley)، إن هذا النقد ممكن عبر ما يسميانه، بعد إدوارد غليسان، «جمالية الأرض»،⁽²⁾ وهي جمالية تتجنب التصوّف القديم للمكان وتخرط في نقد إيكلوجي لنماذج الاستهلاك والإقصاء والهيمنة. أسهمت نادين غوردنير وج. م. كوتزي في النقد الإيكلوجي للفصل العنصري عبر هذه الجمالية للأرض. عبر كتابتهما عن الطبيعة في أعمالهما خلال حقبة الفصل العنصري، لا سيما كتاب كوتزي، حياة وزمن مايكل كي، وكتاب نادين غوردنير، المحافظ، اللذان ينتقدان الممارسات الخطائية للإمبريالية التي من خلالها يجري تشكيل الطبيعة والسود على أنهما الآخر وفصلهما عن الأنا الاستعمارية البيضاء. يمثل مهرنغ الهيمنة العرقية للبيض والاستغلال المتمحور حول الإنسان للطبيعة لتحقيق مكاسب شخصية. من جهة أخرى، مايكل كي غريب عن دولة الفصل العنصري والسرديات البيضاء التي تحاول فرض معنى عليه. الآخر، سواء الطبيعة أو كي، يتحدى لغة وسيطرة الذات البيضاء، متمثلة بمهرنغو المسؤول الطبي. علاوة على ذلك، تعيد غوردنير وكوتزي تخيل العلاقة بين الذات والآخر. من خلال كتابتهما عن الطبيعة، يستعيدان فاعلية الآخر وتنوعه. يحقق المحافظ هذا من خلال استخدام نص فرعي مستمد من أساطير الأمازولو ليلغي سردية مهرينغ. في رواية مايكل كي، يحقق كي السمو من خلال قرابته بالطبيعة. تقدم الروايتان استمرارية أخلاقية بين ذات الإنسان والآخر غير البشري، ما يقوّض الفصل الراديكالي الضمني بينهما في الخطابات الإمبريالية.

تعدّ المواجهة مع الآخر أحد أكثر الموضوعات تأثيراً في الفلسفة في البر الأوروبي (continental) إلى جورج فيلهلم فريدريش هيغل، الذي يجادل في فينومينولوجيا الروح أن الذات توجد «بحسب حقيقتها بالنسبة إلى الآخر؛ أي، أنها غير موجودة إلا في اعتراف الآخر بها» (§178). هذه المواجهة مع كائن آخر «أحادية الجانب وغير متكافئة» (§191)، وتبلغ ذروتها فيما يصفه بأنه هرمية «السيادة» و«العبودية»⁽³⁾

(1) ومع ذلك، يجادل روب نيكسون بأن هناك «انقسامات» معرفية بين ما بعد الاستعمار والنزعة البيئية (راجع «حماية البيئة وما بعد الاستعمار»). ردأ على ذلك، قام DeLoughrey و Handley بالتوفيق بين كل من الأجناس النقدية (5-24)، خاصة في القسم اللاحق حول إمكانية «جمالية الأرض» (8-27). يتضح أيضاً من تحليل بلوموود أن انتقادات الإمبريالية واستغلال الطبيعة البشرية تتمحور حول الكثير من الأرضية المشتركة وأن كلاً مما بعد الاستعمار والنزعة البيئية يجب أن يدخل في حوار.

(2) تتأثر هذه الفكرة أيضاً بفكرة غاياتري تشاكر فورتي سبيفاك عن «كوكب الأرض» (راجع سبيفاك 77).

(3) تختلف المصطلحات باختلاف الترجمة. يستخدم ميلر مصطلحي «سيادة» و«عبودية». يفضل بعض المعلقين استخدام «السيد» و«العبد» عند مناقشة هذا الجدل بالعامية راجع (see Beiser 188; Singer 60)

(§189). هذه الهرمية غير مستقرة بطبيعتها لأن ذات السيد تتحقق من خلال العبد، وبالتالي فهو يعتمد على الآخر (§190)، في حين أن العبد يمتلك في جوهره ما يسميه هيغل «الوجود الخالص لذاته» ويحقق استقلاله تدريجياً بعمله (§6-194). لهذا الديالكتيك تأثير قوي في تحليل الإمبريالية والهيمنة.⁽⁴⁾ تماماً مثلما يحتاج السيد إلى اعتراف العبد من أجل وجوده، لا يمكن للذات الاستعمارية أن توجد إلا في مواجهة الآخر الذي تهيم عليه. في سياق الفصل العنصري، يشكل السود والطبيعة الآخر المستعبد، مقابل البيض والدولة السياسية بوصفها السيد. إن عدم استقرار هذه الهرمية بين السيد والعبد يقدم أسلوب تفككها الذاتي.

ينتقد كوتزي علاقة الهيمنة بين الأنا والآخر عبر تباين ما وراء النص بين نمطين من الآخر المختلف (alterity). تحاول سرديّة المسؤول الطبي، التي تمثل الذات الاستعمارية البيضاء، السيطرة على كي وإنكار هوية الآخر (otherness). في المقابل، تميز علاقة كي بالطبيعة شكلاً من أشكال التغيير المستمد من فلسفة إيمانويل لفيناس.⁽⁵⁾ على النقيض من هيغل، الذي تشكل التعددية بالنسبة إليه أساس الهرمية القمعية، فإن المواجهة مع كائن آخر، بالنسبة إلى لفيناس، التي يسميها علاقة «مباشرة» (facetoface)، هي أساس العلاقة الأخلاقية للأنا مع الآخر (الكلية واللانهاية 43؛ التغيير والتعالى 97). تبعث تجربة ضعف كي المشتركة مع الطبيعة واجباً أخلاقياً فيه لرعاية الآخر. من خلال الاهتمام بالطبيعة ورؤية نفسه كجزء من عالم أكبر من عالم البشر، يحقق كي شكلاً من أشكال التسامي. إن فكر لفيناس الأخلاقي استجابة لمفهوم مارتن هايدغر عن الدَازين (Dasein) بوصفه النمط الأساس للوجود. يقدم تعريف هايدغر للدَازين فهماً أنه الخاصة الأساسية التي تميز الدَازين من الأنواع الأخرى للوجود (الوجود والزمان §53:23 Gorner) يرفض لفيناس هذا وهو يحاول أن يثبت أن «الوضوح... [هو] سلطة ممارستها المفكر على ما يعتقد أنه تفكير تتلاشى فيه مقاومة الكائن بوصفه كائناً خارجياً» (TI124). كما يلاحظ سيمون كريتشلي (Simon Critchley)، إن مشروع لفيناس يصف علاقة «غير قابلة لاختزال الفهم» (11). والمواجهة المباشرة، بالنسبة إلى لفيناس، يجب أن تحدث قبل الفهم.

في كلتا الروايتين، يقاوم الآخر هيمنة الأنا البيضاء. في رواية المحافظ، يجري تمثيل هذا رسمياً بالطريقة التي يجري بها تعطيل سرديّة مهنرغ بالافتقادات من أساطير الزولو. تتبع هيمنة مهنرغ على الطبيعة والمزارعين السود إحدى بنيات هيغل للسيد والعبد. يميز تفكك وعيه عدم الاستقرار في موقعه كسيد. نظراً لأن مهنرغ يعتمد كلياً على مزارعيه، فإن وجوده يعتمد عليهم. يقتصب يعقوب، من خلال عمله، مركز سيادة مهنرغ. هذا أكثر ما يلفت الانتباه عندما ينقطع مهنرغ عن المزرعة بعد السيل ويُترك يعقوب في موقع المسؤولية. عندما تصاب إحدى البقرات بالتهاب الضرع، يفتش يعقوب منزل مهنرغ عن الدواء الذي يستخدمه عندئذٍ بنسخ ما رأى الطبيب البيطري يفعله ذات مرة (285). تتباين خبرته في

(4) جدل السيد / العبد مؤثر بشكل خاص في تحليل كارل ماركس للصراع الطبقي (سنجر 2-61). تتبع غوردنر جورج لوكاش وأنطونيو غرامشي في تقليد ماركسي مماثل في تفسيرها للإمبريالية والهيمنة. على سبيل المثال، تصف الحالة الوجودية للأفريقيين البيض خلال الفصل العنصري بأنها «حالة من وعي هيغل المحلل للتناقضات» في «العيش فترة خلو العرش» (381).

(5) لقراءة لفيناس روايات كوتزي، راجع Marais الأدب وعمل النبي» و«إمكانية العمل الأخلاقي».

تلقيح البقرة بشكل حاد مع عدم كفاءة مهرنغ كمزارع. ما هو موح بشكل خاص هو طريقة يعقوب، ففي أثناء بحثه عن الدواء، يفرز أمتعة مهرنغ كما لو أنه، بعد موت، يضع الأشياء جانباً مثل كلمات رمز ما أو رموز حياة ما لن تفهم أبداً بطريقة منطقية» (284). يقرأ كلينغمان هذا المشهد كأنه نبوي، حيث يحاول أن يثبت أنه «أثناء العاصفة، يبدو الأمر كما لو أن مهرنغ قد مات» (روايات نادين غوردنير 156). هذا القتل الرمزي لمهرنغ يكمل اغتصاب يعقوب سلطته.

علاوة على ذلك، يبدو أن الطبيعة نفسها تتورض ضد مهرنغ. أولاً، يدمر حريق معظم مزرعته، ثم يجرف الفيضان، الذي يرفع جثة الرجل الأسود المجهول المدفون في المزرعة، مهرنغ بعيداً. يلاحظ كلينغمان أن «الطبيعة، ككيان مجرد، تغدو قوة بذاتها في الرواية» (NNG159). إن قوى الطبيعة هذه مستمدة من أساطير الأمازولو، هي واضحة من الاقتباسات النبوية من كتاب هنري غالواي «أنظمة أمازولو الدينية» التي تلمس سردية مهرنغ. تلاحظ جودي نيومان أن هذه الأساطير تنشئ «نصاً فرعياً يلغي نص الثقافة العامة» (Nadine Gordimer, 55). إن قوى الطبيعة، مثل دورة النار والمطر في الرواية، ذات أهمية خاصة لاعتقاد الزولو حيث إن «صانعي المطر يحرقون الأرض... لاعتقادهم أن الرب يرى المنطقة السوداء ويعرف أن صانع المطر يبحث عن المطر» (Newman, Gordimer's The Conservationist, 33). علاوة على ذلك، تشير هذه الأساطير إلى أن لدى السكان الأصليين السود علاقة أخلاقية أعمق مع الطبيعة عبر أساطيرهم، حيث تغدو الطبيعة شكلاً من أشكال سلف الإنسان والآخر حيث تُحترم قوة الطبيعة واستقلاليتها، التي يُرمز إليها عبر الرب بدلاً من أن تُقَمَّع. (6) يصف هذا الغموض الطبيعة بأنها «لا يمكن تأويلها» و«مقاومة لفرض تدريبات الإنسان في صنع المعنى» (Ralgond Scholtmeijer, 260). بما أن هذا النص الأسطوري يطمس خطاب الاستعمار الأبيض، يبدأ وعي مهرنغ بالتصدع. (7) تغدو الطبيعة هي الذات في هذه الخطابات الأسطورية، الأمر الذي يقوض تمثيلها ككائن خاضع لسيطرة الإنسان. هذه النصوص الفرعية الأسطورية تستعيد قوة الطبيعة من استعمار البشر.

تنتقد إيرين غوراك رواية المحافظ لأنها لم تكن راديكالية بما يكفي لمعارضة الفصل العنصري (250). دافع غراهام هوغان (Graham Huggan)، وهيلين تيفين (Helen Tiffin) عن غوردنير على أساس أنه قلماً يكون ادعاء الرواية راديكالياً، بل مجرد تفكيك الفرضيات الأيديولوجية في الرواية الريفية plaasroman (103). ومع ذلك، فإن دفاعهما يحط من شأن راديكالية شكل الرواية ورؤيتها البيئية. إن تشظيتها لوعي مهرنغ يفكك الأيديولوجيات التي تسوّغ ملكية البيض ويعري الإفلاس الأخلاقي والوجودي للذات الاستعمارية البيضاء. يستعيد النص الفرعي الأسطوري في الرواية فاعلية الطبيعة ويقدم السود خطاب الزراعة الذي يُستثمر أخلاقياً في الأرض. ما تقدمه غوردنير هو رؤية نقدية بيئية متجذرة في لغة وأسطورة أفريقية. هذه هي السمات التي يجادل أنطوني

(6) على سبيل المثال، راجع مناقشة نيومان حول القصب الذي اكتشف فيه جسد الرجل الأسود هورمز للأسلاف السود حيث أن كلمة uthlanga «تعني «الأب» و«القصب» (Gordimer's The Conservationist, 32).

(7) يجادل كلينغمان كذلك أن الطبيعة لا تقوض هيمنة مهرنغ على المزرعة فحسب، بل تعطل أيضاً الوضع الذي يروي فيه تجربته الشخصية. لمزيد من المناقشة حول الشكل واللغة، راجع NNG 153.

فيتال (Anthony Vital) أنها ضرورية من أجل نقد بيئي أفريقي أمين لخصوصيات التجربة الأفريقية (نحو نقد بيئي أفريقي، 88). يتجاهل نقد غوراك (Gorak) هذه الجوانب الجذرية للرؤية البيئية في الرواية كما هي مستثمرة بعمق في المعارضة الأخلاقية والبيئية لهيمنة البيض على الطبيعة والسود أيضاً.

في مايكل كي، يقاوم كي فهم المسؤول الطبي. بادئ ذي بدء، أخطأ المسؤول الطبي في تسميته ويشير إليه بـ «مايكلز» على الرغم من اعتراضات كي (131). إنه في حيرة من أمره لفهم كي كما يحدث نفسه، «مايكلز يعني شيئاً ما، والمعنى الذي يحمله ليس خاصاً بالنسبة لي» (165). ويخطر في باله أيضاً أن حياة كي كانت «قصة رمزية... لمدى الفضيحة، والمدى الذي يمكن أن يتخذه المعنى في نظام من دون أن يغدو مصطلحاً فيه» (166). يمثل عدم قابلية تعريف معنى كي ما يسميه جاك دريدا (الاختلاف) (differance). يلاحظ دريدا أن الدالات لم تعد قائمة في التماثل الموثوق مع واقع موضوعي ما («البنية والدلالة واللعب» 225). يغدو المعنى لامركزياً لأنه «يذعن» للخطاب الذي يحدث فيه» (هوامش الفلسفة 7). علاوة على ذلك، يضيف المسؤول الطبي في خطابه الوهمي لـ كي، «هل لاحظت كيف انزلت بعيداً عندما حاولت أن أثبتك أسفل؟»⁽⁸⁾ يميز هذا الانزلاق بعيداً عن المعنى الطريقة التي لا تحتوي فيها المصطلحات الموجودة في الخطاب مرجعاً موضوعياً، لكن معناها يرضخ بلا حدود في خطاب ما لمفاهيم أخرى. إننا لفرضيات الأنطولوجية المكونة لوحدة المعرفة الاستعمارية، المثلة هنا بسردية المسؤول الطبي، تُكشَف هنا بوصفها بنى خطائية أكثر منها حقائق مطلقة. يبين هذا الانهيار اللغوي موقوتية المقولات المعرفية التي يستخدمها المسؤول الطبي لفهم حقيقته الواقعية. إن الأنماط الخطائية التي يُمثل كي فيها أنه الآخر غير مستقرة تماماً. يميز هذا التفكيك لسردية المسؤول الطبي انهيار اليقينيّات الوجودية في الذات الاستعمارية.

تناقض الرواية تفسيرين في المواجهة مع الآخر. يمثل المسؤول الطبي علاقة مهيمنة بين الذات الاستعمارية والآخر الأسود. بمحاولة فهم كي، يحاول المسؤول الطبي أن ينفي الآخر. إنه يعامل كي كشيء في الخطاب الاستعماري الأبيض. وبتفكيك هذه العلاقة، تقوض الرواية هذه الفكرة المهيمنة عن الآخر. على النقيض من ذلك، تمثل علاقة كي بالطبيعة نمطاً من الآخر حيث توجد ذات كي والآخر غير الإنسان في قرابة أخلاقية موضوعية. بدلاً من الهيمنة أو السيطرة على الطبيعة، يعبر كي عن تعاطف عميق مع الطبيعة. كي مخلوق من الأرض. يوصف كي باستخدام الصور الوراثة (chthonic)،⁽⁹⁾ كونه يعيش في مسكن تحت الأرض (100) ويصف نفسه لاحقاً بأنه «أكثر من دودة أرض... التي هي أيضاً نوع من كائنات البستان. أو خلد، وهو أيضاً من كائنات البستان، لا يروي القصص لأنه يعيش في صمت» (182).

(8) إنه لأمر مثير للانتباه تلك المواجهة بين المسؤول الطبي وكي التي تماثل للقاء بين غريبين في بداية رواية صموئيل بيكيت مولوي. يوازي نزييف اللغة لدى مايكل كي ما أشار إليه بريان ماكهيل على أنه سمة من سمات ثلاثية بيكيت. لاحظ النقاد أهمية بيكيت في أعمال كوتزي (Attwell, J.M. Coetzee I; Hayes 2) والتشابهات الأسلوبية العديدة بين أعمال مايكل كي وبيكيت إيماءات أخرى تجاه النقد ما وراء النص في انهيار اللغة.

(9) لمزيد من المناقشة حول كي كشخصية من عالم آخر chthonic راجع Wright «Chthonic Man»..

توضح هذه المقارنة إحساس «كي» بالوحدة مع الأرض. يوجد كي في ما يشير إليه رايت بأنه «تشابه سلبي غير لفظي مع الأرض» (2 Chthonic Man).

يجادل هوغان وتيفين أن كي يمثل رؤية أمومية رعوية مضادة ترفض «الأيدولوجيات المزدوجة للملكية البيض والسلطة الأبوية التي تستند إليها أنماط الرعي التقليدية في جنوب أفريقيا» (106). هذا مهم لا سيما عندما يتخيل كي نفسه جزءاً من سلالة الأمهات (117) وكيف يعدُّ البطيخات الطازجات أنها أطفاله (118). يمثل هذا شكلاً من أشكال القرابة مع الطبيعة والأرض. وعلى نحو حاسم، هذه العلاقة مع الطبيعة تحصل قبل الفهم، كما يعترف كي، عند التفكير في علاقته بالأرض، أنه لا يزال هناك «فجوة، حفرة، عتمة ردمها فهمه بعد ذلك» (110). في مصطلحات لفيناس، يشكل تعريف كي بالأرض قبل الفهم أساس علاقته الأخلاقية مع الطبيعة. تجربة الآخر هذه هي الطريقة التي تحقق الذات من خلالها التسامي أيضاً. يتضح هذا في الطريقة التي يتخيل بها كي نفسه وأمه «ينجذبان إلى أوراق العشب» (124) وبذلك يصيران جزءاً من المشهد الطبيعي، ويغذيها رمزياً بجسده. ترى بها أساطير أمازولو بالطريقة نفسها التي في كتاب الحفاظ على البيئة، الأسلاف جزءاً من الأرض، يرى «كي» والدته، وفي الواقع نفسه، أنهما يصيران جزءاً من الطبيعة. إنه لا يقيد نفسه في الأرض كما تفعل الذات البيضاء الاستعمارية. بدلاً من ذلك، يمحو آثار وجوده كلها. وفي حين يرى الخطاب الاستعماري أن ذات البشر منفصلة عن الطبيعة التي تسيطر عليها، يرى كي نفسه أنه صار جزءاً من الآخر غير البشري، ويجد التسامي في استمرارية كيانه مع الطبيعة. هذا يقوض الفصل المفرد بين الأنا والآخر الذي يرى بلوموود أنه يضمن استعمار الطبيعة.

إن قراءة مايكل كي هذه المستمدة من أخلاقيات لفيناس تدخل أوسع في سياق نظريات النقد البيئية. يلاحظ غريغ غارارد (Greg Garrard) أن النقد البيئي ينبثق بقوة من فلسفة هايدغر البيئية (30). ومع ذلك، يبدو أن غارارد يناشد فلسفة هايدغر الجمالية ونقاشه حول دور الفن في إنقاذ الأرض (32). تكمن مشكلة موقف غارارد في أن أنطولوجيا هايدغر تقلص العلاقات الأخلاقية بين الكائنات والآخر إلى فهم الدوازين. هذا يجعل الآخر مجرد شيء في فهم وعي البش، الأمر الذي يقلص أهميته الأخلاقية. يُعدُّ نقد لفيناس لأنطولوجيا هايدغر وثيق الصلة لأنه يؤكد على ذاتية الآخر، الأمر الذي يجعل الذات الموضوعية بين البشر والطبيعة أساس الأخلاق البيئية. بتقديم قرابة كي مع الطبيعة كأساس لتساميه، تقدم الرواية هذه الأنطولوجيا المضادة وتجعلها أساساً لعلاقات الإنسان مع الطبيعة. ومع ذلك، يلاحظ كريتشلي أن لفيناس يحتفظ بفكرة الآخر على أنها لا تنطبق إلا على البشر الآخرين. كانت هذه الفرضية مثيرة للجدل بين النقاد مثل دريدا Derrida وجون ليولين John Llewelyn (16، 16). ومع ذلك، بتعاطفه مع الحيوانات، مثل ديدان الأرض والمناجذ، وبقربته مع الطبيعة، يوسع المجال لأخلاقيات لفيناس لتشمل الكائنات غير البشرية، مثل الحيوانات أو المشاهد الطبيعية، بوصفها مهمة أخلاقياً. وجد منتقدو كوتزي أن أسلوبه المجازي مراوغ ومنعزل سياسياً. تزعم غوردنير أن الرواية «تفني طاقة الإرادة لمقاومة الشر» بما أنها لا تمثل بشكل كافٍ النضال الحقيقي الذي لا يعرف الكلل ضد الاضطهاد

الذي انخرط فيه السود في جنوب أفريقيا في ذلك الوقت («The Idea of Gardening» 401). (10) يدعي فيتال أيضاً أن الرواية ترفض بوضوح البيئة كموضوع لها («نحن نقد بيئي أفريقي» 91). يدافع ديفيد أتول David Attwell عن كوتزي بتوضيحه أنه بينما تتجنب الرواية التمثيلات الواقعية للنضال ضد الفصل العنصري، فإن أدوات ما وراء السرد في الرواية تقدم نقداً شاملاً للإمبريالية (ج. م. كوتزي 93). إن الشك ما وراء السرد تجاه سردية المسؤول الطبي يفك السلطة المعرفية في الذات الاستعمارية البيضاء. وتتجاهل انتقادات فيتال لكوتزي أيضاً نقد الرواية الأخلاقي والبيئي للإمبريالية. تقدم الرواية نقداً فيما وراء النص للمفاهيم المهيمنة عن الآخر التي من خلالها يخضع الآخر غير البشري أو الآخر العرقي للذات البيضاء، ويتجلى في الطريقة التي يعيد بها تصور مفهوم الآخر ويقدم القرابة مع الطبيعة كطريقة لتسامي الذات. مايكل كي، بعكس هذه الانتقادات، استثمر بعمق في مقاومة الظلم السياسي والبيئي للفصل العنصري.

يقدم كوتزي وغوردنير كلاهما، في مايكل كي والمحافظ، رؤية أخلاقية وبيئية راديكالية تدعو إلى مقاومة استعمار الطبيعة. يتركز الخطاب الاستعماري على الأفريقياني الأبيض بوصفه الأنا بينما تمثل الطبيعة وغير البيض بوصفهما الآخر. من خلال كتاباتهما عن الطبيعة في مايكل كي والمحافظ يستعيد كوتزي وغوردنير فاعلية الآخر ويجعلان الطبيعة موضوع الخطاب. تفكك غوردنير العلاقة المهيمنة بين الذات الاستعمارية والآخر غير البشري أو الأسود، وبالتالي تقدم تمرداً يقوم به الآخر ضد الهيمنة الاستعمارية. في المقابل، يقدم كوتزي نقداً فيما وراء النص لمفهوم الهيمنة عن الآخر الذي يجري من خلاله تكوين الذات الاستعمارية والآخر. إنه يقدم أنطولوجيا مضادة حيث تشكل المواجهة مع الآخر أساس الالتزامات الأخلاقية في الذات. وبتقديم الأساطير المضادة للخطاب الاستعماري، إما أسطورة أمازولو أو علاقة الأمومة بين كي والأرض، تقدم الروايتان استمرارية أخلاقية بين ذات الإنسان والطبيعة، وبالتالي تتوضان الفصل الأحادي بين الأنا والآخر الذي هو الأساس لاستعمار الطبيعة. وبالتالي، إن الروايتين أكثر راديكالية ودماراً في نقدهما للفصل العنصري مما يعترف به نقادهما. ■

المراجع:

Adams, William M. 'Nature and the Colonial Mind.' Decolonizing Nature: Strategies for Conservation in a Post-Colonial Era. Eds. William M. Adams and Martin Mulligan. London: Earthscan, 2003. 16-78 .

Adams, William M. and Martin Mulligan. Introduction. Decolonizing Nature: Strategies for

(10) يعدُّ نقد غوردنير لكوتزي أكثر المراجعات توازناً ومجبة للخير التي جرت مناقشتها مراراً وتكراراً من بين جميع المراجعات التي تشير إلى وجهة نظر مماثلة (رفض بعضها بشكل غير ملائم لكوتزي) من أجل نظرة عامة على مزاعم مماثلة لنقاد آخرين لرواية كوتزي بأنها مخادعة، راجع (Attwell, J.M. Coetzee 92-3 and Head, J.M. Coetzee 99).

- Conservation in a Post-Colonial Era. Eds. William M. Adams and Martin Mulligan. London: Earthscan, 2003. 1-15.
- Attwell, David. 'Coetzee and Post-Apartheid South Africa.' *Journal of South African Studies* 27.4 (Dec. 2001): 865-7.
- .---J. M. Coetzee: South Africa and the Politics of Writing. Oxford: University of California Press. 1993.
- Beiser, Frederick C. Hegel. New York: Routledge, 2005.
- Clingman, Stephen. 'History from the Inside: the Novels of Nadine Gordimer.' *The Journal of South African Studies* 7.2 (Apr. 1981): 165-93.
- .---The Novels of Nadine Gordimer: History from the Inside. London: Allen & Unwin, 1986.
- ' .---Revolution and Reality: South African Fiction in the 1980s.' *Rendering Things Visible: Essays on South African Literature Culture*. Ed. Martin Trump. Johannesburg: Ravan, 1990. 41-60.
- Coetzee, J. M. *Life & Times of Michael K*. 1983. London: Vintage, 2004.
- Critchley, Simon. 'Introduction.' *The Cambridge Companion to Levinas*. Eds. Simon Critchley and Robert Bernasconi. New York: Cambridge University Press, 2002. 1-32.
- DeLoughrey, Elizabeth and George B. Handley. Introduction: Toward an Aesthetics of the Earth. *Postcolonial Ecologies: Literatures of the Environment*. Eds. Elizabeth DeLoughrey and George B. Handley. Oxford: Oxford University Press, 2011. 3-39.
- Derrida, Jacques. *Margins of Philosophy*. Trans. Alan Bass. Chicago: Chicago University Press.
- ' .---Structure, Sign and Play in the Discourse of the Human Sciences.' *A Postmodern Reader*. Eds Joseph Natoli and Linda Hutcheon. Albany: State University of New York Press, 1993. 223-42.
- Findlay, J.N. *Analysis of the Text. Phenomenology of Spirit*. By G.W.F. Hegel. Trans. A.V. Miller. Oxford: Oxford University Press, 1977. 495-591.

- Garrard, Greg. *Ecocriticism*. London: Routledge, 2004.
- Gorak, Irene. 'Libertine Pastoral: Nadine Gordimer's *The Conservationist*.' *Novel* 24.3 (Spring 1991). 241–56 :()
- Gordimer, Nadine. *The Conservationist*. 1974. London: Bloomsbury, 2005.
- .---*The Essential Gesture: Writing, Politics & Places*. New York: Alfred A Kopf, 1988.
- '---*The Idea of Gardening*.' *The New York Review of Books*, 2 Feb. 1984. Rpt. in *Telling Times: Writing and Living 1954–2008*. London: Bloomsbury, 2010. 396–403.
- Gorner, Paul. *Heidegger's Being and Time: An Introduction*. Cambridge: Cambridge University Press, 2007.
- Hayes, Patrick. *J. M. Coetzee and the Novel*. Oxford: Oxford University Press, 2010.
- Head, Dominic. 'The (Im)Possibility of Ecocriticism.' *Writing the Environment: Ecocriticism and Literature*. Eds. Richard Kerridge and Neil Sammells. London: Zed Books, 1998. 27–39.
- .---J. M. Coetzee. Cambridge: Cambridge University Press, 1997.
- .---Nadine Gordimer. Cambridge: Cambridge University Press, 1994.
- Hegel, Georg Wilhelm Friedrich. 1807. *Phenomenology of Spirit*. Trans. A.V. Miller. Oxford: Oxford University Press, 1977.
- Heidegger, Martin. *Basic Writings*. Ed. David Farrell Krell. London: Routledge, 1993.
- .---*Being and Time*. Trans. John Macquarrie and Edward Robinson. Oxford: Blackwell, 1962.
- Huggan, Graham and Helen Tiffin. *Postcolonial Ecocriticism: Literatures, Animals, Environment*. London: Routledge, 2010.



• د . ميسون علي

مسرح البيئة المحيطة

كان التجريب ولا يزال الدافع الأول لتطور المسرح منذ ولادته، وصفة التجريبية في المسرح لم ترتبط بنوع أو تيار فني محدد أو بعمدة زمنية محددة أو بحركة مسرحية ما، وقد تطور التجريب في المسرح منذ البداية ضمن أطر متنوعة أخذت تسميات عدة وطالت النص والعرض، لكن القاسم المشترك لهذه الحركات التجريبية كان الرغبة في تطوير العملية المسرحية جذرياً، وإذا كان التجريب المسرحي في بدايته قد طال الشكل وارتبط بالحدثة وبتطور فن الإخراج وبالبحث عن صيغ جديدة وجماليات متنوعة، فإن سمته الأساسية في مرحلة لاحقة تجلت في محاولة الانفتاح بالمسرح على بقية الفنون، وفي خلق علاقة مختلفة مع الجمهور وتوسيع هامشه. وبذلك أخذ التجريب منحىً جمالياً فنياً ومنحىً إيديولوجياً. وقد ارتبطت حركة التجريب في المسرح بتطور العلوم الإنسانية وتأثيرها على مناهج قراءة المسرح، وبظهور مجالات متخصصة ترصد هذه الحركات على الصعيد العالمي.

كذلك شمل التجريب في المسرح صيغاً ومحاولات متفرقة متنوعة الطابع والهدف، منها «مسرح الحجرة» و«مسرح الجيب» و«المسرح الحميمي»، والسمة المشتركة بينها هي الرغبة في تقديم العرض في مسارح صغيرة لعدد قليل من المتفرجين المهتمين. ومنها التجمعات المسرحية مثل «التجمع الرباعي»، الذي أسسه في فرنسا المخرجون غاستون باتي ولوي جوفيه وجورج بيتوييف وشارل دولان، للمطالبة باستقلالية الفن والإخراج عن المؤسسة، والابتعاد بالمسرح عن الطابع التجاري، وما قدمه الأميركي ريتشارد شيشنر R. schechner (1934 -) الذي قدم تجربته في «مسرح البيئة المحيطة»، وفرقة «مسرح الشمس» للفرنسية أريان منوشكين (1939 -)

• محاضرة في المعهد العالي للفنون المسرحية .

مسرح البيئة المحيطة:

دعا ريتشارد شيشنر، كاتب ومخرج ومُحرّر في مجلة استعراض الدراما The Drama Review وهي من أكثر الدوريات المسرحية أهمية في العالم، أستاذ الفن في «مدرسة تيش للفنون» Tisch School of the Arts إحدى مدارس جامعة نيويورك، ومؤسس «مجموعة الأداء» Performing group، دعا إلى ما أسماه «مسرح البيئة المحيطة» Environmental Theatre، له عدة مؤلفات منها: «مسرح البيئة المحيطة» (1972)، «نهاية الإنسانية» (1982)، «بين المسرح والأنثروبولوجيا» (1985)، «مستقبل الطقوس» (1993)، «نظرية الأداء» (2003)، «على، تحت، وحول: مقالات في فن الأداء والثقافة» (2004).

شرح ريتشارد شيشنر مبدأ عمله في كتابه «ستة شروط بديهية لمسرح البيئة المحيطة»، وهي تسمية تُطلق على أسلوب في العمل المسرحي، وعلى شكل عرض خاص تطوّر أساساً في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين في الولايات المتحدة، وكان هدفه إزالة الفصل التقليدي بين الممثل والمتلقي، وبناء علاقة مختلفة تقوم على التفاعل بينهما وبين البيئة المحيطة التي تُستخدم في العرض.

تزامن ظهور هذا النوع من المسرح مع موجة العروض التجريبية خارج نطاق المؤسسة وبعيداً من نطاق العروض التجارية ومنها عروض تيار Off Broadway، إذ تكوّنت مجموعات عمل تبنت صيغة الإبداع الجماعي بإشراف مخرج أو منظر مسرحي، منها مجموعة المسرح المفتوح Open Theatre التي أسسها الأمريكي جوزيف شايكين (1935-)، وفرقة المسرح الحي Living Theatre التي أسسها جولييان بيك وجوديث مالينا، وفرقة «خبز ودمى» Bread and puppet التي أسسها بيتر شومان. وتدرج في الإطار نفسه تجربة المخرجة أريان منوشكين (1939-) مع فرقة مسرح الشمس Theatre du Soleil، عندما حوّلت مصنعاً قديماً للأسلحة في ضاحية فانسين الباريسية، إلى مجمع مسرحي، وقدمت عروضاً تتميز بتجديد وتنوع علاقة الفرقة.

صيغة الإبداع الجماعي:

اعتمدت فرقة شيشنر على أسلوب العمل الجماعي على مستوى الفرقة، Collective creation، وهو أسلوب في تحضير العرض يقوم على مشاركة مجموعة من الأشخاص متعددي المواقع والإمكانات (كاتب - مخرج - دراماتورج - سينوغراف - وممثلين والعاملين في المسرح)، يعملون معاً في إطار فرقة مسرحية، وأسلوب العمل الجماعي هذا لا يستند إلى مبدأ توزيع المهام التقليدي، وإنما يقوم على المشاركة في كافة مراحل تحضير العمل. وصيغة الإبداع الجماعي هي جزء من ردة الفعل على توجّه التخصص، والعمل القائم على المراتب في المجتمع التكنولوجي في الدول الرأسمالية. كما أنها ترافقت مع محاولة استعادة شكل الحياة الجماعية، والبحث عن الأخلاقيات الخاصة بالمجموعة، ومحاولة إلغاء الفروق بين الفن والحياة وتحقيق التداخل بينهما. وتعتبر صيغة الإبداع الجماعي محاولة للخروج من أطر المسرح التقليدي الذي يبحث عن تحقيق الربح التجاري، ووسيلة للتخلص من أزمة النص والريبرتوار، وردة فعل على طغيان المخرج. ومع العمل الجماعي عاد الممثل ليحتل مركز الصدارة في عروض الفرق التي تتبنى هذا الأسلوب، وعاد ارتجال الممثل ليُشكّل أساس بناء العمل المسرحي.

ارتبط الانطلاق من فكرة محددة وصياغة النص والعرض في آن معاً، واعتماد الإبداع الجماعي كأسلوب إخراجي، وصيغة الإبداع الجماعي بصيغة التجريب في المختبرات والمحترفات المسرحية، حيث يكون العمل المسرحي نتاج التقاء خبرات متنوعة، وحيث تكون مرحلة الإعداد للعرض أهم من العرض ذاته.

خصوصية «مسرح البيئة المحيطة» وجماليات العرض:

عالج «مسرح البيئة المحيطة» أزمت الإنسان المعاصر بما أنتجته من أحداث سياسية، وما تركته الحروب من دمار على أوضاع الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والنفسية، وربط «مسرح البيئة المحيطة» بين المسرح والحياة باعتبار أن ما يحدث في المسرح هو رديف للحياة.

واعتبر ريتشارد شيشنر البيئة بأنها المحيط الدائم والمحتوى والمشاركة والفاعلية في الأنظمة الحياتية، ويرى أن البيئة حيث بدأت الحياة وقد تأثرت بالكائنات الحية وبالأحداث الطبيعية، مثل (ثوران البراكين والبقع الشمسية والعواصف) ورأى شيشنر أن العلاقة بين ما هو طبيعي وبشري أمر معقد، فمن الممكن ألا يؤثر الإنسان في الأحداث الطبيعية، لكن الفعل الإنساني يؤثر في المناخ وعنف وطأته.

هذا النوع من العروض يُقلل من شأن النص المسرحي، لا بل ويستغني عنه أحياناً، ففي بعض الأحيان تقوم الفرقة بتأليف نصوصها الخاصة، أو تتعامل مع النص بشكل يخرق المفهوم التقليدي للعملية المسرحية. وحتى عندما قدمت عروضاً مأخوذة من نصوص معروفة، كان النص مجرد ذريعة ومادة أولية لتحضير العرض.

ويتميز «مسرح البيئة المحيطة» بالرفض القطعي للإيهام وتقليد الواقع في المسرح، وباستخدام خاص للفضاء المسرحي بمكونيه حيّز اللعب وحيّز الفرجة، مع توزيع أماكن التوتّر ضمن الفضاء، ومع استخدام بيئة المكان بمجملها (أشجار، أكوام حجارة، معامل قديمة، مرآب سيارات، شواطئ مهجورة) في العرض الذي يأخذ شكله تبعاً لطبيعة المكان، ما يجعل فضاء العرض عنصراً فعّالاً وأساسياً، وليس مجرد إطار مكاني يحتوي العرض. وقد كان لهذا التوجّه أثره في تعديل النظرة إلى المكان المسرحي في المسرح المعاصر، أي أن خصوصية الفضاء هي التي تقرّر خصوصية النص والعرض في كل مرة، وكثيراً ما يجري أداء هذه العروض في أماكن الحياة اليومية مثل: مرآب السيارات، أو المجمعات التجارية، أو مساح تشيّد مؤقتاً في أماكن مثل الأزقة المسدودة أو الأراضي الخراب، أو في مساح ثابتة تُبنى خصيصاً وفق مبدأ مسرح البيئة المحيطة، والعمارة المسرحية التي تتلاءم مع هذا الشكل، وتفترض صالة صغيرة لا تستقبل أكثر من مئة متفرّج، كما أنها تحوي مستويات متعدّدة تُستخدم للممثلين والمتفرجين، ولا توجد فيها مقاعد ثابتة ما يسمح للمتفرّج بالتحرك وتغيير زاوية الرؤية أثناء العرض، وقد يؤدي الممثلون أدوارهم بين المتفرجين بنوع من التوجّه المختلف للجمهور، يقوم على الاقتحام السمعي والبصري، ويركز على التفاعل بين العرض والمتفرّج، وعلى جعل المتفرّج جزءاً من المشهد، وعنصراً من عناصر الإنتاج.

إن الإضاءة في هذه العروض مكوّن مهم من المكوّنات الدرامية، يمكن أن تكون بسيطة جداً في الأماكن المفتوحة، في الهواء الطلق، أو معقدة ومتطورة تقنياً في المساح المشيّد، لكنها، في كل حال، إضاءة مطواعة

تدخل ضمن لعبة علاقة المتفرّج بالعرض، وقد تصل إلى حد جعل المتفرّج يتحكّم بتسليط الضوء على الممثل بشكل يشعر معه أنه مشارك مباشر في إنتاج المعنى. ففي العرض الذي قدمته في نيويورك مجموعة «مشروع مانهاتن المسرحي» Manhattan Project theatre group مسرحية «نهاية اللعبة» لصموئيل بيكيت، استخدمت ستارة من الإضاءة، تضع الممثل في ما يشبه القفص الضوئي، وتُترك للمتفرّج أن يعدلها كما يريد، لا سيما وأن هذه الستارة تسمح للمتفرّج بأن يرى الممثل، وليس العكس. كذلك نجد في عروض «مسرح البيئة المحيطة» أحياناً مصادر ضوء متعددة ومختلفة مثل الشموع والقناديل، وبالتالي تغدو الإضاءة من العناصر المهمة، التي يمكن أن تُحقق كسر الإيهام في هذه العروض. من جانب آخر يُعتبر جسد الممثل منبعاً للصوت، الأمر الذي يُخضع حركته في الفضاء لمسار محدد. كان ريتشارد شيشنر يطلب من الممثلين رسم خريطة سمعية للمكان قبل تقديم العرض.

بين الأنتروبولوجيا ومسرح البيئة المحيطة :

عرفت الأنتروبولوجيا بأنها «علم دراسة الإنسان»، أما أنتروبولوجيا المسرح فهي لا تُشكّل علماً مستقلاً، بل توجهاً في البحث المسرحي، يغطي مجالات عديدة تشمل من جهة الدراسات التي اهتمت بالظواهر الأنتروبولوجية الموجودة في المسرح، ومن جهة أخرى الظواهر المسرحية في المجتمعات البدائية، وكان لهذا التوجّه تأثيره في الممارسة المسرحية. يُعتبر غروتوفسكي (1933-) أول من تعامل مع الأنتروبولوجيا في المسرح كعلم، وقد تأثر به وتابع عمله تلميذه الإيطالي يوجينيو باربا (1937-) الذي كان أول من أطلق تعبير «الأنثروبولوجيا المسرحية» حيث أسّس عام 1979 «المدرسة العالمية للأنثروبولوجيا المسرحية I.S.T.A». وقد عرّف هذا المجال بأنه «دراسة تصرفات الإنسان البيولوجية والثقافية وهو في حالة العرض» أي حين يستخدم حضوره الجسدي والذهني حسب مبادئ مختلفة عن تلك التي تتحكّم بالحياة اليومية. وبناءً على ذلك يتركز العمل على تدريب الممثل وأدائه وعلى مفهوم حضور الممثل، وعلى الأخص المرحلة التي تسبق التعبير لديه، التي أطلق عليها اسم «ما قبل التعبير». وهذا ما تطرّق إليه المسرحي ريتشارد شيشنر، ودرس العلاقة ما بين الطقس Rite والمسرح أيضاً، لأن «الأنثروبولوجيا المسرحية» تستعير أدواتها ولغتها من علم الأنتروبولوجيا، لا سيما في مجال دراسة الطقوس والاحتفال، كظاهرة فيها بُعد مسرحي تتجذّر في ما هو اجتماعي، وهذا ما تطرّق إليه ريتشارد شيشنر، أي العلاقة ما بين الطقس والمسرح، فقد أراد أن يحول فضاء العرض إلى طقس، إذ على الرغم من خصوصيته، يبقى الطقس على علاقة ما بالمسرح وبأشكال الفرجة كسيرورة وكبنية. فالطقس والمسرح يخلقان حالة قطع مع ما هو ذو علاقة بالحياة اليومية. حيث يلتقي المقدّس واللعب في كونهما يشغلان في الحياة اليومية موقفاً مختلفاً على صعيد الزمان والمكان، وهذا ما استلهمه في تجربته مع فرقته في «مسرح البيئة المحيطة». فثمة في الطقس والمسرح عزل لفضاء ما عن فضاء الحياة اليومية (فضاء الطقس/ فضاء الحياة اليومية)، ويخلق الطقس والمسرح زمناً مختلفاً عن الزمن المعاش. من جانب آخر، إن وجود العرف والعننية والطابع الجماعي للممارسة، يُدخل حالة المسرحية على الطقس وعلى المسرح، وعلى مستوى الأداء حيث يحتاج المؤدي في الطقس إلى عملية تدريب لتحقيق نوع من الانسجام مع سيرورة الاحتفال، وهذا التدريب يتطلب،

أحياناً، سيطرة على الجسد ومعرفة به، وفي المسرح حيث يحتاج الممثل إلى خبرة ومملكة نفسية وجسدية تسمح له بتنظيم أدائه. أما فيما يتعلق بالغاية، فإن الغاية الأساسية من العرض المسرحي ومن الطقس هو خلق حالة من التواصل، بغض النظر عن نوعية هذا التواصل، ولكي يتم هذا التواصل لا بد من معرفة قواعد اللعبة. إن التداخل الذي يحدث بين المؤدي والمشارك في الطقس هو فضاء العرض وجسد المؤدي والامتداد الزمني والإيقاع. بالإضافة إلى ذلك، يلعب التداخل المكاني بين المؤدي والجمهور دوراً أساسياً في شكل العرض ويُعطي للمتلقي خصوصية. العرض هو فعل تواصل بين القائم على العرض ومتلقيه. انطلاقاً من أن المؤدي في «مسرح البيئة المحيطة» ليس ممثلاً يؤدي دوراً مرسوماً، بل هو مؤلف ومُنتج لفعل آني ومُتغيّر حسب ردود أفعال الجمهور، فإن هذه العروض تفترض نوعاً خاصاً من التلقي يقوم على تورط المتفرج ومساهمته الفعّالة في العرض، لذلك يتم الحديث هنا عن مشاركين، لا متفرجين.

وقد لعب علم التجاور (Proxémique) الذي يتناول علاقة الإنسان بالآخرين ضمن المكان دوراً أساسياً في تطوير البحوث حول تأثير شكل المكان على الإدراك والإحساس بالفضاء وكل ذلك أدى إلى خلق نمط جديد من العلاقات بين المتفرج والممثل، ينفي الفصل بينهما، ويرمي إلى مزيد من المشاركة، وتعتبر تجربة شيشنري في «مسرح البيئة المحيطة» من الأمثلة التي يمكن أن تُشكّل الحد الأقصى في تعامل مختلف كلياً مع المكان. ■

مراجع ومصادر البحث:

- إلياس (ماري) - قصاب حسن (حنان)، المعجم المسرحي، مكتبة لبنان، بيروت، 1997.
- Barda (Euginio), Theatre Anthropology, Odin Theatre Nordisk Laboratorium Archived from the original on 30 october 2008 Retrieved 6March 2010 .
- Schechner (Richard) , Performance Studies , Routledge. 18 March , 2020 .



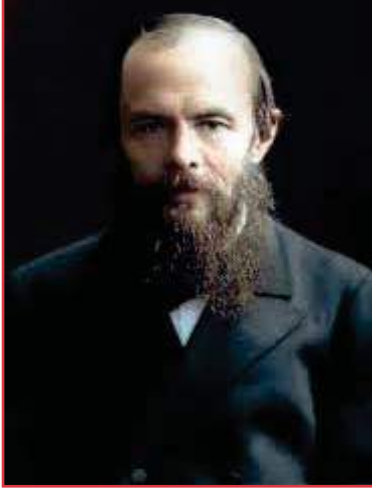
Incident 1, 2014



جسور الإبداع



Haunted, 3 2005



بولز ونكوف

تأليف: فيودور دوستويفسكي

- ترجمة: د. نائير زين الدين

فيودور دوستويفسكي (1821- 1881) (Fiodor Dostoïevski): روائي وكاتب قصص قصيرة وصحفي وفيلسوف روسي. من أهم أعماله الجريمة والعقاب، الأخوة كارامازوف.

بدأت أُحَدِّقُ في هذا الرجل، فقد كان في مظهره الخارجي ما يميّزه بحيث يجبرك فجأة، حتى ولو كنتَ شارد الفكر، على تركيز نظرك عليه باهتمام ومن فوركٍ تنفجر في ضحك لا ينقطع. وهذا ما حدث لي. وتجدر الإشارة إلى أن عينيّ هذا الرجل الصغير كانتا كثيرتي الحركة - أو لنقل أخيراً إنه هونفسه، بصورة تامة، استسلم لمغناطيسيّة كل نظرة توجّه إليه، حتى إنه يخمّن غريزياً أنّ ثمة من يراقبه، فيستدير من فوره نحو مراقبه ويحلّل قلقاً نظرته. لقد كان بحركته الأبدية، وخفة تلك الحركة، أشبه ما يكون بدوّارة الريح.

أمرٌ غريب! كان كما لو أنّه يخشى السخرية، في حين كان يكسبُ خبزه من كونه مهرّج الجميع، ويتلقى على رأسه كل اللطامات، بالمعنى الأخلاقي، وحتى الجسدي، وفقاً للمجموعة التي يوجد فيها. المهرّجون المتطوّعون ليسوا حتى ممن يثيرُ الشفقة. لكنني لاحظت من فوري أن هذا المخلوق الغريب، هذا الرجل الصغير المضحك، لم يكن مهرّجاً ممن يمتهنون التهريج على الإطلاق. ما زال في الرجل ما هو نبيل. إن تملّله، وخوفه الأبدي المهووس على نفسه، يشهدان له بذلك.

• شاعر ومترجم سوري.

بدأ لي أن رغبته في خدمة الناس نابعة من طيبة قلبه، وليس من طمع بالفائدة المادية. لقد سمح لهم بسرور أن يضحكوا ملء حلقهم، وبطريقة غير محتشمة، أمامه، لكن في الوقت نفسه - وأنا أقسم على ذلك - كان من شأن قلبه أن يؤلمه وأن ينزف من جراء فكرة مفادها أن مستمعيه كانوا خسيسين وقساءة قلوب لدرجة أنهم كانوا قادرين على الضحك ليس بسبب المادة التي يقدمها، بل عليه هو نفسه، على كيانه كله، على قلبه، ورأسه، على مظهره، على لحمه ودمه معاً. وأنا واثق من أنه شعر في تلك اللحظة بغباء ما هو فيه؛ لكن الاحتجاج كان يموت من فور، في صدره، على الرغم من أنه كان ينشأ في كل مرة نبيل الهيئة. وأنا على يقين من أن كل هذا لم يكن ليصدر إلا عن قلب طيب، وليس على الإطلاق من جراء الخسارة المادية التي يمكن أن تحدث فيما لو طُردَ دفعا بالأرجل، دون أن يأخذ شيئاً من المال من مُستمعيه: لقد كان هذا الرجل يستعطي المال دائماً، أي إنّه تسوّّل بهذه الطريقة، عندما أحسّ، بعد كل ما قدّم من تجهم وضحك أن من حقّه، أن يطلب المال. لكن يا إلهي! يا له من استعطاء! وبأي هيئة كان يطلب ذلك!

ما كان بإمكانني أن أتخيل أن مساحة صغيرة مثل هذا الوجه المتعصّن المدبّب للرجل الصغير، يمكن أن تضم كل تلك التجاعيد غير المتجانسة، وكثيراً من الأحاسيس المتنوعة والغريبة، وعديد من الانطباعات المميّزة، في الوقت نفسه. ما الذي لم يكن موجوداً فحسب في ذلك الوجه! ترى الخجل، والوقاحة الزائفة، والانزعاج مع الاحمرار المفاجئ، والغضب، وتهيبّ الفشل، وطلب الصفح جرّاء الجرأة على الإزعاج، والوعي بكرامته، وإدراكه التام لتفاهته. - كل ذلك ارتسم على وجهه وعبر مثل البرق.

ست سنوات كاملة شقّ طريقه في عالم الله بهذا الأسلوب، دون أن يتمكن من تشكيل شخصية لنفسه في لحظات الاستعطاء الشائقة! وغني عن القول إنه ما كان له أبداً أن يصبح متذللًا وخاضعاً تماماً. لقد كان قلبه حيويًا جداً وداقياً، بل سأقول أكثر من ذلك: في رأيي، كان هو الشخص الأكثر صدقاً ونبلاً في العالم، ولكن مع نقطة ضعف صغيرة: كان يمكن أن يفعل فعلاً دنيئاً بلطف وبلا مبالاة، عند أول أمرٍ يتلقاه، لإرضاء جاره فحسب. باختصار، لقد كان، كما يُقال، رجل خرقه بالكامل.

وما يبعث على الضحك أكثر من سواه أنه كان يرتدي الملابس نفسها التي يمكن أن يرتديها أي شخص آخر تقريباً، ليس أسوأ، وليس أفضل، ملابس نظيفة، حتى مع بعض الرقي، ومع الميل إلى الظهور صلباً ووقوراً.

هذا التوازن الخارجي واللاتوازن الداخلي، واهتمامه بنفسه وفي الوقت نفسه الاستخفاف المستمر بذاته - كل هذا شكّل تناقضاً صارخاً وكان يستحق الضحك والشفقة. ولو كان واثقاً في قلبه (وهو ما حدث له كل دقيقة على الرغم من تجربته) أن مستمعيه جميعاً كانوا ألطف الناس في العالم، وهم يضحكون على حقيقة مضحكة يرويها فحسب، وليس على شخصيته المنكوبة، فإنه سيخلع بكل سرور رداءه الخاص، ويرتديه مقلوباً ويمضي في هذا الرّي، لإرضاء الآخرين، ولتعتة الخاصة، عبر الشوارع، فقط لجعل رعاته فرحين راضين.

لكنه لم يستطع تحقيق المساواة والتوازن بأي شكل من الأشكال. وثمة صفة أخرى: غريب الأطوار هذا كان فخوراً بنفسه ومندفعاً، ما لم يكن ثمة خطر، بل كان شهماً.

وليتك استطعت أن ترى وتسمع كيف تمكّن، أحياناً ودون أن يجنّب نفسه الخطر، وتقريباً ببطولة، أن يؤدّب أحد رعاته، وكان قد أغضبه بالفعل. لكنّ ذلك كان لدقائق... باختصار، كان شهيداً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لكنه شهيد بلا نفع أو جدوى، ولهذا فهو مثارٌ للهزء والسخرية.

ونشأ خلاف عام بين الضيوف. فجأة رأيت غريب الأطوار يقفز مُعتلياً كرسياً ويصرخ بكل ما أوتي من قوة، راغباً في أن يعطوه وحده كلمةً استثنائيةً، همس لي المالك: "اسمع". -إنّه يروي أحياناً أموراً غريبة... فهل يثير اهتمامك؟ أو مات برأسي وانسلتُ في الحشد. بالفعل، أثار مشهد رجل نبيل يرتدي ملابس لائقة، يقفز مُعتلياً كرسياً ويصرخ بأعلى صوته: انتباه الجميع. نظرٌ كثيرٌ ممن لم يعرفوا الغريب من قبل في وجوه بعضهم بعضاً حائرين، وقهقهة آخرون ملء أفواههم:

- أعرّف فيدوسي نيكولايتش! أنا شخصياً يجب أن أعرّف فيدوسي نيكولايتش أفضل من أيّ شخص آخر! - صرخ غريب الأطوار من منصّته- أيها السادة، اسمحوا لي أن أخبركم، سأخبركم جيداً عن فيدوسي نيكولايتش، أعرّف واحدة من القصص - معجزة!

- تحدّث يا أوسيب ميخائيلوفيتش، تحدّث.

- أخبرنا.

- حسناً اسمعوا... اسمعوا، اسمعوا!!! - سأبدأ؛ لكن، أيها السادة، هذه قصة خاصة...

- جيد، جيد!

- إنّها قصة كوميدية...

- جيد جداً، ممتاز، ممتاز.

- ابدأ!

- إنّها حلقة من الحياة الخاصة لخدمكم الوضيع...

- لماذا إذن جهدت في إخبارنا إنّها كوميدية!

- وحتى إنّها مأساوية قليلاً!

- هاهاهاها!

- باختصار، إنّها القصة التي تجعلكم جميعاً سعداء بالاستماع إليّ الآن، أيها السادة، وهي القصة

التي جعلتني تحدّث إلى مجموعتكم المثيرة للاهتمامي هذه.

- لا تورية!

- تلك القصة...

- أنّهي المقدمات بسرعة، تلك القصة - القصة التي تستحق شيئاً، - قال شابٌ أشقر ذو شارب بصوت

أجش وهو يدفع يده في جيب معطفه، وكأنه يسحب محفظته عن غير قصد، بدلاً من مندبل:

- تلك القصة، يا سادة، التي لا أود أن أرى كثيرين منكم يشغلون مكاني فيها. وأخيراً تلك القصة التي

بنتيجتها لم أتزوج!

- تتزوج ... زوجة! ... بولزونكوف⁽¹⁾ أراد أن يتزوج!
- أعترف أنني كنت أود أن أرى مدام بولزونكوف الآن!
- اسمح لي أن أسأل ماذا كان اسم مدام بولزونكوف تلك - صرخ أحد الشباب وهو يشق طريقه إلى الراوي.

- وهكذا، الفصل الأول، أيها السادة: كان ذلك قبل ست سنوات بالضبط، في الربيع، في الحادي والثلاثين من آذار (مارس)، - لاحظوا التاريخ، أيها السادة، - عشية ...
- الأول من أبريل! قاطعه شاب أجعد الشعر.

- لقد حزرت بدقة يا سيدي. كان الوقت مساءً. وكانت الظلمة قد بدأت تتجمع فوق مركز مقاطعة N، والقمر يريد أن يخرج من خلف الظلمة ... حسناً، كان كل شيء كما ينبغي. لذلك، في وقت متأخر من الليل، خرجت بهدوء من شقتي، مودعاً جدتي الحبيسة الميتة. سامحوني أيها السادة، على استخدام مثل هذا التعبير العصري، الذي سمعته آخر مرة عند نيكولاي نيكولايفيتش. لكن جدتي كانت حبيسة تماماً: لقد كانت عمياء، صماء، بكماء، غبية - وما شئت! ... أعترف أنني كنت في حالة من الرهبة، كنت على وشك أن أفعل فعلاً عظيماً: كان قلبي ينبض مثل قلب قطعة صغيرة يقبض عليها مخلب عظيم من عنقها.
- من فضلك يا سيد بولزونكوف ماذا تحاول أن تقول؟! تحدث ببساطة، لا تجهد نفسك.

- حاضر يا سيدي - قال أوسيب ميخائيليتش منزعاً قليلاً - دخلت منزل فيدوسي نيكولاي تشوهو كما تعلمون، ليس زميلاً بالضبط، بل رئيس عمل على الأصول، أبلغوه بحضوري، وأخذوني من فوري إلى غرفة المكتب. وكما أتذكر الآن: غرفة مظلمة بالكامل تقريباً، ولم يقدموا لي شمعة. رأيت فيدوسي نيكولايتش يدخل. وبقينا في الظلام زمناً ...

سأل ضابط كان بين الحضور:

- ما الذي حدث بينكما؟

- ما رأيك أنت يا سيدي؟ - سأل بولزونكوف بسرعة، متوجهاً نحو الشاب ذي الشعر الأجد، بوجه متشنج: إذن، أيها السادة، هنا حدث موقف غريب. أردت أن أقول لم يكن أمراً غريباً بالفعل، لكنه كان، كما يقولون، أمراً يومياً - لقد أخرجت ببساطة لفافة من الأوراق من جيبتي، وأخرج هولافة من أوراقه، لكنها حكومية ...

- هل كانت أوراقاً نقدية؟

- بلى يا سيدي أوراق نقدية، وقد تبادلنا الأوراق فيما بيننا.

قال سيد نبيل شاب، حسن الملبس:

- أراهن أن رائحة رُشاً تفوح هنا.

- رُشاً يا سيدي! - التقط بولزونكوف العبارة - إيه! اسمحوا لي أن أكون ليبرالياً، كم رأيت في حياتي! وإذا كنت أيضاً، ممن صادف أن خدموا في مؤسسة حكومية، فما كنت لتدفع يديك ... على موقد وطنك

(1) هي كنية بطل القصة: أوسيب ميخائيلوفيتش بولزونكوف.

- ... قال أحد الكتّاب من قبل: «ودخان الوطن عندنا حلو ولطيف!». أمّ، أمّ، يا سادتي، وطننا الأمّ، ونحن فراخ، فنحن نمتّصه! .. - وتعالّت الضحكات، فتابع بولزونكوف وهو يقلّب بصره في الناس شاكاً بهم:
- لكن ثقوا تماماً أيّها السادة أنني ما قبلتُ رُشاً في يوم من الأيام.
- وانفجرت قهقهاتٌ صاخبة غطّت على كلام بولزونكوف.
- حقاً، نعم، أيّها السادة ... ولكنه توقّف هنا عن الحديث، واستمر ينظر في الناس من حوله وقد علت وجهه تعابير غريبة. ربما - من يدري - ربما خطر في باله تلك اللحظة أنه كان أشرف من كثيرين في هذه المجموعة الصادقة بأكملها ... تعابير وجهه الجادة فحسب لم تتغيّر حتى توقّفت حالة المرح التي سيطرت على الحضور.
- وهكذا - بدأ بولزونكوف حينما صمت الجميع - على الرغم من أنني لم أتلُق رُشاً من قبل، لكنني أثمّتُ هذه المرة: لقد دسستُ رشوة في جيبتي ... من الراشي ... أعني، لقد كانت في يدي بعض الأوراق، التي إذا ما أردت إرسالها إلى أحدهم فستكون العواقب وخيمة على فيدوسي نيكولايتش.
- إذن فما حدث أنّه اشترى تلك الأوراق؟
- نعم لقد اشتراها يا سيدي.
- هل دفع الكثير؟
- دفع مقداراً يمكن أن يجعل شخصاً آخر في زمننا هذا يبيع ضميره كلّه، بتجلياته كلّها يا سيدي، إن كان ثمة ما يباع. لكنني شعرتُ كما لو أن ماءً مغلياً صبّ عليّ عندما وضعتُ المال في جيبتي. حقاً، الحق أنني لا أعرف كيف يحدث ذلك دائماً لي، أيّها السادة، كنت كما لو أنني لست حياً ولا ميتاً، شفّتا ي تهتان، ورجلاي ترتعشان؛ حسناً، لقد أثمّتُ، أثمّتُ، أنا أتمّ تماماً، أنبني ضميري، كنتُ مستعداً لأطلب الصفح من فيدوسي نيكولايتش ...
- حسناً، هل صفح عنك؟
- لم أسأله ذلك يا سيدي ... أنا أقول الآن هذا الكلام فحسب، كما شعرتُ في ذلك الوقت؛ أعني كان قلبي يغلي. رأيتُ أنّه كان ينظر في عينيّ مباشرةً، ثمّ قال:
- أنت لا تخاف الله يا أوسيب ميخائيليتش.
- ماذا كان عليّ أن أفعل! باعدتُ بين راحتيّ كنوع من اللباقة، وملتُ برأسي جانباً:
- كيف قرّرت أنني لا أخاف الله فيدوسي نيكولايتش؟
- قلتُ ذلك تأدّباً ... لكنني كنت مستعداً أن أغوص في أعماق الأرض.
- أبعد أن كنت صديقاً للأسرة لزم من طويل، وبعد أن كنت، ويمكنني قول ذلك، بمكانة ولدي، والسماء وحدها تعلم ماذا كان يمكن أن يحدث يا أوسيب ميخائيليتش تُهدّد أنك يمكن أن تشي بنا ... والآن كيف يمكنني أن أثق بالناس يا أوسيب ميخائيليتش؟ وبدأ كما لو أنّه يقرأ عليّ موعظة:
- لا، - قال - أخبرني كيف سأفكّر بالناس بعد ما حدث أوسيب ميخائيليتش؟
- فكّرتُ، كيف أفكّر أنا أيضاً، وجفّ حلقي، وارتجف صوتي، حسناً، متوقّعاً ضعف أعصابي الكريهة أمسكتُ قُبعتي ..

- إلى أين أنت ذاهب، أوسيب ميخائيليتش؟ هل حقاً عشية يوم كهذا ... هل تحمل ضغينة نحوي حتى الآن؛ ماذا فعلت ضدك؟

- فيدوسي نيكولايتش - أقول - فيدوسي نيكولايتش! حسناً، لقد أصبحت، أيها السادة، مثل السكر الذائب، لقد ذبت. أمّا الحزمة الموجودة في جيبتي من الأوراق النقدية، فكانت كما لو أنّها تصرخ: أنت جاحد، لص، ملعون، - وأصبحت تثقل عليّ كأنّها ترن خمسة أرتال... (وإذا شئتم الحقيقة كانت تحتوي بالفعل نحو خمسة جنيهات!) - وانتبهت أن فيدوسي نيكولايتش مضى يقول:

- أرى ندمك ... وغداً كما تعلم ...

- عيدُ ماريِ المصريّة، يا سيدي ...

- لا تبك، - قال فيدوسي نيكولايتش - لقد أثمت ثمّ ندمت. تعال! ربما أكون قادراً على إعادتك، كما يقولون، إلى سواء السبيل مرة أخرى ... ربما ستبعثُ أسرتي المتواضعة الدفاء (أتذكر بالضبط، أنّه قال: أسرتي، ذلك السارق)، مرة أخرى في قلبك الضائع، ولن أقول القاسي، - وأخذني، أيها السادة، من يدي وقادني إلى أسرته.

بردٌ شديدٌ سرى في ظهري. وبدأتُ أرتجف! بأيّ عينين سأُنظر إليهم ... عليكم أن تعرفوا، أيها السادة ... كيف أُعبر، لقد ظهرت مشكلة.

- هل الأمر يتعلّق بالسيدة بولزونكوفا؟

- ماريّا فيدوسيفنا، يا سيدي، لكن لم يكن مقدراً أن تُصبح السيدة التي ذكرتها، لم تنتظر ذلك الشرف! كما ترى، كان فيدوسي نيكولايتش محقّقاً عندما قال إنني في منزله كنت على وشك أن أُعدّ ابناً. وكان الأمر كذلك تماماً قبل ستة أشهر، عندما كان المتقاعد العسكري ميخائيلو ماكسيميتش دفيغاييلوف، لا يزال على قيد الحياة. وقد مات بمشيئة الله، وقد ترك وصيته في صندوقٍ طويل؛ وحدث أنهم لاحقاً لم يجدها في أي صندوق...

- أووخ!!!

- حسناً، لم يكن بإمكانني أن أفعل شيئاً، أيها السادة، سامحوني، لقد تركت الأمر يفلت.

- التورية سيئة، لكن لا يهم إذا كانت كذلك، فالنكتة كانت أكثر سوءاً عندما تُركت، إذا جاز التعبير،

صفر اليدين في قادم الأيام، لأن ذلك العسكري المتقاعد - على الرغم من أنهم لم يسمحوا لي بدخول منزله، عدّني، وربما ليس خطأ، ابنه.

- آها!

- نعم يا سيدي، هذا ما حدث وبدأوا يشمخون بأنوفهم في أسرة فيدوسي نيكولايتش بوجهي.

لاحظتُ كل ذلك، وثبتُ جيداً، ثم فجأة، لسوء حظي (أو ربما لحسنه!)، وكما يسقط الثلج على الرأس، ظهر يطارِد على ظهر جواده فارسٌ في بلدتنا الصغيرة. تلك طبيعة عمله، هذا صحيح، إنه كثير الحركة، خفيف، إنّه من سلاح الفرسان، وهذا ما قوّى حضوره عند فيدوسي نيكولايتش، حسناً، جلس مثل مدفع مورتار! أنا رجل عادي من العامة وذو مزاج حقير، أقول لفيدوسي نيكولايتش: ”كذا وكذا... لماذا تجعلني أزلع عندما تطيل من انتظاري، أنا بطريقة ما، أصبحتُ ابناً لك بالفعل ... والأمر أبويّ، أبويّ.“

... بدأ يجيبني يا سيدي! حسناً، هذا هو، يبدأ الكلام، يقرأ عليّ قصيدة كاملة، تضمُّ اثنتي عشرة أغنية شعريّة، ما عليك سوى الاستماع، ولعق شفّيتك، وفرد ذراعيك من جِراء الحلاوة، ولكن ليس هناك من قرش واحد، أي مجردُ هذر، لن تدرك فحواه، لن تفهم، تقفُ أمامه أحمقُ الحمقى، تقيم الأشياء، لكأن زوبعةٌ تُدوم؛ حسناً، إنها موهبة، موهبة فحسب، مثل هذه الهدية تخشى أن تتسلل إلى شخص غريب! ومضيتُ أبذلُ نفسي في كل الاتجاهات: رائحاً وغادياً! مُتحدّثاً في الرومانسيات، وحاملاً الحلويات، فأطلق العبارات المُبطّنة، وأتأوهُ وأتهدُّ، أقول: قلبي يؤلمني من فعلِ أمور، وأذرف الدموع، وأعترفُ سرّاً! ذلك أن الرجل أحمق! وماكنتُ قد تحقّقتُ من الشَّماس أني بلغت الثلاثين من عمري... أين مضيتُ! من أردتُ أن أخدع! لا! لم أوفّق فيما أردت، ما أثرتُ من حولي إلا الضحك والسخرية في كل مكان - حسناً، وتملّكني الغضب، قبضَ عليّ من حنجرتي - وانسلت، ولم تطأ قدمي ذلك المنزل، فكرت وفكرت - نعم، سأشي به! حسناً، تسافلتُ، أردتُ أن أخون صديقاً، أعترف، كان هناك كثير من المواد، وهذه المواد المجيدة، تُعدُّ رأسمالاً! عادت عليّ بألف وخمسمئة روبل فضة عندما قدمتها مع التقرير.

- ولكن ذلك يُعدُّ رشوة!

- نعم يا سيدي، هي رشوة، لقد دفع لي رشوة! (ولكنها لم تكن خطيئة، الحق أقول لم تكن كذلك، لا!) حسناً، سأبدأ الآن في متابعة القصة: لقد جرّني، إذا سمحتم لي أن أتذكّر إلى غرفة الشاي، لا حياً ولا ميتاً؛ وقابلوني؛ وكانوا جميعاً كما بدا لي مستائين، أعني ليسوا مستائين فحسب بل كما لو أنّهم مقتولون، مقتولون تماماً، لكن في هذه الأثناء تتألق الكرامة المؤدّبة على وجوههم، وفي عيونهم صلابة، وثمة ما هو أهلي وأسري... لقد عاد الابن العاق إلينا - بلغت الأمور ذلك الحدّ، وأجلسوني إلى طاولة الشاي، أما أنا فكان بين ضلوعي سماورٌ، يغلي، بينما تجمّدت قدمي: تصاعرت، تجابنت، فإذا بماريا فومينيشنا، زوجته، المستشار في المحكمة (والآن في الجامعة)، تخاطبني بضمير المفرد: «ما بك يا بني، لقد هزلت كثيراً»، فأجيبها: «نعم، أنا مريض، ماريا فومينيشنا...» ويرتجف صوتي! ومن دون أي سبب على الإطلاق، ولعلها كانت تنتظر مني ذلك، لقد كانت أفعى: «من الواضح أنّ ضميرك لم يطاوع نفسك، أوسيب ميخائيليتش، أيها الأب الغالي، إنهما الخبز والملح اللذان تناولتهما عندنا، ودموعي المدمّاة التي ذرفتها لأجلك». هذا ما قالته، أقسم بالله، مخالفةً ضميرها وهي تسكّب لي الشاي. امضِ إلى السوق، يا حمامتي، لنر كيف تصرخين هناك بالنساء جميعاً. هذا ما كانت عليه صاحبة الضمير التي تتباكي! وهنا، لسوء حظي، خرجت ماريا فيدوسيفنا، الابنة، بكل براءتها، شاحبة قليلاً، وعيناها محمرّتان، كما لو كان ذلك من أثر الدموع، - وكالأحمق تماماً، متّ في مكاني.

وبعد ذلك اتضح أنّها تذرف الدموع على الضابط المسؤول عن شراء الخيول لإجراء الإصلاحات: لقد طار عائداً إلى بلده، هارباً بصحّة جيدة، لأنه، لو تعلمون، (وينبغي أن نبوح الآن بالأمر)، أرف موعِد الرحيل، انتهت المدّة! وهو لم يكن موعداً قسرياً على كل حال! لكن هكذا... بعد ذلك، أدرك الأبوان العزيزان حقيقة ما حدث، وفكّرا بما يجب فعله، لحلّ المشكلة سراً - لقد أوْشك عدد نزلهم أن يزدادوا..

حسناً، ما كان بإمكانني أن أفعل شيئاً، ما إن نظرت إليها حتى ضعت، ضعت تماماً، حدقت في قبعتي، التفتت أريد أن أمسك بقبعتي وأهرب في أسرع وقت ممكن؛ لم تكن القبعة في مكانها: لقد أخفوها ... ولأعترف لكم أنني أردت أن أمضي حتى من دون قبعة - حسناً، لكنني فكرت: لا، لقد أقفلوا الباب بالمنزلة، وبدأت الضحكات الودّية، والغمزات والمغازلة، وقد كذبت محرّجاً بشأن معاناتي مع أمور؛ وجلست غالياتي إلى البيانو، وغنّت بصوتٍ محزون:

- يا موتي!

فقال فيدوسي نيكولايتش: «حسناً، نسينا كل ما مضى، تعال، تعال، تعال إليّ أضْمَك» وهكذا ارتميت من فوري على صدره وأنا أقول:

«أيها المحسن، يا أبتاه»، كنت أرددُ ودموعي الدافئة تنهمر من عيني، ويا الله، يا ربّي، ما الذي حدثت ساعتها؛ بدأ هو يبكي، ومضت زوجته تبكي، وماشكا تبكي... وفتاة شقراء كانت موجودة راحت تبكي، وخرج أطفال من الزوايا ليكون (فليحفظ الله ذلك المنزل!) ... كم من دموعٍ ذُرِفَتْ، أعني كم من الحنان والسعادة، ابنهم قد عاد؛ لأن الجندي رجع إلى وطنه.

وقدّمت الضيافة، وانطلقت الألعاب المختلفة: «أوه، أشعرُ بالألم!»، «ما يؤلمك؟»، «- قلبي»، «ومن السبب؟» وتحمر عزيّتي خجلاً شربنا أنا والرجل العجوز خمراً، - حسناً، غادرنا، أحزنتني الأمر تماماً... عدت إلى جدتي. كان رأسي يدور؛ طوال الطريق كنت أمشي وأضحك، تجوّلت في المنزل ساعتين، أيقظتُ الجدة العجوز، أخبرتها بالسعادة التي عشتها كلها، «هل أعطاك المال؛ ذلك اللص؟» - «أعطاني، جدتي، أعطاني يا عزيّتي، أعطاني، انهال الخير علينا، انفتحت البوّابة!» «حسناً، الآن على الأقل تزوّج - قالت لي العجوز - تزوج من فورك، لأعلم أن صلواتي قد أيقظت سوفرون. قلت له: «سوفرون، اخلع الحذاء»؛ ونزع سوفرون حذائي.

«حسناً، سوفروش! هنّئي الآن، قبلني! أنا ببساطة سأتزوّج، يا أخي، سأتزوّج، فلتشمل غداً، وتزّره ما شئت أنت حرّ - قلت له - سيّدك سيتزوّج!»، كان قلبي يضجُّ بالفرح والمرح! ... أوشكتُ أغفو، لكن لا نهضتُ، وجلستُ أفكر، والتمعت في ذهني فكرة؛ غداً الأول من نيسان/أبريل؛ يومٌ بهيجٌ، مرحٌ، فماذا أنا فاعل؟

- نعم ووجدتُ فكرةً حسناً، أيها السادة! نهضتُ من السرير، أشعلتُ شمعة، وجلستُ إلى طاولة الكتابة بلباسي نفسه، كنت أشعر بهياج، واسترسلت في اللعب - أتعلمون، أيها السادة، عندما يخسر شخص ما في اللعب! فإنّه، يا أبائي، يفوضُ برأسه كله في الوحل! أعني يصبحُ الأمر كالاتي: يأخذون منك شيئاً ما، فتعطيهم شيئاً آخر أيضاً: خذوا، وهذا لكم، ها أمسكوا ذا، خذوا هذا أيضاً!، يضرّبونك في وجهك، فتدير لهم ظهرك كله بفرح. ثم يرمون إليك بعد ذلك برغيف صغير، كما يفعلون مع كلب، فإذا بك تندفع إليهم تضمهم من كل قلبك وكل روحك ببرائك الغبيّة - حسناً، وتقبلهم! والأمر على الأقل كما يحدث لي الآن معكم أيها السادة! أنتم تضحكون وتتهامسون، وأنا أرى ذلك! وبعد أن أروي لكم ما حدث لي بمودة تبدوون بالسخرية مني، والضحك علي، تبدوون بحثي على الاستمرار، لكنني أروي لكم،

وأروي! ومع ذلك هناك من يأمرني، وهناك من يحثني ويدفعني وثمة من يقف ورائي ويوشوش من فوق كتفي: قُل، ارو! ولكنني أروي وأغوص في أرواحكم، كما لو أنكم، على سبيل المثال، إخوتي جميعاً، أصدقائي الطيبون... إيه! وتعالى الضحكات التي بدأت خافتة من كل صوب، وغطت في النهاية على صوت الراوي، الذي سيطرت عليه الدهشة، فكف عن الحديث، ودارت عيناه تتفرسان في الناس من حوله بضع دقائق، ثم فجأة، كما لو هبت زوبعة ما، لوح بيده، ومضى يضحك على نفسه، كما لو أنه وجد موقفه سخيفاً حقاً، ثم عاد مرة أخرى يقول:

- حسناً، بعينين سكرابوين، ضائعاً، كتبتُ كذبةً؛ خليطاً من الهراء. لا! في الصباح استيقظت عند بزوغ الفجر، نمت ساعة أو اثنتين فحسب، اغتسلت، وارتديت ملابسني، وتطيبت، ولبستُ فراكاً جديداً، وانطلقتُ في العيد مباشرة إلى فيدوسي نيكولايتش مُحْتَفِظاً بالورقة في قبعتي. قابلني بنفسه، بصداره، ودعاني مرة أخرى إلى غرفة الأسرة! تهتدت، وجالت في خاطري أحداث الأمس! فتراجعتُ خطوةً إلى الوراء وقلت: «لا، فيدوسي نيكولايتش، ولكن، إذا أردت، اقرأ هذه الورقة الصغيرة.» - وقدّمتهَا له؛ هل تعلمون ماذا كان فيها؟ كان فيها: أن أوسيب ميخائيليتش يترك العمل، بناءً على طلبه، مذيلاً برتبي وألقابي كلها! هذا ما توصلت إليه يا رب! وما أمكنني أن أفكر بما هو أكثر ذكاءً! فالأيوم هو الأول من أبريل، لذلك سأتظاهر، مازحاً، أن استيائي لم يمر، وأنتي غيرت رأيي أثناء الليل، بدلتُ موقفي وثار غضبي، وشعرتُ بالإهانة أكثر من ذي قبل، نعم، ولا أريد أن أعرفك أنت أو ابنتك؛ لقد وضعت النقود في جيبني بالأمس، لقد أمّنتها، لذا، ها أنذا أقدمُ استقالتي. ما عدتُ أرغب أن أعمل تحت إمرة شخص كفيدوسي نيكولايتش، أريد أن أعمل تحت إمرة جهةٍ أخرى، وهناك أيضاً سأقدمُ وشايةً جديدة. لقد فكّرتُ أن أخيفهم، مُقَدِّماً نفسي كشخص سافل، فما الذي فعلته كي أخيفهم؟ هل هذا جيد أيها السادة؟ لقد رقّ لهم قلبي مما جرى مساء البارحة، فماذا لو أطلقتُ هذه المزحة العائليّة، مُلامساً المشاعر الأبويّة لفيدوسي نيكولايتش... ما إن أخذ الرجل الورقة وفتحها حتى ارتعشت ملامح وجهه كلها.

«ما هذا يا أوسيب ميخائيليتش؟»، فسارعتُ أجيبُ كالآبله:

«إنّه الأول من نيسان يا فيدوسي نيكولايتش، كل عام وأنت بخير» - أي أنني كنت تماماً كولدٍ يختبئ خلف مقعد جدته، ويعوي بكل ما أوتي من قوّة في أذنها ليخيفها... نعم، نعم، إنني أروي لكم ما حدث بكل ضمير! لكن لا، عليّ ألا أتابع!

- لا، فلتكلم، ما الذي حدث بعد ذلك؟

- لا، لا، لا بدّ أن تروي - تعالت الأصوات من كل مكان.

- وارتفعت، أيها السادة، الضحكات والعبارات المختلفة: يا لك من مخادع، يا لك من ساخر، لقد أخفتنا، حسناً، لقد كان كل شيء حلواً حتى إنني شعرت بالخجل من نفسي، ووقفت شاعراً بالخوف أفكر: كيف يمكن لمثل هذا المكان المقدّس أن يضمّ شخصاً أثماً مثلي. وصدحت زوجة المستشار: «أه، يا عزيزي، لقد أخفتني كثيراً حتى إن ساقني ترتجضان الآن، وأكاد لا أثبت في مكاني! وركضتُ نصفاً مجنونة نحو ماشا، وقلت لها: انظري ماذا فعل صاحبك، وشعرتُ أنا نفسي بالعار؛ فسامحني أنا العجوز،

لقد بدأت أحاسب نفسي، حسناً: كيف غادرنا بالأمس، وعاد إلى المنزل متأخراً، ولعله مضى يفكر، نعم، إننا سعيينا وراءه عن قصد بالأمس، وأردنا إغراءه، وهذا ما قتلني! والتمعت الفكرةً بذهني يا ماشينكا، أوسيب ميخائيلوفيتش ليس غريباً علينا؛ أنا والدتك، لن أقول قولاً سيئاً الحمد لله، أنا لم أعش في هذا العالم عشرين عاماً فقط: بل خمسةً وأربعين عاماً! ..»، ما رأيكم أيها السادة! كدتُ أرتمي تحت قدميها، وتساقطت الدموعُ من جديد، وانطلقَ المزاح والطرائف، وسمح فيودوسي نيكولايتش لنفسه أن يخرعَ طرفةً للأول من نيسان، فقال: حطَّ الطائرُ الناري ذو المنقار الماسي، حاملاً في منقاره رسالةً وأردت أيضاً أن أناقق - وانطلقت الضحكات! ويا له من ارتياح! فووو! إن من العيب أن أروي هذه القصة. لكن لا بأس لقد شارفت على الانتهاء. عشنا يوماً، يومين، ثلاثة، عشنا أسبوعاً. كنت العريس تماماً! فقد أوصوا على خاتمي الزواج! وحددوا موعد الحفل، لكنهم لم يرغبوا في الإعلان عن ذلك حتى يحين الوقت، كانوا ينتظرون مُفتشاً. وكنت أنتظر؛ ولا أستطيع تحمّل انتظار المفتش، فقد كانت سعادتني من ورائه! وفكرت؛ ليتني أستطيع أن أرميه عن كتفي.

أما فيودوسي نيكولايتش فقد ألقى خلال ذلك بالأعباء كلها على كاهلي: حسابات، وكتابة تقارير، ودفاتر شيكات، وتلخيص نتائج - رأيت: فوضى رهيبية، كل شيء في حالة خراب، وفي كل مكان توجد أخطاء ونواقص! لا بأس، أفكر، إنني أعمل عند والد زوجتي! وهو لا يزال مريضاً، والمرض يستمر، ويوماً بعد يوم، تسوء حالته. أما أنا فكنْتُ لسبب ما مثل عود الثقاب، لا أنام في الليل، وصرتُ أخشى أن أسقط! ومع ذلك، أنهيتُ العمل بنجاح كبير! وقدمته في الوقت المحدد!

فجأة أرسلوا إليّ رسولاً: «أسرع، قال، وضع فيودوسي نيكولايتش سيء!»، أركضُ بهتور - ما الذي حدث؟ أنظر، فإذا بصاحبي فدوسي نيكولايتش يستلقي مُزماً بالملابس، ويضعون كمادات الخل على رأسه، عابساً يتأوه ويئن، آهات تتلو آهات: «يا عزيزي، أيها الطيب - قال لي -، سأموت، فلنم سأتترك فراخي!» كانت زوجته تضم الأطفال، وماشا تبكي، - ورحت بدوري أنوح! «حسناً، لا، - قال -، إن الله رحيم! سيكفر بك عن كل ذنوبي!»، وهنا طلب إلى الجميع أن يغادروا، وأن يغلقوا الباب خلفهم، وبقينا أنا وهو وحدنا؛ عيني في عينه، فقال لي:

- لي عندك رجاء!

- ما هو يا سيدي؟

- الأمر إذن، يا أخي، إنني سددتُ من مالي الخاص إلى الخزانة بعض النقص الذي حدث؛ وأنا يا أخي لست نادماً على أي شيء أفعله من أجل الصالح العام، وحتى حياتي لا أبخل بها! لا تفكر بأي شيء! لقد أحزنني فعلاً أن الوشاة حاولوا تشويهي أمامك... وقد شوّشك ذلك، ومنذ ذلك الحين شيبَ الحزن رأسي! المفتش الآن على الأبواب، وماتصيف ينتقصه سبعة آلاف روبل، وأنا المسؤول في نهاية المطاف؛ فمن غيري... سيأخذون المبلغ مني يا أخي: وماذا بإمكانك أن تأخذ من ماتصيف! لن تنتظر منه شيئاً إنه هكذا بائسٌ جداً!

وفكرت: أيها القديسون، هذا رجل صالح! هذه روحٌ ظاهرة!

وقال:

- نعم، لن آخذ المال من ابنتي، فبانتها؛ مبلغ مقدس! وأنا لدي مال، وهذه حقيقة، لكنني كنت قد أدنته للناس، فكيف يمكن جمعه الآن!
- وفي الوضعية نفسها التي كنت أقف فيها أمامه ركعتُ على ركبتَي باكياً وأنا أقول:
يا مُحسني، -صحتُ-، لقد أهنئك، أسأتُ إليك، كتبَ الوشاةُ التقارير بك ظلماً، ولكن ذلك لم يقتلك في نهاية المطاف، خذ مني مالك الذي أعطيتني إياه!.
- نظر إليّ والدموع تنهمر من عينيه:
- هذا ما انتظرته منك يا ابني العزيز، انهض، لقد سامحتك لأجل دموع ابنتي! والآن قلبي يُسامحك. لقد أشفيتُ جرحي، أباركك منذ اليوم وإلى الأبد!.
- وانطلقتُ بعد أن باركتني إلى البيت مُسرعاً، وعدتُ بالمال:
- خذ يا أبتي، كل شيء، لكنني اضطررتُ لصرف خمسين روبلاً فقط!
- حسناً، لا بأس، -قال- والآن الوقت مُلح، اكتب طلباً بتاريخ قديم، أنك تحتاج إلى سُلطة قدرها خمسون روبلاً. وسأبين للسلطات أنك استلمتها مُسبقاً ...
- حسناً، أيها السادة! بماذا تُفكرون؟ بعد كل ما كان، كتبتُ طلباً.
- حسناً، حسناً، كيف، والإم، انتهى الأمر؟
- لقد كتبتُ طلباً لتوي، أيها السادة الأعزاء، هكذا انتهى الأمر. في اليوم التالي، في الصباح الباكر، تلقيتُ رسالةً رسميةً عليها ختمٌ حكومي. أنظر في الرسالة! فماذا أرى؟
- لقد قبلتُ استقالتك، عليك تسليم العمل، وتقديم حساباتك، وأوراقك، واذهب بعد ذلك حيث تُريد.
- كيف ذلك؟
- نعم، وأنا أيضاً تلفظتُ بأقذع الشتائم: كيف ذلك! يا سادتي! وعلا الضجيج في أذني! فكرت بلا سبب؛ لكن لا، المفتش وصل المدينة. ارتجف قلبي! حسناً، أعتقد أنه أمر لا يحتاج إلى تفكير! نعم، انطلقتُ للقاء فيودوسي نيكولايتش، تماماً هذا ما كان.
- ما هذا؟ - قلتُ له، فأجابني:
- ما الأمر؟
- انظر إنها الاستقالة!
- أيُّ استقالة؟
- هذه!
- آه نعم، إنها استقالة، يا سيدي! (2)
- ولكن كيف ذلك؟ وهل سبقَ وقدمتُ استقالة؟
- وكيف لا، لقد قدمتُ، يا سيدي استقالتك، في الأول من نيسان.

(2) نلاحظ هنا أن فيودوسي نيكولايتش يعود إلى استخدام صيغة الخطاب: «أنتم»، وكان من قبل يتحدث إلى الشاب بصيغة المفرد: «أنت». /م/.

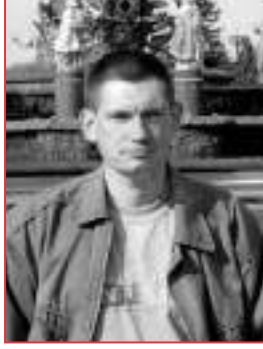
(إنّها تلك الورقة التي لم أسترجعها منه).

- فيودوسي نيكولايتش... هل أنت من تسمعه أذناي الآن؟ هل أنت من أراه أمامي؟
- نعم أنا أيها السيد، ما الأمر؟
- يا إلهي، أيها الرب!
- يُحزنني كثيراً، أيها السيّد، يُحزنني، أنكم فكرتم هكذا وبشكل مُبكر أن تتركوا العمل، الرجل في مرحلة الشباب يجب أن يعمل، أمّا أنتم أيها السيّد فقد بدأت الريح تعصف في رأسكم. أمّا فيما يتعلق بالتوصية فكن مطمئناً، سأزودكم بتوصية، لقد قمتم بعملكم جيّداً، يا سيدي.
- ولكنني يومها كنتُ أمزح، فيودوسي نيكولايتش، لقد أردتُ... كنتُ أريدُ أن أضحكُ أسرتكم... لا أكثر.
- أيُّ مزاح ذاك أيها السيد، وهل يمزحون بمثل تلك الورقة؟! إن من شأن مزحة كهذه أن ترمي بكم في سيبيريا.

الآن اعدزني، ليس لدي وقت يا سيدي، لدينا مدقق حسابات، واجبات الخدمة في المقام الأول؛ أنت تغلب المزاح، أما نحن فعلياً أن نعمل، يا سيدي. وسأقدم لكم شهادة كما ينبغي، سيدي. نعم، سيدي، لقد اشتريت منزلاً من ماتقييف، سننتقل إليه خلال أيام، ولن أكون سعيداً برؤيتك في سكني الجديد. مع السلامة.

وعدوتُ بأقصى ما استطاعتُ رجلاي إلى البيت «ضعنا يا جدّتي!»، وأعولتُ الجدّة بدورها، وسرعان ما ظهر خلفي رجلٌ قوزاقي أرسله فيودوسي نيكولايتش، حاملاً قفصاً يحوي زرزوراً مُغرّداً، كنتُ قد أهديتهُ خطيبتي من كل قلبي، ومع القفص ورقة صغيرة كتبتُ عليها: الأول من نيسان / أبريل، ولا شيء آخر. هذا هو الأمرُ أيّها السادة، ما رأيكم؟

- لكن ماذا بعد ذلك؟ ماذا حدث؟
- ماذا أيضاً، التقيتُ فيودوسي نيكولايتش ذات يوم، وأردتُ أن أقول له: أيّها السافل!
- حسناً، وإذن؟
- ماذا أقول لكم؛ لم تخرج الكلمة أيّها السادة! ❑



فيتالي مالكوف

- ترجمة: عياد عيد

ساكن النجوم

فيتالي أوليغوفيتش مالكوف ВИТАЛИЙ МАЛЬКОВ: ولد عام 1972 في مدينة أرتيوموفسك في منطقة دونيتسك.. مؤلف ثلاثة كتب في النثر: بائع الكتب (2011) والمدة (2015) وفي آتون قوس النار (ياوزا، 2018). ترجمت قصص فيتالي مالكوف إلى اللغة العربية ونشرت في الجمهورية العربية السورية. عضو اتحاد كتاب روسيا. مقيم في مدينة بلغورد.

لَفَّ المساء المدينة والعالم كله بالعتمة، وفي هذه العتمة أشعلت النجوم يدٌ غير مرتئية من هنا من على الأرضُ فاندلعت في السماء الواحدة تلو الأخرى كأنها مصابيح إكليل كوني عظيم، لكنّها طبعاً لم تكن مصابيح، لأن النجوم ولدت وعاشت وماتت، وكل منها بأسلوبه.

عرف «فاسيلي إيليتش» كل شيء عن النجوم. لقد أحبها، وأسف لأنه لا يستطيع الوصول إليها كي يراها عن قرب مثلما يرى الشمس، لذلك كان لديه حلم منشود وهو أن يعيش حتى ذلك الزمان الرائع الذي سيستطيع الناس فيه الوصول إلى النجوم الأقرب على أقل تقدير، وهذا الحلم لم يدعه يعرف طعم السكينة منذ سنوات عديدة، أي منذ يفاعه. ثمة في حقيقة الأمر ما يمكن التفكير وإشغال الدماغ فيه هنا، فنهاية السرعة الملعونة التي استنتجها أينشتاين منعت التغلب على لانهائية الكون. كيف ذلك؟ هل يعقل أن تجاوزها بطريقة ما مستحيل؟ هل يعقل أن العلماء لن يجدوا وسيلة ما أبداً؟

• مترجم سوريا.

خاطب «فاسيلي إيليتش» زوجته خوفاً من أن يسمع استيائها من جديد: - سأذهب وأجلس نصف ساعة في فناء المبنى. هل تسمعينني يا «نادينكا»؟

كانت «ناديجدا بيترونا» اليوم في مزاج جيد، وقررت بعد تفكير ألا تمنّف زوجها، وأجابت بعد أن تنهدت: - اذهب، اذهب. في مقدورك أن تجلس دهنراً.

جاء حزيان هذا العام بارداً وممطراً وشحيحاً بالأيام الحارة والمشمسة، لكنه اليوم على ما يبدو قد أدرك ذلك، وجاد بطقس جميل منذ الصباح. كذلك بدا المساء دافئاً والهواء ساكناً، بل حارّاً قليلاً على الأرجح. ارتدى «فاسيلي إيليتش» ثيابه بهدوء، وخرج من الشقة فرحاً بحريته المنشودة التي قلّما كانت تتاح له بمثل هذه السهولة وبلا صراع وعذاب، واستشعر المتعة التي يستطيع اليوم الحصول عليها كاملة من هذا المساء الرائع.

بدا الفناء خاوياً تقريباً إلا من صبيين بعمر خمس أو ست السنوات، راحا يترددان حول صندوق الرمال، ومن الجد «تيموفيتش» من البناء المجاور الجالس على المقعد، والذي بلغ من العمر عقده الثامن. لقد سكن وحيداً في شقة من غرفتين، وقلّ ما كان ابنه «نيقولاي»، الذي يدير عملاً غير كبير، يزوره مع أسرته.

حيا «فاسيلي إيليتش» الجد وهو يقترب من مقعده: - مساء الخير يا «تيموفيتش»!

شدّ المُسن على اليد الممدودة بقوة وهو يقول: - دامت صحتك أيها الجار، ماذا لديك من أخبار؟ كان لا يزال يستطيع الوقوف بصلافة على قدميه على الرغم من سنه المتقدم، وتمكن من الحفاظ على وضوح ذهنه التام، في حين أن بعضهم يفقد ملكة التفكير السليم في عمر الخمسين. رفع «فاسيلي إيليتش» كتفيه: - أي أخبار.. لا شيء تقريباً. لكن الحياة... إذا ما أمعنا النظر، لا تقف في مكانها، حتى حينما يخيل إلينا أن لا شيء يحدث فيها. أليس كذلك؟ وثمة أحداث تقع مع ذلك في أماكن ما كل يوم... الحياة تسير.

هزّ «تيموفيتش» رأسه دلالة الموافقة: - هذا صحيح. الحياة تسير... وتمضي.

شعر «فاسيلي إيليتش» بالارتباك لأنه ذكّر الجد عن غير قصد بالمتحمّ، وقرر في الحال أن يصحح الخطأ وينقل الحديث إلى الجانب الآخر، وفي مثل هذه الأحوال من المنطقي التحدّث عن أقرب الأشياء إلى نفسه. - الصينيون بدؤوا يطيرون إلى المدار. سرعان ما سيسبقوننا.

لم يفهم «تيموفيتش»: - عم تتحدث؟

- أتحدث عن الفضاء. - أشار «فاسيلي إيليتش» بإصبعه نحو السماء. - تمخر سفينة الفضاء الصينية عباب الكون، واسمها جميل أيضاً - «شينتجوي»... معناه «المركب المقدس»... يضم طاقمها أول امرأة فضاء في الصين.

تنهد الجد: - نعم، نعم. سيسبقنا هؤلاء. إنهم شعب نشيط.

- أما أنا فأرى أن المسألة كلها تكمن في قيادة البلاد. إذا رأت الهدف بوضوح وكان لديها برنامج دقيق فإن البلاد تكون قادرة على فعل الكثير، ومثل هذه البلاد تستطيع تحقيق أعظم المنجزات. هاك كيف استطاع الاتحاد السوفييتي في ظل ستالين أن يصير دولة عظمى، ألم يحدث ذلك؟ وافق «تيموفيتش» مرة أخرى: - نعم استطاع في ظل ستالين.

- لأن الجميع هبوا هبة رجل... الشعب كله.. فرفعوا البلاد من الأنتقاض بعد الحرب في سنوات معدودة، ثم كانوا أول من انطلق إلى الفضاء... - حتى إن «فاسيلي إيليتش» شعر بالاضطراب من كلماته. نطق الجد بحزن: - نعم كان ذلك في وقت مضى. صحيح أن الحياة كانت صعبة لكنها أمرح منها الآن. عاشوا بوذ أكبر وفرح أكبر... وعامل الناس بعضهم بعضاً بطيبة وعلى نحو أفضل. كلا، لم يكونوا جميعهم كذلك طبعاً، فثمة دائماً بخلاء وأندال، وليس في اليد حيلة... لكن هؤلاء الآن باتوا يشعرون بأنهم السادة الجدد، وفاقت وقاحتهم كل الحدود، وباتوا يحتقرون الإنسان العامل، مع أن روسيا قامت منذ غابر العصور على الكادحين.

- لا بأس يا «تيموفيتش»، أظن أن إنسان العمل في بلادنا سيكون عاجلاً أم آجلاً محط تقدير كما كان في السابق.

تحنح الجد: - أرجو من الله ذلك... لكن ما يؤسفني هو أنني لن أعيش حتى أرى ذلك. صمت «فاسيلي إيليتش» من غير أن يعرف ما الذي يمكن الاعتراض عليه هنا، ثم شرع يتفحص السماء الممتلئة بالنجوم باحثاً فيها عن العون، فلم تخيب آماله كما هي حالها دائماً، وهبت لمساعدته بأن رمت في رأسه أفكاراً واضحة، فقال: - وقد لا أعيش أنا أيضاً حتى ذلك، لكن الحال على الرغم من كل شيء ستكون على هذا النحو تحديداً، وليس على نحو مغاير.

حرف الجد نظره نحوه متشككاً: - هل أنت متأكد؟ دبت الحيوية في «فاسيلي إيليتش»: - إنني مقتنع بذلك، وسيحلّ على كوكبنا كله عصر العدالة الرائع. تدورت عينا «تيموفيتش»: - كيف ذلك؟ - هكذا... سيعيش الناس كلهم بعقل وعدالة، وسيكون في الحكومة أجدر الناس فعلاً. أحكمهم وأشرفهم... وحينذاك لن تحدث حروب وعمليات إرهابية، وستختفي السرقات والفساد، وستكون الحياة عموماً جميلة...

أرجح «تيموفيتش» رأسه: - أكاد أصدق... آه، يا «فاسييا»، من فمك إلى باب السماء، لكن يصعب تصديق ذلك.

- صدق أيها الجد، فأنا أعرف ما أقول. ابتسم «تيموفيتش»: - إنك إنسان جيد على الرغم من أنك غريب الأطوار. صحّح له «فاسيلي إيليتش» قائلاً: - لست غريب أطوار بل ساكن نجوم. - كان قد ابتكر لنفسه هذا الاسم منذ كان طالباً في الجامعة، وقد أعجبه هذه العبارة كثيراً لأنها تتطوي على كل ما هو رئيس: الرومانسية والسعي إلى المثل الخالدة، ولأن وقعها جميل ومدهش، وهي بسيطة وفي الوقت نفسه رحية: ساكن النجوم... - ثم إننا جميعنا إذا ما أمعنا النظر ساكنو نجوم، والنجمة هي التي تهدي لنا جميعاً الحياة. - هاك، هاك، أقول إنك غريب الأطوار. - ضرب الجد ركبتيه بيديه ونهض. - حسناً، سأذهب وأحتسي الحليب ثم أنام.

تمنى له «فاسيلي إيليتش» قائلاً: - ليلة هادئة.

- وليتلك أيضاً هادئة يا «فاسيا». بلغ تحيتي لزوجتك...

ابتعد «تيموفيتش» باتجاه مدخل بنائه، فصار المكان فارغاً وهادئاً، ولم يكن ثمة ما يذكر بأن الحياة تسير على مقربة منه في الشقق سوى النوافذ المنارة في المباني المؤلفة من عشر طبقات: بعضهم يشاهد التلفاز أو يجلس إلى الحاسوب أو يتعشى أو يقرأ كتاباً، أو ربما راح العشاق بعضهم يضمُّ بعضاً في عناق حلو.

استسلم «فاسيلي إيليتش» للتأملات بعد أن بقي وحيداً على المقعد. سينهي بعد شهر عامه الخمسين، لذلك انتقل بأفكاره بلا إرادة منه نحو هذا الحدث المقبل.

«ها أنا ذا قد عشت في هذه الدنيا نصف قرن عملياً، فماذا في ذلك؟ بم أستطيع أن أتباهى أو أفتخر؟ ليس لديّ إذا ما أمعنا النظر أي إنجازات كبرى أو براقة، فلم أحرز أي اكتشاف علمي، ولم أصمم أو أبني أي شيء جديد ومفيد، ولم أحقق أي منجز عظيم. ينتج من ذلك أنني قد أهدرت خمسين عاماً كاملة بلا أي نفع ولم أقدم للعالم فيها أي شيء. أمر محزن... ينتج أنني لست ساكن نجوم على الإطلاق، وأنني إنسان بلا نفع، وليس لي لزوم على الأرض...».

بدا إدراك هذه الحقيقة مرّاً، فقنط «فاسيلي إيليتش»، لكن أصواتاً فتيّة عالية وضحكاً قطعت قنوطه فجأة...

تُبّتت في منتصف الفناء منضدة حديدية ومقعدان، وكانت محاطة بالشجيرات من الجوانب كلها، فتتجمع حولها ثل من محبي اللعب بالدومينو أو احتساء الجعة في الأمسيات في أغلب الأحيان، وأحياناً صبيان وفتيات من ساكني الحيّ، وكانت هذه الجلسات تطول في بعض المرات حتى وقت متأخر من الليل إن لم يكن حتى الصباح، ويحدث أحياناً طبعاً أن ينتهي ذلك كله بالسباب، بل بالعراك. لذلك كانت هذه الحال مألوفة كما يقال.

وها هو ذا المكان المصطفى لا يخلو من البشر الآن أيضاً.

شعر «فاسيلي إيليتش» الذي لفت ضجيج المرح انتباهه بالحاجة إلى التحدث مع الشباب الآن مباشرة، ويبدو أن ماضيه التدريسي الطويل قد راح يدل على نفسه على هذا النحو. انطلق بحزم نحو الشجيرات مستسلماً لسورته الروحية...

* * *

أحب «فاسيلي إيليتش» الأطفال والنجوم - لا بل أحب النجوم أكثر بعض الشيء. لذلك صار مدرساً للفلك في إحدى مدارس المدينة بعد إنهائه المعهد التربوي العالي. صحيح أن تلاميذ الصف العاشر ليسوا أطفالاً على الإطلاق إلا أن الاختيار ههنا لم يكن متاحاً لأنهم لم يدرسوا الصفوف الأدنى مادة الفلك. الأمر الأهم هو أن «فاسيلي إيليتش» رأى في عمله هذا نفعاً أكبر للبشرية لذلك باتت حياته أسهل وأسعد، ولم يزعجه شيء سوى أنهم كانوا يرون في مادته مادة ثانوية ولم يخصّصوا لها سوى ساعة وحيدة في الأسبوع.

يقول المعلم الشاب أحياناً مدير المدرسة بحق: - ألا تدركون أهمية الفلك؟ عصر الفلك على الأبواب، وعلى الأولاد أن يعرفوا عنه أكثر ما يمكن. إن هذا بسيط مثل اثنين ضرب اثنين...

كان يتحدث بحبور في كل درس من دروسه عن المنظومة الشمسية وبناء الكون وعن أنواع النجوم. ويروي أيضاً معلومات من خارج الكتاب المدرسي يعثر عليها في المجلات العلمية الميسرة والبرامج التلفزيونية، وقد اشترك كرمي لذلك في مجلات «العلم والحياة» و«المعرفة قوة»، وحينما يعرضون في التلفاز برنامجي «واضح - وغير معقول» و«الإنسان والأرض والكون» كان يتناول قلماً ويسجل شتى الحقائق المثيرة للاهتمام وأخبار العلوم كي يشارك تلاميذه بها بعد ذلك في الحصة الدراسية. لم يكن «فاسيلي إيليتش» في مثل تلك اللحظات محض مدرس، بل يتحول إلى ساحر حقيقي يسيطر على الصف، وتكتسب كلماته قوة سحرية حينما تحرض في العقول الشابة الفضول والتعطش إلى المعرفة، وكان ذلك أشبه بالسحر الأبيض... عاش المدرس الشاب مع والديه في شقة تعاونية من غرفتين، وكان والده يعمل مهندساً في مصنع لبناء آلات الطاقة ينتج معدات وهياكل فولاذية من أجل الصناعة في بلاد السوفييت العزيزة.

أعلن الحزب بحكمة في ذلك الوقت أن «العمل اليدوي على عاتق الآلات»، فاستجابت البروليتارية السائرة يداً بيد مع الإنتلجنسيا لهذا الشعار بفرح، وشعر «فاسيلي إيليتش» بالفخر لأن أباه مشترك في مسيرة العمل الشاملة تلك، وسعى، هو أيضاً، كي لا يكون هنا إنساناً لا لزوم له، وعداً أن مهمته تكمن في تنشئة بناء حقيقيين للمستقبل المشرق من المراهقين، لكن عن أي بناء حقيقيين يمكن الحديث من غير علم الفلك؟ قال مرة في الدرس لتلاميذه: - لا يستطيع الإنسان الإقدام على أمر كبير إلا حينما ينظر إلى النجوم ويحلم بجراءة. إننا وإياكم نعيش في دولة رائعة تهتم بكل فرد منا وتساعد كلاً منا على العثور على مكانه في عملية البناء. لقد حالفنا الحظ لأن اللامساواة التطبيقية غير موجودة عندنا على خلاف الدول المتخلفة، وستنود خلفنا الكوكب كله! إلى هناك! - أشار بإصبعه إلى الأعلى وقد أربكه الاضطراب الذي تملكه. - نحو النجوم...

عملت والدة «فاسيلي إيليتش» في الاقتصاد، وكانت امرأة كثيرة القراءة وذكية، وأحبّت أن تتحدث على العشاء عن الوضع المقلق في العالم أو عن الانتصارات الجديدة في مجال العلم والتقنية، وكانت تتشرب بينها وبين الوالد أحياناً جدالات جدية حول أمور لا مزاح فيها، وكان الانتصار في تلك الجدالات يسير بالتناوب بينهما. ازدادت حدة هذه النقاشات المطبخية حينما أعلن الأمين العام الجديد غورباتشوف عن البيريسترويكا (إعادة البناء)، وقد عدّ الوالد بصفته شيوعياً حقيقياً ووفياً بكل قلبه وروحه للحزب أن ما يجري هو خيانة لقضية «لينين».

كان يؤكد هازاً رأسه: - افهمي يا «ليوبوشكا». لن ينتهي هذا كله على خير، فهذا لا يجوز... لا يجوز التقطيع بهذه العجالة. يتأبني إحساس بأنه سيقطع الكثير من الحطب...

فتعارضه الأم قائلة: - ما يفعله صحيح تماماً. لقد حان الوقت منذ زمان كي نعيش كما يعيش البشر من غير أن نخاف شيئاً. البلاد كلها مثل تكتة عسكرية، هذا ممنوع، وذلك ليس على الطريقة السوفييتية... أما القيادة الحزبية فأصابها العفن من بابها إلى محرابها وباتت تعوقنا جميعنا عن السير قدماً نحو الشيوعية. لقد أتخموها هناك، في الأعلى، ولا يستعجلون المضي إلى أي مكان...

يحتد الوالد: - تظنين أنك تفهمين الأمور! سيدمر «ميخائيل سيرغييفيتش» هذا اشتراكيتنا كلها. سيدمرها حتماً، وسنجرع المصيبة...

- دعها تتدمر. ما الذي لا يرويه من كان خارج البلاد. ينتج من أحاديثهم أن ما يجري هناك ليس حياة، بل حكاية خالصة.

- حمقاء! فكري بما تهرفين! - ويقرع رأسه بقبضته. - سابقاً، على كلماتك هذه...

راقب «فاسيلي إيليتش» بفرح التبدلات التي كانت تجري من حوله، متوقفاً أن ينجم عنها كل ما هو جيد فحسب، وقد عدّ أيضاً أن تصويب بعض النقائص المتفرقة لن يضر في شيء...

أوجز الأمين العام من على شاشة التلفاز بكلمات جميلة قائلاً: - «الفكرة الرئيسية لاستراتيجيتنا هي وضع قدرات الاشتراكية الكامنة كلها في موضع التنفيذ... إننا نريد أن نحول بلادنا إلى نموذج لدولة عالية التطور، وإلى مجتمع الاقتصاد الأكثر تطوراً، والديمقراطية الأوسع، والإنسانية الأكبر، والقيم الأخلاقية الأسمى، يشعر فيه الإنسان الكادح بأنه صاحب السيادة الكاملة ويستطيع التمتع بكل خيرات الثقافة المادية والروحية، وحيث يجد المستقبل الآمن لأولاده، وحيث يمتلك كل ما يحتاج إليه من أجل حياة ممتلئة وثرية...»

كان يتكلم بعبارات ملغزة، وكثيراً ما يكون فهمها أمراً ليس بسيطاً. تردد وقع كلماته كلها على نحو مغوٍ وغير مألوف: كالبليورالية واقتصاد السوق والتفكير الجديد والديمقراطية والتمويل الذاتي. استولت على البلاد رغبة شاملة في العيش بأسلوب جديد.

- انطلقت العملية... - بهذه الكلمات ألهم البلاد «ميخائيل سيرغييفيتش»...

شعر «فاسيلي إيليتش» منذ الطفولة بالخجل تجاه الجنس اللطيف، مثله في ذلك كمثل أي رومانسي حقيقي، وقد منعه هذا الخجل من تكوين أسرة ناجحة. كان في الثامنة والعشرين من عمره لا يزال وحيداً ويعاني من غياب ملاطفات الأنثى، وقلبه الملتهب يتعطش إلى الحب السامي.

تعاطفت معه إحدى المدرسات، وعرفته إلى صديقتها التي لم تستطع أن تبني سعادتها الخاصة.

تقابلا في حديقة المدينة بالقرب من دار العرض الصيفية، فملاً هذا اللقاء الذي تم في نهاية شهر آب روح «فاسيلي إيليتش» بالخفقان ومنح حياته معنى جديداً. أغرم من فوره بالعينين الزرقاوين الكبيرتين المحتويتين في ذاتهما على ترقب الأعجوبة، وبالابتسامة الطيبة والمتواضعة للفتاة التي كانت تعمل اقتصادية. بدا اسمها «ناديا» للشباب أجمل الأسماء النسائية على الأرض.

تنزهها معاً في ذلك المساء طويلاً، فراح مدرس علم الفلك يروي لها بحبور القصص عن النجوم والكواكب، وكيف سيتسنى للبشر في وقت من الأوقات الطيران على سفن فوتونية إلى العوالم الأخرى - نحو «ألفا تسينتافرا» و«سيرْيوس» و«بيتلغيز»، ومن ثم أبعد من ذلك. لقد تكلم وتكلم شاعراً بأن إلى جانبه إنساناً قريباً منه ويحتاج إلى كلماته.

- سيأتي وقت ويفهم الناس فيه في نهاية المطاف أنهم جميعاً ساكنو نجوم، وهذا معناه أن عليهم العيش بصفتهم مخلوقات عاقلة فعلاً. حينذاك ستنتهي الحروب وشتى النزاعات من فورها، وسيبدأ سكان الأرض يعملون معاً ويتعاونون على قضية عظيمة واحدة وعامة وهي اكتشاف الكون. - صمت «فاسيلي إيليتش» وهو يفكر بكلماته، ثم تنهّد قائلاً. - مؤسف أننا لن نرى هذه الحياة الجديدة...

أمسكت «ناديا» بيده وقالت بصوت خافت: - كم الإصغاء إليك ممتع. حتى إنني بدأت أتصور بنفسني

كيف سيكون ذلك كله. الجميع يمارسون فقط العمل المحبب لهم، ولا وجود لأي جرائم وأي استغلال طبقي... العمل والبناء فقط... كم هذا رائع...

كان الظلام قد حل منذ وقت وانسبطت السماء الصافية الممتلئة بالنجوم فوق المنتزهين، وراحت النوافذ في المنازل تنطفئ الواحدة تلو الأخرى، فقد لجأ الناس إلى النوم كي يبدؤوا في الصباح يوم عمل جديد.

أدرك «فاسيلي إيليتش» على نحو غير متوقع وبما يشبه الحاسة السادسة غير المرئية أن «ناديا» تنتظر منه أيضاً كلمات أخرى مهمة جداً.

- هل تريد أن أحدثك كل مساء عن النجوم؟ - سرت القشعريرة في جسده بسبب من جراته، وراح قلبه يخفق في صدره بجنون.

أجابت الفتاة بصوت يكاد لا يسمع: - نعم، أريد.

نظرت إلى عينيه مباشرة، وكانت نظرتها دافئة وصافية، وفيها ما جعله يشعر بالرغبة في الانفصال عن سطح الأرض والاندفاع إلى حيث لا توجد جاذبية أرضية. كان ثمة نجمة مستعر أعظم تندلع على الأرجح في تلك اللحظة في الطرف الآخر من المجرة، وكان الدفء الناجم عن ذلك الاندلاع يطال الشاب عبر موجة ممتعة...

أقاما العرس خريف ذلك العام، وأنشأ «خلية مجتمع» خاصة بهما، وسارا معاً للقاء المستقبل المشرق...

* * *

راحت الحياة في البلاد تتبدل في تلك الأثناء مع مرور كل عام، لكن ذلك التبدل بدا غير حسن، وغير مفهوم في أي اتجاه يسير. فرغت رفوف المحلات التجارية، وظهرت قسائم بيع المواد الغذائية، وسمى الأمين العام نفسه رئيساً مثلما في أمريكا الواقعة وراء المحيط. ثم راحت تحدث أمور لا يمكن تخيلها، وبدا كأن البلاد قد فقدت عقلها من التعطش للامحدود إلى الحرية والحياة الجميلة.

أعلن «بوريس يلتسين» الرجل الكبير ذو الصوت الأبح، الذي أقسم على الوفاء للشعب والدستور قائلاً: - إنني أنظر بتفاؤل إلى المستقبل، وروسيا العظيمة تهض من ركوعها!..

ثم جرت في موسكو أحداث مفرعة، وغير معهودة من قبل، فقام الانقلاب الفاشل للجنة الطوارئ الحكومية، الذي كَفَّ الحزب من بعده عن أن يكون عقل الشعب وشرفه وضميره.

قال «بوريس يلتسين» بفرح واعتزاز: - ما عاد اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية موجوداً.

استقال «غورباتشوف» وقد أعلن عن ذلك لسبب من الأسباب للسيد «يلتسين».

غرق الأب في الشراب، وباتت جلسات الشرب لديه تزداد إيماناً وطولاً. حاولت الأم إعادته إلى رشده، فكانت تندفع نحوه تارة بغضب لاعنة إياه ورافعة القبضة في وجهه، وتتوسل إليه تارة أخرى أن يتماسك ويكف عن الشرب، لكنها لم تفلح قط، وكان يقول لها وعلى وجهه تعبير المصيبة: - آه يا «ليوباشا»، آه يا «ليوباشا». لم لا تنهمن أنني أشعر بالغيثان مما فعلوه ببلادنا... كيف لا أشرب بعد ذلك؟

لم يحتمل قلب الأب مرة صباحاً مثل هذه المعاناة، وتمزق، وقد جاء الموت سريعاً ولم يستطع فريق «الإسعاف» الذي حضر أن يفعل شيئاً.

لكن ذلك لم يكن سوى المصيبة الكبرى الأولى في أسرة «فاسيلي إيليتش»، أما الثانية فوَقعت في العام التالي حينما كانت زوجته «ناديا» تستعد لتصير أمًّا. وقع في أثناء المخاض أمر لا يرام، ولم يستطيعوا طويلاً إخراج الوليد من رحمها، وحينما أخرجوا الطفل في نهاية المطاف أخذوه من فورهم إلى مكان ما، وجاء بعد ذلك طبيب إلى النساء وتلفظ أمامها بقسوة بكلمات مرعبة:

- أستمحك عذراً، لقد ماتت وليدتك.

أعادوا للوالدين التعييسين ابنتهما الميتة الضئيلة، التي لم يتسنَّ لها الوقت كي تعيش وتعرف هذا العالم الهائل والرائع، وحينما رفعوا في أثناء الدفن غطاء تابوت الصغير أجهد «فاسيلي إيليتش» بالبكاء من غير أن يخجل ولو قليلاً من دموعه الذكورية.

أخبره الأطباء أن كليتي زوجته مريضتان، لذلك حصل ما حصل كله، وأنها لن تحتمل ولادة أخرى. أحدث هذا النبأ طبعاً جرحاً بليغاً في روحه، لأنه كان يحلم على نحو لا يقل عن «ناديا» بالطفل، ليتبين الآن أن زوجته لن تستطيع أن تلد أبداً. ظل يحبها كالسابق على الرغم من ذلك، وأمل في قرارة نفسه بأن الطب سرعان ما سيجد أساليب تجعل الولادة ممكنة حتى في ظل كليتين مريضتين.

سارت الحياة بهدوء قدماً في ذلك الوقت، واستمر «فاسيلي إيليتش» في رواية قصص النجوم للأولاد ناسياً في عمله مصيبته، لكن أفكاره ظلت تعود من وقت إلى آخر إلى ابنته التي ماتت في أثناء الولادة، فكان يشعر بالأسى الشديد. رأى مرة حلماً مدهشاً وواضحاً هزه بقوة، فقد جاء إليه في المنام مخلوق صغير يشع نوراً، وكان يتنقل بحرية في الفضاء الكوني، ويستمد طاقته من طاقة النجوم. بدا ذلك المخلوق فرحاً بحياته، وكان يسترسل في ضحك طفولي متقد.

راح يصيح بمرح: - إنني مسرورة جداً هنا يا أبتاه. إننا نلعب ونستمع كثيراً!

ثم رأى مجموعة من أمثال هذا المخلوق المشع نوراً، وقد راح أفرادها يتقافزون فرحاً في رحاب الكون، وبعضهم يسابق بعضاً من نجمة إلى أخرى، ويملؤون فراغ الأثير بأصواتهم الرنانة.

استيقظ «فاسيلي إيليتش» في منتصف الليل، وأدرك أنه قد رأى ابنته في هذا الحلم. نهض وخرج إلى الشرفة وراح ينظر طويلاً إلى السماء المتلألئة بأنوار النجوم كأنه يأمل في أن يرى فيها تلك المخلوقات المشعة للنور. شرعت الدموع تتدحرج على وجنتيه...

باتت روحه منذ ذلك الوقت ممتلئة بيقين لا يمكن تفسيره من أن روح طفلته تعيش في مكان ما هناك، في أقاصي الكون اللانهائية، ومن أنها تشعر بالراحة هناك.

* * *

استقبل الكوكب الألفية الجديدة، وتوقع «فاسيلي إيليتش» من تلك الألفية هزات واكتشافات علمية عظيمة بصفته إنساناً يحمل وجهات نظر طليعية.

قال لتلاميذه في حصصه الدراسية: - حتى أجراً المخيلات أيها الفتيان غير قادرة على توقع ما ينتظرنا في هذه الألف سنة. لكنني لا أشك على الإطلاق في أمر وحيد، وهو أن البشر سيبلغون لزاماً نجوماً أخرى. كيف سيحدث ذلك، لا أعرف، لكنه سيحدث...

قدم «بوريس يلتسين» استقالته، وترأس البلاد رئيس جديد أعلن قائلاً:

- إننا نؤمن بقوانا، وبأننا نستطيع فعلاً أن نعيد بناء بلادنا ونعيد بناء صورتها. ثمة لدينا أهداف مشتركة، ونريد جميعنا أن تكون روسيا بلداً حراً ومزدهراً وغنياً وقوياً ومتحضراً، يفتخر به مواطنوه ويحترمونه في العالم... أستطيع أن أؤكد لكم أنني سأسترشد في عملي بمصالح الدولة حصراً. ربما لن أتمكن من تجنب الأخطاء، لكنني أستطيع أن أعدكم بأنني سأعمل بوضوح وصدق...
سرعان ما تبين أن هذا الرئيس الجديد لا يرمي الكلام جزافاً، ففرض النظام بسرعة في القوقاز، وبدأ الناس هناك يعيشون أخيراً حياة هادئة نوعاً ما بعد حربين دامتيتين.

تقبل «فاسيلي إيليتش» هذه الأحداث بخلجات الفرح، وراح الآن يتوقع منطقياً أن التغييرات سوف تبدأ في حياة البلاد السلمية، وها هي ذي قد بدأت، لكن كل شيء راح يتبدل على نحو غريب جداً. حدثت التغييرات في المدارس أيضاً، وكانت غير مفهومة لعقول المعلمين، فعوضاً عن امتحانات التخرج الاعتيادية «من الأعلى» صارت تجرى اختبارات يؤكد كبار الموظفين على أنها منظومة طليعية للتحقق من المعارف، وكان الموظفون الكبار أولئك يقولون متخذين لأنفسهم هيئة ذكية:

- لقد شاخت منظومة التعليم السوفييتية، وتخلّفت عن الاتجاهات العالمية العامة. إننا بحاجة إلى استخدام تجربة الدول الرائدة وأتباع الأساليب المتقدمة في المدارس...

عينوا في المدرسة مديرة جديدة اسمها «ليليا أركاديفنا» قادمة من مكان ما، وكانت في عمر الأربعين، وتبدو جذابة جداً لكن طبعها كان سيئاً جداً. راحت تسلك سلوكاً متعالياً ومتطرفاً، فلا تحسب حساباً لأحد من المدرسين من ذوي الخبرة، ولا تأخذ بنصيحتهم، وتوجه التوبيخ لأنفه الأسباب. سرت عن «ليليا أركاديفنا» أقاويل مختلفة، فقيل مثلاً إنها عشيقة أحد المستثمرين الكبار أو مسؤول كبير في المدينة، بل إنها قد تكون عشيقة العمدة نفسه.

أعلنت المديرية الجديدة قائلة في اجتماع المجلس التربوي:

- لقد آن أوان التغيير. إنني أرى في مدرستكم أخطاء كبيرة، وسأعمل على تصحيحها كي نبليغ المؤشرات العالية، وينال فريق عملنا المكافآت المجزية. لكنني أطلب منكم جميعاً الانضباط والتفهم من أجل تحقيق ذلك. على كل منكم أن يدرك مسؤوليته الشخصية في أن تكون مدرستنا في أحسن حال. عليكم، عدا عن ذلك، ألا تسوا أن ثمة بين تلامذتنا أبناء أناس أغنياء ويتمتعون بنفوذ وصلات كبيرة، وعلينا أن نوليهم عناية خاصة... استدعي «فاسيلي إيليتش» بعد مرور شهر تقريباً إلى مكتب المديرية «ليليا أركاديفنا»، التي قالت له وعلى وجهها الجميل إمارات الاستياء الشديد: - لقد دعوتك إلى هنا من أجل حديث جدي قد آن أوانه منذ زمن... هل تخمن لماذا؟

أجاب «فاسيلي إيليتش» الذي أقلقته هذه البداية قائلاً: - كلا.

عبست وراحت تفرع المنضدة بأصابعها المعتنى بها.

- همم... هذه سلبية أخرى عندك... جل المسألة فيما يلي. اليوم يوم الناس العمليين والحيويين والذين يفكرون بأسلوب إبداعي، أما أنت فتبدو من خارج هذا الزمان. إنك تذكرني بالمتقف السوفييتي النمطي غير القادر على فعل شيء. - رمت «ليليا أركاديفنا» بنظرة فاحصة، وكشّرت بنفور. - عدا عن ذلك فالمطلوب اليوم نمط الرجال الهولويديين. على غرار «ما تشو» و«سوبرمان»... هل تفهمني؟ لا أظن

ذلك ... - الأاحت بيدها. - قاماة رياضية ولباس على الطراز السائد وكل ما هو لائق... - أما أنت... انظر إلى نفسك؟ من تشبه؟ أي «ماتشو» أنت؟ ... انظر وحسب إلى ساعتك... ما هذه البذاءة؟ أحنى «فاسيلي إيليتش» رأسه: - إنها «كومانديرسكي»، ساعة جيدة. ومضمونة. - هذا ما أتحدث عنه. لا تناسب أي ذائقة... ثم كيف لك عموماً أن تعلم الأطفال المعاصرين أي شيء مفيد؟

حاول «فاسيلي إيليتش» أن يعترض: - أرجو المعذرة، لكن ما شأن «ماتشو» هنا؟ إنني مدرس علم الفلك والفيزياء وأعرف مادتي معرفة ممتازة.

تكلمت «ليليا أركاديفنا» بلوم: - هل ترى كيف أنك لا تستطيع أن تفهم أمراً بسيطاً كهذا؟ هذا معناه أنك قد تخلفت عن الزمن على نحو لا رجعة عنه، وترفض بعناد أن تسير على خطاه.

لم يفهم «فاسيلي إيليتش»: - على خطأ من؟

- خطأ الزمن يا عزيزي. خطأ ال- ز- من! - هزت المديرية رأسها. - أضف إلى ذلك أنك تنتقد منظومة التعليم المعاصرة باستمرار، وهذا أشبه ما يكون بالتخريب. عموماً، إليك الآتي... إما أن تستخلص لنفسك العبر مما قلته لك الآن أو نفترق. هل هذا مفهوم؟

أجاب «فاسيلي إيليتش»: - نعم.

ظل بعد تلك المحادثة يفكر طويلاً بكلمات «ليليا أركاديفنا»، محاولاً بصدق أن يفهم أي عبر تحديداً عليه أن يستنتج، لكنه لم يصل إلى أي أمر محدد.

«إنني أحدثهم عن النجوم أما هي فتحدثني عن «ماتشو»... كلا، إنني لا أستطيع أن أفهم هذا. ما شأن «ماتشو»؟»

استدعته «ليليا أركاديفنا» في نهاية العام الدراسي إلى مكتبها من جديد، وكانت مرتدية فستاناً أسود متماوجاً وملتصقاً بجسدها، وبفتحة عميقة عند الصدر. فكر «فاسيلي إيليتش» في أن امرأة كهذه يجب أن تكون في الغالب ممثلة بالحب والرقّة، لكنها لسبب من الأسباب مختلفة كلياً. تكلمت بصرامة شابكة أصابعها على المنضدة أمامها:

- ثمة لدي نبأ غير سار جداً لك. كما تعلم فإن منظومة التعليم المعاصرة لا تقف في مكانها وتتطور باستمرار، وأظنك تعترف بذلك.

أجاب «فاسيلي إيليتش» وهو ينظر نحو فتحة الصدر باضطراب: - أعترف.

- حسناً... لقد تم استبعاد مادة علم الفلك من المنهج المدرسي في العام الدراسي المقبل.

- ما معنى هذا... كيف استبعدت؟

خيل لـ «فاسيلي إيليتش» أنه لم يسمع جيداً لأن العبارة ترددت بوحشية مفرطة.

صححت «ليليا أركاديفنا» بإيماءة فنية تسريحة شعرها وهي تقول: - نعم، هكذا. انتهى الأمر، لم يعد لعلم الفلك مكان في المدرسة بعد الآن.

افترض «فاسيلي إيليتش»: - ألا يكون قد حدث خطأ ما؟

- ليس ثمة أي خطأ. وعدا عن ذلك فأنا موافقة تماماً على هذا القرار. لماذا نملاً رؤوس الأطفال بشتى

النجوم والتقريب السود؟ ينبغي علينا أن نهين الأطفال للحياة هنا، على كوكبنا وفي مجتمعنا. عليهم أن يفكروا كيف يصيرون أناساً ناجحين في هذه الحياة، أما نجومك فتلهمهم عن المسائل ذات الأولوية، وعن المشكلات الملحة، وتمنعهم من التركيز على الأهم.

سألها «فاسيلي إيليتش» متسلحاً بالشجاعة: - وما الأولى والمهم برأيك؟

نظرت «ليليا أركاديفنا» إليه كأنها ترى أمامها مومياء فرعونية تتكلم.

- هل سؤالك هذا جدي تماماً؟ ما دمت لا تعرف حتى هذا فما الذي تعلمه للأطفال، وكيف تفعل ذلك؟

تكلم بحماسة: - إنني أعلمهم في المقام الأول القيم الأبدية، وكل ما هو طيب وجميل!

تلوى وجه «ليليا أركاديفنا» في مهمة احتقار.

- آه. دعك من هذا الهراء. ينبغي تعليمهم ما ينفعهم في حياة ناضجة ومستقلة. عموماً، هاك ورقة

واكتب طلباً. لقد تم الاستغناء عنكم.

- لكنني أدرس أيضاً الفيزياء. - قال «فاسيلي إيليتش» ذلك بتحد.

- الفيزياء؟ - راحت «ليليا أركاديفنا» تنقل على المنضدة أوراقاً ما من غير أن تنظر إلى محدثها. - لا

بأس. تستطيع «ناتاليا فاليرييفا» أن تدرس الفيزياء. إنها ليست مثقلة كثيراً.

- لكن «ناتاليا فاليرييفا» تدرس الكيمياء! وهما علمان مختلفان.

- ليسا مختلفين كثيراً إذا ما دققنا في الأمر. - عادت راضية مرة أخرى. - إنهما منطقتان متداخلتان

من العلوم الطبيعية. تدرس الفيزياء قوانين الطبيعة والمادة وحركتها وبنيتها، أما الكيمياء فتدرس بناء

المواد وتكوينها وصفاتها. إنهما علمان مترابطان من حيث المبدأ. إن لم تكن قد نسيت فثمة أيضاً علم هو

الفيزياء الكيميائية، لذلك أظن أن «ناتاليا فاليرييفا» ستجح نجاحاً رائعاً في ذلك. سيصير فريقنا في

المقابل متجانساً ومترابطاً أكثر، فأنت متناظر كثيراً على نحو ما معه، إنك تفسد تناغمه، لا تسير على خطا

الجميع كما يقال، والفريق ينبغي أن يكون كلاً متكاملأً كي يحقق أعلى المؤشرات في العمل. ما عاد الزمان

الآن يسمح بأن يعاني القطيع كله بسبب من غنمة مصابة بالقمل. ومن الغباء ببساطة أن يحرم الناس

أنفسهم عن وعي من المكافآت الإضافية. لذا اكتب طلب الاستقالة ومع السلامة...

كان هذا الحادث في حياة «فاسيلي إيليتش» المأساة الكبيرة الثالثة بعد وفاة والده وابنته، وقد ظل

يعاني من تبعاتها الثقيلة طويلاً، حتى إنه بدأ يتعاطى الكحول، لكنه تمالك نفسه بعد ذلك ووجد في داخله

القوة الروحية كي يقلع عن الشراب فلا يكرر مصير أبيه. ومع ذلك لم يتقبل عقله بأي حال من الأحوال

أنهم قد ألغوا مادة علم الفلك من المنهج المدرسي.

سأل نفسه بصوت مسموع كأنه يأمل في سماع جواب عن سؤاله ذلك: - كيف هذا؟ القرن الحادي

والعشرون على الأبواب ويلغون علم الفلك... هل هذا ممكن؟ علينا أن نتقدم إلى الأمام... إلى هناك...

نحو النجوم. لا أمل لنا بلا النجوم، لا أمل على الإطلاق... الإنسان من غير النجوم لا يستطيع أن يتطور

تطوراً كاملاً... لا يستطيع...

توجعت روح المعلم وحزنت، فقد عدت المدرسة دائماً موئلاً لساكني النجوم الجدد الذين عليهم أن

يبدعوا ويبتكروا، وأن على هذا الموئل أن يساعدهم قبل كل شيء على أن يصيروا أناساً حقيقيين يمضون

قدماً نحو مستقبل البشرية النجمي وعليه أيضاً أن يزودهم طبعاً بكل ما يلزم من معارف من أجل ذلك. أما في الواقع فثمة مؤشرات ومكافآت ما! هراء خالص...

* * *

بدأت على هذا النحو لدى «فاسيلي إيليتش» حياة جديدة حاول أن يعثر فيها على فائدة ترجى منه. بدأ البحث عن العمل صعباً، لأن المدرس السابق لم يكن يحسن أي عمل غير التعليم، فلم يقبلوه في أي مكان، ولم يبق له سوى أن يذهب للعمل بواباً أو حارساً. وقعت عينه على إعلان يطلبون فيه حارساً لمصنع الهياكل البيتونية المسلحة، فتحدد على هذا النحو مصيره اللاحق.

كان هذا المصنع سابقاً يتبع للدولة في الزمان السوفييتي، ولم يكن ينتج الهياكل للمنطقة وحدها بل لكامل مساحة «تشيرنوزيميه»، من بلاطات وأعمدة ودرجات ومدادات وكتل جدارية والكثير غير ذلك. أما الآن، بعد أن اختفت دولة الاشتراكية العظمى من الوجود وصاروا يصفون فكرة المساواة الشاملة خطرة وفارغة، فقد امتلك المصنع بضعة أشخاص، وعلى الرغم من أن «فاسيلي إيليتش» كان يعدهم برجوازيين إلا أنه لم يعثر لنفسه على مخرج آخر، فهو في حاجة إلى النقود من أجل حياة مقبولة على هذا النحو أو ذلك. اعتاد على عمله الجديد وعلى مجموعة العمل الجديدة تدريجاً، كذلك أفرحه أن المصنع لم يمت مثلما مات كثير غيره من المؤسسات، وظل يقدم منتجاته بعد أن تجاوز الأزمة الصعبة، بل راح يطورها أيضاً بعد أن اقتنى آلات حديثة وطبّق تكنولوجيات متقدمة في الإنتاج.

كان الحراس كلهم تقريباً من العسكريين وموظفي الشرطة أو السجون السابقين واختصاصيين سابقين في هذه المهنة أو تلك... منهم من تمكّن من الحصول على التقاعد، ومنهم ببساطة من وجد نفسه فجأة زائداً عن الحاجة في مكان عمله الذي أمضى فيه سنوات طوال، ولا لزوم له في عمله الذي أحبه وعده أهم ما في حياته، وكان «فاسيلي إيليتش» أحد أولئك البائسين. لم يكن يتخيّل نفسه من غير المدرسة وعلم الفلك والعيون الطفولية التي تشع بفرح المعرفة.

كذلك كان يتخيّل في أحيان كثيرة جداً صوت ابنته في الضحك الطفولي المتردد في ممرات المدرسة، وبات هذا الوهم ملحاحاً ويظهر لديه أكثر فأكثر مهيجاً عقله وروحه. يبدأ «فاسيلي إيليتش» في تلك اللحظات يتخيّل كأن ابنته ما تزال حيّة ومعافاة، وأنها تركض أيضاً الآن في هذه المدرسة وتلعب مع صديقاتها لعبة مرحلة ما، وأحياناً كانت تولد في رأسه فجأة فكرة متوحشة مفادها أن روح ابنته تزور أباه من وقت إلى آخر في عمله...

وها هو ذا يفقد في لمح البصر عمله الذي أحبه، ويفقد كل ما كان عزيزاً على قلبه وما عدّه جزءاً لا يتجزأ من حياته: لوح الصف الأسود المزخرف بالطباشير، ونظرات التلاميذ المتعطشة، والجو الخاص الذي يملأ المدرسة...

كان «فاسيلي إيليتش» يقضي في مناوبته يوماً ليرتاح بعده يومين، فبدأ جدول العمل هذا مريحاً تماماً له ما جعل الأفكار الكثيرة كلها تغادر معلم مادة الفلك السابق، ويستكين إلى واقعه المعيشي الجديد الذي سرعان ما تبين في نهاية المطاف أنه ليس الأسوأ على الإطلاق...

لكن تغيرات غير سارة طرأت على زوجته، فالمصيبة قد كسرتها على ما يبدو، وصارت «ناديا» مملة ومماحكة، وتقيم الشجار لأتفه الأسباب. كانت تندفع نحو زوجها فجأة وتتهمه بأنه «متوان» و«بليد» وبأنه أخرق عموماً، وأحياناً تبدأ تبكي وتئن بلا أي مسوغ وتصير بأسة. كان يحاول كل مرة تهدئة زوجته: - كفي عن البكاء يا «نادينكا»، لا لزوم لذلك. هل تذكرين ما رويته لك عن النجوم؟

فتصيح رداً عليه: - فلتنغر في قاع الأرض مع نجومك.

وكانت هذه الكلمات تملأ روح معلم الفلك السابق بالحرقة والأسى.

راحت زوجته تبتعد عنه أكثر فأكثر عاماً إثر عام، كما بالروح كذلك بالجسد، ولم يبق أي أثر لحبها وورقتها السابقين، ولم يعد يمكن الحديث عن أي تقارب معها. نصحه الرجال العاملون معه بالطلاق والبحث عن امرأة أخرى تحبه وتلد من أجله، لكنه لم يسمح لنفسه حتى بالتفكير في ذلك، لأنه كان يشفق على «نادينكا». راحت تعوم في ذاكرته لوحات من ماضيها السعيد حينما كانت تلك المرأة الفتية والجميلة ذات العينين الزرقاوين والعميقتين مثل البحر تستمع إلى حكاياتها عن النجوم وتقبله فتغور الأرض من تحت قدميه.

«كيف أهجرتها؟ حتى لو تحولت إلى امرأة مماحكة وغضوب، حتى لو لم يعد بيننا ذلك الحب، سيان...»

من غير الجائز خيانة ماضيها! سيكون ذلك أعظم دناءة على وجه الأرض!»

وحينما كان «فاسيلي إيليتش» يعجز تماماً عن احتمال عيشة كهذه، كان ينظر إلى النجوم فتجلب

لألأنها في السماء الراحة والسكينة لروحه المعذبة، وتؤثر فيها أفضل من أي دواء...»

* * *

سمح ضوء المصابيح برؤية ما حدث كله، فقد جلس خلف المنضدة شابان وفتاة، وكانت هياتهم تدل على

أنهم في الثامنة عشرة. وضعت أمامهم ثلاث زجاجات جعة مفتوحة وعبوات بطاطس وفتق مفضوضة.

- مساء الخير أيها الشبان، - ألقى «فاسيلي إيليتش» التحية وقد لفت انتباهه أن معصم يد الفتاة

اليسرى ملفوف بالشاش. - ألن أزعجكم؟

أجاب أحد الشابين بجفاء: - هذا مرتبط بالزاوية التي ننظر منها.

كان متين البنيان وحليق الرأس «على الصفر» تقريباً، ويرتدي قميصاً أسود يضيق على بدنه مفتول

العضلات، وسروالاً قصيراً مموه الألوان.

تهانفت الفتاة واجترعت جرعة من القنينة. بدا القميص الوردي الملتصق بنهديها الممتلئين والمبرز

لهما لاثقاً جداً على جسدها المشقوق، أما جانب أنفها الأيسر فكان مزيناً بحلقة ذهبية ذات قفل على

شكل كرية.

اقترب «فاسيلي إيليتش» حتى التصق بالمنضدة من غير أن يعير انتباهاً لرد فعل الجالسين، وقال: -

قررت أن أحدث مع الجيل المراهق. أريد أن أعرف كيف تعيشون وما الذي يقلقكم.

سأله الشاب الثاني النحيل والأسمر، والذي كان يرتدي بنطال جينز ضيقاً نيلي اللون، وبلوزة بنية

مزرکشة بعبارات وكتابات باللغة الإنكليزية: - هل تشعر بالملل أيها الرجل؟ أم أنك مريض؟

- أم أنه مهووس؟ - افترضت الفتاة ذلك وتهانفت من جديد.
- ضحك الشاب النحيل: - تماماً يا «كاتيوخا»، إنه مهووس!
ارتبك «فاسيلي إيليتش» بعض الشيء: - لست مهووساً على الإطلاق. لقد كنت ببساطة مدرساً...
عبس الشاب ذو السروال القصير: - تيّاً! لأحب المدرسين. - اجترع جرعتين من قنينته - أصابونا بالملل تماماً. يتظاهرون بأنهم أذكاء ويهرفون بشتى التفاهات، أما هم فسُدج في الحياة.
- لماذا؟ - أصيب «فاسيلي إيليتش» الذي لم يكن يفهم كثيراً كلام الشباب بمزيد من الارتباك. لم يكن ليخطر في باله أن تلاميذه يمكن أن يعده ساذجاً.
كشر الشاب ذو السروال القصير كاشفاً عن أسنانه البيض المتينة: - لأنهم سدج! ما الغريب في الأمر؟
ثمة مثل يقول ما دمت ذكياً فلماذا لست غنياً؟ وما دمت ساذجاً فعليك ألا تصدع رؤوس الآخرين...
همد «فاسيلي إيليتش» في مكانه وقد صعقه تخمين مرعب بأنه يبدو فعلاً لهؤلاء الشبان فاشلاً ولا يحق له أن يعلم الآخرين ما دام هو نفسه لم ينل الشهرة ويحقق الكفاية.
اعترض بشيء من التردد: - لكن... لا ينبغي الحكم على الإنسان من حال اليسر فقط.
ألح الشاب النحيل بيده: - هذا كذب! النقود الآن تحسم كل شيء. من لديه النقود له الاحترام.
- حسناً يا عم، اجلس معنا. - سمح له الشاب المتين بالجلوس برحابة صدر. - هل تريد الجعة؟ -
أخرج من الحقيبة السوداء الكبيرة الموضوعة عند قائمة المنضدة زجاجة أخرى وفتحها.
- شكراً. - جلس «فاسيلي إيليتش» بتواضع على حافة المقعد بالقرب من الشاب النحيل وقبالة الفتاة التي راحت تنظر إليه بتهكم، بل بشيء من الاحتقار أيضاً.
كان شعرها داكناً وكثيفاً، وانسدل بحرية على كتفيها وظهرها. رفع الشاب ذو السروال القصير الزجاجة والتصق بالفتاة جيداً.
- حسناً، فلنرفع نخب من يحسن العيش!
سأل الشاب النحيل صاحبه: - ماذا جرى للأصهب يا «ليوخا»؟ هل اشترى له والده سيارة جديدة أم ماذا؟
أجابه الآخر مقطباً: - نعم، «شيفروليه كروز».
- ليست رديئة.
- آها، ليس رديئة... ماذا لدى صاحبك «تانيوخا»؟
- أضنتني العنزة. تتباهى كثيراً، وتزيد قيمتها مع كل خطوة تخطوها.
رفع «ليوخا» كتفيه الرياضيين: - ربما تزيدها.
راح الشاب يدعم حديثه بسخاء وبلا تكلف بالكلمات البذيئة من غير أن يخجل من ذلك ولو قليلاً في حضور رجل كبير وفتاة، أما تلك فبدا واضحاً أنها معتادة على هذه المنعطفات اللغوية وتتقبلها بهدوء تام كأنها إلزامية.
كان مثل هذا المشهد يؤلم «فاسيلي إيليتش» دائماً إذ كان يرى أن من غير المقبول للرجل الطبيعي أن يتكلم هكذا في حضور امرأة، لكن ما أحزنه أكثر هو أن المرأة قد استمعت إلى هذه البذاءة بلا أي خجل.
قرّر أن يتدخل في حديث الشبان وينقله إلى موضوع آخر أمتع.

هزّ «فاسيلي إيليتش» رأسه قائلاً: - هكذا نعيش في فناء المجرة الخلفي ولا نفكر إلا في السيارات والثروات.

سدد الشاب النحيل ناظريه نحوه بدهشة: - ماذا، ماذا؟ ما الذي تقوله يا عم؟
- أقول إننا في الريف في حقيقة الأمر، على الأطراف، ولو كنا أقرب إلى المركز... لوجدنا، ربما، إخوة لنا في العقل.

سأله «ليوخوا» الذي بدا أنه أكثر ذكاءً من صديقه: - لماذا على الأطراف؟
- كيف لماذا؟ إن منظومتنا الشمسية أيها الشبان تقع تقريباً عند طرف قرص المجرة. ينتج من ذلك أننا في الضواحي.

- حقاً؟ - همهم «ليوخوا» وبدا كأنه راح يفكر.

ساد الصمت وراء المنضدة مدة دقيقة، ثم سألت «كاتيا» على نحو مفاجئ:

- وماذا ينتج عن ذلك؟

ضرب «فاسيلي إيليتش» كفاً بكف: - كيف ماذا؟ ينتج أن النجوم في مركز المجرة بعضها أقرب كثيراً إلى بعض، وهذا معناه أن الطيران من نجمة إلى أخرى أسهل. - انتفض لأنه أدرك فجأة أن هؤلاء المراهقين لا يعرفون شيئاً عن أسس علم الفلك. - ما بكم، ألم تدرسوا علم الفلك في المدرسة.

- كلا، لم يكن لدينا علم الفلك. - بدا «ليوخوا» ساهماً في أفكاره أكثر.

قالت «كاتيا» بصوت خافت: - ونحن أيضاً.

صمت النحيل، وأمسك الزجاجة واجترع جرعات عدة.

بدأ «فاسيلي إيليتش» يشرح قائلاً: - تدور نجمتنا الشمس مع الكواكب والأرض طبعاً حول مركز المجرة بسرعة متّين وثلاثين كيلومتراً في الثانية.

دهش «ليوخوا»: - ليس بالقليل!

- ولكي نعبر مجرتنا من طرفها إلى طرفها علينا أن نطير بسرعة الضوء قرابة مئة ألف سنة. - شعر «فاسيلي إيليتش» من جديد بأنه معلم في أثناء الدرس فألهمه هذا الإحساس الممتع. - وعلى هذا النحو فإن الأرض تتجز دورة كاملة حول مركز المجرة في مئتي مليون عام تقريباً.

صفر النحيل.

- حقاً؟ على رسلك!

- نعم، لقد حسب العلماء هذه القيم منذ وقت.

تكلمت «كاتيا» بصوت خافت: - مذهل. - ومدت يدها نحو الزجاجة، لكنها لم تتناولها كأنها قررت ألا تشرب المزيد.

- الأبعاد الفضائية هائلة أيها الشبان، وإذا حاولنا أن نتخيّلها فإنها ستحبس الأنفاس.

- وما حاجتنا إلى هذا كله؟ - رفع النحيل زجاجة البيرة وأرجحها أمام «فاسيلي إيليتش» - ثمة في هذه

البيرة مغزى، فأني مغزى في نجومك تلك؟ آ؟ هل تحتاجين إلى النجوم يا «كاتيوخوا»؟

لم تجب الفتاة، فنظر الشاب إليها بذهول.

تكلم «فاسيلي إيليتش» بحبور: - الكون هو... شيء معقد وممتع على نحو غير عادي.
انفجر النحيل ضاحكاً فجأة: - ما الممتع هناك؟ نجوم ما... مجرات. لا تبالغ أيها العم. كل هذا مبهم.
اقترح «فاسيلي إيليتش» من غير أن يلحظ السخرية: - فلنأخذ أنفسنا على سبيل المثال. إننا نجلس
هنا الآن حتى من غير أن نشعر بأننا نتحرك في الفضاء. مع العلم أننا نقوم بحركات عدة في الوقت نفسه.
سأل «ليوخوا» باهتمام صادق: - كيف هذا؟
- هكذا... أولاً، تدور الأرض حول الشمس، وتدور معها حول مركز المجرة. وثانياً، تطير المجرة في
الكون.

- إلى أين؟ - أظن هذا السؤال من الفتاة تلقائياً.
ابتسم «فاسيلي إيليتش» لها ورفع كتفيه.
- ليس معروفاً بدقة حتى الآن إلى أين تطير، لكنها تطير في اتجاه ما بسرعة خمسة وعشرين كيلومتراً
في الثانية. ثمة لدى العلماء بهذا الشأن آراء متعددة. بعضهم يظن أن مجرتنا درب التبانة كلها تدور حول
مركز ما للكون، ويفترض آخرون أننا نطير نحو جاذب عظيم.
جحظ النحيل عينيه: - إلى أين، إلى أين؟
كرر «فاسيلي إيليتش» شاعراً برعشة من هذه العبارة الغامضة: - نحو جاذب عظيم. إنه تجمع خارق
للمجرات يجذب إليه المجرات كلها. إن الكثير من المجرات يطير إلى هناك كما تشير المراقبات على الأقل،
لكننا لا نزال نقع بعيداً جداً جداً عن الجاذب العظيم. يفصلنا عنه مئتان وخمسون مليون سنة ضوئية
في الفضاء الكوني، لذلك لن نصل إلى هناك سريعاً. يستطيع عشرات الألوف من أجيال البشر أن يولدوا
ويموتوا قبل ذلك.

سألت «كاتيا» بصوت خافت: - وماذا سيحدث بعد ذلك؟ حينما تصل الأرض إلى هناك؟
- بعد ذلك؟ - لاحظ «فاسيلي إيليتش» أن الثلاثة جميعهم يستمعون بانتباه إليه: - يصعب التحديد.
قد لا يحدث أي شيء مرعب، وربما ستقع كارثة كونية عظيمة، فتدمر مجرتنا وتنتهي الحياة على الأرض.
عموماً، الاحتمالات متنوعة.

صمت وراح ينظر إلى السماء الممتلئة بالنجوم.
- هذا العالم مدهش ورائع بضخامته. إه، إنني أحسد أولئك الذين سيعيشون بعدنا بألف سنة. أظن
أنهم سيجدون لزماً طريقة للطيران حتى إلى أبعد أركان درب التبانة، أو يتخطون حدودها. ربما سيعرف
أحفادنا عن هذا العالم أمراً لا نستطيع حتى أن نحزرم ما هو. سيسكنون كواكب أخرى، وسيبنون مدناً
فضائية، وسيعثرون طبعاً على إخوة لنا في العقل...

صمت «فاسيلي إيليتش»، وراح يتخيّل مغمض العينين ما قاله للتو، فهيجت روحه اللوحات الساطعة
والملونة لهذه الحياة الخيالية المقبلة.

تكلم «ليوخوا» ساهماً وقد راح يحك قذاله: - نعم، ستكون حياة مذهلة.

أضافت «كاتيا» بحزن: - وليست كالحياة الآن.

ظهر في عيني «ليوخوا» تحد جسور: - وماذا في ذلك، كنت سأطير.

لم يفهم رفيقه: - إلى أين؟
 - إلى هناك. - نظر «ليوفا» أيضاً إلى السماء. - خلف الحدود.
 قالت الفتاة: - أنا أيضاً كنت سأطير.
 - واوويا «كاتيوفا»! - أشار النحيل بإبهامه دلالة على الاستحسان. - يا امرأة الفضاء.
 حاول أن يعانق الفتاة، لكنها ردت به بزم، فظهرت علامات الدهشة على وجه الشاب:
 - لم أفهم؟ ما بك؟
 ابتعدت «كاتيا» حتى حافة المقعد: - لا شيء! لقد تماديت!
 بدا بوضوح أن النحيل قلق من سلوك صديقه ذلك: - تبتاً، هل تستعرضين أمام العم؟
 أجابت باشمئزاز: - لا أستعرض أمام أحد. دعنا نستمع.
 استاء النحيل أكثر: - كلا، هل ترى يا «ليوفا»؟ يسوق لنا هذا... شتى التفاهات و«كاتيوفا» تتساق
 معه. الأفضل أن أحدثك أنا... - تحرك مرة أخرى نحو الفتاة ليلقى مقاومتها من جديد.
 - ما بك تتمنعين في نهاية المطاف؟ - قال النحيل ذلك بمسحة من الاستياء، ونظر إلى صديقه باحثاً
 عن دعمه على ما يبدو.
 لكن «ليوفا» لم يؤيده: - انتظر يا «سلافان»، ودع العم يروي لنا المزيد. نعم الموضوع يطرحه الرجل.
 بربر باستياء وهو ينحني نحو القنينة: - حسناً، حسناً.
 نظر «فاسيلي إيليتش» نحو «كاتيا» فصار يخيل إليه أكثر فأكثر أنه يجلس أمام ابنته التي من لحمه
 ودمه، وراودته الفكرة التالية:
 «كانت ستبلغ من العمر القدر نفسه تقريباً الآن».
 ارتجف بعد ذلك من افتراض غير معقول بأن خطأ ما مرعباً قد حدث في دار التوليد حينذاك قبل
 سبعة عشر عاماً، وأن التي ماتت لم تكن رضيعته بل رضيعته أخرى، أما الأطباء فقد اختلط عليهم الأمر...
 «اختلط عليهم الأمر! نعم، طبعاً اختلط! كيف لم أدرك ذلك من فوري؟! هاكم أي مغفل... لكن كيف أمكن
 حدوث ذلك؟ ولماذا؟» ما عاد يشك ولو قليلاً في أن هذا ما حدث فعلاً، واختلس مرة أخرى نظرة إلى الفتاة
 الجالسة إلى المنضدة. ظل عقله يقلب التخمين غير المعقول هذا: «ماذا لو أنها هي؟ كبرت وتجلس الآن
 هنا... هذا ممكن تماماً! يمكن أن يحدث في الحياة حتى أكثر من هذا»
 سألها «فاسيلي إيليتش» بعد أن بات غير قادر على احتمال تمزق روحه: - «كاتيوفا»، هل لديك والدان؟
 توفرت الفتاة: - لماذا تسأل؟
 أجاب بمواربة: - لا شيء... من باب الاهتمام ببساطة.
 - يبدو أن العم يريد أن يتبناك. - قدم «سلافان» فرضيته هذه ثم بدأ يقهقه بغباء.
 همهم «ليوفا»: - حسن الذوق. لا أمانع أنا أيضاً يا «كاتيوفا» أن أتبناك.
 تجاوز «فاسيلي إيليتش» هذا التندر وتوتر بانتظار جواب الفتاة، التي تكلمت بامتعاض:
 - نعم، لدي والدان. لكن الأفضل ألا يكون لدي والدان على الإطلاق من أن يكون لدي هذان.
 شعر «فاسيلي إيليتش» بالقلق: - لماذا؟

غضبت «كاتيا» فجأة: - هكذا. ما الذي يمكن فهمه هنا؟ والدي يعظني بالأخلاق ويعلمني كيف ينبغي أن أعيش، أما هو... فيعمل عامل خراطة في المصنع. مرتبه يثير ضحك الدجاج، لكن المال يكفيه دائماً من أجل الفودكا. تَباً، أي أب هذا...

تردد من جملتها الأخيرة الاستياء والاحتقار، فسألها «فاسيلي إيليتش»:

- وماذا عن أمك؟

- إيه... - ألاح الفتاة بيدها. - مربية في روضة للأطفال.

- ما السيئ هنا؟ مهنة جيدة.

عبست قائلة: - آها، كثيراً.

- أضف إلى ذلك أن عملها ضروري جداً للمجتمع.

قالت «كاتيا» بتهكم: - هذا واضح من المرتب.

- لا يقاس كل شيء في هذا العالم بالنقود في نهاية المطاف.

هتفت الفتاة بغضب: - إنك تكذب! كل شيء يقاس بالنقود! كل شيء، كل شيء!

سألها «فاسيلي إيليتش» بارتباك: - والضمير؟

- والضمير أيضاً. ثم من يحتاج إلى ضميرك هذا؟

- كيف ذلك؟ الجميع يحتاج إليه. الجميع يا «كاتيوشا». أنا وأنت وهما أيضاً. جميعنا... لكن كل فرد يفهم ذلك في أوانه، حينما يحين الوقت.

ساد الهدوء وراء المنضدة قرابة دقيقتين، وراح «ليوخوا» يدير في يده ساهماً زجاجة البيرة، وكف

«سلافان» عن الابتسام بسخرية وعن التهكم، وبدا الآن كأنه مذنب في أمر ما.

طلب «ليوخوا» فجأة: - ارو لنا أيضاً شيئاً ما... عن الفضاء.

- شيئاً ما أيضاً؟ - فرح «فاسيلي إيليتش»، وخيّل إليه أن طلب الشاب هذا صرخة من نوع خاص

أطلقتها روح إنسان أدرك على نحو مفاجئ أنه كان محروماً زمنياً طويلاً من أمر ما حسن جداً. - حسناً سأروي لكم.

راح يفكر باحثاً في عقله عن شيء ما ممتع. كان في الحقيقة يعرف الكثير من الأشياء عن الكون،

ويستطيع التحدث عنها، كولادة النجوم وموتها، والثقوب السود، وجحور الخلد، وعن السدم وعدسات

الجازبية وعن أنواع المجرات والنجوم الزائفة، لكن «فاسيلي إيليتش» تذكر هنا العالم الروسي العبقرى

الذي علم نفسه بنفسه والمخترع والحالم وفيلسوف الفضاء، فسأل الشبان:

- هل تعرفون «تسيولكوفسكي» يا شباب؟

- من يكون؟ - نظر «ليوخوا» مستفسراً إلى «سلافان»، لكن هذا الأخير لم يفعل شيئاً سوى أنه رفع

كتفيه النحيلين.

قالت «كاتيا»: - لقد سمعت بهذا اللقب في مكان ما.

دهش «فاسيلي إيليتش»: - هل يعقل أنكم لا تعرفون عنه شيئاً؟ إنه صاحب الجملة الشهيرة: «الكون

مهد العقل، لكن من غير الممكن العيش في المهدي إلى الأبد».

امتدح «ليوخوا» الكلام قائلاً: - قول قوي.

واقفه «فاسيلي إيليتش»: - نعم قوي. كان معلم مدرسة بسيط مثلي، لكن هذا الإنسان تنبأ ببناء الصواريخ والسفن الفضائية، حتى إنه حسب مسارات حركتها، وليس هذا فقط... لقد طرح فكرة المصعد الفضائي والقطار الذي يسير على الوسادة الهوائية والمحطات المدارية والهياكل الهندسية العملاقة حول النجوم... - اشتعل «فاسيلي إيليتش» حماسة من جديد. - حلم «قسطنطين إدواردوفيتش» بصفته رومانسياً كبيراً بأن الناس سينتقلون للعيش في مدن فضائية عملاقة، وسيتحولون إلى «سكان الأثير»... أليس هذا جميلاً؟ ورأى في أحلامه أننا سنعيد تشكيل كوكبنا وسنحوه إلى منزل البشرية الكبير الوحيد، حيث سيكون كل شيء فيه مرتباً ترتيباً عقلانياً ومحدوداً. لقد آمن هذا العالم بقوة العقل الإنساني، وبأننا لسنا وحيدين في الكون. هكذا كان هذا الرجل المدهش. كانت لديه ورشة صغيرة وآلة خراطة راح يصنع فيها مجسم منطاد. عاش تسولكوفسكي على مرتبه المتواضع، لكن أعماله ومخيلته ساعدت في شق الطريق نحو الفضاء. هكذا كان...

تأثر «فاسيلي إيليتش» بالمشاعر التي ملأته.

قال «ليوخوا»: - رائع.

واقفه «سلافيان»: - آها.

أفصح «فاسيلي إيليتش» عن فكرته الخفية: - لقد كان ساكن نجوم حقيقي، وسار طوال حياته نحو تحقيق حلمه المنشود. ينبغي أن يكون لدى كل امرئ حلمه الكبير والواضح، وحينذاك يصير سهلاً عليه تخطي أي مصائب وصعوبات في الحياة.

كشر «سلافيان»: لدي أيضاً حلم كهذا. إنني أحلم بـ«الحصان الأبيض».

- هل تقصد سيارة المرسيديس أم ماذا؟ - خمّن «فاسيلي إيليتش» وتنهّد. - كلا، لن تكون حياتك سهلة مع حلم كهذا أبداً.

تجهّم «سلافيان»: - ماذا تقول؟ ما السيئ فيه؟

- لأنه حلم منخفض جداً، تجاري إلى أبعد حد... إنه لا يسمو بالإنسان، بل على العكس من ذلك يجعله عبداً لشيء من الأشياء...

انطلقت الموسيقى من حقيبة الفتاة، فأخرجت «كاتيا» من هناك هاتفاً محمولاً وردي اللون جميلاً، ونظرت إلى الشاشة وضغطت على الزر.

- نعم يا أمه... أتتزه مع أصدقائي... كلا، كل شيء طبيعي... سأكون قريباً... - فصلت الهاتف وأعادته إلى الحقيبة.

توقّف «ليوخوا»: - ماذا هل تريدان الذهاب إلى المنزل؟

- نعم سأذهب حالاً.

بربر «سلافيان» باستياء: - هل عدت إلى النزق مرة أخرى يا «كاتيوخا»؟

زمجرت غاضبة: - فلتذهب إلى الشيطان!

نظر «سلافيان» إلى «ليوخوا» غير فاهم ما يحدث: - ما الذي يحدث لها؟

الأح «ليوخوا» بيده: - دعها تذهب. ستركض لاحقاً إلينا من تلقاء نفسها.

نهضت الفتاة على نحو متقطع وعلقت الحقيبة على كتفها، وقالت لـ «فاسيلي إيليتش»:

- شكراً لك على هذه الأمسية، وأرجو أن تعذرنا.

سألها مضطرباً وهو يتطلع بإمعان إلى وجهها.

- على ماذا؟

ابتسمت الفتاة كالمذنبية: - لأننا تعاملنا بفضاظة معك.

تأثر «فاسيلي إيليتش» بكلماتها: - ببساطة سنُكم هكذا. إنكم في سن صعب. تكبرون وتتجاسرون على الكبار.

لتبينوا أنكم بتم تحظون بقيمة ما في هذا العالم، لكن الأفضل للمرء البرهان على قيمته بأعمال جديّة وحسنة ما.

أما الجسارة فضرورية حينما تواجهون الشرّ والدناءة وجهاً لوجه. عموماً، هذا كله حقائق بسيطة ومعروفة... قالت الفتاة وهي تمد يدها: - إلى اللقاء. آه، إننا ما زلنا لا نعلم اسمك...

أدرك «فاسيلي إيليتش» أن الفتاة قد ارتبكت وكان ذلك إشارة جيدة. قدم نفسه وشد على يد «كاتيا» اليمنى.

- عليك فقط ألا تعقلي ذلك مرة أخرى - وأوماً برأسه نحو يدها اليسرى الملقوفة بالشاش. - لا لزوم لهذا، أليس كذلك؟

أجابت بعد فترة صمت: - حسناً. يبدو أنني لن أفعل ذلك بعد الآن... حسناً، سأذهب.

- أتمنى لك كل الخير. - تمنى لها «فاسيلي إيليتش» ذلك وهو يشعر في نفسه رقة الأبوة.

- ولك أيضاً.

سألها «ليوخوا» متردداً: - هل أرافقك يا «كاتيوخوا»؟

- شكراً، لا لزوم لذلك. - رمت الفتاة صديقها والمنضدة بنظرة ممتلئة بالشفقة وسارت مبتعدة.

تمتم «سلافيان»: - حسناً، فلتغر من هنا، ستهرع عائدة من تلقاء نفسها لاحقاً. ثمة عصيدة دائماً في رأسها، ولا تعرف هي نفسها ما تريد.

قال «فاسيلي إيليتش»: - إنها تحتاج إلى شاب جيد كي يحبها ويعتني بها.

سدد «سلافيان» أنظاره نحوه مشدوهاً، وهو يفكر بما سمعه.

أراد «ليوخوا» أن يقول شيئاً ما، لكنه همهم وحسب واجترع البيرة من الزجاجة.

تذكر «فاسيلي إيليتش» مهناً أن زوجته قد طال انتظارها له في المنزل، وأنها ستغضب منه وتعنفه.

- حسناً أيها الشابان، حان وقت ذهابي، لا أدري كيف أطلت الجلوس معكم.

نهض وشد على يدي الشابين ثم سار نحو المدخل بمزاج عال.

تردد خلف ظهره صوت «ليوخوا»: - أتمنى النجاح لك.

توقف «فاسيلي إيليتش» عند باب المدخل وجاب بنظره الفناء الذي يعيش فيه منذ عشرين عاماً، فامتلات نفسه بالحبور لأنه شعر مساء اليوم بأنه من جديد معلم في المدرسة ألقى درسه المعتاد، وهذا الدرس على الأرجح هو أحد أفضل الدروس في حياته. نعم، لم يكن اليوم ثمة مقاعد ولوح على الجدار، ولم يكن الصف نفسه في حقيقة الأمر موجوداً، ومع ذلك فإن في مقدوره أن يفخر عن جدارة بهذا الدرس. ■



نديم غورسيل

- ترجمة أحمد سليمان الإبراهيم

نديم غورسيل (Nedim Gürsel) كاتب تركي ولد في 5 نيسان 1951م، في غازي عنتاب، سافر إلحاً فرنساً ودرس في السوربون. من أعماله القصصية مجموعته صيف دون نهاية (Uzun Sürmüs Bir Yaz)، يدرس الأدب التركي المعاصر في جامعة السوربون، ويعمل مديراً للبحوث في «الأدب التركي» في المركز الوطني للبحوث العلمية في فرنسا (CNRS).

رأيت طوال الطريق أشجار الحور والجسر والأزفة الضيقة الصاعدة والنازلة، ورأيت قطة في نهاية الطريق، تقفز من جدار الحديقة المهذّب إلى شجرة التوت. كانت المدخنة تنفث دخانها، دخان رمادي كثيف يتطاير مع الريح. دخلت القطة في الدخان وخرجت ثم ضاعت بعدئذ بين أحجار القرميد. وقفت أمام باب الحديقة. إن دخلت فإن الطريق سينتهي.. «العمر ينتهي والطريق لا ينتهي». ترى هذه العبارة مكتوبة على جدران المدن والفتادق وعلى بياض السفن، وعلى واجهات القطارات والطائرات، وفي غرف الانتظار، وعلى الزجاج الأمامي للشاحنات والحافلات. أو أن أحد المعارف يهمس بأذني قاتلاً: «العمر ينتهي والطريق لا ينتهي». إن دخلت لن يطرق أحد، بعد الآن، باب غرفتي الموجودة في شارع فيجر في باريس، ولن يرن جرس هاتفني ولن تُقرع أجراس نوتردام ولن تتراقص الكلمات التركية تحت ضوء مصباحي ليلاً.. وسينتهي هذا المنفى..

• مترجم سوريا

إن دخلتُ سأجدكٍ مستلقية على الأريكة في غرفة المعيشة وقد ابيضَّ شعرك والصبر بادٍ على وجهك
المدور الأبيض:

- إذا عدت.
- أجل، عدت.
- خلال غيابك ضرب الصقيع أشجارنا، تفسّخت جميعها وماتت.
- ولكن لم يحدث شيء لشجرة التوت..
- وضعها كوضعي، إنها على وشك الانهيار.
- لا لا إنك بخير ما شاء الله.. أرى أنك بخير.
- لقد هرمتُ، صدقتي لم يعد لدي طاقة، لتكن هذه المرة هي الأخيرة..
-
- ذهبت ولم تعد بعدها..
-
- ألم تأخذ نصيبك من الحياة، ألم تشبع من هذه الدنيا؟
-

أجل هذا صحيح، لتكن هذه المرة هي الأخيرة. لن أذهب بعدها.. لم أكن أعلم أنك ستبقين وحيدة،
وأنت ستهرمين بهذا الشكل. كل شيء يهرم ويموت. عندما كنت هنا كان الصقيع يضرب الأشجار أيضاً،
وتغطي الأعشاب الضارة أرض الحديقة، وتشح مياه الخزانات. ولكن هذه المرة الأمر غريب جداً.. كأنّ
الربيع لم يأت، وكأنّ أمطار الأربعية لم تهطل، فقد جفّ التراب وثمة ارتعاش غامض في الأوراق الهزيلة.
كما يبدو هذه الرياح لا تأتي بالمطر، والماء لا يصل إلى الأغصان. كم هو غريب.. كأنّ المنزل مهجور، لم
ترفع ستائر الأرائك، تراكم الغبار على المقعد، حتى مصفى اللبن يبدو أنه لم تمسه الأيدي منذ زمن.
الساعة المنبّه التي لم تميّزها يوماً قد توقفت، الصمت يخيم على الجدران المتسخة، والغرف، والدرج
النازل إلى الحديقة.. كل شيء بقي كما هو منذ زمن بعيد.. هبطت وحدة بعيدة على عينيك، كأنك لست
موجودة.. لست في المكان الذي كنت تجلسين فيه وتنظرين إلي.. لا تلقين نظرات مفعمة بالحب. لأول
مرة، لأول مرة منذ زمن طويل تكون نظراتك ميتة وجامدة وأنت تغادرين النافذة وتنظرين إلى ولدك. إن
ابتسمت قليلاً سيعود اللون الأبيض إلى الجدران مجدداً، وستملأ دقائق الساعة غرفة المعيشة، وبلحظة
سيزول الغبار عن الأرائك والمصفي.. وستعود المياه إلى أغصان الأشجار. لكنك لا تبسمين.

- انتظرتك طويلاً. على مدى أيام وليال.

- ها قد عدت، رجعت مجدداً.

- أجل عدت، لكنك لم تكن الشخص الذي انتظرته.

إذا لست أنا الشخص الذي انتظرتته. صحيح، أنت انتظرت شخصاً آخر. أنت انتظرت الطفل الذي
كنت تضعينه على ركبتيك وتهزي له تحت ظل شجرة التوت في الحديقة، الذي كنت تغطيه ليلاً وتقرأين

الأدعية في أذنه. أنتِ انتظرتِ ذاك الشاب المراهق المعلقة صورته على الجدار في غرفة الضيوف وهو يبتسم. لأنه بعد موت أقاربك، وبشكل خاص بعد موت زوجك بقيتِ وحيدة معه في هذا البيت الخشبي. كانت حياتك هي حياته، كانت دنياك مرهونة بوجوده في هذا الكون. كان النهار يبدأ به وينتهي الليل به. كان هو أنتِ وكنتِ هو. لا شك، أنتِ انتظرتِ ذاك الشاب الذي سكبِ خلفه الماء من وعاء النحاس⁽¹⁾ حين كان مغادراً إلى باريس، الذي بكيتِ عليه وأنتِ تضمينه بين ذراعيك، وليس الرجل الملتحي المتعب الذي ظهر أمامك كما يخرج علاء الدين من مصباحه السحري.

لوتعلمين الآلام التي ذاقها هذا الرجل والوحدة التي عاشها. أمضى حياته منتقلاً من مدينة إلى أخرى. أمضى حياته في غرف ضيقة وفي شوارع مظلمة. اجتاز المحيطات راكباً طائرات ضخمة لم تريها حتى في أحلامك، وتجوّل في شوارع وحدائق مدن مليئة بالضجيج. لكنه لم ينسَ يوماً دَفء وجهك الأبيض المدور. لطالما رآك في مياه نهر السين المعكرة التي تمر من تحت جسر ماري في باريس، وفي الضوء الذي يسقط على الأوراق البيضاء حين تشتعل مصابيح شارع فيجر، رأى يدك ووجهك وجبينك العريض. عندما هطل الثلج في ساحة بوشكين في موسكو أنتِ من كان في عقله، وفي أحد مخازن «غيت فيليج» المظلمة في نيويورك. ولم تدفء قلبه أيُّ شمس، بما في ذلك شمس البحر الأبيض الحارقة، كما كان يُدفئه وجودك. أنتِ محقّة حين تقولين إن هذا الرجل المتعب الذي يقف أمامك، بعد كل هذه السنوات الطوال، ليس هو الشخص ذاته الذي انتظرتِته. لكنه هو، لطالما انتظر هذه اللحظة، هذا اليوم الذي سيعود فيه. أرجوكِ افهميني..

- ألم تعري في ابنك؟ إن لم أكن أنا الذي تنتظرين، فهل كنتِ تنتظرين شخصاً آخر؟

-

- ها قد عدتُ. لتكن هذه هي الأخيرة. ليكن الطريق لا نهاية له إن سافرتُ بعدها.

-

وقفت أمام باب الحديقة. إن دخلتُ سبُغ الباب خلفي بإحكام. إن صعدت الدرج نحو غرفة المعيشة ستنتهي باريس، والشوارع المزدحمة المنارة، والمقاهي، والنساء الجميلات، وكل شيء، كل شيء سينتهي. ولينتهي لا يهم. فقد آن الأوان ومنذ زمن للعيش معك في هذا البيت الخشبي والاستمرار بحياة هادئة معك. نرّم البيت، وننظّم الحديقة، ولينتعش التراب ولتندفق المياه في أغصان الشجر من جديد، وستخضّر الأوراق، أوراق شجرة التوت الضخمة التي كنتُ أنام في ظلها ذات زمن.

فتحتُ الباب ودخلتُ إلى الحديقة. لم تكن الحديقة مهمة كما كنت متوقفاً. كل شيء في مكانه السابق: شجرة التوت، الجدار الحجري، خزان الماء غير المستخدم في الزاوية. هدأ روعي قليلاً حين انتشرت رائحة التراب داخلي، ارتاح جسدي واسترخى. لقد حان الوقت لصعودي إلى غرفة المعيشة، عليّ الصعود الآن.. كم عام مضى.. كم عام مضى على رؤيتي الأخيرة لك، كم عام مضى على وقوفي آخر مرة على الأرضية الخشبية لغرفة المعيشة. حين كنتِ تأتين إلى غرفتي ليلاً لكي تغطيني كانت تلك الأرضية

(1) يُسكب الماء خلف المسافرين في تركيا لتكون فأل خير وتكون طريقه خضراء، ولكي يعود سالماً. (المترجم)

الخشبية تصدر قرقرة تحت قدميك. كنت أشعر أن البيت يهتز. كانت الجدران والنوافذ ترتجف ويزداد الظلام. وما أن تدخلني إلى غرفتي حتى يتوقف كل شيء؛ الظلام يبتعد ويشعُّ الكون في وجهك. لم يكن أجمل نوم وأعمق نوم لي إلا حين تقرأين الأدعية في أذني وتنفخين الظلام. عليّ أن أعترف أنني ذقت طعم النوم وخبرته عمقه ذات يوم صيفي وأنا مستلق على ركبتيك في ظل شجرة التوت المنعش على خريير الماء وهو يملأ الصهريج. الآن يهدر في داخلي ضجيج المدن التي عشت فيها. أريد اليوم أن أتحدث عن أمورٍ لطالما أردت التحدث فيها ولكني لم أتحدث بها بسبب ما.. عن أول ذنبٍ اقترفته وأول عقابٍ نلته، أريد أن أحدثك عن كل البدايات التي عشتها في حياتي. يجب أن أحدثك بعمقٍ عن المدن التي ذهبتُ إليها وعشتُ فيها وعن النساء اللاتي عرفتهنَّ وخبرتهنَّ.

دون أن أضيع الكثير من الوقت في الحديقة صعدتُ إلى الأعلى وبدأت أدق الباب ففوجئت بصمتٍ غريب. انتظرتُ قليلاً. عندما لم يأت أي ردٍ طرقت الباب مجدداً، شعرت، في تلك اللحظة، بمخلوقٍ ناعم الوبر يلامس كاحلي. نظرتُ فإذا هي قطة. عندما رأيتها تذكرت الدخان المتطاير من المدخنة. عدتُ أطرق الباب بكل قوتي. سمعت صوتاً ما في الداخل، ثم وصل إلى أذني قرقرة الأرضية الخشبية. فُتح الباب ووقفت أمامي امرأة تضع شالاً على رأسها.

- عمّن تبحث؟

-

- هل أنت ابن السيدة نور حياة؟

-

ولجئتُ إلى الداخل، كانت الأريكة فارغة..

- أنا جارة السيدة نور حياة، زوجة حاجي. هذا يعني أنك لم تستلم البرقية التي أرسلناها لك إلى

باريس... أمك، البقية بحياتك..

انهرتُ فوق الأريكة. كانت غرفة المعيشة صامتة تحت الضوء القادم من النافذة التي لطالما انتظرتيني

فيها سنوات. ■



توت برّي

تأليف: هالينا دوراج

- ترجمة: تانيا حريب

هالينا دوراج (Halina Duraj): أستاذة في جامعة ساث ديغو في كاليفورنيا. من أعمالها (The Family Cannon).

تراقب باسيا حفيدتها لالكا. تراقبها دائماً، بغض النظر عما تفعله، سواء كانت تحضر في الحديقة، أم تقتلع الأعشاب الضارة في الدفيئة، أو تقشر البطاطا. لدى حفيدتها وحة أرجوانية مائلة إلى الحمرة على عنقها وفكها وجزء من خدها. زوجها، زيغنيو، يراقب لالكا أيضاً. تلاحظ باسيا كيف يركّز نظره على الوحمة، ولا تستطيع التوقّف عن التفكير في الوقت الذي أطلق فيه على حفيدتهما اسم ابنتهما التي غرقت في النهر قبل ولادة والدة لالكا بسنوات.

يصيح زيغنيو: «توت برّي! علينا أن نأخذ الفتاة لقطف التوت البرّي!»

تتظاهر باسيا بأنها لم تسمعه. إن زيغنيو ضعيف، ولا يستطيع أن يمشي بعيداً من دون مساعدتها. قبل عقود، اعتاد أن ينحني على دراجة نارية صغيرة ويذهب مسرعاً عبر الغابة إلى الحانة في البلدة من دون خوذة دائماً. وكانت تصيح خلفه: «أيها الأحمق! أسرع، انه نفسك. خير البر عاجله!»، لكن لم تُعد باسيا مضطرة إلى مطاردته كما فعلت ذات مرة حينما كان أطفالها صغاراً لإحراجه أمام الجيران، فقد كُبراً على ذلك الآن.

• مترجمة سورية .

وخط الشيب شعر باسيا بالكامل، لكنّها لن ترتدي وشاحاً فوق رأسها وتربطه تحت ذقنها كما تفعل الجدّات الأخريات. تتقوس ساقاها وتضعفان، مع التهاب في ركبتيها وكاحليها. حينما تترنّح إلى الكنيسة أو تذهب إلى الغابة لتجمع الفطر أو تحمل الأزهار إلى النهر الذي غرقت فيه ابنتها، تمشي بنصف سرعتها السابقة.

حينما ترغب لالكا بأن تذهب إلى النهر، تصحبها باسيا. تركز الطفلة بعيداً، وتتادى باسيا أن تعود ولا تبتعد عن ناظريها. تعود الفتاة وتتجهم لوهلة. فليدبها تقلبات مزاجية، وتصب عليها نوبات غضبها، لكنها غالباً ما تكون طفلة لطيفة، وحسنة السلوك؛ لطيفة بالفطرة، وفضوليّة. بدأ زيغنيو مؤخراً بالتبرّم من الطفلة، دائماً بعد أن يتوسّل إلى باسيا للحصول على جرعة فودكا وترفض ذلك، فتزحف لالكا بعد ذلك تحت طاولة المطبخ وتلعب بألعابها في صمت. تتحني باسيا نحو أرجل الطاولة، على الرغم من أنه يكاد يكون مستحيلاً أن تهض مرةً أخرى، وتحاول أن تواسي حفيدتها. تقول: «آه، يا طفلي، لا علاقة لك بالأمر، لا تقلقي». من ثمّ، تخدع الفتاة للخروج من كهفها بوضع كعكة تفاح طازجة أو كعكة خوخ على الطاولة، لكن منذ مدّة، لم تعد باسيا متأكّدة مما إذا كانت تصدّق كلماتها بالذات.

حتى قبل عملية زيغنيو الجراحية، حين كان لا يزال يستطيع المشي بلا مساعدة، لم تسمح له باسيا قطّ أن يصطحب لالكا إلى الغابة. قالت له: «الزم المنزل واشرب زجاجتك». مر زمن كان يضربها فيه على فمها بسبب ذلك، لكن منذ أن نزع الجراح في كاتويس ربع أمعائه وأخبره بضرورة التوقّف عن الشرب، غدا يتمم ويهمهم فحسب. نادراً ما يغادر الأريكة أو كرسيه المتحرّك في الشرفة الخلفية، لكن باسيا لا تزال تراقبه. طبعاً، يصعب عليها أن تؤكّد ما إذا كان مذنباً بفعل الإهمال أو بما هو أسوأ من ذلك. إنه مجرد حدس. لم تتمتع بهذا الحدس قبل وفاة ابنتهما الأولى؛ إذ بينما حمل زيغنيو جثتها بين ذراعيه، وهو يمشي، أو ربما يجري عبر الغابة، وقفت هي عند الحوض وغسلت الأطباق وهي تغمغم.

ربما لا يُمكنها أن تثق بأي حدس - وجوده أو غيابه سواء - لكنها لا تزال لا تحب الطريقة التي ينظر بها زيغنيو إلى الفتاة، أو تبرمه منها في بعض الأحيان، أو إمساكه بذقنها وتحريك رأسها هذا الاتجاه أو ذلك، محاولاً إلقاء نظرة على وحمته. مبكراً هذا الصباح، طوت باسيا بطانية بشكل مريح أسفل فخذه الذابلتين، فاشتكى قائلاً: «إنها محكمة الشد، لا أستطيع تحريك ساقي».

قالت: «إذن، لا تحاول فعل ذلك»، وأبعدت لالكا منه نحو الدرجات الخلفية.

صاح زيغنيو حينئذ: «تعال، يا غالي، يا غالي لالكا. سنذهب لنقطف التوت البرّي». تتساءل باسيا لوهلة عما إذا كانت قاسية معه حينها بشأن البطانية. يبدو أنه يحب الفتاة كثيراً. إلى أن توقّف عن الشرب، كان دائماً يناديها ليقدّم لها قطعة نقدية براقّة أو ليروي لها قصة ابتدعها. ودائماً أراد أن يأخذها لقطف التوت البرّي لأنها أحبته.

تقول لالكا: «انظر يا جدي!» وهي تحضر حصة رخامية مرصّعة بالكوارتز وتتدافع إلى قدميها. تضع

باسيا يدها ذات الأصابع السميقة على كتف الفتاة وتشدها إلى الخلف. يتسخ قميص لالكا ذو الكمين القصيرين حيث لمستة باسيا، التي تتخيّل ماذا ستقول والدتها ماجدلينا حينما ستأتي لتأخذها بعد ظهر ذلك اليوم: «ماما، إنها تتسخ كثيراً هنا، تحضر معك دائماً. لماذا لا تقرئي لها قصة أو تلعبى معها الألعاب الحسائية التي جلبتها لك؟ ستتخلف عن الجميع حينما تدخل المدرسة في الخريف». لكن باسيا على يقين بأن لالكا ستكون أكثر ذكاءً من أي طفل آخر في صفها.

باسيا تناول لالكا مجرفة وتقول: «هيا نذهب إلى الدفيئة. سنزرع شتلات البندورة».

تضحك الفتاة مبتهجةً وتقول: «حقاً؟»

يصيح زيغنيو مجدداً: «التوت البري! علينا أن نصطحب الفتاة لتقطف التوت البري، فهذا موسمه». تقول باسيا: «أجل، أجل، اقطف توتك البري الخاص. انظر ما إذا كان لا يزال بإمكانك العثور عليه هناك أيها العجوز». واجهت في الآونة الأخيرة مشكلة في التزام الصمت حوله. ربما يعود السبب في ذلك إلى المجالات التي تحضرها ابنتها حينما تأتي لتأخذ لالكا. ثمّة زمن لم يسمح فيه زيغنيو بوجود هذه المجالات في المنزل، تلك المجالات التي أجرت لقاءات مع نساء مطلقات، وقدمت نصائح حول كيفية تغيير لون الشعر في المنزل، وكيف تحتفظ المرأة بأموالها بعيداً عن زوجها. الآن، وبعد أن أصبح نظره ضعيفاً إلى درجة أنه يكاد لا يستطيع القراءة، ولا يعلم حتى ما يتكسّر بجوار الأريكة، تقرأ له من الإنجيل. حينما يشعر بالملل ويقول: «اقرئي شيئاً آخر»، تومئ برأسها وتقول: «أه؟ ماذا؟ لم أعد أسمع جيداً».

تعرف باسيا أنه يشعر بالملل حينما تدعه يجلس في الشرفة الخلفية ليشاهدها وهي تحضر في حديقة الخضراوات الضيقة خلف المنزل، لكنها لا تكثرث. في الشتاء، تعمل في الدفيئة التي بناها زيغنيو منذ سنوات ليتمكّنوا من الحصول على البندورة الطازجة في أوائل الخريف وهكذا، مع أنها لم تخبره، يمكن أن يكون لديها أزهار تحملها إلى النهر. في أواسط الشتاء، حينما تجبر على الخروج بحذاء ثقيل ومعطف سميك، ولا وجود لأزهار تقطف، ولا يكون ثمّة شيء حي، وحين يبدو أنه قد لا ينجو أي شيء على سطح الأرض من البرد القارس في أحد الشتاءات البولندية، ذهبت بيدين فارغتين. لا تزال تنظر كل صباح، قبل وصول ماجدلينا مع لالكا لمساعدتها في نقل زيغنيو من السرير إلى الكرسي. كل صباح، عبر النهر إلى الأشجار بحثاً عن أي إشارة لحركة، عن شخص مألوف. إنها تعلم أنه لا جدوى من ذلك. تعلم أين ترقد ابنتها المتوفاة. لكنها تبحث في أي حال.

خارج الحديقة، تكون غابات البتولا والحوار الرومي عادةً أكثر كثافة وعمقاً، أما الآن فترتفع فوق قمم الأشجار مبانٍ إسمنتية شاهقة الارتفاع وقبيحة، وثمّة غسيل معلق على درابزين الشرفة، وهوائيات تلفاز، وجدران بنوافذ ضيقة، وشقق مكوّنة من غرفة واحدة تضم عائلات بأكملها. اعتاد أطفال باسيا المشي عبر هذه الغابة لتناول المثلجات في البلدة. تعيش ماجدلينا الآن في أحد تلك المباني وتعود في زيارة بعد الكنيسة أيام الأحد. لكنها حينما تحضر لالكا معها في الصباح، لا تتخذ الطريق المختصر عبر الغابة؛ تتوقف بسيارتها أمام المنزل في شارع بروسكا. في بعض الأحيان، تمشي باسيا

مع الفتاة إلى المنزل عبر الغابة لتوقّر على ماجدلينا عناء القيادة، وحينما تصلان إلى النهر، تمسك بيد لالكا بإحكام.

تعمل ماجدلينا بصفقتها كيميائية، وتوّجّها باسيا أحياناً قائلةً لو اختارت وظيفة مختلفة، معلّمة أو سكرتيرة أو حتى فتاة متجر، لربما لم تعانِ لالكا من هذه الوحمة؛ إذ تعمل ماجدلينا طوال اليوم بالمواد الكيميائية، وتستنشقها، وتنفثها. كانت دائماً طفلة خرقاء. ثم وقعت حادثة تشيرنوبل. حينما سمعوا عن الحليب، كانت ماجدلينا حاملاً منذ شهرين فقط. توقّفت عن شربه على الفور، ثم ولدت الطفلة ولديها وحمة، وقال زيغنيو إنه لن يتزوجها أي رجل، لكن ذلك لم يُثرِ انزعاج ماجدلينا وقالت: «إنها جميلة، وسليمة».

قالت باسيا: «كان يُمكن أن تكون أسوأ كثيراً، فنمّة أطفال ولدوا بلا كلي».

قالت ماجدلينا: «أوه، يا أمي، لا علاقة للوحمة بحادثة تشيرنوبل». رسمت رسماً بيانياً لباسيا، وشرحت لها كيف أن بعض الوحومات الجلدية لدى الجنين لا تمتلك في بعض الأحيان أليافاً عصبية كافية، وبدلاً من ذلك تستمر الشعيرات الدموية في التوسّع، مما يجعل الدم يتدفّق تحت الجلد أكثر فأكثر إلى أن تظهر العلامة الحمراء. أمأت باسيا برأسها وقالت إنها فهمت الأمر، لكنها لم تصدق ذلك في سرها.

إن لالكا فتاة ذكيّة وجميلة على نحو مذهل، ذات شعرٍ أشقر وعينين زرقاوين، وضحكة ذات نغمة. إنها طفلةٌ تشبه دمية، وهذا ما أطلقوه عليها – «الدمية لالكا».

كانت ابنة باسيا الأولى طفلةً هادئة ذات وجه مسطّح ومتهدّل، وعينين نادراً ما ترمشان، كانتا صغيرتين ولهما زوايا إلى درجة أنها بدت كأنها تضحك دائماً. لكنها لم تضحك، ولم تتحدّث قط، حتى حينما أصبحت في العمر الذي يفعل الأطفال فيه ذلك.

لما كبرت ابنتهما، لاحظ زيغنيو أكثر فأكثر أنها تبدو مثل فتاة صينية وربما ستتحدّث مثلهن أيضاً، إذا لم تكن غبية جداً، ومن أين وجدت باسيا رجلاً صينياً في سيليسيا السفلى لتقيم علاقةً معه؟ هذا ما قاله عادةً حينما كان في حالة سُكر، واعتقد أن ذلك مضحك للغاية، وكان يضحك حتى يكاد يخنق. التزمت باسيا الصمت وهي تنتقل في أرجاء المطبخ، معيدة ترتيب القدور والأواني. أثار ذلك الأمر غضبها أكثر من مرة إلى درجة أنها، عند الغسق، نزعت الستائر بقوة مزقتها بها. ثم بقيت تصلحها حتى وقت متأخر. أبقت الطفلة قريبةً منها، ووقفت بينها وبين زيغنيو لأنها لاحظت الطريقة التي ينظر بها إلى عينيها، وفهما المتهدّل الصامت، كما لو أنها كانت واحدة من الكلاب الضالّة الجرباء التي تتجول في شارع بوروسكا وتشم المكان حول الفناء قبل أن ترفع قوائمها لتبول على جانب الشرفة. قبل أن تصعد باسيا وزيغنيو إلى السرير، ركعت على الأرضية، وأسندت مرفقيها على حافة الفراش، وهمست بصلاةٍ لتمنحها الصبر؛ وقد شعرت بالأسف حياله إلى درجة أن الشيطان لبسه وتحدّث من خلاله.

عندئذ، وقد غاصت مجرّفتها عميقاً في الأوساخ واصططفت شتلات البندورة بجوار ركبتيها، ضحكت، ضحكةً قصيرة ومريرة، حينما تذكّرت كيف التزمت الصمت. إذا أهانها الآن، كما فعل ذات مرة، لن تبقى صامتة. لا تعلم ماذا ستقول، لكنها ستقول شيئاً بالتأكيد.

بعد أن ولدت ابنتهما الأولى، لم ترغب باسيا في إنجاب المزيد من الأطفال. أرادت أن تمنح الفتاة حبها الذي ستحتاج إليه كله؛ التي ستحتاج إلى حب مليون أم وأكثر. ولم ترغب على وجه الخصوص في إنجاب المزيد من الأطفال بعد أن حمل زيغنيو ابنتهما عائداً من النهر ذلك اليوم، وهما مبتلان، ويعاني زيغنيو صعوبة في التنفس، والطفلة أصبحت زرقاء اللون بين ذراعيه. لقد كان ثملاً، وفي أخطر حالة رأته فيها على الإطلاق. أخبرها أنهما ذهبا إلى قطف التوت البري، وأن الفتاة مشت قريباً جداً من النهر وسقطت فيه، وقال إنه لم يستطع أن ينقذها. لم ينظر في عيني باسيا وهو يقول ذلك.

بعد الجنازة، وبعد مضي ليالٍ كثيرة تلت ذلك، قلما استطاعت باسيا أن تتحدث إليه، ناهيك عن النوم في الفراش معه. لقد نامت على الأريكة في غرفة المعيشة لشهرين، لكن زيغنيو أراد زوجته، وهذا حقه. ذكرها أنه توجد طريقتان يمكنها أن تأتي بأحدهما إلى سريرهما: إما طوعاً أو كرهاً. فما الطريقة التي تريد؟

أنجبت باسيا أربعة أطفال بعد وفاة ابنتها الأولى، وأفسدهم زيغنيو جميعاً. حينئذٍ، كانت ماجدلينا هي الوحيدة التي تعيش بالجوار، ويتصل أبناء باسيا من بوزنان وغدانسك ووارسو ويأسفون على أنه يجب أن يلتحق أطفالهم بالحضانة مع غرباء، ويقولون إن ماجدلينا محظوظة وذكية لبقائها قريبة جداً. أخبرت ماجدلينا والدتها أنها تود أن تكون أقرب، وأن تشتري منزلاً بالجوار حينما تزوجت بيوتر، لكنه أصر على البقاء في شقته في المدينة. حينما عرض المنزل المجاور لباسيا وزيغنيو للبيع، قالت ماجدلينا: «ألن يكون رائعاً، يا أمي؟»، ولم ترد باسيا.

ستلتحق لالكا بمدرستها في فصل الخريف، وغالباً ستأتي مرات أقل مع ماجدلينا وبيوتر في نهايات الأسبوع وحسب. عندئذٍ تستطيع باسيا أن ترتاح. إذا استطاعت أن تفعل ذلك حتى حلول فصل الخريف، فسيكون كل شيء على ما يرام.

يصيح زيغنيو مجدداً، ويبدو أنه يحاول النهوض: «سينتهي موسم التوت البري قريباً، علينا أن نصحبها قبل فوات الأوان».

تمت باسيا: «نعم، يجب أن أصحبك لتقطف التوت»، ثم ضحكت، «ما يجب أن أفعله أن أدفئك». ماذا أصابها؟ متى صارت هذه المرأة ترد، ولو بهدوء؟ لا بد أن ذلك حدث تدريجياً. وسط تلك السنوات، جعلت ذكرى ابنتها المتوفاة أمراً مملأ. وفي بعض الأحيان، حينما رأت كم كان جيداً مع أطفالهما الآخرين، تلاشت شكوكها؛ فكيف يمكن لشخص كان لطيفاً جداً وصبوراً مع أبنائه وابنته أن يفعل شيئاً كهذا؟ تساءلت فيما إذا كان خوفها وانعدام ثقته نوعاً من جنون عانت منه فترة حزنها. كانت في حاجة إلى إلقاء اللوم على شخص ما، وكان زوجها هو الهدف السهل. هل أخطأت؟ لقد سمحت لنفسها لتفكر به الآن فحسب، في السنوات الأخيرة مع لالكا، عادت شكوكها، ومعها، شعورها بالغضب.

حينما تشرب باسيا قهوتها الصباحية عند نافذة المطبخ، تنظر إلى الستائر المرتوقة، إنها عتيقة جداً الآن وتكاد تكون شفافة. تخبرها ماجدلينا دائماً أن تخطط ستائر جديدة، فهذه رثة للغاية، لكن باسيا لا تريد ستائر جديدة. ترغب بأن تذكرها بما حدث ذات مرة، حتى لا يتكرر مرة أخرى.

إنها تتذكر ما أصابها من حزن. لقد تحمّلت بطريقتي ما، إذن لا بد أنه قابل للتحمّل. وهذا ما جعلها تتجاوز قسوته، بطريقة ما، في جسدها وعقلها. في معظم الليالي، توسّلت إلى الله أن يقتلها - في حادث سيارة، أو حريق. كانت تدرك أن الانتحار هو الخطيئة الأشنع، وكانت تجدّد أن الله لم يُسمح لها أن تنضم إلى ابنتها حيثما هي.

لم تستطع أن تتذكر شعور الغضب الذي انتابها، لكن لا بد أنها كانت غاضبة. وهذا ما ذكرته المجلات، فالشعور بالغضب هو ما جعل جيل ماجدلينا يذهب إلى المعالجين النفسيين. ضحكت باسيا وهزت رأسها على ذلك، إن تجاهل المشكلات البسيطة أو تحمّلها يجعلها تغدو معقّدة كفاية للذهاب إلى الأطباء. الأطباء! إن زوجي لا يقدّم المساعدة في رعاية الأطفال. زوجي يشرب كثيراً. زوجي لا يصغي. قالت ماجدلينا إن الأزواج في وارسو يذهبون للاستشارة معاً، ما يجعلهم يتمتعون بعلاقة زوجية أقوى. شعرت باسيا بالحيرة وتساءلت عما إذا كانت ماجدلينا تخفي شيئاً عن زوجها. سألتها بأسيا: «هل كان زوجها يضربها؟». صدمت ماجدلينا، وقالت: «بالطبع لا». لن تبقى معه لو فعل ذلك. وفكّرت باسيا، إذن، هكذا هي الحال الآن.

في بعض الأحيان، حرّضتها ماجدلينا على الانفصال عن زيبغنيو قائلة: «لمدة وجيزة فقط، إنه لا يقدر وجودك».

قالت باسيا: «لا تقلقي، هذا لا يُثير انزعاجي».

سألت ماجدلينا ذات مرة: «لماذا تزوجت منه؟»

قالت باسيا: «أوه، يا طفلي، مضى على ذلك زمن طويل».

هل كانت تحبه في ذلك الحين؟ هل كان ذلك حينما خرجا عبر سلّم الكنيسة بصفتها زوج وزوجة وقبّل والدها وجنتيها وقبّل والدها وجنتيه؟ ربما. من عرف ما هو الحب وما هو مجرد حياة؟ وهل أحبها؟ كانت تتذكر أنها توقّعت أنه سيحبّها في نهاية المطاف، لكنها لم تشعر بذلك قط. لقد عرفت أنه أحب ماجدلينا والأولاد. لا بد أن يكون هذا كافياً، وفقاً لمعايير عصرها. كان الطلاق نادراً، ليس لأن الكنيسة لا تسمح به وحسب، بل ببساطة لأن النساء أيضاً لم يأخذنه في الحسبان. عرفن أن الزواج مقامرة، أو على الأغلب، تخميناً علمياً. إذا كان زوجك سيئاً، تشتكين لأصدقائك وتتمنّين سراً موته في المناجم أو أن يدهسه جرّار. إذا ضربك زوجك أو كان ثملاً، أو كلاهما معاً، تذهبين إلى الكاهن وسيخبرك أن تدعي بشدّة بقوله: «اطلبي المغفرة لكِ وله». فكّرت باسيا، لماذا أطلبها لنفسني؟ ما الخطأ الذي اقترفته غير الاختيار السيئ؟

بعد زراعة الشتلات، تتأوّه باسيا وتهض بقوة واضعةً يديها على ركبتيها. ثم تهطل أمطاراً خفيفة على الحديقة، وتتحوّل الطبقة العليا من التربة إلى طين. تحتُّ باسيا لالكا على الذهاب إلى المنزل. إنها تستطيع أن تقيم مدرسة للدمى على طاولة المطبخ بينما هي تنظّف البراد.

تصل ماجدلينا بعد خمس دقائق فحسب، كالعادة. وتصل غرازيينا، الجارة التي تقطن على بُعد منزلين، في اللحظة نفسها. تريد من باسيا أن تساعدتها في نموذج قصّته لخياطة فستان سترتديه في

حصل تعמיד حفيدها. تقول غرازينيا: «أنتِ رائعة في هذه الأشياء». تقف عند الشرفة الأمامية ومرفقيها على حافة النافذة. وتتحدّث عبر الستار.

تقول باسيا: «سأتي غداً، ألا ترين أن ابنتي هنا الآن؟»

تقول ماجدلينيا عاذرة: «ماما، لماذا لا تذهبين؟ فأنا ولالكا سنذهب في غضون دقائق في كل حال. اذهبي!»

تنظر لالكا من على الطاولة وتقول: «هس، يقدم الطلاب اختباراً.»

تربّت باسيا على رأسها وتقول: «يا لك من معلّمة جيدة!». تفتح ماجدلينيا البراد وتسحب زجاجة حليب. يُمكن لباسيا أن ترى من خلال غرفة المعيشة إلى الشرفة الخلفية زيغنيو بيدو أنه يصارع كرسيه، كما لو أنه يحاول النهوض، لكن ذراعيه ضعيفتان جداً إلى درجة أنهما لا ترفعانه. كانت مشايته بعيدة من متناوله: تأكّدت باسيا من ذلك.

تقول لماجدلينيا: «خلّي عينيك على أبيك، لا تدعيه ينهض من كرسيه، فقد يقع.»

تقول ماجدلينيا وهي تسكب الحليب في كأس وتضعه أمام لالكا على طاولة المطبخ: «سيكون على ما يرام، فهو دائماً كذلك. اذهبي، يا أمي! لا تقلقي.» «اشربي يا حلوتي.»

تمشي باسيا باتجاه غرازينيا لتتفحص النموذج وتساعدتها في قصّه. إن غرازينيا جيدة معها؛ تأتي كل ليلة لمساعدة باسيا في نقل زيغنيو من كرسيه إلى السرير، وغالباً ما تبقى لتناول فنجان شاي.

غابت باسيا عشرين دقيقة، ربما أكثر. عندما عادت، دخلت إلى منزلها وقفت واضعة يداً واحدة على إطار الباب، وأصغت إلى أعماق البيت وكهوفه وخلجانه. تدرك بعد أربعين عاماً من خلال الصوت فيما إذا كان هناك شخص في المنزل أم لا. حتى حينما يكون ذلك الشخص نائماً أو مختبئاً. ذات مرة، وجدت طفل جارتها الهارب في صندوق بياضاتها.

تصيح: «ماجدلينيا! لالكا!»، لكنها تعلم أنه لن يرد عليها أحد. تتمايل خارج الباب الخلفي متّجهة نحو الحديقة. لا أحد هناك أيضاً، لم تجد سوى الأوساخ التي قلبت في الصباح، وعلى درج الشرفة السفلية، ثمة صف من الكنوز التي حفرتها لالكا: صخرة، وقطعة من الزجاج، وصدفة حلزون. تندم باسيا على ذهابها إلى بيت غرازينيا، كان ينتابها شعور سيئ، وكان عليها أن تصغي إلى ذلك.

تتوقّف عند ممر الحديقة الرطب. تتوقّف المطر، لكن وقع قطراته استمرّ. لالكا تسمي ذلك «ما بعد المطر». كانت تحب أن تقول: «الأشجار تبكي، يا جدتي!» تسمع باسيا أبعد من لهاثها أصواتاً خافتة، الريح في غابة البتولا، المياه التي تتدفق فوق الحجارة، وربما أصواتاً. تمشي أسرع ما أمكنها وساقاها مقوستان. ترى من خلال الأشجار زيغنيو عند حافة النهر. يجلس على جذع شجرة، ويتكئ على عصاه إلى

الأمام. يغرغر النهر عند قدميه، وكرسيه المتحرّك بجواره.

تسمع باسيا صوت لالكا العالي المرح تنشد أفاضاً صعبة تعلّمتها الأسبوع الماضي. ثمّ تسمع باسيا نبرة منخفضة أكثر وأثقل: إنها ماجدلينيا، فكلماتها غير مفهومة. ضغطت باسيا بيدها على عظام صدرها. الطفلة بأمان. يُحتمل أنهما تقطفان التوت البرّي، كما تمنى زيغنيو.

كان ظهر زيغنيو باتجاه باسيا، لكنها إذا تحركت جانباً، تستطيع أن تلمح وجهه، ولحيته الشهباء. الأمر لها لتعلقها هذه الأيام، لذا استدع شعره ينمو لأسبوع أو أكثر حتى لا تستطيع تحمله أكثر. يهتز رأسه إلى الأمام، ويرتفع، ثم يهتز مرة أخرى، كما لو أنه ينام. فتفكر، رجل يهتز بهذه الطريقة، قد يسقط إلى الأمام باتجاه نهر ضحل. رجل يكاد لا يستطيع النهوض من كرسيه، قد لا يتمكن من رفع رأسه من الماء. مؤكّد أن ذلك حدث في مكان ما، لشخص ما. إنها حادثة مروّعة، مأساة. ومع ذلك، قد يقول الجيران لبعضهم بعضاً سرّاً، بما أنه كان عجوزاً وضعيف البنية وفاقد لجزء من أمعائه، إنه لأمر رحيم أن يموت الآن، وبأسرع وقت قبل أن ينتشر العفن.

لن يتطلب ذلك كثيراً، ولا حتى دفعة إلى الأمام؛ يُمكن لريشة خفيفة أن تصبح ورقة، أو جناح طائر، أو تربيطة على الظهر، ستكون كافية ليحفل. من يعلم كم سيمضي من الوقت قبل عودة لالكا وماجدلينا، تعبران النهر، وكفاهما ملطّختان باللون الأزرق؟ قد تعود باسيا إلى المطبخ بحلول ذلك الوقت، وتغسل كوب حليب لالكا بالماء الساخن والصابون.

تقف باسيا خلف زيغنيو، وذراعاها متشابكتان فوق صدرها. هل يتذكّر ابنتهما المتوفاة؟ هل يتذكّر الطريقة التي لمست فيها أطراف أصابعها ركبتيك أو حضنك حينما نهضت إليك؟

حينما غرقت الطفلة، وكان هناك. ربما كان ذلك حادثة، كما قال. ربما لم يمسك رأسها تحت الماء المتدفق لأنها كانت قبيحة، لأنها لم «تبدُ بشراً»، كما كان يتمم أحياناً في ثورات سكره، لكن ربما انتظر مجرد ثانية طويلة جداً قبل أن يحاول إنقاذها، وربما فكر في تركها قبل أن يقفز نحوها. إنها أكثر من مجرد حادثة، لكنها أقل من جريمة قتل، لكنها ألا تزال جريمة؟ طبعاً، لن تعرف أبداً، لكن باسيا تعتقد أنه إذا استطاعت أن ترى تلميحا يدل على أنه عانى لأن الفتاة ماتت، مهما كان السبب، لكان بإمكانها أن تُفرغ فضلاته حينما يصل الأمر إلى هذه المرحلة، وإذا غدا ضعيفاً، ستطعمه البازلاء والبطاطا المهروسة بالمعلقة. وستهتم به كما لو كانت تهتم بطفل.

تتقدّم إلى جواره، فيدير رأسه. لم يبد متفاجئاً. يبدو غريب الأطوار، كما لو أنه كان يتوقّع حضورها وجعلته ينتظر.

يقول: «إنه أنت».

«نعم»، تقف بجواره، ولا تزال ذراعاها متشابكتين فوق صدرها المتهدّل. تقول: انظر. النهر يغيّر مجراه. هل تتذكّر كيف كان يلتف حول تلك الصخرة قبل زمن بعيد؟ أصبح الآن يلتف هنا».

لا يقول شيئاً.

تلح عليه: «إنك تتذكّر؟»

«أتذكّر».

كيف يُمكنها أن تعرف الحقيقة منه؟ إنها تحتاج إلى سماعها.

تسأل: «هل تفكر بها؟» لا يجيب. تنظر إليه. يحرك فمه كأنه يمضغ شيئاً، كما لو أنه يطحن أسنانه.

تسمع أصوات الفتيات، خافتة لكنها مؤكّدة، يجب أن تسرع.

«هل تفكرّ بها؟ أخبرني!»

«طبعاً»

«وحينما تفكرّ بها، بم تفكرّ؟»

يقول: «كم هي جميلة! انظري!». تنظر باسيا في الاتجاه الذي ينظر إليه، نحو أشجار البتولا عبر النهر. تبحث عن ابنتها الميتة بين الأشجار، على الرغم من معرفتها أن الموتى لا يعودون. تأتي ماجدليينا ولالكا نحوهما حينئذٍ. تكاد لالكا ترقص وهي تجتاز الأشجار. إنها تغني، وشعرها الأشقر لامعٌ ومكهرب تقريباً بفعل ضوء ما بعد الظهيرة المائل نحوها.

هل كان يعتقد أنه سيتهرب من سؤالها؟ «من هي هذه الجميلة؟ أخبرني أيها العجوز». تقف خلفه وتضغط بيدها على كتفه. لن ينظر عالياً، إنه يراقب الفتاة وهي ترقص متجهتاً نحو النهر، وتراه باسيا وهو يراقبها.

يقول: «أنت تعرفين من. إنها ابنتنا هناك، حفيدتنا.»

حينئذٍ، تأتي لالكا، إنها على ضفة النهر الآن، وماجدليينا خلفها من بعيد. عندئذٍ، تأتي لالكا، وتخطو نحو الماء، وتزلق على الصخور، وترشق كاحليها بالماء وتضحك. تتادي لالكا عبر النهر باسيا قائلةً: «تعال، احمليني يا جدي!»

تصيح باسيا: «احذري! انتظري والدتك». يضغط زيغنيو براحة يديه على سطح جذع شجرة بجوار فخذه، يكافح للنهوض. تنظر باسيا إليه ويدها لا تزال على كتفه، وتقول: «هل ستحملها الآن؟» يهز كتفيه تحت يدها بانحناءة تدفع جذعه نحو الأمام وإلى اليمين. يحاول أن يتماسك لكنه يفشل، ويسقط على جانبه في الوحل بين قدميها والنهر.

على الجانب الآخر من النهر، تتراجع لالكا إلى الضفة، مراقبةً بعينين واسعتين، وأصابعها في فمها. تركز ماجدليينا، فتتأرجح دلاء التوت، وبنطالها مرفوعٌ إلى ركبتيها.

تصيح: «ماذا حدث، يا أمي؟»

تحنني باسيا وتحشر ذراعها تحت إبط زيغنيو. إنه يبكي، فترى ذلك لالكا وتبدأ بالبكاء أيضاً. وتقول قائلةً: «لماذا يبكي جدي، يا أمي؟»

تجيب ماجدليينا: «لأنه وقع وأذى نفسه. لا تقلقي، سيكون على ما يرام.» تتحدّث ماجدليينا بثقة الأم بهدف إشاعة الهدوء. تتذكّر باسيا استخدامها لتلك النبرة مع أطفالها منذ زمن بعيد، حينما كان زيغنيو يترنح ويتمتم في أرجاء المنزل، ويتمرّ عليها.

تطلب ماجدليينا من لالكا قائلةً: «خذي دلواً، وأمسكي يدي. سنعبّر معاً.»

ترفع باسيا زيغنيو وتدعه بوضعية الجلوس، ويتردّد صدى بكائه في جسدها. ستساعدها ماجدليينا على رفعه ووضعها على الكرسي المتحرك. سيكون الوضع بخير، وسيصلون بالطبيب الذي سيأتي لفحص عظامه. إذا لم تتمكّن من حمله ووضعها على الكرسي، وإذا احتجّ، ستحضران الطبيب إلى النهر. قد يكون كسر في الفخذ، مع ذلك، سيكون كل شيء على ما يرام.

لا تعلم باسيا، الجاثية هناك بجوار زيغنيو، ما حدث أولاً: إذا لفتته بذراعيها من الخلف، ما جعله يبكي، أم إذا بكى فلفته بذراعيها. كل ما تعرفه هو أن جسدها انحنى وتقوس كما هو مستجيباً للبكاء غريزياً. كم مرة احتضنت لالكا وهي تبكي بعد أن تقع وتصاب بأذى، تماماً كما كانت تهدئ أطفالها حينما كانوا يبكون؟ إلا الوحيد الذي لم يبكِ قط. لا شيء يجعل ذلك الطفل يبكي. ربما رأت أبعد منهم جميعاً، تعتقد باسيا، أبعد من جميع الأسباب التي تستدعي البكاء. ربما تراهم الآن أيضاً. تنظر باسيا إلى الأشجار عبر ماجدلينا ولالكا وهما تتراشقان ماء النهر. ترى ظلالاً وأوراقاً تتحرك. وفي السماء، لا شيء سوى الغيوم.

كانت ماجدلينا بجوار باسيا، تترك يد لالكا وتقول: «أسرعي، تحدّثي إلى جدّك، وهديّته». إنه ينشج بشدة الآن، يكاد يخنق. تجلس ماجدلينا القرفصاء، وتستعد لتقديم المساعدة لرفعه. تقول لباسيا: «عند العد لثلاثة. واحد، اثنان، ثلاثة - ارفعي!». تميل لالكا عندئذ باتجاه زيغنيو وتقول بصوت خافت للغاية غالباً لم تستطع باسيا سماعه: «لا تخف، يا جدي». وتضغط بأصابعها الملطخة باللون الأزرق على وجنتيه، تاركةً بقعاً باهتة. ■



Mandy Martin. 1952-2021 Australian Art Sales Digest



الشاعر ريمي دو جورمون مختارات شعرية

• ترجمة: سهيك أبو فخر

ريمي دو جورمون: (Remy de Gourmont) (1915-1858) أديبٌ اشتهر بمقالاته الأخاذة الذكية ورواياته التي تلعب الأفكار دوراً رئيساً فيها. كتب وهو في الأربعين من عمره شعراً غزلياً أرضياً شهوانياً وروحياً في آن معاً، لتغدو الحقيقة الوحيدة عنده أنه لا بد للإنسان من أن ينصام للحب بروحه وجسده. هذه القصائد من مجموعته الشعرية (عبق الزنبق).

الضباب

سيمون، ارتدي معطفكِ والبيسي حذاءكِ الأسودَ المتين
ذاك أننا سوف نبحر عبر الضباب
سوف نبحرُ نحو جزر الجمال
حيثُ النساءُ جميلاتُ كالأشجارِ وعارياتُ كالأرواح
سوف نبحرُ نحو جزرِ
الرجال فيها رائعون كالأسودِ بشعورهم الطويلة الشقراء

• مترجم سوريا .

تعالى، فالعالمُ الموجودُ بذاته ينتظرُ من حلمنا
قوانينه وأفراحه وألهته التي تجعلُ الأشجارَ تزهرُ
ورياحه التي تجعلُ الأوراقَ تبتُّ حفيفها وبريقها
تعالى، فالعالمُ البريءُ سوف يخرجُ من النعش
سيمون، ارتدي معطفكِ والبسي حذاءكِ الأسودَ المتين
ذاك أننا سوف نبحر عبرَ الضباب
سوف نبحرُ نحو جزرِ نرى من على جبالها
امتدادَ السهولِ الهادئة
بحيواناتها السعيدةِ بقضمِ العشب
ورعاتها الذين يشبهون الصفصاف
وأكداسها التي تُرْفَعُ على الطنابِرِ بالمدرة
هوذا الطقسُ لا يزالُ مشمساً
وهي ذي الخرافِ تتوقَّفُ قربَ الحظيرةِ
أمامَ بابِ الحديقةِ التي
تتوحُّ برائحةِ نباتاتِ البِلانِ والطرخونِ والزعر

سيمون، ارتدي معطفكِ والبسي حذاءكِ الأسودَ المتين
ذاك أننا سوف نبحر عبرَ الضباب
سوف نبحرُ نحو جزرِ الجمال
حيث تغني أشجارُ الصنوبرِ الرماديةِ الزرقاء
عندما تلامسُ الرياحُ الغربيةُ شعرها
وسوف نصغي ونحن نستلقي تحت ظلالها العطرةِ
إلى شكوى الأرواحِ التي تبرِّحُها الرغبةُ
والتي تنتظرُ لحظةَ ديبِ الحياةِ في جسمها
تعالى، فالعالمُ ثملٌ واللأنهايةُ تضطربُ ضاحكةً
فربما نسمعُ ونحن تحتِ الصنوبرِ
عباراتٍ غراميةً، عباراتٍ إلهيةً، عباراتٍ قادمةً من بعيد
سيمون، ارتدي معطفكِ والبسي حذاءكِ الأسودَ المتين
ذاك أننا سوف نبحر عبرَ الضباب



ليدا

كانت «ليدا» البريئة تُسبحُ عاريةً
وكان بها جُسدُها يخلبُ لبَّ مياهِ النهرِ
والقصبُ يغني أغنيةً قديمةً جديدةً
إذ سيطرتُ عليه رِعدةٌ لم يعرفها من قبل
عندما ظهرَ ديكٌ أوزٍ كسفينةٍ بيضاءٍ في النهرِ
عندما ظهرَ الديكُ مثلَ سفينةٍ بيضاءٍ ذاتِ مقدِّمةٍ ذهبيةٍ
ارتعشت «ليدا» فرحاً ووقدتُ حاملةً
ثم عادتُ إلى الضفةِ بهدوءٍ وبطءٍ
وتمددتُ على العشبِ في ظلِّ شجرةِ البلوطِ
اقتربَ الطائرُ بهيئاً متحمساً حاملاً
بسيماءِ ملكي فَجَلَّ
بحيث سُحرتُ «ليدا» وتأسفتُ في فورانِ رغبتها
لأنها لم تكنِ أوزةً كي يعشقها
بين الظلِّ والعشبِ النديِّ المفتونِ
بين الظلِّ والعشبِ النديِّ والزنيقِ
رقدتُ «ليدا» تحت ثقلِ الطائرِ العظيمِ
وكانت مياهُ نهرِ «سيمويس» لا تزال تسيلُ من جسدهِ
فراحَ جسدها يرتعشُ مندھشاً
ويزمعُ على أن يداعبَ ريشَ ديكِ الأوزِ فقط.



الأوراق الميتة

سيمون، هلمّي إلى الغابةِ
فالأوراقُ قد تساقطت،
وغطّت الطحالبَ والأحجارَ والدروب.
سيمون، هل تحبين حفيفَ الخطا على الأوراق الميتة؟
الأوراقُ ألوانٌ عذبةٌ ونغماتٌ رصينة
الأوراقُ بقايا واهيةٌ على الأرض!
سيمون، هل تحبين حفيفَ الخطا على الأوراق الميتة؟
تبدو الأوراقُ كالمنتحب لحظةَ الفسق
وتتأوّهُ بحنانٍ عندما تقلّبها الرياح!
سيمون، هل تحبين حفيفَ الخطا على الأوراق الميتة؟
الأوراقُ تبكي كالأرواح عندما تدوسها الخطا
وتصدر صوتاً شبيهاً بخفقان الأجنحة أو حفيف فساتين النساء.
سيمون، هل تحبين حفيفَ الخطا على الأوراق الميتة؟
تعالى: ذات يوم سنصبح أوراقاً ميتة مسكينة.
تعالى: لقد خيمَ الليلُ تماماً
فلنركبِ الرياح.
سيمون، هل تحبين حفيفَ الخطا على الأوراق الميتة؟



حلم

أودُّ أن أحملكِ إلى عالمٍ جديدٍ
بين بيوتٍ أخرى ومناظرٍ أخرى
هناك، حين ألتئمُ يديكِ وأتأملُ وجهكِ،
سأعلمكِ حباً جديداً لذيذاً
حبُّ من الصمتِ والفضنِّ والطمأنينةِ العميقة:
ستصبح حياتنا بطيئةً ومليئةً بالأفكار،
ثم عندما تقترب يدانا بالصدفةِ
الواحدةُ من الأخرى بفتةٍ
يسقط قلبانا في ملامساتها العميقة
ستمضي الأيامُ جميلةً كالأحلام
وفي النورِ الخفيفِ لمساءٍ خريفي
سنهمسُ حين تدهشنا السعادةُ:
ما أعذبَ أيَّامَ الحبِّ عندما تكونُ الحياةُ حلمًا.



رموز

البنفسجية والذهبية والخضراء والأرجوانية الفخورة
تفجرت في الأزرق المولود من الشرق،
الشكوك والأشواق والرغبات وسورات الغضب
تبلبل المحيط الأبيض لهذه الروح الغالية على قلبي.
تمتزج الأرجوانية والبنفسجية
فتعمي عيون إله الشمس القادم من الجحيم
تشتعل الشكوك وسورات الغضب
فتلف بالظلمة ذاك القلب الطاهر حيث يلمع الماس مظلماً.
الذهبية هنا وهناك مثل مصابيح خافتة
وفي الأعلى تحلق الخضراء الباهتة
والرغبات الطائرة على ظهر الأوهام
تلعب مع الضوء وشعر المهرة.
سلاماً! سلاماً أيتها المنقذة! سلاماً أيتها الشمس الحية
السيدة العارية
يا أميرة الأرض!
سلاماً أيتها الروح! و سلاماً أيتها الجسد الناجيان من العدم!
أيتها الروح هاتي عفتك
وأيتها الجسد هاتي دمك. ■



المصدر:

Remy de Gourmont. *L'odeur des jacinthes. La difference. 1991.*



ماريا أوليفر مختارات شعرية

- ترجمة: ثراء الرومي

ماريا أوليفر (Mary Oliver) (1935 - 2019): شاعرة وروائية. ولدت في أوهايو، في الولايات المتحدة. صدرت أول مجموعة شعرية لها سنة 1963. حصلت على أرفع الجوائز الشعرية في الولايات المتحدة.

1. أغنية للخريف

ألا يتراءى لك
في خريف لا تُسبِرُ أغواره
أنَّ الأوراق تحلم الآن
بِكَمِّ الرّاحة التي تهبها ملامسة الأرض
بدلاً من عدميّة الهواء
وهبوبِ الرّيح السّرمديّ؟

• مترجمة سورية .

ألا تخالُ أنّ الأشجار ذاتها
لا سيّما ما تسرّبَلَ جوْفُها الدّافئُ بالطّحالب
تراودها تساؤلات
عن العصافير التي في طريقها إليها
لتستسلم للنّوم في حضنها
أهي سرب أم النّصف؟
ألا يتناهى إلى مسامعك
همس النّبته العشبيّة الهرمة
وهي تلقي تحيّة الوداع
وأولى العروش الثّلجيّة
وهي تتوّج الأبدية؟
يتلاشى الغدير
والحقولُ البيضاء
التي يتهافت الثّعلب إليها
تمدّ ظلّاتها الزّرقاء الطّويلة
فالريّح تنفخ وسائدها
وعند المساء تحديداً
يؤتي الحطب المتراكم ببعض الحركة
وقد استبدّ به الشوق ليشقّ طريقه.



2. سنديانات سوداء

أفهم أنه
ليس لأحد أن يكتب سيمفونية، أو قاموساً
أو حتى رسالة لصديق قديم، بما تزخر به من تدايعات
وما تبثه من راحة
وأنه ما من أحد يمكنه إصدار صوت يتيم
إن لم تلق به الرّيح
رغم انصراف طيور السّنديان الزّرقاء
طوال اليوم
للزّعيق والسّقسقة بين الأغصان
لكنّ حقيقةً يبرّحني الاشتياق لأجسادها المكتنزة
التي ينثر فيها الحزاز⁽¹⁾ التّغضّات
فهل تخال أنك تستطيع أن تنأى بي عن الغابة
وعن حمولة أكتافهم
وشعرهم الرّماديّ المتلائيّ
إنه يوم مثل سواه: في عدد ساعاته
في إشراسته البسيطة
ورذاذ مطره
أعيريني سمعك:
تخاطبني ملكة الطّموح
منقلةً ثقلها بتوتّر
من موطنٍ قدم إلى آخر
لم لا تواصلين التّرحال؟
لأنّني أجدني حيث الظلال المكّلة بالطّحالب
تحت الأشجار
دعني أصارحك أنّ لا رغبة بي في الانعتاق
من قبضة الخمول
لا يستهويني أن أقايض حياتي بالمال
بل لا رغبة لي أبداً أن ألوذ بنفسني هرباً من المطر.

(1) الحزاز: مرض جلديّ

3. برعم

في نيسان
تبجسُ الغدران
كبراعم لم تبصرِ النور
يتهادى القمر داخل كلِّ منّا
وثمة نار في كلِّ مكان:
صخب ضفادع
رغبتها
رضاها
ومعرفتنا أنّ الوقت يستنزفنا جميعاً
كمعول من حديد
وأنّ الموت شللٌ يتابنا
فالفرح هو غاية أمنياتنا
قبل أن يدركنا هادم اللذات
هي ليالٍ في الوهاد
كلّ شيءٍ يحتمل الانتظار
إلا ذلك الرّخم المنبتق من عمق الجسد
ما نعرفه أنّنا لسنا مجرد دم يجري
نحن نتفوّق على تعطّشنا
ومع ذلك يحتوينا القمر
وحين تبجس الغدران
ويبدأ الاحتراق
يحلم الأكثر تفكراً فينا
بالعودة مسرعين إلى البتلات
التي لم تبصر النور
إلى رحم النار
إلى ليلة يرقدُ فيها الوقت محطّماً
يحلمون بالعودة إلى جسدٍ آخر

4. قصيدة باردة

البرد يخيم
يوشك أن يبلغ ذروته
يكاد يفوق الاحتمال
تحتشد السحب وترخي سدولها
من شمال الدب الأبيض
هذا الصباح الذي يشطر الأشجار
تراودني آثار خطاه الضخمة في الحلم
كما أحلم بدهون
تدراً عنّي شبح التجمد
أفكر بالصيف وفاكهته المتألقة
بالبراعم التي تتكور لتغدو ثمرات توت
وأوراقاً
وحفنا من الحبوب
ربّما يكمن البرد في الوقت
الذي نقيس به حباً لزلوعنا
لظالما اختلسناه
وحباً عصياً كمدية ذات حدّين
لنهر دفء يتدفق في ذواتنا
وما بين هذا وذاك؛
قد يكمن الجمال في قرش أزرق يطوف
نحو الفقمات المتعثّرات
في موسم الثلوج
في البرد اللامتناهي
نكتسب قسوة
لا تسلب صدقتنا؛
نبقي جذوة الحياة فينا
ما استطعنا إليها سبيلاً
منتهكين جسداً إثر آخر
مما يلزمنا
من الأزهار الحمراء العديدة المسحوقة.

5. البجعة

أرأيتها تنساب طوال الليل فوق النهر الداكن؟
أرأيتها صباحاً، تخلق عبر لجين الهواء
كحفنة أزهار بيضاء
كبركان
من الحرير والكتان
ما إن تميل نحو وثاق جناحها
كمصدر تلجّي
أو كحوض من الزنابق
تتضم الهواء بمنقارها الأسود؟
أسمعتها تعزف المزمار وتصفّر
بموسيقا غامضة حادة
كوابل مطر
يهطل على الأشجار كما الشلال
يكشط الحواف السوداء؟
أرأيتها أخيراً تحت السحب
صليباً أبيض يتدقق عبر السماء
بقدمين أشبه بوريقات سوداء
وجناحين كالضوء المترامي للنهر
أشعرت بها، في خلجاتك
تناسب مع كل الأشياء؟
وهل أدركت في آخر المطاف
ما غاية الجمال؟
هل فتحت صفحة جديدة في حياتك؟



7. لا تتردد

حين يباغتك الشعور بالفرح
لا تتردد
هَبْ نفسك له
فثمة حَيَوات عديدة
ومدن بحالها
اعتراها الدمار
أو أوشكت
نحن لا نتمتع بالحكمة
ولسنا غالباً لطفاء
وما أكثر ما نعجز عن تعويضه
يَبْدُ أَنَّ الحِياة لا تَعْدُمُ السَّبيل
ربّما هو أسلوبها في الدِّفاع
قد يحدث لنا أحياناً
ما هو أفضل من كلِّ الأنام
أغنياء أو أقوياء
ربّما يكون أيّ شيء
لكنّه على الأرجح سيومض في ذهنك
لحظة انطلاق شرارة الحبّ الأولى
مهما يحدث
فتلك هي الحال غالباً
ولكن
أيّاً كان ذلك الفرح
لا تخشَ فيضه
فهو لم يُخلَق ليكون فُتاتاً.

المصدر:

www.poetry foundation.org/poetry magazine



Slow hope



جسور الألفة

توماس مالتوس

نظرية السكان

مبحث في مبدأ السكان وتأثيره

في

مستقبل تطور المجتمع



نقله إلى العربية
فادي الطويل



• **ناظم مهنا**

قراءة في كتاب نظرية السكان لـ توماس مالتوس

ينتمي توماس مالتوس إلى القرن الثامن عشر ولد عام 1766 وتوفى عام 1834 هورجل دين وباحث اقتصادي وسياسي وفيلسوف بريطاني، عاش في عصر الأنوار البريطاني، ويقال إن والده كان صديقاً لديفيد هيوم، وللفرنسي جان جاك روسو. اهتم مالتوس بالسكان، أو بالأحرى مثل مفكري التنوير كان تفكيره يتركز حول المصير البشري ومستقبل العالم، وقد قاده هذا للتفكير بمسألة تزايد السكان وتناقص الغذاء أو الموارد الطبيعية، ودفعه هذا لتأليف كتابه « نظرية السكان» صدر عام 1798 وأثار جدلاً كبيراً ولا تزال المالتوسية تظهر حتى اليوم بأشكال وانزياحات مختلفة، يتألف هذا الكتاب الذي ترجمه إلى العربية فادي الطويل وصدر عن دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع في دمشق سورية عام 2016 من مقدمة وتسعة عشر فصلاً، يوضح الكاتب في المقدمة أن هذا الكتاب يدين بأصله لمحادثة مع صديق في موضوع مقال « الجشع والإسراف» والمناقشة حول هذا الموضوع أطلقت التفكير عن مستقبل تحسين المجتمع. يقول في الفصل الأول: « إن من يناصر نظام الأشياء الحالي ميال لمعاملة طائفة الفلاسفة المتأملين إما كمجموعة من المحتالين الماهرين الماكريين الذين يبشرون بنزعة الخير المتحمسة، ويرسمون صوراً أسرة لحالة مجتمعية أكثر سعادة ليست أفضل إلا لتمكنهم من تدمير المؤسسات الراهنة والمضي قدماً بخطط طموحهم السريّة، أو متحمسين مسعورين لا تستحق توقعاتهم السخيفة وتناقضاتهم التافهة أي اهتمام

• عضو اتحاد الكتاب العرب. ورئيس تحرير مجلة المعرفة.

من أي إنسان عاقل» (وهو يتحدث في القرن الثامن عشر) وكان العالم يعيش تحت تأثير الثورة الفرنسية والكتاب صدر في عام هذه الثورة.

ويقول في الصفحة 18: «لقد قرأت ببهجة كبيرة بعض التأملات حول كمال الإنسان والمجتمع. وكنت مسروراً وأشعر بالغبطة لما حملته من صورة ساحرة، وأنا أتمنى بكل حماسة حصول تطورات سعيدة مثل هذه، لكنني أرى صعوبات جمّة، وحسب فهمي، لا يمكن هزمها في الطريق إلى تلك التطورات، وغايتي الحالية هي الكشف عن هذه الصعوبات...»

ينطلق مالتوس في أطروحته من فرضيتين، الأولى: إن الغذاء ضروري لوجود الإنسان. والفرضية الثانية: إن العاطفة بين الجنسين ضرورية وسوف تبقى تقريباً ضمن حالتها الراهنة. ويقول مالتوس: «بيدو هذان القانونان، بالرجوع إلى أي معرفة نمتلكها عن الجنس البشري، قانونين ثابتين في طبيعتنا البشرية» إن توماس مالتوس يذهب في فرضيته إلى أولوية «الغذاء البشري» كما عبر عن ذلك أندريه جيد في كتابه «القوت الأرضي» بالتسليم إلى أن قوة السكان هي بالتأكيد أكبر بكثير من القوة التي تنتج بها الأرض موارد العيش للإنسان. ويبدو لي أن مالتوس يريد من كلمة السكان كل الكائنات الحية التي تتغذى على خيرات الأرض. إن تزايد عدد السكان يقلق مالتوس، وهذا التزايد يُطرد أو يتنامى بجنون عندما تتعدم الضوابط. يقول: «يتزايد عدد السكان بمعدل متوالية هندسية، بينما تتزايد موارد العيش بمتوالية حسابية. إن معرفة بسيطة بالأرقام سوف تظهر ضخامة القوة الأولى مقارنة بالثانية.» وحسب القانون الطبيعي الذي يجعل الغذاء ضرورياً لحياة الإنسان، فإن على نتائج هاتين القوتين اللامتكافئتين أن تبقى متساوية.

لا يتجاهل مالتوس كرم الطبيعة في بعثرة بذور الحياة من أجل أن تعمر الأرض بالحياة. فقد قامت الطبيعة عبر مملكتي الحيوان والنبات ببعثرة بذور الحياة بيد مسرفة وسخية كانت توفر نسبياً المكان والقوت اللازمين لإعالتهم، وكان يمكن لأسباب الحياة التي تحتويها هذه البقعة من الأرض، مع الطعام الوفير، والمكان الرحب لتوسعها، أن تلبى حاجة حيوات ملايين الناس في غضون بضعة آلاف من السنين، تكبحها الضرورة، التي هي قانون الطبيعة المهيمن، ضمن الحدود الموصوفة، تتضاءل سلالات النبات وسلالات الحيوان، تحت هذا القانون المقيّد... ولا يستطيع العرق الإنساني، بأي جهود عقلية، أن ينجو منه» تأثيرات هذا القانون بين النباتات والحيوانات؛ هي ضياع الزرع، والمرض، والموت المبكر. أما بين البشر، فالبؤس والرذيلة. ويرى مالتوس أن البؤس هو نتيجة حتمية بالمطلق. أما الرذيلة فهي نتيجة محتملة بقوة. «ونحن بالتالي نرى هذه الرذيلة، منتشرة بكثرة، لكنها ربما، لن تدعى نتيجة ضرورية حتمية. إن محنة الفضيلة هي أن تقاوم جميع مغريات الشر.»

إن التفاوت الطبيعي بين قوتي عدد السكان وإنتاج الأرض، والقانون الطبيعي الذي يجب أن يبقى نتائجه متساوية بشكل مستمر، يشكلان في نظر مالتوس، البلية الكبرى التي تبدو له غير قابلة للتجاوز في الطريق إلى كمال المجتمع. وهذه هي المسألة، وكل النقاشات الأخرى هي ذات أهمية بسيطة وثانوية. ويقول: «لا يمكن للإنسان أن ينجو من رزح هذا القانون الذي يعم الطبيعة الحية كلها، لا يمكن لتكافؤ متخيل، أو أعلى درجات النظم الزراعية أن تزيل ضغطها حتى لقرن واحد من الزمن.»

ينتمي مالتوس فكرياً وتاريخياً إلى الفكر الإنساني الذي يرى أن الإنسان هو الغاية، وسعادته كفرد أو جماعة أمر تفرضه الأخلاق، ويفرضه العمل والحرية والمسؤولية، فسعادة الجنس البشري هي في انعدام القلق، وهي غاية الغايات. ولكن واقع الحال يدفعه إلى القلق وإلى التشاؤم من استحالة كمال الجنس البشري. في الفصل الثاني من كتابه « نظرية السكان » يؤكد على فرضيته التي هي حقيقة أن عدد السكان يزداد، وعلى الدولة، أي دولة أن تضع حداً لهذا الأمر من أجل إنقاذ البشر من الجوع والفاقة وعدم الأمان. على الدولة أن تضع ضوابط على الزيجات المبكرة بين الطبقات الدنيا، من منطلق الخوف من عدم الإعالة الجيدة لعوائلهم، أو بين الطبقات الأعلى، من خوف انحدار وضعهم المعيشي. ويقول: ما من دولة نعرفها إلى الآن قد تركت فيها قوة السكان لتتزايد بحرية تامة.

يدعو مالتوس إلى الامتثال إلى أمر الطبيعة والفضيلة بالارتباط بامرأة واحدة، وبافتراض حرية التغيير في حالة الاختيار غير الموفق، فهذه الحرية لن تؤثر على عدد السكان، أو تجعلها ترتفع إلى مستوى عال جداً، وهو كرجل مؤمن وأخلاقي، يفترض وجود مجتمع نادراً ما تكون فيه الرذيلة معروفة. إنه يتحدث عن مجتمع نقي وبسيط تسوده المساواة والفضيلة والقانون، وتكون فيه موارد العيش الأساسية وافرة، في مثل هكذا مجتمع، إذا تركت قوة السكان على هواها وسجيته تتزايد دون ضوابط، فإن زيادة الجنس البشري ستكون أكبر بكثير من أي زيادة عرفناها. ويضرب مثلاً في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث كانت موارد العيش أكثر وفرة، وأساليب عيش الناس أكثر نقاء، وبالتالي فإن الضوابط على الزواج المبكر أقل مما هي عليه في أي دولة أوروبية حديثة، فقد وجد أن عدد السكان يضاعف نفسه كل خمس وعشرين سنة. وتعليقاً على ذلك، يستخلص الآتي: « وعلى الرغم من أن معدل الزيادة أقل من الطاقة القصوى لعدد السكان، إلا أنه نتيجة للتجربة الواقعية، التي سنتخذها قاعدة لنا، نقول: إن عدد السكان يتجه لمضاعفة نفسه كل خمس وعشرين سنة، أو يزداد بمعدل هندسي عندما لا يخضع لضوابط »

يضرب مالتوس مثلاً لبيسط فرضيته، يقول: دعونا نأخذ أي بقعة على الأرض، هذه الجزيرة على سبيل المثال، ونرى في أي معدل يمكن افتراض زيادة الموارد الأساسية التي تقدمها، سوف نبدأ معها على أساس مستوى حالتها الراهنة في الزراعة، إذا ما سلمت أنه بأفضل سياسة ممكنة، عبر اقتطاع المزيد من الأرض وبالتشجيعات الكبيرة للزراعة، فقد يتضاعف إنتاج هذه الجزيرة في السنوات الخمس والعشرين الأولى، وأتصور أن ذلك سوف يحقق أفضل ما يمكن للمرء أن يطلبه. في السنوات الخمس والعشرين التالية، من المستحيل افتراض تضاعف الإنتاج أربع مرات، سيكون ذلك مناقضاً لكل معرفتنا عن خصائص الأرض، إن أكثر ما يمكن لنا أن نتخيله، هو أن الزيادة في الخمس والعشرين سنة الثانية قد تكون مساوية للإنتاج الحالي، لنأخذ هذا إذاً حسب قاعدتنا، رغم كونها بالتأكيد بعيدة عن الحقيقة، ونسلم بأن يتزايد إنتاج هذه الجزيرة، عبر جهد كبير، كل خمس وعشرين سنة بكمية من الموارد مساوية لما هي عليه في المعدل الراهن، لا يمكن لأكثر المراقبين تحمساً أن يفترض زيادة أكبر من هذه، سيحوّل هذا خلال قرون قليلة، كل أكر من الأرض في الجزيرة إلى ما يشبه الحقيقة. وهكذا فإن معدل الزيادة هو حسابي بشكل واضح. وبالتالي فإنه من العدل أن يقال إن موارد العيش الأساسية تتزايد في معدل حسابي، لنأخذ الآن نتائج

هذين المعدلين معاً. لنفترض أن معدل السكان في الجزيرة هو سبعة ملايين، ولنفترض إن الإنتاج الحالي مساو لتوفير العيش لهذا العدد. في السنوات الخمس والعشرين الأولى سيكون عدد السكان أربعة عشر مليوناً، و سبتضعف الطعام كذلك، ستكون الموارد مكافئة لهذه الزيادة، وسيصبح عدد السكان في الخمس والعشرين سنة التالية ثمانية وعشرين مليوناً، بينما ستكون الموارد كافية لدعم واحد وعشرين مليوناً في الفترة التالية، سيكون عدد السكان ستة وخمسين مليوناً، وموارد العيش ستكون كافية فقط لنصف ذلك العدد، وعند نهاية القرن سيكون عدد السكان مئة واثنى عشر مليوناً، والموارد ستساوي حاجة خمسة وثلاثين مليوناً، مما سيترك اثنين وسبعين مليون نسمة من عدد سكان الجزيرة محرومين منها.

يقول مالتوس: تنطوي أي هجرة كبيرة بالضرورة على عدم السعادة، من هذا النوع أو ذاك في البلد الذي تمت مغادرته، حيث يترك بعض الأشخاص عائلاتهم وأصدقائهم، والأرض الأصلية للبحث عن الاستقرار في مناخات أجنبية غير مجربة. وبصرف النظر عن الأرقام التفصيلية والافتراضية التي يوردها مالتوس، فإذا كان هاجس توماس مالتوس هو السعادة الشاملة للبشرية، فإن المالتوسيون الجدد هاجسهم سعادة فئة أنانية من الأثرياء.

وبالعودة إلى مالتوس، فإنه دفعاً لانتشار الرذيلة وزيادة السكان في الطبقات الدنيا، يقترح بسذاجة أن يتم إخضاع الطبقات الأدنى في المجتمع للفاقة، ومنع أي تحسن دائم في وضعها.

في الفصل الرابع من الكتاب، يناقش حالة الأمم المتحضرة، ويستشرف واقع أوروبا في المستقبل حول الاختلال في التوازن بين نمو السكان والشح في الموارد. يقول: السبب في أن الجزء الأعظم من أوروبا مأهول الآن أكثر مما كان في الأزمنة السابقة، هو أن الصناعة التي يعمل فيها السكان، قد جعلت هذه الدول تنتج كمية أكبر من موارد العيش. وإن الجدل المتعلق بكثافة السكان في الأمم القديمة والحديثة، يمكن التأكيد بوضوح أن معدل الإنتاج في البلدان موضوع البحث، إذا أخذت مجتمعة، هو الآن أكبر مما كان عليه أيام يوليوس قيصر، وسببت في هذا الجدل فوراً. ويتحدث مالتوس عن الصين البلد الأكثر خصباً في العالم، وأن كل أراضيها، تقريباً، قابلة للحرثة، وأن قسماً كبيراً منها ينتج محصولين في السنة، بل وأكثر من هذا، والناس يعيشون بشكل مقتصد جداً. ومن كل ما تقدم نستنتج أن عدد السكان لا بد أنه ضخم، دون أن نشغل أنفسنا بالبحث في الطبقات الدنيا، والتشجيع على حالات الزواج المبكر. لكن هذه التساؤلات ذات الأهمية القصوى، والتاريخ الدقيق لعادات الطبقات الصينية الدنيا ستكون عظمة الفائدة في التحقق من الأسلوب الذي كانت تعمل به الضوابط لكبح زيادة عدد السكان؛ ما هي الآنام، وما هي العوائق التي تعيق زيادة الأعداد فوق قدرة الأرض على توفير موارد العيش.

ويشير مالتوس إلى ديفيد هيوم في مبحثه عن الكثافة السكانية في الأمم القديمة والحديثة، يرى أن هيوم لا يبدو عندما يمزج التحقيق المتعلق بالأسباب بالتحقيق المتعلق بالحقائق. إنه يرى، أي هيوم، بفهمه الاعتيادي، كم يمكن للقليل من الأسباب ان تلمع لتمكنه من تكوين أي حكم بشأن التعداد الواقعي للسكان في الأمم القديمة. ويقول مالتوس: « إذا كان ممكناً استنتاج أي شيء منها فسيكون ربما عكس ما يستنتجه هيوم مباشرة، مع إنني أتكلم بالتأكيد بقدر كبير من الاحتشام عن مخالفتي لشخص هو الأقل انخداعاً بالمظاهر السطحية في هذه الموضوعات بين الآخرين، إذا وجدت أن التشجيعات على بناء أسرة

كانت كبيرة في فترة محددة من التاريخ القديم، وأن حالات الزواج المبكر كانت سائدة، والقلة من الرجال هم من ظلوا عازبين، فإن علي الاستنتاج متأكداً أن عدد السكان تزايد بسرعة، لكن ذلك بالتأكيد لم يكن يعني أن عدد السكان كان في الواقع كبيراً جداً لكنه، في الحقيقة، كان على العكس، كان العدد ضئيلاً، وكان هناك مكان وطعام لعدد أكبر حتى من جهة أخرى، إذ وجدت أنه في هذه الفترة كانت الصعوبات التي تواجه العائلة كبيرة جداً، وأنه بالتالي حصل القليل من حالات الزواج المبكر، وأن عدداً أكبر من الجنسين ظلّ عازباً، فسأستنتج متأكداً أن عدد السكان لم يكن يتزايد، وأن ذلك ربما، لأن عدد السكان أكبر بالمقارنة مع خصوبة الأرض وندراً ما وجد مكان وطعام لعدد أكبر»

ويقول مالتوس بعد الرد على هيوم وأدم سميث: في دراسة الدول الرئيسية في أوروبا، سوف نجد أنه على الرغم من أنها ازدادت في عدد السكان بشكل كبير جداً مقارنة بوضعها أيام كانت مجتمعات رعاة، إلا أن نموها حالياً بطيء، وبدلاً من مضاعفة أعدادها كل 25 سنة فإنها تتطلب ثلاثمئة أو أربعمئة سنة أو أكثر لتحقيق ذلك. بعض دول أوروبا عدد سكانها ثابت تماماً، وعدد سكان بعضها الآخر يتراجع. ولا يمكن إحالة هذا النمو البطيء في عدد السكان إلى خمول العاطفة بين الجنسين. ويقول مالتوس: لدينا سبب كاف للاعتقاد بان وجود هذا الميل الطبيعي لا يزال في نشاط غير متناقص. لماذا لا تبدو نتائجها إذن في تزايد سريع للجنس البشري؟ إن نظرة قريبة لحالة أي مجتمع في أي دولة في أوروبا والتي تدل على الجميع بشكل متكافئ ستمكننا من الإجابة على هذا السؤال، والقول إن تصور الصعوبات الحاضرة في إنشاء الأسرة تقوم بدور عائق سائد، والشدائد الحقيقية لدى بعض الطبقات الأدنى، التي تعجز بسببها عن توفير الطعام والاهتمام المناسبين لأطفالها، تعمل كضوابط إيجابية للزيادة الطبيعية لعدد السكان.

في الفصل الخامس من الكتاب يتحدث مالتوس عن العائق الثاني أو الإيجابي لتزايد السكان بعدما تحدث في الفصل السابق عن الزواج المبكر، ويرى أن العائق الإيجابي بتزايد السكان الذي يكبح الزيادة قد بدأت بالأصل، يقتصر بشكل رئيس على المراتب الاجتماعية الدنيا، وهذا العائق لا يكون واضحاً للرأي العام كالسابق. في الفصل السادس يتحدث عن واقع السكان في المستعمرات الجديدة والقديمة، فيقول: لوحظ عالمياً أن جميع المستعمرات التي أقيمت في بلدان سليمة حيث توجد وفرة في المكان والغذاء، قد ازداد عدد سكانها بسرعة مذهلة. فاقت بعض المستعمرات من اليونان القديمة في فترة ليست بالطويلة، دولها الأم بالعدد والقوة. ولكيلا نتطرق إلى أمثلة بعيدة، فإن المستوطنات الأوروبية في العالم الجديد شهادة كبيرة على حقيقة هذه الملاحظة التي لم تتعرض للتشكيك. إن وفرة الأرض الغنية التي استخدمت على نطاق ضيق أو لم تستخدم قط هي سبب قوي جداً لأن يتجاوز عدد السكان جميع العوائق. ويقول: ليس من مستوطنات يمكن أن تدار بشكل أسوأ مما هو في المستوطنات الإسبانية في المكسيك والبيرو وكويتو، لقد قدم الطغيان والخرافات ورذائل الدولة الأم بكميات كبيرة بين أطفالها. انتزع التاج ضرائب مهولة، وفرضت أشد القيود التعسفية على تجارتها، وتحت وطأة الصعوبات كلها حققت المستعمرات زيادة سريعة في عدد السكان.

في الفصل السابع يتحدث عن الأوبئة كعائق في تزايد السكان، وفي الفصل الثامن والتاسع يرد مالتوس على دعاء الكمال البشري وعلى السيد كوندرسيه الفرنسي الذي يتحدث عن الكمال العضوي للإنسان والذي يرى

أن الخصائص الطبيعية والتنظيم في حياة الإنسان القائم على الفضيلة، وهما قابلتان للتحسين المطرد، فمن تطور الطب، واتباع المزيد من العادات المفيدة، وتناول الطعام الصحي، وأسلوب العيش الذي يحسن قوة الجسد عبر التدريب، دون إضعافه بالإفراط، ومن إبطال السببين الرئيسيين لانحطاط الإنسان (الرديلة والبؤس) والثروات الضخمة، ومن الإزالة التدريجية للخلل القابل للانتقال والمعدي عبر تحسين المعرفة الجسدية التي تكتسب فعالية أكبر من خلال العقل والتنظيم الاجتماعي، يستنتج أن الإنسان لن يصبح خالداً، لكن المدة بين ولادته وموته الطبيعي سوف تزداد دون توقف. هذه الأفكار الجميلة التي يعرضها السيد كوندوروسيه، يرى مالتوس أن تطبيقها غير مضمون بالكامل في أي مظهر من مظاهر قوانين الطبيعة. وأن التنوعات، لأسباب مختلفة هي متميزة بشكل جوهري عن الزيادة المنتظمة وغير التراجعية. ويقر مالتوس بحقيقة أن متوسط مدة الحياة البشرية، تبعاً للمناخ السليم أو غير السليم، للطعام الصحي أو غير الصحي، لأساليب الحياة التي تتسم بالفضيلة أو الرديلة. لكن لا بد أن يوجد الشك فيما إذا كان ثمة حقاً زيادة صغيرة يمكن إدراكها في المدى الطبيعي للحياة البشرية منذ أن وجد لدينا لأول مرة تاريخ معتمد للإنسان، فالإتهامات المحجفة في كل العصور تناقض افتراض كوندوروسيه، ويقول مالتوس؛ مع أنني لا أعير اهتماماً لهذه الإتهامات المحجفة، إلا أنها تميل إلى حد ما إلى إثبات أنه لم يكن ثمة تقدم ملحوظ في الاتجاه المعاكس. ويقول: ربما يقال إن العالم لا يزال أصغر سنّاً في أحداثه بشكل كامل على درجة لا يمكننا أن نتوقع فيها أي اختلاف يظهر قريباً، إذا كان الأمر هكذا، فثمة نهاية فورية للعلم الإنساني كله، سينهار هذا النسق الفكري من الأسباب إلى النتائج، ويمكننا أن نغلق أعيننا لكتاب الطبيعة، طالما أنه لم يعد من المفيد أن نقرأه. وهو يرى أن قوانين الطبيعة إذا كانت متقلبة ومتعارضة وإذا كان ممكناً أن يصدق أنها سوف تتغير، بينما بدت لعصور وعصور أنها ثابتة لا تتغير، فلن يكون لدى العقل البشري أي دافع للتفكير والبحث، وسيبقى ثابتاً في حالة فتور بليد أو يسلي نفسه بأحلام محيرة واستيهامات متهورة. ويرى مالتوس أن ثبات قوانين الطبيعة وأسبابها ونتائجها هو أساس المعرفة الإنسانية كلها، ويقول: مع أنني أستبعد القول إن ذات القوة التي أطرت وتنفذ قوانين الطبيعة لا يمكن أن تغيرها في لحظة أو طرفة عين، إن تغييراً مثل هذا يحصل، لكن كل ما أعنيه هو القول إن من المستحيل أن نستنتج ذلك من الافتراض. أما فيما يتعلق بمدة حياة الإنسان فلا يبدو أنه قد ظهرت منذ العصور الأولى للعالم حتى اللحظة الحالية أصغر إشارة أو علامة ثابتة على إطالة مدة حياة الإنسان.

في الفصل العاشر يرد على السيد غدوين ونظام المساواة. يثني مالتوس على كتاب السيد غدوين عن العدالة السياسية، ويقول من المستحيل ألا تصدمك روح أسلوب ونمط تفكير غدوين وقوة بعض استنتاجاته ودقتها، ونبرة أفكاره المتحمّسة. لكن السيد غدوين في رأي مالتوس لم ينتهج في استقصاءاته الحيطة التي يبدو أن الفلسفة السليمة تتطلبها، إذ تبدو نتائجها غير مترابطة مع مقدماته. ويرى مالتوس أن نظام المساواة الذي يقترحه غدوين هو من دون شك الأفضل والأجمل والأكثر جاذبية بين جميع من ظهر حتى الآن، ومن أجل أن يكون تحسين المجتمع ليس إلا نتاجاً للعقل والافتتاح، فإنه يتبنى عهد الاستمرارية أكثر من أي تغيير يتخذ ويطبق بالقوة.

ويقتبس مالتوس من كتاب السيد غدوين ما يلي: «ثمة مبدأ في المجتمع الإنساني يُبقي عدد السكان بشكل دائم عند مستوى موارد عيشهم، وهكذا بين القبائل الجوالّة في أمريكا وآسيا لا نجد عبر مرور العصور أن

عدد السكان قد ازداد بما يجعل زراعة الأرض ضرورية وملحة» يعلق مالتوس قائلًا: هذا المبدأ الذي يذكره السيد غدوين كمسبب غامض وغيبى والذي لا يحاول أن يتقصاه، سيوضح أنه القانون الساحق للضرورة والبؤس والخوف من البؤس. يرى مالتوس أن الخطأ الكبير الذي يقع فيه غدوين هو أنه يعزو تقريباً العيوب جميعها والبؤس المرثي في المجتمع المدني إلى المؤسسات الإنسانية، فالنظم السياسية والإدارة العريقة للملكية هي بالنسبة له المصادر المثمرة لجميع أنواع الشر، والحاضنة لجميع الجرائم التي تحط من شأن الإنسان. ويعلق مالتوس: لو كانت تلك حقيقة الحال بالفعل، لم تبدُ إزالة الشر من العالم حينئذ عملاً يائساً، ويبدو العقل أنه الأداة المناسبة والملائمة لإنجاز هدف بهذه العظمة، لكن الحقيقة أنه على الرغم من أن المؤسسات الإنسانية تبدو أنها الأسباب الواضحة والبارزة للكثير من المشكلات الإنسانية، وهي ليست سوى ريش يطفو على السطح بالمقارنة مع أسباب التلوث الأعمق التي تقسد منابع وتعكر ينبوع الحياة الإنسانية كله. ويرد على دعوة غدوين في نظام المساواة: إن ما يقدمه غدوين ليس سوى صورة متخيلة عن دولة سعيدة، مع ميزة نادراً ما تقارب الحقيقة، وأخشى أن يكون القارئ قد أفتع بها. ويرى مالتوس أنه لا يمكن للإنسان أن يعيش وسط وفرة واسعة، ولا يمكن للجميع أن يتشاركوا سخاء الطبيعة بالقدر ذاته لو لم تكن هناك إدارة مؤسسة للملكية لكان كل شخص مجبراً على حماية مخزنه الصغير، وستكون الأناية منتصرة.

يرى السيد غدوين: الإجابة الواضحة عن هذا الاعتراض، هي أن نفكر، هذا يعني أن نتوقع أن هذه الصعوبات بعيدة جداً. إن ثلاثة أرباع القسم المأهول الآن من العالم غير مزروعة، الأجزاء المزروعة قابلة لتطور لا متناه. ربما تمر قرون لا تحصى من زيادة أعداد السكان، وتبقى الأرض توجد فيها ما يكفي من موارد العيش لسكانها.

يرد مالتوس على محاولة غدوين التقليل من عقبة تزايد عدد السكان، يقول: لقد أشرت مسبقاً إلى خطأ افتراض أنه لن ينجم ضيق أو مشقة عن عدد السكان الفائض، قبل أن تغدو الأرض غير قادرة على إنتاج المزيد. لكن، دعونا نتخيل للحظة أن نظام المساواة الجميل لدى السيد غدوين قد تحقق في أقصى حالات نقائه، ونرى متى يمكن لهذه المشقة أن تضغط على أسس شكل مثالي كهذا المجتمع. النظرية التي لا تقبل التطبيق يرجح ألا تكون صحيحة. ويقول: لنفترض أنه قد أزيلت جميع أسباب البؤس والشرور في هذه الجزيرة، وتوقفت الحروب والنزاعات، ولم يعد ثمة وجود التجارة والصناعة الفاسدة، ولم تعد هناك حشود تتجمع في المدن الكبيرة والمزرعة لغايات التواطؤ والتجارة وإشباع الرغبات الآثمة، وتحل التسلية الصحية والبسيطة والعقلانية محل الشرب والمقامرة والفسق، ولا توجد بلدات كبيرة بما يكفي لامتلاك أي تأثيرات متحاملة على المؤسسات الإنسانية، يعيش القسم الأكبر من سكان هذا النعيم الأرضي السعداء في قرى ومزارع متناثرة على أرض البلد، حيث كل منزل نظيف وجيد التهوية وفسيح كفاية، وبحالة صحية وكل الناس متساوون ولا وجود لأعمال الرفاهية، وأعمال الزراعة الضرورية يتشارك فيها الجميع ودياً. عدد السكان وكمية نتاج الأرض يفترض أن يكونا ذاتهما كما هو في الحاضر، وروح الإنسان التي تقودها عدالة نزهاء ستقسم هذا الإنتاج بين أفراد المجتمع حسب حاجاتهم، ومع أنه من المستحيل أن يكونوا قادرين على تناول طعام حيواني كل يوم، لكن الطعام النباتي، مع اللحم بين الحين والآخر سيرضي رغبات الناس

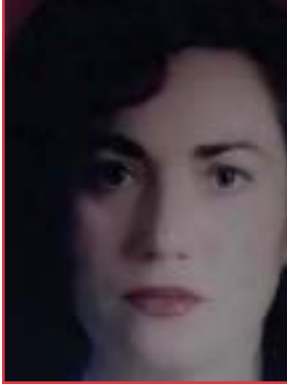
المقتصدين وكافياً لبيقيهم في حالة جيدة من الصحة والمعنويات. ويقول مالتوس إن السيد غدوين يفترض أن الحقيقة كلية، رذائل الإنسان وضعفه الأخلاقي ليسا عصيين، الإنسان قابل للكمال، أو قابل للتحسن الدائم. وفي الفصل السابق من الكتاب كان مالتوس يعرض لفكرة غدوين عن المساواة السياسية، فهو يرى أن الجزء الأكبر من آثام الناس ونقاط ضعفهم تنبع من جور وإجحاف مؤسساتهم السياسية والاجتماعية، وأنه إذا ما أزيل هذا الجور، وأصبح الناس أكثر فهماً، فسيتضاءل إغواء الشر في العالم، أو ينعدم.

ويرى مالتوس أن هذا المفهوم زائف تماماً وهو خارج أي مؤسسات سياسية أو اجتماعية مهما تكن. لا بد أن يتعرض القسم الأكبر من البشر وفق قوانين الطبيعة الثابتة وغير المتبدلة إلى إغواءات الشر النابعة من الحاجة، إلى جانب انفعالات أخرى وتجمعات من الانطباعات، لا يمكن أن تطفو في هذا العالم دون توليد مجموعة من الأشخاص السيئين. ويقول مالتوس: حسب مفهوم السيد غدوين عن تشكيل الشخصية، فمن المؤكد عدم احتمالية أنه تحت ظروف مثل هذه سيكون الناس فاضلين، كما لو أن أرقام الستة سوف تأتي مئات المرات في أحجار النرد! وخلاصة الأمر أن مالتوس يرى أن فرضيات وآراء السيد غدوين على الرغم من نبلها إلا أنها غير عملية. ثم ينتقل مالتوس في الفصل السادس عشر من الكتاب لتنفيذ آراء الدكتور آدم سميث في كتابه الشهير: «ثروة الأمم». يقول مالتوس: إن الموضوع المعلن في مبحث الدكتور آدم سميث هو طبيعة وأسباب ثروة الأمم. وفي هذا الفصل يدخل مالتوس في جدل اقتصادي مع السيد آدم سميث من خلال تعريفه لثروة أي أمة على أنها تتألف من الناتج السنوي من الأرض والعمل.

في الفصل التاسع عشر الذي هو خاتمة الكتاب، يقول مالتوس: أحزان الحياة وآلامها هي من طبقة أخرى من المثيرات التي تبدو ضرورية بسلسلة خاصة من الانطباعات لترقق القلب وتؤنسسه، وتوقظ التعاطف الاجتماعي وتولد جميع الفضائل المسيحية، وتقدم فرصة لممارسة الخير والإحسان. يرى مالتوس بعد استفاضة دينية وأخلاقية عن الفضائل والأحزان والمواهب الشريرة، يخلص إلى أن الشر الأخلاقي ضروري بالمطلق لإنتاج التفوق الأخلاق، ويقول: إن الكائن الذي ليس لديه سوى الخير يمكن أن يقال عنه إن ثمة حاجة عمياء تسييره، ويمكن ألا يكون السعي إلى الخير في هذه الحالة مؤشراً على ميول فاضلة، بل ربما يقال إن الحكمة المطلقة لا يمكن أن تحتاج إلى مؤشر مثل هذا كفعل ظاهري، بل تعرف مسبقاً بالتأكيد ما إذا كان الكائن سيختار الخير أو الشر. يبدو أن الحب والإعجاب الكبير بالفضيلة يتضمن وجود شيء آخر معاكس له، ويبدو مرجحاً جداً أن جمال الشكل والجوهر نفسه وكمال الشخصية لا يمكن أن يتولّد من دون انطباعات الاستنكار التي تنشأ من منشأ الشر الأخلاقي.

إن كتاب «نظرية السكان» لمالتوس كتاب عن الطبيعة الذاتية والموضوعية للبشر، وهو كتاب اقتصاد وجدل وفلسفة تتمحور حول السعادة البشرية والعوائق التي تواجه هذه السعادة المنشودة. ■

– كتاب: «نظرية السكان» / مبحث في مبدأ السكان وتأثيره في مستقبل وتطور المجتمع. تأليف توماس مالتوس ترجمة: فادي الطويل صادر عن دار الفرقد بدمشق عام 2016.



• لبيبة صالح

الربيع الصامت قصة استعمال الكيماويات السامة



يعدُّ هذا الكتاب وثيقة بيئية في غاية الخطورة، بل يذهب بعض المهتمين بالبيئة إلى عدّه أخطر وثيقة تاريخية بالنسبة إلى الجنس البشري ظهرت في القرن العشرين. وفي نهاية 1988 اجتمع فريق كبير من العلماء، وطالب بإنشاء جائزة نوبل جديدة تخصّص للبيئة، واقترح أن يكون أول من يحصل عليها، مؤلفة هذا الكتاب « راشيل كارسون» 1907-1964 التي تخصّصت في اللغة الإنكليزية بجامعة بنسلفانيا ثم حصلت على البكالوريوس في العلوم البيولوجية سنة 1929 وقامت بإجراء بحوث في علم الوراثة بجامعة جونز هوبكنز وفي علم الحيوان في جامعة ميريلاند. من مؤلفاتها الأخرى: تحت رياح البحر، حافة البحر، البحر من حولنا...

• كاتبة سورية.

جاء في مقدمة الكتاب بقلم لورد شاكتون: كتاب الربيع الصامت ليس مجرد كتاب عن السموم، إنه كتاب عن علم البيئة، أو علاقة النباتات والحيوانات ببيئتها وبيعضها بعضاً، إن علماء البيئة يصبحون الآن أكثر اتفاقاً على أن الإنسان، في هذا المقام، ليس سوى حيوان، بل إنه بحق أكثر الحيوانات أهمية، وإنه مهما كان سكنه مصطنعاً، فهو لا يستطيع أن يسمح بتحطيم الكائنات الحيّة التي نشأ عنها حديثاً، دون أن يصيبه أذى، وعلى هذا، فإن الأنسة كارسون، تقدم للبشر، قضية مقنعة، أحسن تعزيدها بالحجج، ليتعلموا أن يقدرُوا أنهم جزء من العالم الحي، الذي يعمر هذا الكوكب، وأن عليهم أن يتفهموا شروط البقاء، وأن يتصرفوا دون أن ينتهكوا هذه الشروط.

تحت عنوان «أسطورة للغد» تبدأ السيدة كارسون كتابها وعلى شكل حكاية نوستالوجية، تقول: «كان هناك مدينة تبدو فيها الحياة كلها في وفاق مع البيئة، كانت هذه المدينة تقع وسط عديد من المزارع الناجحة، فيها حقول الحبوب وسفوح البساتين، تسبح فوق حقولها الخضراء في الربيع سحب بيضاء من الأزهار...» وتصور الكاتبة حياة المدينة السعيدة الهانئة بالخضرة والوفرة والتنوّع، إلى أن زحفت الكارثة فوق المنطقة، وابتدأ كل شيء يتغيّر، وجثم سحر مشؤوم، واجتاحت أمراض غامضة قطعان الدجاج، ومرضت الماشية والأغنام لتتفق، دخل شبح الموت

في كل مكان، وتحدث المزارعون عن كثير من الأمراض في عائلاتهم وفي المدينة ازدادت حيرة الأطباء من أمراض جديدة تظهر بين مرضاهم، كانت هناك حالات موت فجائي غير مفهوم، لا تحدث فقط بين الكبار وإنما الأطفال أيضاً، كانوا يصابون فجأة أثناء اللعب، ثم يموتون خلال ساعات، وساد سكون غريب. الطيور مثلاً أين ذهبت؟ كثيرون يتحدثون عن هذا الأمر في حيرة وانزعاج! أماكن تغذيتها في حدائق المنازل الخلفية المهجورة، والقلة الباقية منها تحترق، وترتجف بعنف ولا تقوى على الطيران، كان ربيعاً بلا أصوات، الصباح الذي كان ينبض بأناشيد الفجر، ينشدها الهزار والحمام والعصافير وعشرات غيرها من الطيور، أضحى بلا صوت. الصمت يرقد فوق الحقول والنباتات والمستنقعات... ومشهد طويل من الكارثة تعم المزارع والطبيعة تضعنا الكاتبة فيها، وكل هذا بفعل الناس أنفسهم، هذه التراخيديا الخيالية، بل الواقعية غدت حقيقة قاسية نكابدها جميعاً!

لكن، ما علينا أن نتحمّله، من منطلق معرفتنا بان تاريخ الحياة على الأرض هو تاريخ التفاعل بين الكائنات الحية والبيئة المحيطة بها، فإذا أخذنا كل تاريخ الأرض في الحسبان، فإن الأثر العكسي الذي حولت فيه الحياة البيئة من حولها كان بسيطاً نسبياً، فالمفارقة المحزنة أن نوعاً واحداً (الإنسان) تمكن من أن يغير طبيعة عالمه. وازدادت هذه القدرة، وتجلت اعتداءات الإنسان على البيئة في تلويث الهواء والتربة والأنهار والبحار بمواد خطيرة ومميتة، وهذا التلوث بمعظمه لا يمكن إصلاح أثره، وفي هذا التلوث الشامل للبيئة سنجد أن الكيماويات هي الشريك غير المعروف للإشعاع في تغيير طبيعة العالم نفسه. وتقول المؤلفة: لقد تطلب الأمر مئات الملايين من السنين كيما تظهر الحياة التي تعمّر الأرض الآن. إن سرعة التغيير التي تخلق بها الأوضاع الجديدة تنتج عن الأخطاء المتهورة غير

الموجهة التي يخطوها الإنسان، لا عن خطوات الطبيعة المتعمدة، فالإشعاع لم يعد مجرد الإشعاع الطبيعي للصخور والأشعة الكونية، والأشعة فوق البنفسجية للشمس، إنما الإشعاع الآن هو الخلق غير الطبيعي لعبث الإنسان بالذرة. والكيمائيات التي يطلب من الحياة أن تتوافق معها لم تعد هي فقط الكالسيوم والسيلكا والنحاس وبقية المعادن التي تخرج عن الصخور وتنقلها الأنهار إلى البحر، إنما أصبحت المنتجات التي يخلقها ذهن الإنسان المبتكر ويصنعها في معاملها والتي لا نظير لها في الطبيعة. فهناك تيار لا ينتهي من الكيمائيات الجديدة يخرج من المعامل، كثير من هذه الكيمائيات تستعمل في حرب الإنسان ضد الطبيعة. وتقول الكاتبة، إنه في منتصف أربعينيات القرن العشرين صنع ما يزيد عن مئتي مركب كيميائي أساسي لتستعمل في قتل الحشرات والحشائش والقوارض مخلوقات أخرى وصفت بانها آفات.

يتعرض البشر جميعاً، إلى ملامسة كيمائيات خطيرة، من لحظة الحمل إلى يوم الموت، فقد انتشرت مييدات الآفات المختلفة وأصبحت موجودة في كل مكان تقريباً، ففي الأنهار الكبيرة وفي المجاري المائية تحت الأرض، وتظل بقايا هذه الكيمائيات موجودة في التربة، وتستقر في أجسام الأسماك والطيور والزواحف، والحيوانات المستأنسة والبرية، وحدث هذا بسبب إنتاج كيمائيات مخلقة وهي وليدة الحرب العالمية الثانية، ففي مرحلة تطوير بعض الوسائل الكيمائية للحرب، اتضح أن بعض الكيمائيات المصنعة قاتلة للحشرات، وما يميز هذه المبيدات الحشرية المخلقة الجديدة هو فاعليتها البيولوجية الضخمة. على الرغم من أن الحرب العالمية الثانية كانت بداية التحول عن استعمال الكيمائيات اللاعضوية كمبيدات للآفات، فما زالت في الاستعمال بعض المواد القديمة، كالزرنيخ الذي لا يزال العنصر الأساس في العديد من المبيدات، ولكن المبيدات الحديثة هي أكثر قدرة على القتل، ومعظمها ينتمي إلى واحدة من مجموعتين كبيرتين من الكيمائيات، إحداهما الـ (د. د. ت) باسم الأيدروكربونات الكروماتية، أما المجموعة الأخرى فهي تشمل المبيدات الفسفورية العضوية ويمثلها المبيدان المعروفان: الملاثيون والباراثيون، وكلاهما يشتركان في شيء واحد هو الكربون. تتميز ذرات الكربون بقدرة تكاد تكون لامحدودة على الاتحاد مع بعضها في شكل سلاسل وحلقات وتشكيلات مختلفة، إن التباين الضخم للكائنات الحية من البكتيريا حتى الحوت الأزرق يرجع في معظمه إلى قدرة الكربون هذه، وذرة الكربون هي أساس جزيء البروتين المعقد وجزيء الدهن والكربوهيدرات والأنزيمات والفيتامينات هي أيضاً في كثير من الأشياء غير الحية، فالكربون ليس بالضرورة رمزاً للحياة، وبعض المركبات العضوية ليست سوى اتحادات لذرات كربون وهيدروجين، وأبسط هذه المركبات هو الميثان أو غاز المستنقعات الذي يتكوّن في الطبيعة عند تحليل البكتيريا للمادة العضوية تحت الماء، وهذا الغاز إذا ما اختلط بالهواء يتحول بنسبة معينة إلى غاز مناجم الفحم المفزع.

اكتشف أحد الكيمائيين الألمان مادة الـ (د. د. ت) سنة 1874 لكن صفاتها كمبيد حشري لم تكتشف حتى عام 1939 وعلى الفور نودي بها كوسيلة لإبادة الحشرات ناقلة الأمراض، وحصل المكتشف

السويسري «باول مولر» على جائزة نوبل، وشاع استعمال الـ(د.د.ت) حتى إن كثيرين يأخذونه مأخذ المواد المألوفة التي لا تؤذي، وربما كانت خرافة أن الـ(د.د.ت) لا تعتمد على حقيقة أن استعمالها لأول مرة كان في تعفير الآلاف المؤلفة من الجنود واللاجئين والسجناء في أثناء الحرب لمقاومة القمل، ولأن الكثير ممن تعاملوا مع هذه المادة عن قرب لم تظهر عليهم أي آثار فورية سيئة، فاعتقدوا أنها بريئة من الإضرار، وهذه الفكرة الخاطئة نشأت بسبب أن المادة بشكلها المسحوق لا تمتص بسرعة من خلال الجلد، ولكنها سامة ولاسيما إذا أذيت مسحوقها في الزيت، وإذا ابتلعه الإنسان، فإذا ما دخل في جسم الإنسان فإنه يخزن في الأعضاء الغنية بالمواد الدهنية، مثل غدة فوق الكلية والخصيتين والغدة الدرقية، وإن كميات كبيرة منه ترسب في الكبد والكلى وفي دهن المساريفة التي تلف الأمعاء، ثم يستمر التخزين حتى يصل إلى مستوى مرتفع، ويشكل تهديداً فعلياً. ولا يتفق العلماء على كمية الـ(د.د.ت) التي يمكن لجسم الإنسان تخزينها. وعن نقل السموم من جسم إلى جسم ومن النبات إلى الحيوان إلى الإنسان على الشكل الآتي: عندما يرش البرسيم في الحقل بـ(د.د.ت) ثم يجز منه مسحوق يقدم للدواجن التي تضع بيضاً يحتوي على المبيد أو تتغذى الأبقار على الدريس، فيظهر المبيد في اللبن، وتزداد كميته في الزبدة، وقد تتناوله الأم فتعطيها لطفلها. وهناك من يعتقد أن التخزين يبدأ فعلاً في أثناء وجود الطفل في رحم أمه الذي يخترق حاجز المشيمة بسهولة، فالإنسان يبدأ حياته وبجسمه مخزون يتزايد من الكيماويات، وهو يحمله طوال حياته! وقد يسبب تلف الكبد إذا تراكمت النسبة. والكلوردين، وهو أحد المركبات الهيدروكربونية، له خواص الـ(د.د.ت) البغيضة كلها، ويُعدّ الصيدلي «لهمن» 1950 من أكثر المبيدات الحشرية سُميّة. وبعض المبيدات مثل الهيتاكلور له القدرة على التحول إلى مادة كيماوية مميزة ويجري تحوله في التربة، وفي أنسجة النبات والحيوان، ويصبح أكثر سُميّة من المركب الأصلي. كذلك مركب الدلدرين تصل سُميته إلى أربعين ضعفاً إذا امتص من خلال الجلد، وتأثيره رهيب على الجهاز العصبي.

والألدريين، مادة سامة جداً، تسبب تغيرات تحللية في الكبد والكلى وهو مثل باقي المجموعات من المبيدات الحشرية، يسبب العقم، إذا ما تغذى طائر الفزان على كمية منه، تقل عن الجرعة القاتلة، فإن بيضه ينفق بسرعة. والأندرين وهو أكثر الهيدروكربونات الكروكلينية سُميّة. ولقد أباد الأندرين خلال عشر سنوات من استعماله أعداداً هائلة من الأسماك، ومن الماشية، كما أنه سمم الآبار.

أما المجموعة الثانية من المبيدات الحشرية، فهي مجموعة الألكيل والفوسفات العضوية، وتعد من أكثر الكيماويات في العالم سُميّة! إن خواصها كمبيدات حشرية ظلّ مجهولاً ليكتشفها الكيماوي الألماني «جيرهارد شرادر» واستعمل كسلاح جديد مدمر في حرب الإنسان ضد الإنسان، وعمل عليه سرّاً ومنه أنتجت غازات الأعصاب القاتلة، فهي تستهدف الجهاز العصبي. والباراثيون، وهو واحد من أكثر مبيدات الفوسفور العضوية استعمالاً، ويقال عنه إنه الوسيلة المفضلة للانتحار. والمالثيون هو مركب آخر من مركبات الفوسفور العضوية، ويُعدّ أقل سمية من غيره. أما مبيدات الحشائش فهي من المواد (الطفرة) لأن لها القدرة على تحوير الجينات- مادة الوراثة.

المياه السطحية والجوفية :

إن تلوث المياه بمبيدات الآفات يأتي من مصادر متعددة: مخلفات المواد المشعة الناتجة عن المفاعلات والمعامل والمستشفيات، وما يسقط عليها من نواتج الانفجارات الذرية أو مخلفات المنازل والمخلفات الكيماوية الناتجة عن المصانع، ويوجد مصدر جديد وإضافة للتلوث وهو كيماويات الرش التي تعالج بها أراضي المحاصيل والحدائق والغابات والحقول والكثير من هذه المواد الكيماوية يحاكي ويزيد من آثار الإشعاع المؤذية.

ومنذ بدأ الكيماويون في تصنيع المواد التي لم تبتكرها الطبيعة أبداً، أصبحت مشكلة تنقية المواد معقدة، فمعظم هذه الكيماويات ثابتة لدرجة يصعب معها تحليلها بالطرق الطبيعية، وينتج عنها رواسب أطلق عليها مهندسو الصحة اسم: الحطام.

إن الكيماويات التي تستعمل في مقاومة الحشرات أو القوارض أو الحشائش، بعضها تُعالج بها المجاري المائية عمداً لقتل النباتات ويرقات الحشرات والأسماك غير المرغوبة. فتبدأ حركة السرب البطيئة للمبيدات في المجاري المائية، حتى رحلتها الطويلة نحو البحر. وليست المياه الجوفية وحدها هي التي تصاب بالتلوث، إذ تصاب المياه المتحركة فوق سطح الأرض: الجداول والأنهار ومياه الري والبحيرات التي ترددها الحيوانات البرية والطيور. حقيقة الأمر التي يجب ألا نغفل عنها، أن الماء هو أغلى الموارد كلها، إنه يغطي الجزء الأكبر من سطح الأرض بشكل بخار، ورغم هذه الوفرة من الماء فإنه لا يكفي، فمعظم هذا الماء لا يمكن استغلاله في الزراعة أو الصناعة أو الاستهلاك الأدمي بسبب ارتفاع نسبة ما يحويه من الملح، وعلى هذا فإن غالبية شعوب الأرض إما تعاني من نقص الماء أو يتهددها خطر تناقصه. وتقول الكاتبة: في هذا العصر الذي ينسى فيه الإنسان أصوله والذي عميت فيه عيناه حتى عن أهم حاجاته ضرورة للحياة، فإن الماء بجانب الموارد الأخرى قد أصبح ضحية للامبالاة.

وفي فقرة بعنوان «مملكة التربة» ترى الكاتبة أن حياتنا متوقفة على الزراعة التي تعتمد بشكل أساس على التربة، والتربة تعتمد على الحياة وهي من خلق الحياة، من تفاعل رائع بين الحياة واللا حياة منذ أزل سحيق، تعيش التربة في حالة من التغير الدائم، فتضاف إليها مواد كثيرة، وفي الوقت نفسه فإنها تفقد مواد أخرى تستعيرها مؤقتاً الكائنات الحية، والكائنات الحية تقوم بدورها الفعال، ومن أهم هذه الكائنات وأصغرها هي البكتريا والفطريات الخيطية غير المرئية، وهي موجودة في التربة بأعداد فلكية، وبجانب الخلايا الخضراء الصغيرة المسماة بالطحالب تتكون الحياة النباتية الدقيقة في التربة، وفي التربة أيضاً أعداد ضخمة من الحشرات الأولية عديمة الأجنحة ومن أعداد ضخمة من الحلم الميكروسكوبي، وبجانب هذه الحشود كلها من الكائنات الدقيقة توجد الكائنات الأكبر حجماً وتتدرج من البكتريا حتى الثدييات، ومن هذه الكائنات ما هو ساكن بشكل مستديم في طبقات تحت التربة المظلمة، ولعل دودة الأرض هي أكثر الحيوانات الكبيرة من سكان التربة أهمية، لدورها في تكوين عضن النبات. وقد نشر «تشارلز دارون» كتاباً عنوانه «تكوين عضن النبات خلال عمل ديدان

الأرض وملاحظات على طبائعها» وقدم للعالم في هذا الكتاب أول تفهّم للدور الرئيس الذي تقوم به ديدان الأرض كعوامل جيولوجية لنقل التربة. فمجتمعت التربة يتكوّن من نسيج من الحياة المتشابكة، كل منها يرتبط بالآخر بشكل ما. لكن المشكلة التي لم تلحظ باهتمام، هي ما الذي يحدث لهذا العدد الضخم والضروري من سكان التربة عندما تنقل الكيماويات السامة إلى عالمها في شكل مباشر على هيئة معقمات، أو محمولة في مياه الأمطار التي التقطت التلوث السام في أثناء رشها خلال مظلة أوراق الغابات أو الحدائق أو المحاصيل؟ والحقيقة العارية هي أن العلماء قد أهملوا ولحد كبير هذا الموضوع المهم من إيكولوجيا التربة! يشكل الزرنينخ حالة كلاسيكية لتسمم التربة، وعلى الرغم من استبدال المحلول الزرنيني بالمبيدات العضوية المخلفة، فإن محتوى الزرنينخ في السجائر المصنوعة من الطبايق المزروع في أمريكا تزايد بنسبة تزيد عن 600% كما يقول «هنري ساترلي» فإن نبات الطبايق استمر في امتصاص الزرنينخ، فلقد تشربت حقول التبغ ببقايا زرنينخات الرصاص، وهو سمّ ثقيل صعب الذوبان، وسيستمر هذا السم في إطلاق الزرنينخ في صورته الذائبة، حيث تعرضت التربة بنسبة كبيرة من أراضي التبغ إلى تسمم تراكمي، يكاد يكون مستديماً. أما الطبايق الذي يزرع في دول شرق البحر المتوسط، حيث لا تستعمل المبيدات الزرنينية، فلم تظهر أي زيادة في محتواه من الزرنينخ.

وفي فقرة أخرى بعنوان «رداء الأرض الأخضر»: إن الماء والتربة ورداء الأرض الأخضر من النباتات، هي التي تكون العالم الذي يقيم حياة الحيوان على الأرض، ونباتات الأرض هي جزء من نسيج الحياة الذي توجد فيه علاقات دقيقة وأساسية بين النباتات والتربة، ومع النبات تطورت حياة الحيوان في تناسق مع متطلبات الأرض. تتحدث الكاتبة عن وجود مساحات كبيرة من الأراضي المنتجة للأخشاب، تُرش من الجولازالة أشجار الخشب الصلب من بين أشجار المخروطيات الأكثر مقاومة للرش، ولقد تضاعفت مساحة الأراضي الزراعية التي تعامل بمبيدات الحشائش خلال عشر سنوات، بدأت سنة 1949 فوصلت سنة 1959 إلى 53 مليون فدان، أما المساحة الكلية التي تُرش الآن، إذا أضفنا مسطحات الحدائق الخاصة والعامة وملاعب الغولف، فإنها تبلغ رقماً فلكياً. وتقول الكاتبة: إن مبيدات الحشائش الكيماوية هي لعبة جديدة زاهية، إنها تقوم بمهامها بطريقة مبهرة، وهي تعطي من يستعملها إحساساً طائشاً بالتفوق على الطبيعة.

ترى الكاتبة أن الإنسان في تقدمه نحو السيطرة على الطبيعة، ترك سجلاً محزناً من التخريب الموجه، ليس فقط ضد الأرض التي يسكنها، وإنما ضد الكائنات الحية التي تشاركها السكنى، ففي تاريخ القرون الأخيرة إبادة للجاموس، مذبحه لطيور الشاطئ قام بها الصيادون، وما يقرب من الإبادة لطائر البلشون من أجل ريشه، أضف إلى ذلك القتل المباشر للطيور والثدييات والأسماك، ولكل شكل من أشكال الحياة البرية، عن طريق استعمال مبيدات حشرية تُرش على الأرض دون تمييز! وتتحدث عن شبه إبادة للسمن وللهازار والزرزور والسنونو. والمبيدات المستخدمة هي سموم

مميّنة لأنواع عديدة من الكائنات الحية ولا تقتصر فقط على النوع المستهدف. وعن أسماك السلمون وسمك الساكور...

ومنذ منتصف القرن الماضي، اتسع مجال الرش بالطائرات، وتزايد حجمه، وقد سماه أحد البيولوجيين « بالمطر الغريب» ينهمر على سطح الأرض، ومع تطور المبيدات الحشرية العضوية الجديدة، وتزايد عدد الطائرات بعد الحرب العالمية الثانية، فقد أصبح التعرض للسموم أوسع وأكثر خطورة، وشمل البشر وغير البشر والمدن كلها دون اتخاذ أي تدابير، بل على العكس، فقد وضعت برامج للقضاء على فراشة العنبر بدلاً من المقاومة المعتدلة، كذلك حملة القضاء على النمل، فكانت الحرب الكيماوية على النمل والفراسح برش مليون من الأفدنة مما تسبب في تلوث المستنقعات والمنازل بالمزيج الزيتي، وتلف الأزهار والشجيرات وقتل الأسماك والطيور والحشرات النافعة. كذلك تلوث اللبن والمنتجات الزراعية مما زاد من سخط أصحاب المزارع، فارتفع عدد القضايا بالمحاكم، ومن ضمنها قضايا رفعها مربو النحل مطالبين بالتعويض عن خسائرهم. ثم أوقفت برامج مكافحة ونسي رجال مكافحة الحشرات آفات النبات وانشغلوا ببرامج طموحة لمكافحة نمل النار بحجة أن النمل يهدد الصحة والحياة، وقد يؤدي إلى الموت، إلا أن مسؤولي الصحة أكدوا أنه لم تسجل وفيات بهذا السبب. رأى الدكتور «بيكر» رئيس وحدة الحياة البرية: إن عشائر طائر الحجل تتعايش مع عشائر نمل النار، وأن طيور الصيد تتزايد، ومثل هذا الوضع لم يكن ليحدث لو أن نمل النار يشكل أي تهديد خطير للطيور البرية. فقد ثبت أن الدلديرين والهيبتكلور لهما تأثيرات سُمّية أضعاف سُمّية الـ (د. د.ت) وتأثيرها على الحياة البرية والمستأنسة شديد السمية، فقد لوحظ هلاك للدواجن، وإصابات في العجول، وانخفاض في أعداد طيور السمان، وطيور الرومي البرية. قام الدكتور «كلارنسكوتام» وهو أكثر البيولوجيين شهرة، بزيارة بعض المزارع المتضررة، وقد بلغه المزارعون عن الأضرار التي لحقت بمزارعهم، قال له أحد المزارعين، وكان (في ذروة غضبه من رجال مكافحة لأنهم، كما قال، قد دفنوا أو تخلصوا من تسع عشرة جثة من أبقاره قتلها السم، وماتت عنده عجلات لم تتغذ منذ ولادتها إلا على اللبن.، وقد أنكرت وزارة الزراعة بشدة حدوث أيّ خسائر في حيوانات المزرعة، بسبب برنامج مكافحة رمل النار. وتمّ لاحقاً نبذ أي برنامج إبادة واسع (رش بالطائرات) وبدء باستخدام طرق أكثر عقلانية، لا سيما أن النمل يُنشئ أوكاراً من السهل الوصول إليها ومقاومتها، أو باستخدام الطرق الميكانيكية بآلات تسوي الأرض أولاً ثم تعالج الأعشاش مباشرة بكفاءة من 90% إلى 95% وتكاليف أقل بكثير من الطرق التي اتبعت خلال برنامج الإبادة الواسعة.

وليس الرش على نطاق واسع هو السبب الوحيد في تلوث عالمنا، بل إن التعرض المحدود لكن المتكرر للكيمائيات السامة من الولادة حتى الموت، ليس إلا كارثة، تؤدي إلى تراكم السموم داخل أجسامنا، أي إلى تسمّم متراكم، فعلى سبيل المثال، إن المبيدات الحشرية المستعملة في المنازل والمعروضة بشكل مفر في المحلات التجارية، والتي يسهل استعمالها في المطبخ، وذات ملصقات لقتل البق أو العث أو الناموس أو البراغيث، فإنه يكفي أن تضغط على صمام العبوة حتى تنتشر سحابة من الدرديرين

تنتشر في كل شق أو ركن أو زاوية في المنزل. كذلك بالنسبة للحدائق فقد صنعت أنواع كثيرة من السموم بحجة العناية بالحدائق، وكل من يقصر في استعمالها يُعدُّ متهاوناً، لكن الاستعمال الكثيف أدى إلى وقوع بعض حالات الوفاة، مما دعا إلى الحد من استعمالها في الحدائق المنزلية. ومهما تغيرت طرق العناية بالمصطلحات الخضراء، بوساطة المبيدات الكيماوية العضوية، فالخطورة على البستاني وعلى صاحب الحديقة، كبيرة لا سيما باستعمال خرطوم الرش، والذي من شأنه أن يلوث مصادر المياه أيضاً، ولم تكن أجهزة الرش التي ركبت على ماكينات الحش أقل خطورة، أما بالنسبة لبقايا الكيماويات في غذائنا، فقد تبين بعد إجراء فحص على وجبات المطاعم أنها تحوي (د. د.ت) ولكي نجد غذاء خالياً منه يبدو أنه يجب الاتجاه إلى بلاد بدائية لم تصلها نغم المدينة، كما في الأسكيمو. وهنا تؤكد الكاتبة على ضرورة وجود مصلحة غذاء متيقظة لديها قوة من المفتشين أكبر بكثير، فهذا النظام الذي يسمم غذاءنا ثم يراقب النتيجة، يذكرنا بالفارس الأبيض الذي فكر في (خطة يصبغ فيها الفرد لحيته باللون الأخضر، ثم يستعمل مروحة ضخمة كي لا يراها أحد).

تؤكد كاتبة الربيع الصامت أن مشكلات الصحة البيئية الجديدة تخلقها الإشعاعات التي يسببها تيار الكيماويات التي تعم العالم الذي نعيش فيه، وتؤثر فيه بشكل مباشر وغير مباشر، فالمبيدات لها القدرة أن تجعل أنهارنا بلا أسماك وحدائقنا وغاباتنا صامتة بلا طيور، ولأن الإنسان جزء من الطبيعة، فيصعب عليه النجاة من هذا التلوث المحتوم. فهناك أيكولوجيا العالم داخل أجسامنا فزي العالم اللامرئي، تنتج المسببات الصغيرة آثاراً هائلة، ومنها تخزين الجسم للمواد السامة، الناتج عن هذه المواد سواء د. د.ت أو الكيماويات الفوسفورية، فقد تبين أن تأثيرها على الجهاز العصبي وعلى الوظائف الحيوية كالكبد، فيصبح الجسم أعزل بلا خط دفاع. وقد لوحظ ارتفاعاً كبيراً في التهاب الكبد خلال ستينيات القرن الماضي وما زال مستمراً. كما أنها تؤثر في الجهاز العصبي المركزي في المخيخ وقشرة المخ الحركية، وقد لا تظهر آثار التسمم على جميع الناس بالأعراض نفسها، فهناك عامل الحساسية الفردية والنساء أكثر حساسية من الرجال، والصغار أكثر من الكبار، لكن المشكلة موجودة وتؤثر في أعداد كبيرة في المجتمع، ويتزايد تعقيد مشكلة التسمم بالمبيدات كلها لحقيقة أن الإنسان بعكس حيوان المخبر يتعرض لكل أنواع السموم مجتمعة وليس لواحد بمعزل عن الآخر. ويمكن أيضاً أن يتغير أثر المادة الكيماوية، ذات الطبيعة التي يُفترض أنها مأمونة، عن طريق عمل مادة أخرى، وتشير الكاتبة إلى الفوسفات العضوية وقدرتها على إحداث تلف عضوي مستديم للأنسجة العصبية وتحدث اضطراباً ذهنياً أو شللاً متأخراً، وقد تكون كل نتائج التسمم بالفوسفات العضوية مقدمة إلى الأسوأ، فيبدو أنها ترتبط بالأمراض العقلية، من تلف الذاكرة إلى الشيزوفرينيا والانطواء.

كل هذه النتائج إن هي إلا ثمن ثقيل ندفعه مقابل إبادة مؤقتة للحشرات، لكنه ثمن سيستمر طالما بقي إصرارنا على استعمال كيماويات تهاجم الجهاز العصبي مباشرة.

يمكننا ان نتفهم أخطر الآثار وأبعدها التي تكتنف إدخال كيماويات غريبة إلى بيئتنا الداخلية؛

خلايا جسمنا المكونة من تركيبات دقيقة. هكذا بدأت البحوث الطبية في العمل على الخلية والطاقة الناتجة عنها والتي هي الجوهر الأساس للصحة بل للحياة. فالخلية الحية كالهلب تصرف الوقود وتنتج الطاقة، وهذه العملية دائمة التدفق وهي إحدى حلقات الطبيعة التجديدية، وغذاؤها هو الوقود الكربوهيدراتي في صورة سكر جلوكوز، ويمر هذا الجزيء في سلسلة من التغيرات الكيماوية الدقيقة، وفي كل خطوة منها تنتج طاقة وتطلق فضلات ثاني أكسيد الكربون والماء، وبذلك يصبح الجزيء جاهزاً للارتباط مع جزيء آخر ليبدأ دورة جديدة، فالخلية تعمل كمصنع للكيماويات وهي واحدة من عجائب عالم الحياة، تتم عملية الأكسدة داخل حبيبات دقيقة تسمى الميتاكوندريا التي هي حزم بالغة الدقة من الأنزيمات والطاقة الناتجة عن الأكسدة تسمى «أ. ت. ب» وهو جزيء فوسفاتي يذكر بالبطارية الفارغة وفي أثناء تردد الإلكترونات في سرعة هائلة تبدأ هذه البطارية الفارغة بالشحن ويغدو اسمها «أ. د. ب» فتصبح بطارية مشحونة، وهكذا تستمر الخلية بالانقسام وتنتج الأنسجة والأعضاء فإذا حدث أي خلل تظهر التشوهات في الجنين الأدمي الذي يحرم من الأوكسجين. وتجدر الإشارة إلى هذه الكوارث والتشوهات. وتوجهت الدراسات نحو قياس آثار الإشعاع وشركائه (الكيماويات) المسؤولين عن تشوهات وعيوب ظهرت في أطفال الغد، وإن تخزينها في الخلايا من شأنه التأثير على الهرمونات، مما يحدث خللاً في الخلايا وتصبح خلايا خبيثة في الجينات، تؤدي إلى التدهور الوراثي بسبب عوامل من صنع البشر، وهذا أخطر ما يهدد مدينتنا. وبين الكيماويات التي تستخدم كمبيدات حشرية أو نباتية تتميز بالقدرة على إتلاف الكروموزومات أو التدخل في الانقسام الطبيعي للخلايا أو إحداث طفرات. والإضرار بالمادة الوراثية قد يؤدي إلى مرض الفرد الذي تعرض له أو قد تظهر في الأجيال المستقبلية. ومن هنا بدأت معركة الكائنات الحية ضد السرطان في بيئة طبيعية تتعرض لتأثيرات أصلها من الشمس (الأشعة فوق البنفسجية - تسبب السرطان) أو العواصف أو طبيعة الأرض كالإشعاعات الناتجة عن بعض الصخور أو الزرنينخ الذي يغسل التربة أو الصخور ليلوث مصادر الغذاء والماء. هذه العوامل المعادية وجدت قبل ظهور الحياة. وصلت الحياة إلى تكيف مع القوة المدمرة وذلك ببقاء الأشكال الأكثر مقاومة والتخلص من الأقل تكيفاً. ما تزال العوامل الطبيعية المسببة للسرطان سبباً في ظهور الأورام السرطانية، وبظهور الإنسان بدأ بخلق المواد المسرطنة الصناعية، مثل: السناج (الهباب). إن تاريخ السرطان تاريخ طويل، فمثلاً إن سرطان الخصية في عام 1775 انتشر بين عمال المداخن، وسرطان الجلد انتشر بين العمال في مصانع صهر النحاس والقصدير بسبب أدخنة الزرنينخ، وكثيرة هي أنواع السرطان فيما قبل العصر الصناعي، وأصبحت أوسع انتشاراً في العصر الصناعي، فانتشر سرطان الدم بين الأطفال. والحقيقة أن بعضها يوجد في الأطفال عند الولادة أو قبلها. والزرنينخ من أوائل المبيدات المسرطنة، والرابط بينهما تاريخي، كذلك فقد أنتج الـ: (د. د. ت) أوراماً مشبوهة في الكبد، وأنتجت المبيدات الكيماوية الجديدة سرطان العظام والغدد. إن زيادة الوفيات في سرطان الدم في كل الأعمار ترتفع في كل عام بمعدل 4-5% في السنة.

وضع البروفيسور «أوتوفار بورج» البيولوجي الألماني نظرية عن نشأة الخلايا السرطانية، يقول: إن الإشعاع يتلف تنفس الخلايا الطبيعية فيحرمها من الطاقة، ويحدث هذا بسبب جرعات دقيقة متكررة، فتحاول الخلايا أن تعوض النقص في الطاقة، فتلجأ إلى التخمر والذي هو الطريقة البدائية لإنتاج الطاقة، ويستمر الصراع من أجل الحياة عن طريق التخمر، وفي هذا الصراع لا يستمر من الخلايا إلا الأكثر مقاومة وتلاوماً وفي النهاية تصل الخلايا إلى النقطة التي ينتج فيها التخمر كمية الطاقة نفسها التي ينتجها التنفس، وعند هذه النقطة يقال إن الخلايا السرطانية نشأت من الخلايا الطبيعية. وقد تسبب مواد غير مسرطنة السرطان بطريقة غير مباشرة، فهي تساهم في الإخلال بالعمل الطبيعي لبعض أجزاء الجسم، ومن الأمثلة عليها: سرطانات الأجهزة التناسلية، ويفسر كالتالي؛ الخلل في اتزان هرمونات الجنس وسببه قد يكون خللاً في قدرة الكبد على المحافظة على المستوى الصحيح لهذه الهرمونات. والهيدروكربونات الكلورينية تمثل أحد العوامل المسببة للسرطان غير المباشر، وخلاصة القول فإننا نجد عالمنا مليئاً بالعوامل المسرطنة وبالمستودعات الضخمة من المواد المسرطنة.

وحسب عالم الأحياء الهولندي «ك. برويبر» يقول: إن عالم الحشرات هو أكثر ظواهر الطبيعة مدعاة للعجب، فلا يوجد فيه المستحيل. المستحيل هنا يحدث على جبهتين، حسب المؤلفة، عن طريق الانتخاب الوراثي، تكوّن الحشرات سلالات مقاومة للمبيدات، والثانية هي حقيقة أن هجومنا الكيماوي يضعف الحصون اللازمة للبيئة نفسها، وهي دفاعات صممت لتكبح جماح الأنواع المختلفة، وفي كل مرة تتكسر فيها هذه الحصون تتدفق من خلالها حشود من الحشرات.

حقيقة الأمر، وبعد عرض كارثي عما يفعله الإنسان في البيئة، والأخطاء المتعمدة وغير المتعمدة التي يقوم بها، يعدُّ هذا الكتاب فاتحة قرع الأجراس والتنبية إلى المخاطر الناتجة عن هذا العدوان. ■

* الكتاب: ترجمة ماوية الخيّر، صادر عن الهيئة العامة السورية للكتاب.

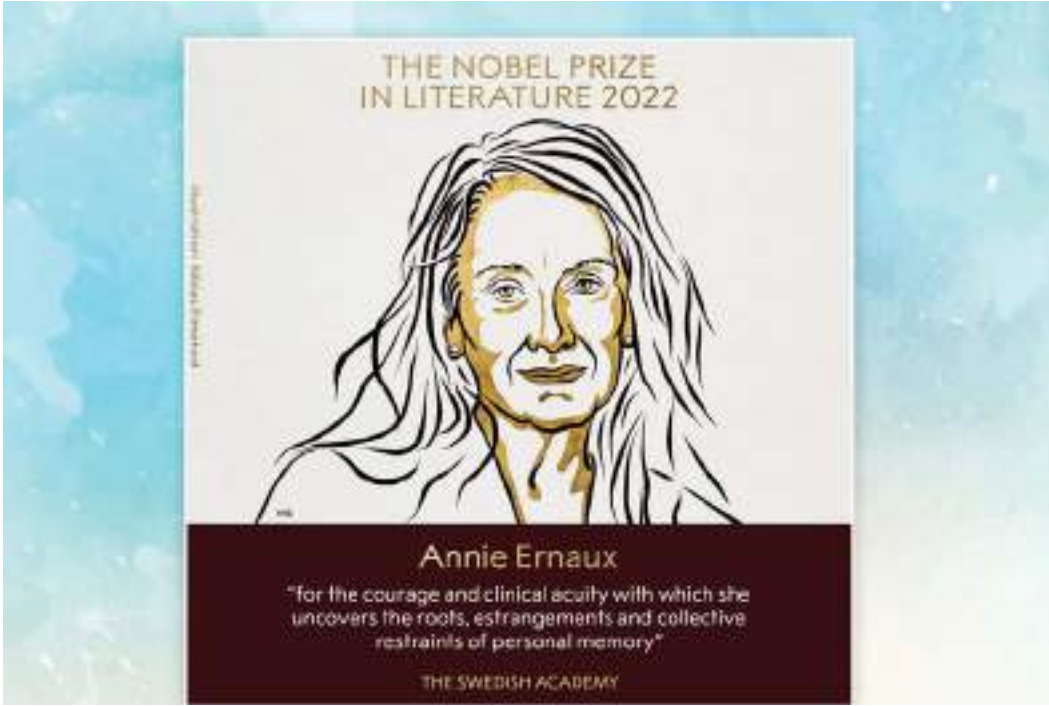


د. وائل بركات •

«أنيا إرنو...» راوية السيرة الذاتية النسوية والطبقية تفوز بنوبل للآداب

أثار قرار الأكاديمية السويدية بمنح جائزة نوبل للآداب هذا العام للروائية الفرنسية أني إرنوزوبعة نشطة من النقاشات وتضارب الآراء في الحياة الأدبية والثقافية الفرنسية والعالمية. وربما لم يسبق لهذه الجائزة أن أحدثت مثل هذه الضجة التي لا تزال أصدائها تتماوج إلى الآن. صحيح أن النقاشات والجدالات والمعارك الأدبية مظهر حاضر في الحياة الأدبية الفرنسية، والصراع بين القديم والحديث سمة مشتركة للأجيال الأدبية في فرنسا ويستشهد عليها في القرن الماضي بموقف السرياليين من أناتولي فرانس وصراعات النقد التقليدي مع النقد الحديث الذي انطلق من الجامعات، إلا أن ما حصل مع أني إرنو كان أكثر حدة مما هو متوقع. التساؤل المبدئي الذي يثار حول هذا الجدل هو: هل من الطبيعي أن يقف فرنسيون ضد نيل كاتبة منهم الجائزة؟ أليس من الطبيعي أن يلاقي هذا التكريم شعوراً جماعياً بالفرح والاعتزاز الوطني كما يحدث في دول أخرى؟ بالعودة إلى السنوات القريبة نرى أن آراء متضاربة احتلت مساحات في وسائل الإعلام فرحة أو منتقدة فوز باتريك موديانو (2014) و جان-ماري لوكلزيو (2008) و غاو شينغجيان (2000).

• أ. د. محاضر في جامعة دمشق.



جدل الاستحقاق

تناولتها الأقلام كثيراً، ومنهم من رفعها إلى أعلى المستويات ومنهم من وضعها في الحضيض، منهم من قدسها ومنهم من دنسها. عشاقها استخدموا تعبيرات الفرح لإظهار محبتهم وقناعتهم بها وشكرهم للقائمين على الجائزة. أما مناهضوها فصخب الكراهية ضدها ارتفع إلى مستويات عالية وغير مألوقة وموقف هؤلاء مبني على خلفية سياسية بالدرجة الأولى، فها هم أنصار أقصى اليمين ومتطرفو الوسط يستهدفون الكاتبة ولا يعترفون بموهبتها، وينظرون إليها بوصفها يسارية مكروهة وممثلة للثقافة الملتزمة المملة. ووصفها بعضهم بأنها من كاتبات الـ «ووكي»، أي الكتابة التي تختص فقط بتحسس الظلم الاجتماعي والسياسي في بلد ما. وللتقليل من شأنها اطلقوا عليها ما يطلق على أي شخص يريدون شيطنته في المجتمعات الغربية، فألصقوا بها تعبيرات الإدانة المعروفة من مثل «إسلاموية-يسارية»، «معاداة السامية» وذلك بسبب لموقفها المناهض للكيان «الإسرائيلي». الحملة المنظمة من جهات متعددة استهدفت الكاتبة الملتزمة لما أسهمت به من تسليط الضوء في كتاباتها على الواقع الاجتماعي القاسي الذي لا يُذكر في الأعمال الأدبية ذات اللغة العالية، وعلى البيئات المهمشة المنسية التي يتجاهلها أدب النخبة، وعلى الناس المستضعفين الذين لا يذكركم أحد. استحضرت إرنو هؤلاء الذين من حقهم الطبيعي أن يكونوا ممثلين في الأدب في كل أعمالها، رافقوها في كل رواية وأعلنوا عن حضورهم في ظل نسيان متعمد. وهذا ما أثار نقمة عليها عند أطراف معينة لها موقف طبقي معاكس. هذا الأدب الذي يغوص في الواقع ويحيط به ليس أدباً أدنى مستوى، وإنما هو أدب يحضر في الأعماق ليكشف عن الكامن والمستور. فمع روايتها «المكان» تحولت

إرنو بصورة نهائية إلى الحفر في الواقع ونبش خفاياه، وتخففت من الخيال واللغة الأدبية الرفيعة لتنعش الواقع ومآسيه. وربما يذكر هذا بحديث كافكا الذي أراد أن يحفر تحت الأرض في قصته «الجر» 1923 لأن كتاباته - كما رأى - كانت فوقها.

قد يكون الجدل الدائر في الأوساط الثقافية الفرنسية قبل غيرها من العالمية عائد إلى أفكار إرنو وقناعاتها السياسية اليسارية التي يعتقد منهاضوها أنها ولّت من غير رجعة، أو إلى موضوعات أعمالها الروائية بطبيعتها المباشرة الحاملة لتفاصيل حياة الإنسان العادي بشفافية دقيقة تبدو معها وكأنها تصوير بالأشعة السينية للمشاعر الطبقيّة في المجتمع الفرنسي، ولعلاقة المرأة بالرجل بأشكالها المختلفة لاسيما شكلها الحميمي، أو ربما - من جانب آخر - إلى انحيازها لأسلوب بسيط في الكتابة يقترب من توثيق الحياة اليومية التي تفخر بالتعبير عنها، ويبتعد عن الاهتمام بأشكال الزخرفة والمجازات والإيحاءات التي أعلنت تخليها عنها.

لاشك أن إرنو خطت لنفسها مسيرة أدبية حافلة استحققت فيها جوائز وتقديرات ليست قليلة منها فوزها بجائزة رونودو وجائزة فرانسوا موريك، وجائزة مارغريت ديوراس، والأكاديمية الفرنسية وغيرها قبل نيلها أخيراً نوبل للآداب. لذلك تسقط دعوات منتقدي فوزها بالجائزة الذين أرادوا تشويه صورتها وأعمالها بتهم من مثل رهن الأدبي بالسياسي، أو التقليل من مستوى الأدبية في أعمالها، مثلما حاولوا أيضاً التعبير عن عدم موضوعية جائزة نوبل. لكن بعضهم رد على هذه الانتقادات بالإشارة إلى أن المؤسسات الأدبية ترسخ القيم الفنية الإبداعية، والجوائز التي تمنح من قبلها هي وجه للتعبير عن هذه القيم. والمعروف أن جائزة نوبل هي السلطة الأعلى التي تقدر الأعمال الأقرب إلى معاييرها لتعلنه فائزاً بجائزتها. إنها بذلك المعيار الذهبي للنتاجات الأدبية.

وجه آخر لهذا الاعتراض على نيلها الجائزة يمثلها وقوفها ضد العنصرية. فقد ناهضت المواقف العنصرية واستهجنّت التوجهات الكولونيالية للسياسات الغربية. كما وقفت مع الشعب الفلسطيني في وجه الاحتلال الصهيوني، وهاجمت سماح الدولة الفرنسية بإقامة مهرجان ثقافي مشترك مع «الإسرائيليين» بما يعنيه ذلك من ترويح للجلاد وتبييض لسمعته على حساب الضحية. ولأ تُسى هنا حملتها لمقاطعة مهرجان الأغنية الأوروبية الذي أقيم في «تل أبيب» عام 2019. ويذكر هنا أن مثل هذه المواقف تعرّضها لتهم العنصرية أو معاداة السامية. وفيما يخص السياسة الفرنسية الداخلية هاجمت سياسات الرئيس الفرنسي ماكرون، وناصرت مع شخصيات فرنسية بارزة حركة السترات الصفرة منذ بدايتها في العام 2018. وفي مواقفها الأخيرة، انضمت إلى تجمع قوي من الفعاليات والفئات الاجتماعية والنقابية يدعم ممثل اليسار الفرنسي جان لوك ميلانشون في الانتخابات الرئاسية التي جرت في أيار 2022.

لكن رأي الأكاديمية السويدية للجائزة، الذي يصفه بعضهم بأنه منحاز وتحكمه السياسة أحياناً، كان بعيداً، هذه المرة على الأقل، عن كل هذه الاعتراضات المتوقعة، ومنح أني إرنو ذات الإنتاج الغزير نوعاً ما والتوجهات السياسية الملتزمة باليسار وبالكتابة البسيطة جائزته لهذا العام لأنها - كما يرى

بيان الأكاديمية- تلقي الضوء من زوايا مختلفة على الحياة الإنسانية المعروفة بالتباين والاختلاف مثل: اختلاف الجنس واللغة والطبقة الاجتماعية. إرنو عبّرت عن سعادتها لنيلها أهم جائزة في العالم، وعدّتها مسؤولية كبيرة مثلما هي شرف عظيم كونها تعني شكلاً من أشكال الإنصاف والعدالة في هذا العالم تجاه المرأة التي كان موضوع إنصافها الهم الرئيسي لمجمل أعمالها. فقد عايشَت هذا الظلم في سيرتها الذاتية التي عاشتها ضمن بيئة اجتماعية بسيطة منذ ولادتها في مقاطعة النورماندي بفرنسا عام 1940.

سيرة حياتها مبسّطة في أعمالها

من المعروف أن إرنو استمدت موضوعات أعمالها من حياتها الشخصية وتجاربها الحياتية. وهي تشكل بمجملها التطورات المتلاحقة لحياتها الشخصية التي عاشتها مع أسرة فقيرة تعاني من سوء أوضاعها الاقتصادية، وربطتها بالتحوّلات الاجتماعية التي شهدتها فرنسا خلال عقود من الزمن، لاسيما ما يخص الجوانب الاقتصادية والفروقات الطبقيّة ووضع المرأة في المجتمع. أي أنها استطاعت أن تقدم الذاكرة الجمعية من خلال ذاكرة فردية. وسنضيء في هذه العجالة أهم أعمالها.

اختارت في روايتها الأولى «الخزائن الفارغة» 1974 أن تكتب من وجهة نظر طالبة جامعية عن سنوات طفولتها ومراهقتها في النورماندي وقصة حملها الحقيقية التي عاشتها عام 1964 عندما كانت في جامعة روان تدرس الأدب، وانتظارها إجراء عملية إجهاض لم تكن مسموحة قانونياً آنذاك. كما تنقل التحديات التي عاشتها في ظل الظروف الاجتماعية الصعبة والتفاوتات الطبقيّة المذلة. وستعود إلى موضوع الإجهاض ثانية وبصورة موسعة في روايتها «الحدث» التي أصدرتها عام 2000. وسيظل هذا الموضوع مسيطراً على ذاكرتها وأيامها ويتردد في أعمالها اللاحقة.

لكنها تستعيد طفولتها ثانية بصورة موسعة في عملها «المرأة القوية» 1981، وتسرد أحداثها دون قيود، وتشرح فيها نشأتها في محيط من النساء المستقلات بتفكيرهن والبعيدات عن النمطية الاجتماعية السائدة مثل أمها وجدتها وخالاتها وغيرهن. لقد فتحن عينيها على عدم المساواة الاجتماعية بين الرجل والمرأة، وأفادت منهن لتروي حياة الفتاة التي عاشتها خلال سنوات الستينيات معتمدة علم الاجتماع في توصيفها لها. تعلن إرنو في هذه الرواية نفسها مدافعة عن النسوية بقوة واقتدار، واستطاعت تحفيز النساء للوقوف ضد الهيمنة الذكورية على المرأة.

في «المكان» 1983 تقدم إرنو سيرة ذاتية اجتماعية مجزأة وفق ذكريات مراحل طفولتها. وتتوقف فيها عند شخصية أبيها الذي كانت وفاته دافعاً لكتابة هذا العمل. بدأت معه أسلوبها الجديد في الكتابة الموسومة بـ «الكتابة البسيطة» المباشرة المبنية على الجمل العادية والمفردات الضرورية البعيدة عن الحذلقات اللغوية. تبدأ الرواية بموت الأب، ثم تعود إلى مراحل حياته كما عاشها واقعياً وتقلها بصورة محايدة ولغة بسيطة دون تغييرات وزيادات. وفعلت الأمر ذاته حين وفاة أمها. فكتبت روايتها «امرأة» 1987 التي استعادت فيها ذكرياتها معها وسردت أبرزها بحيادية أيضاً دون أن تخفي إعجابها بها كونها امرأة متحررة لم ترضخ لإملاءات الذكورة المجتمعية.

بعد ذكريات مع الأب والأم تعود إرنو في «عاطفة بسيطة» 1992 لتكشف عن علاقتها الغرامية القوية برجل أعمال متزوج تعود جذوره إلى أوروبا الشرقية وليصبح محور حياتها. رغبت البطلة الانخراط بالحياة الثقافية، لكنها اقتنعت مؤخراً أن عليها أن تلبى أيضاً رغبتها الطبيعية في عيش حالة حب تتجاوب مع احتياجاتها الطبيعية. وأخذت مخيلتها تحلم كنظيراتها بالترف والغنى والثروة وامتلاك الفساتين ومعاطف الفرو والفيلا على شاطئ البحر والسيارات وغيرها من الأحلام. ترصد في هذه الرواية ببراعة لافتة حالة العاشق الذي يلزم الهاتف بانتظار رنته، ونفاد صبره قبل لقاء قريب، واختلاط الفرحة بالألم وهي تعيش هذه العلاقة.

تجعل إرنو من روايتها «العار» 1997 مسرحاً للأوضاع الاجتماعية السيئة التي تعيشها أسرته كباقي أسر الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها. وتشد القارئ منذ البداية بعبارة صادمة تقول إن والدها حاول قتل أمها بعد ظهيرة هذا اليوم. والسبب هو تردي وضعهما الاقتصادي وإحساسهما بالعار منه. لذلك سيسعيان إلى تحسينه بعمل مستمر وشاق كي يضمنوا حياة أفضل. ويتساق هذا الموضوع مع الصراع الذي يدور في داخل الفتاة بين تربية دينية تريدها الأم وأخرى متحررة يتمسك بها الأب.

تعود إرنو إلى موضوع الإجهاد بصورة موسعة في روايتها «الحدث» 2000، فتفصّل قصتها معه وهي في سن الثالثة والعشرين، وكانت لا تزال طالبة في الجامعة. وبما أنها لم تكن راغبة أو قادرة على الاحتفاظ بحملها واجهت صعوبات كثيرة في الإجهاد الذي كان القانون يمنع. روت المعركة التي خاضتها هذه الطالبة مع محيطها من أطباء ضعيفي النفوس أو صديقة لا تعرف كيف تساعد، فوصلت حدود الموت. وترافق شرح تفاصيل هذه المعركة وتطوراتها مع قضايا أخرى لا تغيب عن بال الكاتبة مثل التحيز الجنسي والتفاوت الطبقي والعنف والوحدة والرغبة والمتعة والحرية. تقول إرنو عنها: «لقد انتهيت من التعبير بالكلمات عن تجربة تبدو لي إنسانية بجميع جوانبها تشمل الحياة والموت، الزمن، الأخلاق والممنوع، القانون. إنها تجربة ميادانها الجسد من أولها إلى آخرها». أمام إصرارها على الإجهاد تتساءل الروائية دون أن تتمكن من الإجابة: لماذا يمنع الإجهاد؟ هل لأنه سيء؟ أم أن السوء موجود في مخالفة القانون؟

لكن مرحلة الطفولة وصور مآسي ما بعد الحرب والمرحلة اللاحقة تعود لتلجّ عليها. فتتسج منها إرنو رواية عنوانها بـ «السنوات» 2008 تمتد على أكثر من ستة عقود زمنية. يعدّ بعض النقاد هذه الرواية الأهم بين أعمالها لما فيها من شمول وإبهار وامتداد يغطي مرحلة طفولتها خلال سنوات الحرب العالمية الثانية والسنوات التي تلتها مروراً بعرض الحالة الاجتماعية والاقتصادية لوالديها، وسنوات المراهقة، ثم المشكلات الحيوية التي واجهها المجتمع في سنوات الستينيات وكانت مفصلة في المجتمع الفرنسي - كما في المجتمعات الأوروبية الأخرى - مثل التعليم والتحرر والظلم والحب والجنس والأزمات الاقتصادية وموضوعات النسوية وغرس الروح الاستهلاكية في المجتمع، ثم مناقشة التطورات التي دخلت حياة الناس بمختلف فئاتهم والمفاهيم الاجتماعية التي كانت موضع استنكار والاستبداد الأسري وغيرها من

الموضوعات التي كانت مطروحة حتى زمن كتابة الرواية عام 2000. لا يحتاج القارئ كبير جهد لاكتشاف الصلة الوثيقة بين الرواية وعلم الاجتماع، فبقدر ما كانت إرنو روائية كانت أيضاً عالمة اجتماع ومؤرخة لحقبة زمنية عاشتها بتفاصيلها عقلاً وجسداً وإحساساً، وتجاوبت مع تبدلاتها المستمرة، فهي تعبر عن ذاتها ومسيرتها المرتبطة بالمجتمع الفرنسي ولو استخدمت ضمير المفرد الغائب في سرد أحداث الرواية. لقد سعت الكاتبة إلى جمع صور مختلفة للحياة التي عاشتها على امتداد هذه السنوات وربطت بينها بمسار سردي هو مراحل حياتها الفعلية ضمن أسرة متواضعة وفي مجتمع شهد نقلات حياتية مفصلية، فجسّد الفرد في الرواية حركة الأجيال اجتماعياً.

بقيت ذكرى الفتاة المراهقة والطالبة الجامعية بأبعادها الاجتماعية مصدراً خصباً لأنني إرنو. وعادت لتسجل في «ذاكرة فتاة» 2016 تجربتها الجنسية الأولى وهي في سن الثامنة عشرة. حققت في ذلك العام تجربة ناضجة حين أمضت ولأول مرة ليلتها مع رجل. عرضت لهذه المرحلة الفاصلة التي لا تنسى من حياتها، واستفاضت بذكر أثارها المستمرة على جسدها والمستقرة في روحها وحياتها. أرادت في هذه الرواية السيرية أيضاً أن تتزع - كما صرحت إرنو لكن دون نجاح - من ذاكرتها تلك الفتاة التي كانتها، وقالت: «أردت أن أنسى هذه الفتاة. أن أنساها حقاً، إنني لا أرغب في الكتابة عنها بعد الآن، لا أفكر حتى في أنني يجب أن أكتب عنها، وعن رغبتها وجنونها وحماقتها وكبريائها، وجوعها ودمها الجاف، لكنني لم أتمكن أبداً».

آخر روايات إرنو

بعد انقطاع دام ست سنوات تعود إرنو لتكتب رواية قصيرة من 37 صفحة بعنوان «الشاب» المنشورة في أيار 2022. تستعيد فيها إرنو تجربة حب عاشتها قبل عقود من الزمن مع شاب يصغرها بثلاثين عاماً. إنها تكتب عن المتعة التي لا تغفل عن عمر الجسد لكنها لن تتضاءل بسببه، وعن ذكريات شبابها التي تبشها هذه العلاقة وتعيدها إلى الحياة، وعن نظرة الناس تجاه العاشقين التي ترى في تجربتهما خروجاً على المألوف، تقول الرواية: «أمام علاقتنا التي أقمناها بصورة علنية أصبحت نظرات الآخرين إلينا وقحة وغريبة جداً كما لو كنا أمام ثنائي مخالف للطبيعة». وتضيف على لسان شريكها: «ذات يوم، في فيكام، على الرصيف بالقرب من البحر، كنا نسير وأيدينا متشابكة. من طرف إلى آخر، كانت أعين الناس الجالسين على الرصيف الخرساني على طول الشاطئ تلاحقنا. شرح لي A أننا مرفوضون أكثر من زوجين مثليين». و A هو حبيبها الذي لم تمنحه اسماً صريحاً واكتفت بحرف يرمز إليه. ويشار هنا إلى أنها ذكرته بمرور سريع في روايتها السابقة «السنوات» 2008 واكتفت بذكره بالحرف نفسه. أما اليوم فتخصه برواية كاملة دون أن تفصح عن اسمه الأول، لكنها تذكر أنه كان طالباً يسكن مدينة روان - حيث عاشت إرنو وأنهت تعليمها الجامعي - عندما تعارفا ونشأت بينهما هذه العلاقة.

قد لا تكون الغرابة في فارق العمر فقط، بل ربما تتعداه إلى تشريح الكاتبة لعلاقتها بالزمن واسترجاعها لذكرياته وأحداثه في الوسط الاجتماعي الشعبي الذي عاشت فيه. تذكرها طريقة عيش شريكها الشاب

بذاك الوسط وبأصولها الطبقية التي لم تتخلَّ عنها يوماً، لكنها، وللمفارقة، تبدو أمامه الآن وكأنها تنتمي إلى الطرف الآخر لتلك الأصول، أي أحست بأنها تنتمي في علاقتها معه إلى الطبقة البرجوازية. تعترف الكاتبة بذلك وتعيده إلى الفوارق بينهما فتقول في مقابلة لها: «نعم، وذلك بسبب الفارق في العمر وفي الوضع الاجتماعي وفقر الشاب الجذاب. أردت أن أكون المرأة التي تعطي الكثير من الأشياء. هذا يعني -كما يعرف الجميع- أن تعطي يعني أن تأخذ أيضاً. للجانب الاقتصادي أهمية كبرى وأردت الاهتمام به أكثر، وتأكيداً ليس بهدف إشهاره، وإنما بهدف إرساء أسس للعلاقة». إن شباب هذا الرجل لا يذكرها بعمرها ولا ينسيها إياه. إنه يعيدها فقط إلى تجاربها الشخصية أيام شبابها ليتحول إلى تجسيد لذاكرة تلك الأيام بمراحلها المختلفة. وربما أرادت من ذلك تثبيت إحساسها بها.

وقد يكون عملها «الشاب» صدى لروايتها السابقة «عاطفة بسيطة» حيث يعبر العملاق عن موضوعات أثرية عند الكاتبة كالحب والوقت والذاكرة والتمييز الطبقي. وتتمسك فيهما بالوقائع الغرامية والجنون الجنسي المرتبط بالمشاعر الإنسانية، لكنها تتجح في «الشاب» بإظهار دوافع الملل الذي يرافق هذه العلاقات. تدرك الكاتبة أن علاقة الحب التي تربطها بشباب يصغرها بثلاثة عقود من الزمن ستشير استفزازات اجتماعية رافضة لها. فهي بالطبع علاقة تخترق السائد ثقافياً واجتماعياً وزمنياً لأن A استطاع -كما تقول إرنو- انتزاعها من جيلها لكنها لم تنتقل إلى جيله. وبينما تترك إرنو نصها حرية الإسهاب في تفاصيل الحياة اليومية التي تغذي عندها الرغبة والكتابة نجدها تكشف أيضاً وبدقة عن الروابط التي تجمعها مع الشاب. إنها تنبش من الأعماق بواطن ذاتها الباحثة بإصرار عن عيش رغبتها، وتدع نفسها تعيش هذا الشغف غير المألوف في الحياة الاجتماعية بحرية يأسئة لكنها تامة.

الكتابة البسيطة

واحد من المآخذ التي يسجلها عليها خصومها يقول إن كتابتها تعود إلى الكلام العادي أكثر مما تنسب إلى الأدب. فهي خالية من الروح الأدبية، وتنفس الآلية اللغوية المعروفة، والقوالب المتداولة والطرق المشهورة لأشكال التفكير والتعبير. يصفونها بالكتابة البسيطة السطحية البعيدة عن نكهة الأدب، وبالكتابة التوثيقية المحرومة من التخيل والإبداع، فهي أقرب إلى تسجيل الوقائع من ابتداعها. جملها جافة وعباراتها غير متألفة، تدققها ضعيف وتمككها واضح.

لا تتكرر إرنو أنها مخلصه لكتابة حياة الناس العاديين البسيطين، وأنها لا تحفل كثيراً بالزخارف الفنية، بل تصرّ على نقل ما عاشته وما يعيشه العامة بتفاصيله الدقيقة كي يتمكنوا من فهم ما تقول. والواقع أن إرنو بدأت في المرحلة الأولى من كتابتها الروائية، أي في الروايات الثلاث الأولى («الخزائن الفارغة» 1974 و«ما يقولونه أو لا شيء» 1977 و«المرأة القوية» 1981)، بالكتابة الأدبية المعهودة، وسأيرت فيها الأسلوب الأدبي التقليدي، وغالباً ما استخدمت فيها الجمل الاسمية المتداولة في الأوساط الشعبية، واستعانت أحياناً بالعامية. لكنها ما لبثت أن اعتمدت الكتابة القائمة على البساطة والمباشرة والتوثيق التي بدأتها في روايتها الرابعة «المكان» 1983 وحافظت عليها واشتهرت بها طوال رحلتها الكتابية.

وفي نقلتها هذه تتخلى عن الخيال والأدوات التعبيرية التخيلية، وعن الاستعارات والانزياحات الأدبية، وتتمسك أكثر بالقول المجرد وبالواقع المعيش. وتأتي كتابتها هنا أكثر برودة وأقل تدفقاً وحيوية فنية، ولهذا وصفها بعضهم بـ «الكتابة البيضاء». وقد وصفت تحولها الكتابي هذا قائلة: «كيف نصل إلى الحقيقة؟ هذا هو السؤال الحاسم الذي كان نصب عيني وأنا أكتب رواية المكان... بدا لي أن الكتابة المناسبة للحديث عن والدي ومسيرته الحياتية لا تكون إلا باستبعاد الخيال واعتماد ما سمعته فيما بعد الكتابة السيرية الذاتية الاجتماعية لأنني غالباً ما استند إلى علاقة الذات بالواقع الاجتماعي التاريخي». ويتضح موقفها هذا عندما تعلن في كتابها «الكتابة كالسكين» 2011 (وهو مقابلة مطولة مع فريدريك-إيف جانيه) أن الكتابة التي تراها حقيقية هي تلك الموضوعية المحايدة البعيدة عن التأثيرات التزيينية والجمالية التي يرغبها القارئ المثقف، رغم وجود هذا النوع في نصوصها الأولى. ويرأيها أن مهمتها هي الكتابة بأشكال تشبه الأشياء، وعليها خلخلة النظام الأدبي ليصبح متناسباً مع النظام الاجتماعي، ولا بد من النزول إلى حياة الناس العامة والحديث عن تفاصيلها الدقيقة التي قد لا يعيرها الأدب الرسمي أهمية تذكر. ولهذا نجدها تستحضر إلى الأدب موضوعات قاسية مؤلمة ثقيلة وعنيفة أحياناً لاسيما ما يتعلق منها بالتمييز على أساس الجنس والطبقة، لكنها جميعاً مرتبطة بالحياة وظروفها وأوضاعها، وبلغت الفلاحين والعمال التي عرفت حتى دخولها الجامعة. وفي هذا الإطار تحدثت عن نفسها وأمورها الشخصية وسردتها بصيغة المتكلم لتؤكد صلتها بالذات الكاتبة. وفي هذا الكتاب يثير جانيه مسألة تلقي أعمال إرنو والجدل الدائر حولها فيما يخص عدم فهم أعمالها وردود الأفعال الراضة لها والتشهير بها الصادر عن بعض ممتهني القراءة. ويرى أنهم يتجاهلون استكشافها لأغوار الإنسان روحاً وجسداً. ومن هنا تتمتع كتابات أني إرنو بقوة تحدث عن الأمور الشخصية التي تسرد بصيغة المتكلم، وكذلك عن الأمور العامة المجتمعية. باختصار، وفي الوصف العام لكتابتها، قد لا يكون انحيازها نحو المحتوى الوجودي والحالة الاجتماعية للواقع، والفوارق الطبقة أقل حضوراً من انشغالها باقتصاد اللغة.

وأخيراً...

وأخيراً يمكن الخلوص إلى أن أني إرنو استمدت معظم شخصيات أعمالها من حياتها الشخصية وتجربتها الحياتية، أي من سيرتها الذاتية التي عرضتها أعمالها. وعبرت في سيرها الذاتية المتلاحقة عن قضايا المرأة بشفاافية مميزة، وبموضوعية حادة، وبإحساس رفيع المستوى. جمعت بين الحالة التاريخية للحقبة التي تتناولها وبين تجربتها أو تجارب أسرتها فدمجت بين المعطيات العامة والخاصة. استطاعت عبر مسيرة امتدت لحوالي خمسين عاماً نقل الواقع الاجتماعي والحياتي للطبقات الفقيرة، وركزت اهتمامها في الوضع الصعب والمتري للمرأة عموماً عبر عدة أجيال، واهتمت بصورة خاصة بتلك التي تعيش في الأوساط الشعبية الفقيرة. تحدثت عن علاقاتها العاطفية والجنسية الخاصة وعن الحب والرغبة والإجهاض. وصورت بالمقابل ما يتميز به الرجل ولا تتأله المرأة وفق القوانين الاجتماعية الذكورية السائدة. □

مراجع التعريف:

أفاد التعريف المقدم بـ أني إرنو من مجموعة من الدراسات والمقالات حول الكاتبة نذكر أبرزها:

Jean Pierrot. « Annie Ernaux et l'écriture plate », in *Écritures Blanches*, sous la direction de Dominique Rabaté et Dominique Viart. Presses Universitaires de Saint-Étienne, 2009.

Isabelle Charpentier. « Annie Ernaux ou l'art littérairement distinctif du paradoxe », *Revue des Sciences Humaines*, n° 299 : « Le roman parle du monde – Lectures sociocritiques & sociologiques du roman contemporain », coordonné par Émilie Brière, Mélanie Lamarre & Dominique Viart, octobre 2010.

Isabelle Charpentier. « 'Quelque part entre la littérature, la sociologie & l'histoire' – L'œuvre autosociobiographique d'Annie Ernaux ou les incertitudes d'une posture improbable », *Contextes – Revue de sociologie de la littérature*, n° 1 : « Discours en contexte – Théorie des champs & analyse du discours », université de Liège, septembre 2006 en ligne.

Isabelle Charpentier. Notice « Annie Ernaux », in Sapiro (Gisèle) [dir.], *Dictionnaire international Pierre Bourdieu*, Paris, CNRS Éditions, 2017.

Isabelle Charpentier. « Produire 'une littérature d'effraction' pour 'faire exploser le refoulé social' – Projet littéraire, effraction sociale & engagement politique dans l'œuvre auto-sociobiographique d'Annie Ernaux », in Collomb (Michel) [dir.], *L'Empreinte du social dans le roman depuis 1980*, Montpellier, Publications de l'université Paul-Valéry – Montpellier III, 2005.

Maryline Heck. La « politique de la littérature » chez Annie Ernaux : le cas des ethnotextes, dans *Littérature*, N° 206, 2022.

Florence de Chalonge. L'écriture romanesque d'Annie Ernaux. Dans *Littérature*, N° 206, 2022.

يضاف إلى ذلك العديد من المواقع الإلكترونية التي اهتمت بإعلان الجائزة العالمية وبالكاتبة

نفسها.

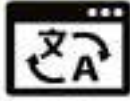


إصدارات عالمية في دراسات الترجمة

إعداد وتقديم: مديرة التحرير

LENGÜÍSTICA Y TRADUCCIÓ

EDUARD BARTOLL
INTRODUCCIÓN
A LA TRADUCCIÓN
AUDIOVISUAL



Edicions 62



مقدمة في الترجمة السمعية

المؤلف: إدوراد بارتول

تاريخ النشر: 01/12/2015

دار النشر: L.S, UOC

يشرح الكتاب المفاهيم الأساسية المتعلقة بالترجمة السمعية ويستعرض أساليبها الرئيسية، كما يقدم فصولاً محددة للدلجة والترجمة والوصف الصوتي والتعليقات الصوتية.

إضافة إلى تقديمه فصلاً مثيراً للاهتمام حول تاريخ الترجمة السمعية البصرية. إنه كتاب مناسب لكل راغب في دخول هذا التخصص وللمهنيين ذوي الخبرة المهتمين بتحديث معارفهم. ويمكن استخدام هذا الكتاب بوصفه مرجعاً تعليمياً في هذا التخصص.

كيف ترتزق من مهنة الترجمة

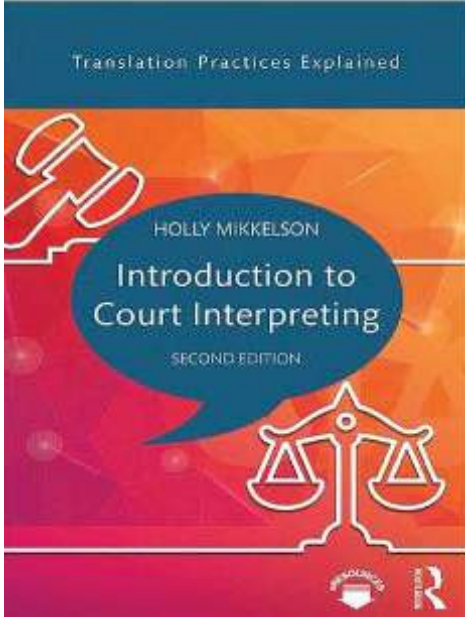
المؤلف: راث كاميز و فرناندو كواندو

تاريخ النشر: 22/09/2021

دار النشر: نادي المترجمين الكبار

يتناول الكتاب تجربة ماريا الفتاة التي أرادت فهم كل ما يقوله الآخرون ورغبت بالتعرف على البلدان والثقافات المختلفة. فبدأت بدراسة اللغات مبكراً وكرست حياتها لهذا المجال على الرغم من إحباط جميع من حولها لها لأن دراسة اللغة في منطقتهم لا تفيد إلا في مجال التدريس ولن تفيدها

في غير ذلك ولن يمكنها العيش وكسب المال من العمل في الترجمة، لكنها لم تأبه لكلامهم واستمرت في طريقها. إنه كتاب دليل لدخول سوق العمل بدراية.



مقدمة في الترجمة الشفهية في المحكمة

المؤلف : هولي مايكولسن

تاريخ النشر: 09/12/2016

دار النشر: روتليدج

يقدم هذا الكتاب، مقدمة في الترجمة الشفهية في المحكمة، دراسة شاملة قابلة للتطبيق في جميع أنحاء العالم. بدءاً من تاريخ المهنة وتغطية الموضوعات الرئيسية، ودور المترجم الفوري في السياق القانوني إلى المبادئ الأخلاقية، وأساليب الترجمة. □

تنشر **جسور ثقافية**، في هذا العدد، الذي خصصت باب الثقافة فيه لقضايا البيئة، الباب الأول من قانون البيئة الوطني الذي يتضمن المسائل الأساسية المعنية بقضايا البيئة وكيفية حمايتها وآليات ذلك لرفع الوعي البيئي لدى المواطن منطلقاً من أن معرفة القانون أداة فاعلة في تحقيق الهدف المنشود.

القانون 12 لعام 2012

قانون وزارة الدولة لشؤون البيئة

رئيس الجمهورية
بناءً على أحكام الدستور
يصدر ما يلي:

الباب الأول

الفصل الأول

(تعريف)

المادة (1):

يقصد بالتعابير الآتية في معرض تطبيق أحكام هذا القانون المعنى المبين جانب كل منها...

المجلس: المجلس الأعلى لحماية البيئة

الوزارة: وزارة الدولة لشؤون البيئة

الوزير: وزير الدولة لشؤون البيئة

الجهة المختصة: الجهة التي لها علاقة ببعض أحكام هذا القانون من خارج الوزارة.

مديرية البيئة: المديرية المسؤولة عن متابعة شؤون البيئة في المحافظة.

البيئة: المحيط الذي تعيش فيه الأحياء من إنسان وحيوان ونبات ويشمل الماء والهواء والأرض وما

تحويه من مواد وما يؤثر على ذلك المحيط.

عناصر البيئة: الماء والهواء والأرض وما تشتمل عليه ويعيش في داخلها ومحيطها.

تلوث البيئة: كل تغيير كمي أو كيميائي أو نوعي بفعل الملوثات في الصفات الفيزيائية أو الكيميائية أو

الحيوية لعنصر أو أكثر من عناصر البيئة ينتج عنه أضرار تهدد صحة الإنسان وحياته وصحة الكائنات

الحيية والنباتات وحياتها وصحة وسلامة الموارد الطبيعية.

حماية البيئة: هي مجموعة النظم والإجراءات والوسائل التي تكفل استمرار توازن البيئة واستقرارها

وتكاملها الإنمائي وتحافظ على بيئة سليمة صحية صالحة للاستمتاع بالحياة والاستفادة من الموارد

الطبيعية وعدم تدهورها.

تقويم الأثر البيئي: هو البحث في الأثر البيئي لمشروع أو نشاط محدد وتقويمه على ضوء الأسس والإجراءات المعتمدة.

التممية البيئية: هي إحدى ركائز التنمية المستدامة والتي تكفل الحفاظ على عناصر البيئة وتمييزها والاستفادة منها بشكل دائم دون تعريضها للتدهور أو الإخلال بالتوازن بينها.

التدهور البيئي: هو التغيرات الطارئة على عناصر البيئة والنظم البيئية الناتجة عن النشاطات البشرية أو التغيرات المناخية بما يقلل من قيمتها أو يشوه من طبيعتها البيئية.

المادة الخطرة: أي مادة تتصف بأحدى صفات الخطورة وتسبب أذى محتملاً لعناصر البيئة بسبب خصائصها الكيميائية أو الفيزيائية أو الإشعاعية أو الحيوية.

المادة الضارة: أي مادة بسيطة أو مركبة أو مخلوطة أو نفايات سواء كانت طبيعية أو مصنعة تشكل ضرراً على البيئة أو على أي من عناصرها.

المادة المقيدة: أي مادة تحظر استعمالها كافة باستثناء استخداماتها في مجالات محددة مسموح بها.

الفصل الثاني

(أهداف القانون)

المادة (2) :

يهدف هذا القانون إلى إرساء القواعد الأساسية لسلامة البيئة وحمايتها من التلوث وتحقيق التنمية البيئية وتحديد المهام المنوطة بالوزارة وكذلك المهام التي تقوم بها بالتعاون مع الجهات المختصة لمتابعة تنفيذ أحكامه وأحكام القوانين والأنظمة المتعلقة بالشؤون البيئية بما يحقق هذه الأهداف.

الفصل الثالث

(مهام الوزارة)

المادة (3) :

في سبيل تحقيق ما يهدف إليه هذا القانون ومع مراعاة النصوص والأحكام النافذة ذات العلاقة بالمحافظة على سلامة البيئة ومواردها تتولى الوزارة المهام الآتية:

- 1- وضع الرؤية والسياسة العامة لحماية البيئة ضمن إطار السياسة العامة للدولة وإعداد الاستراتيجية الوطنية اللازمة لذلك وتطويرها ووضع الخطط والبرامج لتنفيذها ومتابعتها بالتعاون والتنسيق مع الجهات المختصة.
- 2- إعداد التشريعات والأنظمة والدراسات الكفيلة بالحفاظ على البيئة بمختلف عناصرها ومنهجية حمايتها والتوجه نحو الاقتصاد الأخضر بالتعاون والتنسيق مع الجهات المختصة.
- 3- حصر المشكلات البيئية القائمة واجراء او المشاركة في البحوث والدراسات العلمية اللازمة لمعالجتها والحد من التدهور البيئي الحاصل والسعي للحد من ظهور اي مشكلات بيئية اخرى تهدد بضرر محتمل يلحق بالبيئة مستفيدة من الدراسات المحلية والدولية ذات الصلة.

4- مراقبة عناصر البيئة من خلال مختبراتها والمختبرات التي يوافق على اعتمادها المجلس وفق الأسس التي تحددها لجنة مختصة تضم الوزارات المعنية واجراء تقييم دوري لوضع ومنحى التلوث في عناصر البيئة.

5- وضع الأسس والإجراءات اللازمة لتقويم الاثر البيئي بالتعاون والتنسيق مع الجهات المختصة للنشاطات التنموية الجديدة بما فيها مشاريع البنى التحتية وأي منشأة صناعية أو زراعية او خدمية يترتب على عملها تهديد للبيئة بسبب حجمها أو طبيعتها أو بسبب اصدارها ملوثات الى عناصر البيئة ويشمل ذلك المنشآت المراد اقامتها ضمن المدن والمناطق الصناعية والمناطق الحرة ويصدر الوزير لائحة بالمشاريع والنشاطات التي تخضع لهذا التقويم يتم اعدادها بالتعاون مع الجهات المختصة ويعتبر اعتماد دراسة تقويم الأثر البيئي من قبل الجهة المعنية في الوزارة شرطاً للحصول على الترخيص الدائم أو المؤقت لهذه المشاريع إلا إذا تم استثناء بعضها لضرورات قصوى من قبل المجلس على أن تلتزم الجهة المستتناة بالتعويض عن الضرر الناجم عن عملها حال حدوثه والذي يحدده المجلس باقتراح من الوزير.

6- إجراء التقويم البيئي الاستراتيجي لخطط وسياسات وبرامج عمل الوزارات.

7- وضع الأنظمة والشروط البيئية للمنشآت الصناعية والنشاطات الأخرى التي لها تأثير ضار على البيئة أو التي تؤدي إلى الإخلال بتوازنها وذلك بالتعاون مع الجهات المختصة.

8- تحديد المنشآت التي يقتضي وجود إدارة بيئية ذاتية ضمنها ووضع أسس عمل هذه الإدارة.

9- إعداد المواصفات والمعايير القياسية التي يجب توفرها في كل من عناصر البيئة حسب استعمالاتها في ضوء التقدم التكنولوجي وتطور المعايير المتعارف عليها دولياً بالتعاون مع الجهات المختصة تمهيداً لاعتمادها واعتبار كل تجاوز لهذه المواصفات والمعايير تلوثاً.

10- تحديد معايير ومؤشرات الحد الأعلى المسموح به بيئياً للضجيج بمختلف مصادره بالتعاون مع الجهات المختصة.

11- تحديد المواد الضارة أو الخطرة على البيئة ووضع أسس تصنيفها وتخزينها وتداولها ونقلها وإتلافها والتخلص منها وتحديد ما يمنع إدخاله منها إلى الجمهورية العربية السورية وفقاً للاتفاقيات البيئية الدولية وذلك بالمشاركة مع الجهات المختصة.

12- إعداد خطط الطوارئ البيئية ومتابعة تطويرها وتنفيذها وذلك بالتعاون مع الجهات المختصة.

13- مراقبة إجراءات معالجة التلوث في الوسط البيئي ومتابعتها بما يكفل عدم انتقال هذا التلوث أو اتساعه.

14- الرقابة والتفتيش على النشاطات ذات التأثير البيئي لدى الجهات العامة والخاصة للتحقق من مدى تقيدها بالمواصفات البيئية القياسية والمعايير المعتمدة واتخاذ الإجراءات اللازمة بالنسبة للنشاطات المخالفة العائدة للقطاع الخاص والاقتراح على المجلس الاجراءات اللازمة بالنسبة للنشاطات العائدة للقطاع العام والمشارك لتلافي المخالفات إن وجدت.

15- إعداد وتطوير الأدلة والاشتراطات والتعليمات اللازمة لتصنيف وإدارة النفايات الصناعية والخطرة والطبية المشار إليها بمضمون الفصول الثالث والرابع والخامس من قانون النظافة رقم 49 لعام 2004 بالمشاركة مع وزارة الادارة المحلية ووزارة الصحة والجهات المختصة والتعاون مع تلك الجهات في متابعة تنفيذ الأحكام الواردة في تلك الفصول.

16- وضع أسس إنشاء المتزهات الوطنية والحدائق والشوارع البيئية وشروطها ووضع أسس إنشاء المحميات الطبيعية بأنواعها وفقاً للمعايير الدولية ومراقبتها وفقاً لمعطياتها وخصائصها بالمشاركة مع وزارة الزراعة والاصلاح الزراعي والجهات المختصة.

17- وضع المعايير البيئية لحماية مكونات التنوع الحيوي النباتية والحيوانية سواء كانت مائية او برية.

18- وضع السياسات العامة لحماية مكونات التنوع الحيوي النباتية والحيوانية بالمشاركة مع الجهات المختصة ومتابعة تنفيذ استراتيجية وخطة العمل الوطنية لحماية التنوع الحيوي.

19- العمل على إنشاء شبكات الرصد البيئي وتشغيلها ومتابعتها.

20- إعداد بنك المعلومات البيئي وتنظيمه ومتابعة تطويره.

21- إعداد خارطة التلوث البيئي لكل محافظة ومتابعة تطوراتها.

22- دعم الجمعيات ومنظمات المجتمع الأهلي العاملة في مجال حماية البيئة بهدف تفعيل وتسهيل نشاطاتها.

23- تكليف باحثين من الوزارة أو من خارجها للقيام بالبحوث والدراسات العلمية البيئية وفقاً لأحكام القوانين والأنظمة النافذة.

24- تنمية الوعي العام البيئي بمختلف الوسائل الإعلامية ونشر ما يمكن نشره من نتائج الأبحاث العلمية بهدف الحفاظ على صحة البيئة وسلامة مواردها والتوجيه باستعمال التقانات الخاصة والطاقات والمواد البديلة ومتابعة تشجيع الوقاية من التلوث والتقليل منه ومراقبته والسعي لإدخال برامج تربية بيئية في المناهج الدراسية واختصاصات بيئية جديدة في مراحل التعليم العالي.

المادة (4) :

تقوم الوزارة بالتعاون والتنسيق مع الجهات المختصة بتنفيذ المهام التالية:

1- وضع المعايير والاشتراطات البيئية لاستخدام تقانات الطاقات المتجددة والبديلة والإنتاج الأنظف والمشاركة في إعداد استراتيجيات وبحوث الشبكات الوطنية لتلك التقانات.

2- وضع أسس ومعايير التخطيط البيئي المتكامل لاستعمالات الأراضي.

3- المشاركة في البحوث العلمية البيئية والدراسات المتعلقة بالأنشطة التي تقع في أراضي الدولة ومياهاها الداخلية والبحرية والحيز الجوي الذي يقع فوقها وعلى المنشآت والمواد الخطرة المضرة بسلامة البيئة واقتراح التوصيات والإجراءات اللازمة لإزالة الخطر.

4- المشاركة مع المنظمات الإقليمية والدولية في البحوث والمؤتمرات والندوات والاجتماعات المتعلقة

بالشؤون البيئية ومتابعة تنفيذ المقترحات والتوصيات بالتعاون مع الجهات المختصة وبالتنسيق مع وزارة الخارجية والمغتربين.

5- تدعيم العلاقات مع الدول والهيئات والمنظمات الدولية والإقليمية في الأمور والشؤون والاتفاقيات والمعاهدات المتعلقة بمهام الوزارة ووضع الأنظمة المنصوص عليها في تلك المعاهدات والاتفاقيات وذلك بالتعاون مع وزارة الخارجية والمغتربين وهيئة التخطيط والتعاون الدولي.

6- المشاركة في حماية الساحل والبيئة البحرية من التلوث.

7- دراسة أسباب انجراف التربة والتصحر وكل ما يؤدي الى تلوث الارض وجوفها ومواردها الطبيعية واقتراح الحلول المناسبة لها.

8- وضع دراسات للنشاطات البشرية المؤثرة سلباً على مكونات التنوع الحيوي الصيد، التجارة الوطنية والدولية، إدخال الأنواع الحية الغريبة والكائنات المعدلة وراثياً وغيرها والمشاركة في مراقبة هذه النشاطات وتنظيمها لضمان نتائجها في استدامة تلك المكونات ووقف هذه النشاطات عند اللزوم.

9- وضع دراسات لتطوير وتنظيم النشاطات البشرية التي تشكل مصادر دخل بديلة للمجتمعات المحلية التي تتعامل مباشرة مع مكونات التنوع الحيوي كالسياحة البيئية ومشاريع التنمية الريفية وغيرها.

10- المشاركة مع وزارة الادارة المحلية في تطوير طرق معالجة النفايات البلدية الصلبة واستثمارها والتخلص منها وتقديم الراي الفني من خلال مراجعة دراسات تقييم الاثر البيئي لمواقع معالجة تلك النفايات.

11- اتخاذ الاجراءات اللازمة لمنع ادخال أي نفايات إلى الجمهورية العربية السورية أو طمرها فيها.

المادة (5) :

1- يتولى الوزير بالإضافة إلى الاختصاصات الممنوحة له بموجب هذا القانون والقوانين والأنظمة النافذة المهام التالية:

أ- عرض الرؤية والسياسة العامة والخطط المتعلقة بحماية البيئة والتنمية البيئية وتعديلاتها على المجلس.

ب- تقديم تقرير سنوي عن الوضع البيئي في الجمهورية العربية السورية إلى المجلس.

ج- إعداد ما يخص الوزارة من الأنظمة والتعليمات واللوائح التنفيذية اللازمة وفق أحكام هذا القانون وعرضها على المجلس لإقرارها.

2- يحق للوزير:

أ- تشكيل لجنة فنية استشارية غير متفرغة من ذوي الخبرة تمثل الجهات العامة والخاصة المهتمة بشؤون البيئة.

ب- تشكيل لجان بيئية نوعية بالاتفاق مع الجهات المختصة وتحديد مهامها.

ج- إبرام العقود المتعلقة بأعمال القياسات البيئية للغير والتي تتجاوز قيمتها الخمسمئة ألف ليرة سورية وتوريد هذه القيم إلى الخزينة العامة للدولة.

المادة (6) :

يعاون الوزير في عمله:

- 1- ثلاثة معاونين يؤازرون الوزير في جميع أعمال الوزارة ويكونون مسؤولين أمامه عن سير الأعمال في الأمور الإدارية والفنية والمالية والقانونية والتنظيمية العائدة للوزارة ويتم تعيينهم وتوزيع المهام والاختصاصات بينهم ويمارسون صلاحياتهم وفق أحكام القوانين النافذة.
- 2- جهاز فني وإداري ومالي تحدد هيكلته وشروط شغل وظائفه في النظام الداخلي للوزارة.

الفصل الرابع

(موارد الوزارة)

المادة (7) :

تتكون الموارد المالية للوزارة مما يلي:

- 1- الاعتمادات التي ترصد لها في الموازنة العامة للدولة.
- 2- أموال صندوق دعم وحماية البيئة.
- 3- أي موارد أخرى تسمح بها القوانين والأنظمة النافذة بالتنسيق مع وزارة المالية. □



Mandy Martin Coober Pedy at dusk (no.10)